

# تاريخ آداب العرب

تأليف

مصطفى صادق الرافعي

الجزء الثالث

جميع الحقوق محفوظة لورثة المؤلف

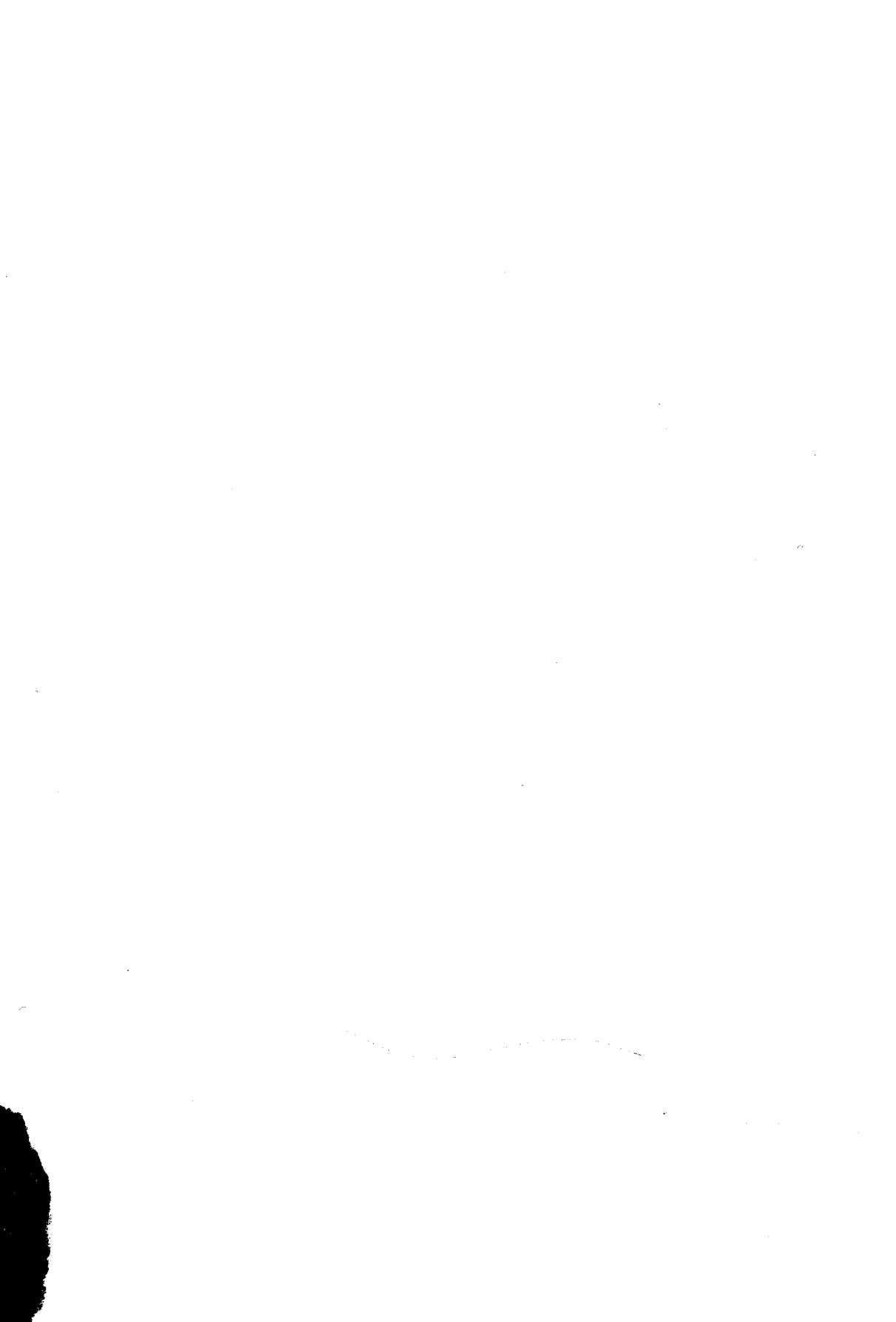
١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م

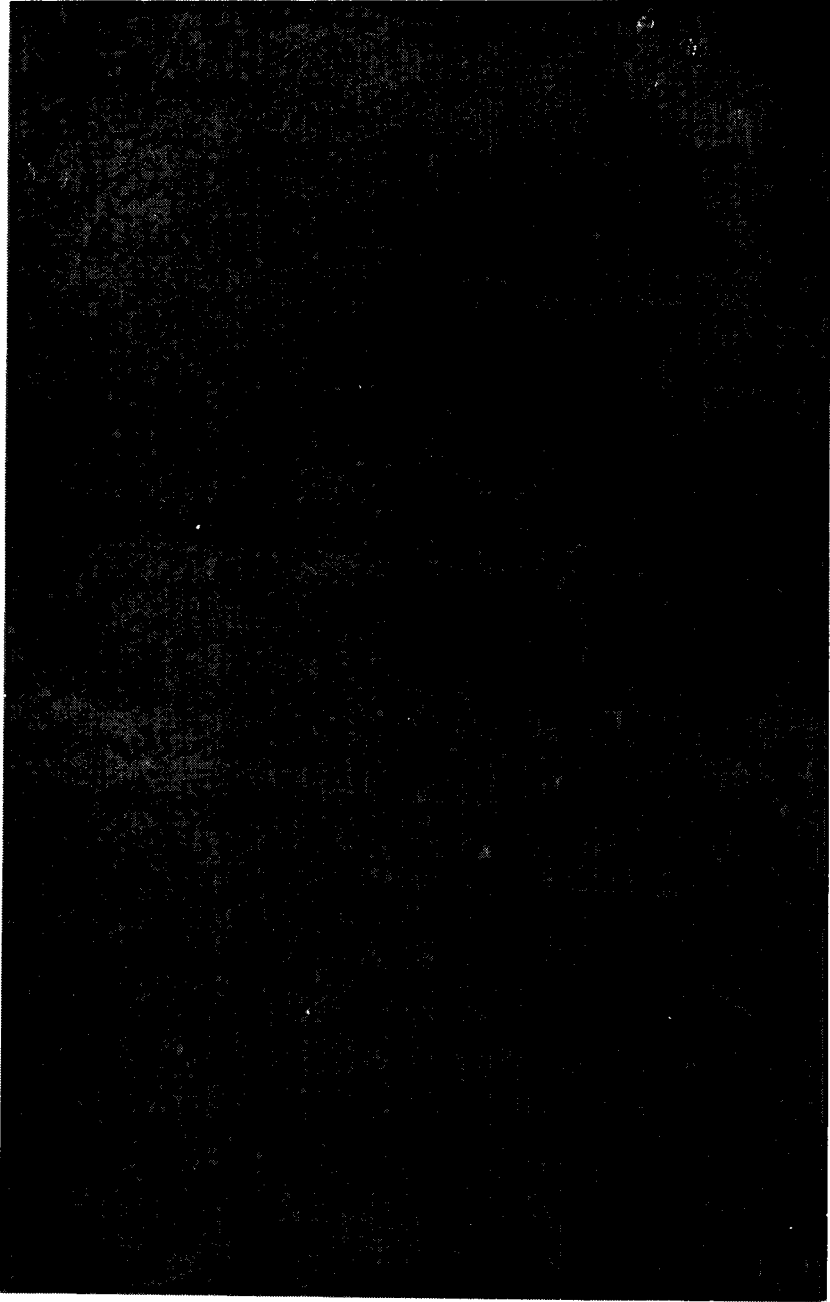
دار الكتاب العربي

الرملة البيضاء - ملكارت ستر - الطابق الرابع تلفون: ٨٠٥٤٧٨/٨٠٠٨١١/٨٠٠٨٣٣

تلکس: ٤٠١٣٩ L.E. كتاب برقيا: الكتاب ص.ب: ٥٧٦٩ - ١١ بيروت - لبنان

تاريخ آداب العرب  
الجزء الثالث





صفحة من الكتاب بخط المؤلف . انظر «خشونة الشعر الجاهلي»



## مَقَدِّمَةُ الطَّبَعَةِ الْأُولَى

بِقَلَمِ مُحَمَّدٍ سَعِيدِ الْعِرْبَايُوتِيِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قلت عن طريقة الرافعي في الكتابة ما وسعني أن أعرفه بنفسه حين كنت أكتب له ، فقد أملى عليّ أكثر من مائة مقالة كنتُ شاهدهُ فيها إذ يُلقى الوحي ، ويهذب الفكرة ، ويرتب المعاني ، ويتألف الألفاظ ، حتى تفصل عنه المقالة إلى نفس قارئها كما هي في نفسه (١) .

وأحسب أن طريقته العامة في كل ما كتب من المقالات هي ما وصفت عن عيان وملاحظة ، ولكن لم يتها إلى أن أشهده حين يؤلف في موضوع من موضوعات العلم ، مما يقوم على التتبع ، والاستقراء ، وتقليب الصحائف ، وبعث الدفائن ، والارتفاق إلى الكتب ، والاستعانة بما انتهى إليه السابقون من حقائق العلم ونتائج البحث والروية ، ثم التهدي من ذلك إلى رأي ينتهي بمقدماته إلى نتيجة .

وأنا قد قرأت الجزء الأول من كتاب تاريخ آداب العرب منذ بضع عشرة سنة ، وألمت منه بما ألمت ، واهتديت به ما اهتديت ؛ ثم عدت إلى

---

(١) حياة الرافعي ص ١٨٠ - ١٨٦ .

نفسى أسائلها : أين ومتى اجتمع لمؤلفه هذا القدرُ من المعارف في شئون العرب والعربية فألّف بين أشناتها في هذا الكتاب ؟ .

وظل هذا السؤال قائماً في نفسى زمناً وما أزال من مطالعاتي في الأدب القديم أقع على شيء بعد شيء في صفحات متفرّقة من كتب عدة يُنسى آخرها أو لها من تباعد الزمان بينها ، وكلّها مما اجتمع للرافعي في كتابه . وكان ذلك يزيدني عجباً وحيرة ... وهممت أن أسأل الرافعي مرة ، ولكنني لم أفعل ؛ وهممت أن أعرف بنفسى فلم أبلغ ؛ ثم عزوت ذلك الى ذاكرة الرافعي وسرعة حفظه ؛ وقلت : متفرقاتٌ قد عرفها في سنين متباعدة فوعتها حافظته ، فلما همّ أن يؤلف كتابه أمدّته الذاكرة بما وعت منها ، وكان مستحيلاً عليه أن يجمعها لو لم تجتمع له من ذات نفسها ، واطمأننت الى هذا الاستنتاج ونسبتُ إليه عدم ذكر الرافعي للمراجع التي استعان بها في ذلك الكتاب ؛ لأنه يروي عن ذاكرته ! ثم قرأت له بحثه في ( الرواية والرواية ) ؛ فإذا هو يتحدث عن أثر الحفظ في مؤلفات العلماء ، وينادي بإحياء هذه السنّة ، سنّة حفظ العلم واستظهار كتبه (١) ؛ فتأكد لي ما رأيت ، وكان وهماً من الوهم عرفت حقيقته فيما بعد ...

\* \* \*

يعرف قراء العربية أن كل كتب المراجع في لفتنا ليس لها فهارس تعين الباحث على التماس ما يريده منها في أقصر وقت ، إلا بضع كتب من المطبوعات الحديثة ؛ فالأعاني ، والعقد الفريد ، والكامل ، والعمدة ، والخزانة ، والحيوان ، والبيان والتبيين ، وكتب الطبقات ، وحتى كتب الفهارس والتراجم ، ليس لها فهارس يمكن الاعتماد عليها عند البحث ؛ فمن أصاب منها غرضاً فعن طريق المصادفة والاتفاق ، أو بعد المطاولة وضياع الزمن ؛ وحسي أن أذكر أنني ذات مرة أنفقت ليلة كاملة في البحث عن كلمة في البيان والتبيين ثم لم أعثر بها فطويته على سأم وملالة ؛ فلما كنت بعد أيام وقد فات عليّ الغرض

---

(١) تاريخ آداب العرب : ج ١ ص ٣١٠ - ٣١١ .



الذي كنت أقصد فتحت الكتاب عرضاً ، فإذا الكلمة التي كنت أريدها  
أمامي . . .

هذه الحقيقة يعرفها كل من عانى مشقة البحث في هذه الكتب ، فهي كتب  
 للقراءة المجردة لا للبحث والتنقيب العلمي . عرف الراقعي ذلك فاتخذ له  
طريقاً ...

فكان أول ما يصنع أن ينتخب كل الكتب التي يعنيه أمرها فيما يهد له  
من البحث فيقرأها كلها قراءة درس ؛ أعني ينفذها نفصاً بحيث لا يفوته منها  
معنى يتصل بموضوعه . ثم يشرع بعد ذلك في العمل ، فيكتب لكل كتاب  
بما قرأ ملخصاً يضم الجملدات الكثيرة في كراسة أو كراسات يرجو أن تغنيه  
عن أصولها المطولة . ثم يعود الى هذه الملخصات فيرتب أجزاءها ترتيباً يضم  
القريب الى القريب بحيث يجد طلبته عند النظرة الأولى من غير أن يتعب في  
تقليب الأوراق . ثم تكون الخطوة الرابعة ، فيزاوج بين ملخصات الكتب  
المختلفة بضم الأشباه منها الى الأشباه . ثم يكتب ...

ثم يعود الى ذلك المكتوب فيقرؤه قراءة الباحث : يزاوج بين رأي  
ورأي ليخرج منها الى رأي ثالث .. وتجتمع له من ذلك المقدمات التي  
تبلغ به النتيجة ...

ثم تأتي المرحلة الأخيرة ، وهي التهذيب والصلل الفني ، من صناعة البيان  
وتحكيك الألفاظ وتجميل المعاني وتزيين الأسلوب .

سبع مراحل بين البدء والنهاية .. ثم يخرج الكتاب لقارئه ليسائل نفسه  
في عجب : أين ومتى اجتمع لمؤلفه ذلك القدر من المعارف في شئون العرب  
والعربية فألف بين أشاتها في هذا الكتاب ؟

سؤالٌ كنت أسأله نفسي قبل أن أرى وأعرف وأضع يدي على تلك  
الأوراق التي خلفها في درج مكتبه لأؤلف من أشاتها هذا الكتاب .

قلت : كانت المرحلة الأولى في مؤلفات الراقعي العملية أن يختار طائفة  
من الكتب يرجو أن تعينه على البحث ... وأقول إن أول ما كان يختار من

ذلك ، كتب التراجم . وطريقته في التحصيل من هذه الكتب ، أن يقرأ الكتاب ما بين دفتيه ، ثم يكتب له ملخصاً يشمل أسماء أهل الفنون الأدبية وامتياز كل منهم ، مثل الشعراء ، والخطباء ، والكتاب ، والرواة ؛ ثم أسماء الكتب ، وموضوعها ، وفنون العلم ، ومعارضات العلماء بعضهم لبعض ؛ ثم الطرائف الأدبية التي تشير الى معنى يتصل بشيء من موضوعه . وفي كتب التراجم من هذه الطرائف ما ليس في كتاب .

وأستطيع أن أقول جازماً : إن الرافعي اعتمد على كتب الطبقات والتراجم في الجمع لهذا الكتاب أكثر مما اعتمد على الكتب الخالصة للأدب ، وكان اتجاهه الى ذلك سبباً في توفيقه الى ما لم يوفق إليه غيره في موضوعه .

\* \* \*

قدمت في الجزء الأول من هذا الكتاب ذكر السبب الذي حفز الرافعي للتأليف في تاريخ آداب العرب ، قلت : إنه انقطع لذلك في منتصف سنة ١٩٠٩ ثم أخرج الجزئين الأول والثاني في سنتي ١٩١١ و ١٩١٢ ولم يظهر له بعد ذلك شيء حتى وافاه أجله !

وكنت سمعت منه رحمه الله أنه أتم الجزء الثالث ورأيت موضعه من خزانة كتبه ، ولكني لم أقرأ منه شيئاً ولم أعرف موضوع بحثه ، ثم قرأت على غلاف بعض مؤلفاته المطبوعة إعلاناً عن الجزء الثالث وموضوعه « تاريخ الخطابة والأمثال والشعر » فأيقنت أنه كتاب تام التأليف والتصنيف .

فلما كان الشتاء الماضي وافقت « المكتبة التجارية » على نشر مكتبة الرافعي ، ذكرت فيما ذكرت هذا الكتاب وعرضت أمره ؛ فرغبت المكتبة في نشره وولكت إلي أن أقوم بترتيب موادها وتنظيم أبوابه وتحقيق أصوله وإعداده للطبع ، وضربت لذلك أجلاً قريباً ، فرضيت ؛ كل ذلك ولم أقرأ الكتاب ، ولم أستيقن موضوعه ، ولم أطلع عليه ، وكل مبلغني من العلم به أنني أعرف موضعه من خزانة كتب مؤلفه ...

وأخذت أهبطي للعمل، وزرت المكتبة التي خلفها صاحبها أوراقاً مراكومة وكتباً تستند إلى الجدران؛ وبحث عن الكتاب حتى عثرت به، وكشفت عنه، فعرفت ...

هذا كتاب مطبوع بين يدي قارئه، لا يكاد يخطر بباله حين راه أن يسأل نفسه: ما كان هذا الكتاب وماذا صار؟ ولكني محدثه بخبره، لعله - إن عرف - يجد لي عذراً بما قد يراه فيه موضعاً للمتب أو المؤاخذة:

لقد كنت مخطئاً حين حسبت في أول أمري أني سأجد حين أجد كتاباً تام التاليف والتصنيف، ليس عليّ منه إلا أن أهينه للطبع ثم أصحح تجاربه في المطبعة؛ فإني ما كدت أحلّ الرباط عن الأضابير التي تضخمه حتى وجدت أوراقاً بالية حائلة اللون من تقادم السنين، وقصاصات مبعثرة على غير نظام لا يكاد يُعرّف أين مكانها من موضوعات البحث ...

... ثم جهدت أن أعرف موضوعات الكتاب، ونهجه، وتبويبه؛ فلم أهدر إلى شيء، ولم أجد بين يديّ إلا ورقات قد اجتمعت على غير ترتيب ولا نظام، في كل صفحة منها حديث عن موضوع، ليس لها بما قبلها ولا بما بعدها سبب ...

... وحاولت أن أقرأ صحيفةً بما بين يديّ، فأعيايت ذلك إعياًءاً أباسني من الاستمرار.. فإن خط الرافعي كما قلت في بعض ما كتبتُ عنه: هو أردأ خط قرأت في العربية؛ حتى لقد كان يعيا هو نفسه أحياناً عن قراءة بعض ما يكتبه بخطه بعد مضيّ ساعات ...!

... وحملتُ على نفسي ما حملت، ومضيت في القراءة متكهماً ما لا قبل لي به؛ فإذا الحديث ينقطع بعد أسطر، وإذا هو يحيل على مراجع مختلفة يريد أن ينقل منها نصّاً، أو خبراً، أو رأياً، ومنها ما لا أملك ولا يتيسر لي، وقد يذكر رقم الصفحة المنقول عنها وقد لا يذكره، وحيناً يذكر رقم الصفحة ويُغفل اسم الكتاب ... وأحياناً كثيرة يقول: «ص كذا كتاب كذا إلى العلامة»، وهو يعني علامة وضعها على الصفحة المشار إليها في نسخته

الخاصة . وأين مني نسخته الخاصة وبينى وبينها من الزمان ربع قرن أو يزيد  
وبينى وبين كتبه ما بين القاهرة وطنطا ؟

تلك صعوبات لم أكن أتوقعها حين رضيت القيامَ على نشر هذا الجزء ،  
ولكنني لم أستطع أن أنكص . وحاولت أن ينسأ الناشرُ الأجلَ المضروب  
لتقديم الكتاب إلى المطبعة حتى أفرغ منه على وجه تطمئن إليه نفسي ؛  
ولكن ضرورات تجارية كانت تحدّد له مواعيده .. فطأطأت رأسي وقلت :  
ذلك على أيّ أحواله خيرٌ من إهمال الكتاب حتى يأتي عليه الزمن . وأخذت  
في طريقي ...

أما ترتيب الكتاب فقد استهديت فيه بما ذكر المؤلف عن نمط الكتاب  
وأبوابه في الجزء الأول (ص ٢٩ - ٣٠) ومقتضى هذا الترتيب أن يكون أول  
هذا الجزء - الباب الرابع في تاريخ الخطابة والأمثال ، ولكنني لم أجد فيما بين  
يديّ من المخطوط حديثاً عن هذا الباب ، إلا فهرس وُجزأت وأرقام  
صفحات في مراجع مختلفة ؛ فتركت هذا الباب إلى ما بعده ، وجعلت أول  
الكتاب الباب الخامس في تاريخ الشعر ومذاهبه وفنونه ؛ ثم رقت فصول  
هذا الباب على ما بدا لي ، وكذلك فعلت في البابين السادس والسابع ، ثم  
تجاوزت البابين الثامن والتاسع ، إذ كان شأنها شأن الباب الرابع ؛ ثم أثبت  
في الباب العاشر فصلين كنت أحسبهما مما يشملهما موضوعه ، ثم بان لي  
من بعدُ أنه أعدهما ليكونا تماماً للباب الخامس وموضوعه ( تاريخ الشعر العربي  
ومذاهبه ) كما ذكرت ، ولكنني كنت قد فرغت من طبع ما قبلها فلم أستطع  
تدارك ما فات . وكان شأن الباب الثاني عشر شأن الأبواب المغفلة مما سبق .

وقد عيّيت بقراءة خط المؤلف في كثير من المواضع مع وضوح القصد ،  
فالتزمت في مثل هذه الحال أن أثبت في موضع الكلمات المُشكّلة ما أراه  
أليق ؛ ووضعها من الكلام ، أو ما أراه أشبه بالرسم من كلمات المؤلف ،  
وجعلت ذلك بين العلامتين [ ] تمييزاً له ؛ وقد أعيا بالقراءة ثم لا يبين لي  
القصد ، فأثبت مكان ذلك علامة الحذف ..... على أن ذلك قليل .

وفي بعض فصول الكتاب كان لي تصرف يتم به المعنى أو يتسق التأليف ويتساق الكلام ؛ فنبهت الى مثل ذلك في هامش الكتاب عند موضعه ( انظر فصل الشاعرات وغيره ) وجعلت فرق ما بين التعليق الذي أكتبه والتعليق الذي يكون من عمل المؤلف أن يسبق التعليق الذي أكتبه علامة (\*) وكلمة ( قلت ) .

وإذا كان خط المؤلف على ما وصفت ، وعلى ما يدل النموذج المصور مع هذه المقدمة ، فإن أشق ما عانيت كان في قراءة الأعلام ؛ ولم تنهياً لي الفرصة لمراجعة كل هذه الأعلام وتصحيحها ؛ فصححت ما صححت منها وتركت سائرهما على ما هو ؛ إذ كان في التعجيل بنشر الكتاب حفظ له من الضياع وكان تحقيق الأعلام شيئاً يمكن استدراكه . على أنني أحسب أن المؤلف رحمه الله لم يكن قد فرغ من تأليف الكتاب والبلوغ به الى المرحلة الأخيرة من مراحلها في التأليف على ما وصفت في أول هذا البحث ؛ فنقل كثيراً من الأعلام كما هي في مراجعها ولم يفرغ من تحقيقها ، وكذلك جاءت في هذا المطبوع . فهذه معاذيري أقدمها لعلها تكون شفيحاً عند الناقد المتصفح .

ولا يفوتني وأنا أكتب هذه المقدمة ، أن أنوه بالمساعدة المشكورة التي أسداها إليّ ( أحمد ممدوح دسوقي أفندي ) المدرس بوزارة المعارف فقد قام بنسخ الكتاب عن أصله المكتوب بخط المؤلف ، وهو عناء فوق ما أصف ، احتمله راضياً لوجه العلم ووفاءً بحق الرافعي على أهل الأدب وتقديراً لأبائيه .

\* \* \*

ولا أختم هذا الحديث قبل أن أذكر ما وقفت عليه من تاريخ تأليف هذا الكتاب ، فقد كنت أحسب أن ذلك كان بعد سنة ١٩١٢ ، أي بعد الفراغ من إصدار الجزء الثاني ، ولكنني رأيت إشارات في بعض الفصول من هذا الجزء تدل على أن تأليفها كان قبل ذلك التاريخ ( انظر التعليق في بحث « الشعر الحكيم » وبحث « الشعر الأخلاقي » ) ولعله بدأ به مع الجزء الأول

في منتصف سنة ١٩٠٩ ثم رتبته أجزاءً وأبواباً فنشر منه ما نشر وَطوى ما طوى . ومما يرجح عندي هذا الظن ، أن 'جزازات' مما كتب عليها بعضَ مباحثه ، هي ( استمارات ) استعارة كتب من المكتبة الخديوية وعليها تاريخ الاستعارة ، ولا يكون ذلك إلا أن يكون تاريخ التأليف هو تاريخ الاستعارة . ومما يلذّ أن أذكره هنا أن جزازة من هذه الجزازات هي تذكرة دعوة الى 'عرس' عليها تاريخها ، قد اتخذ ظهرها للكتابة ...

\* \* \*

أما بعد ، فهذا كتاب جديد قديم ... أحسب أن قراء العربية كانوا في شوق إليه ، فلغتهم إذ يقرءونه يجدون فيه - على قدمه - جديداً كانوا يتشوقون إليه ؛ فيذكرون مؤلفه بما بذل للعربية حياً وميتاً ؛ فيدعون له دعوة ترطب نراه ، وتكون له شفاعة عند الله .

محمد سعيد العريان

٢٠ من ربيع الآخر سنة ١٣٥٩

٢٧ من مايو سنة ١٩٤٠

## الباب الخامس

# تاريخ الشعراء العربيين وما ذهبوا

والفنون المستحدثة منه وما يلتحق به





# يامعين<sup>(\*)</sup>

## الاقوال في أولية الشعر العربي

إذا ذهبنا نتتبع الشعر العربي الى أوليته، رأينا لدينا من أحوال الجاهلية تاريخاً سقيم التركيب متفكك الأجزاء مضطرب الجهات ، لا يكشف منه التعب ولا يبلغ فيه النصب ؛ وإذا كان ما ورد في كتب اليونان والروم عن جزيرة العرب ، وما كشفوه من الآثار في هذا العهد ، مما يستأنس به في تأريخ بعض أول الجاهلية ، فليس للشعر من مثل ذلك شيء ، لأنه لا يعني غير أهله ، وهم عرب أميون ، ولم يكن للشعر في جاهليتهم الأولى ما كان له من الشأن في جاهليتهم الأخيرة ؛ نعرف ذلك من تتبع أحوالهم الاجتماعية كما سنشير إليه .

وقد تصفحنا التواريخ العربية وراجعنا ما نقلوه عن أهل الرواية وهم مصدر آداب الجاهلية وأخبارها ، فرأينا أن ما كتبوه من ذلك اذا صلح أن ينقل فهو لا يصلح أن يعقل ، وهذا المسعودي يروي في (مروج الذهب) أشعاراً عربية للقبائل البائدة : كعاد وثمود وطسم وجديس ، وهي روايات

---

(\*) وجدت هذه الكلمة في صدر ما خط المؤلف من صفحات هذا الجزء ، فأنبتناها حيث وجدناها .

لا يقيدھا بتاريخ ولا يحدھا بزمن ؛ فيمكن على ذلك أن تدخل في غمار المفتریات والأقاصيص .

ولكننا رأيناھ يذكر من كان في الفترة ، أسعد أبا كرب الحيري أول من كسا الكعبة الأنطاع والبرود ، قال : وكان مؤمناً ، وآمن بالنبي ﷺ قبل أن يبعث بسبعائة سنة ، ثم استدل على ذلك بشعر نسبه إليه ، وهذا منتهى العجب ( ص ۳۲ ج ۱ - مروج الذهب ) .

ويقول الجاحظ في كتاب (البيان) عن هذه القبائل : وقد ذكرت العرب هذه الأمم البائدة والقرون السالفة ، ول بعضهم بقايا قليلة وهم أشلاء في العرب متفرقون مغمورون : مثل جرم وجاسم ووبار وعملاق وأميم وطسم وجديس ولقمان والهس ماس وبني الناصور ، وقَيْل بن عَشْر (\*) وذبي جدن ، ويقال في بني الناصور أن أصلهم من الروم .

فجعل لهذه القبائل بقايا مغمورين في العرب ، ولعل ذلك كان مستفيضاً بين الرواة ليرجحوا به صحة ما نقلوه ، إذ الخلف مستودع أخبار السلف ؛ ولكنهم إنما أثبتوا هذه البقايا لما جاء في القرآن عن ثمود من قوله تعالى : (وثمود فما أبقي) وقوله: (فهل ترى لهم من باقية) فأخذوا من ذلك أن غير ثمود لهم بقية في العرب ، وغفلوا عما يعطيه لفظ الآية ويدل عليه السياق .

وقد بالغنا في تتبع أخبار الوقائع والأيام التي ورد فيها للعرب شعر. لأن مثل هذه الوقائع لا يسوقها الرواة نفيًا لدليل ثابت ولا إثباتًا لحجة مقتضية ، فهي بعيدة بطبيعتها عن اختلاق الشعر ؛ ثم جهدنا أن نثبت تاريخ أقدم تلك الأيام ؛ ولا سبيل إلى ذلك إلا بقريئة الأعلام التي ترد فيها ، فرأينا في أخبار يوم الرحرحان أن زهير بن جذيمة بن رواحة سيد قيس بن عيلان تزوج إليه النعمان بن امرئ القيس ملك الحيرة ، ولزهير هذا شعر جيد ، فحسبنا شعره قيل في أوائل القرن الخامس للميلاد ، لأن النعمان بن امرئ القيس توفي سنة

---

(\*) قلت : كذا في تاريخ الطبري ، وفي تفسير الطبري : عنز .

٤٣١ ، ولكننا رأينا في أخبار داحس والغبراء أن عنتره بن شداد رثى مالك ابن قيس المعروف بقيس الرأي . وهو ابن زهير الذي ذكرناه ، وقالوا إنه أشد أباه وقومه القصيدة ؛ وعنتره توفي في القرن السابع للميلاد . فلم نظفر مع هذا الخلط بشيء .

وروى الجاحظ في كتاب الحيوان عن الهيثم وابن الكلبي وأبي عبيدة ، أن كل أمة تعتمد في استبقاء مآثرها وتحصين مناقبها على ضرب من الضروب وشكل من الأشكال ، وكانت العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون والكلام المقفى وهو ديوانها ... قال : ثم إن العرب أحببت أن تشارك المعجم في البناء وتنفرد بالشعر فبنوا غمدان وكعبة بنجران الخ .

وذلك يدل على أن العرب اقتصروا في تخليد مآثرهم على الشعر أولاً ثم شاركوا المعجم في تخليدها بالبناء ، ولكن الهمداني وياقوت ذكرا أن الذي بنى غمدان ، هو ليشرح بن يحصب ، وهو من ملوك حمير ، كان حوالي تاريخ الميلاد ، وقد بقي غمدان الى زمن عثمان بن عفان وهو الذي هدمه ( ج ١ : الحيوان ) ، ووقف الهمداني على بقاياه في القرن الرابع للهجرة . وعلى ذلك يكون الشعر العربي فخر حمير من قبل الميلاد ، ويقول الجاحظ : إذا استظهرنا الشعر وجدنا له الى أن جاء الله بالإسلام خمسين ومائة عام ، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فئاتي عام ؛ وهذا هو الذي نذهب إليه .

وقد ترجح لدينا أن سبب هذا الخلط في كلام الرواة ، غفلتهم عن تأريخ الوقائع المعروفة ، وجهلهم بما أثبتته الفرس والروم في تواريخهم عن ملوك العرب التابعين لهم من المناذرة والغسانيين ؛ فابن قتيبة يقول في طبقاته عن زهير بن جناب : إنه جاهلي قديم ، ثم يقول : ولما قدمت الحبشة تريد هدم الكعبة بعثه ملكهم الى أرض العراق ليدعو من هناك الى طاعته . وإنما كانت حادثة الحبشة في القرن السادس للميلاد ، ونسب ابن قتيبة لزهير هذا البيت المشهور :

من كل ما نال الفتى      قد نلته إلا التحية

وهذا البيت نسبه غيره للُجيم بن صعْب ، وعدّه صاحب المِزهر في قِدماء الشعراء ؛ وكل ما وقفنا عليه من أقوالهم في قِدم الشعر يمكننا أن نوردّه أمثلة على ذلك الخلط ؛ وقد بالغ بعضهم فعِدّ آباء القبائل في الشعراء ، كربيعة ومِضر ، وكِمْبه - أبي باهلة - وغني ، والطفَاوة ، وغيرهم من الأسماء التي لا دليل عليها من خبر أو زمان وكل ما فيها تسلسل النسب وقِدم العهد .

### تحقيق هذه الأوليّة

والذي عندنا أن أوليّة الشعر العربي لا ترتفع عن مائتي سنة قبل الهجرة ، ولا يذهب عنك أننا لا نريد بالشعر التصورات والمعاني ، فهذه فطرية في الإنسان ، ولا بد أن تكون قد استقلت طريقتهما في العرب من أقدم أزمانهم الى ما وراء ألفي سنة قبل الميلاد ، وكذلك لا نريد بالشعر مطلقاً ما اصطَلحوا على وصفه من ذلك ، فهذا قد يكون منه شيء في العدنانية قبل الميلاد أو حوَاليه ، ولكنه بغير اللغة المضرية طبعاً ، وإنما نريد بالشعر هذا الموزون المقفى ، باللغة التي وصلت إلينا ، وكل بحث فيما وراء ذلك لا يتعلق بهذه اللغة نفسها .

كانت منازل العدنانيين شمالي بلاد اليمن في تهامة والحجاز ونجد وما وراءها شمالاً الى مشارف الشام والعراق ، ويقال إن لغتهم واللغة الحميرية التي هي لغة عرب الجنوب في اليمن ، من أصل واحد ، على الاختلاف بينها في الإعراب والضمائر والاشتقاق والتصريف ، وهم ينتسبون الى إسماعيل ، فيكون بدء تاريخهم في القرن التاسع عشر قبل الميلاد إذا صح ذلك النسب ، وآخر ما ذكرته منهم التوراة يرجع الى القرن السادس قبل الميلاد ، وذلك زمن بختنصر الذي غزا قبيلة معد ، وهي أحد فرعي العدنانية : عك ، ومعد . ثم ظل العرب خاملين حتى نبه اسمهم قبيل الميلاد ، وذلك أن عقب عدنان إنما هو من قبيلة معد ، وقد انقسمت الى فرعين : نزار ، وقنص ، والكثرة والنسل في نزار ، وهم فروع ، أشهرها خمسة : قضاة ، ومِضر ، وربيعة ، وإياد ، وأنمار ؛ وقد ذكر البكري أن مساكن قضاة ومراعي أنعامهم

كانت جدة من شاطئ البحر فما دونها شرقاً الى منتهى ذات عرق ، وهي الحد بين نجد وتهامة ، الى حيز الحرم من السهل والجبل . وقبائل مضر أقامت في حيز الحرم الى السروات وما دونها من الغور وما والاها من البلاد ، وأقامت ربيعة في مهبط الجبل من غمر ذي كندة وبطن ذات عرق وما صاقبها من بلاد نجد الى الغور من تهامة . واقامت إياد وأنمار معاً ما بين حد أرض مضر الى حد نجران وما والاها وصاقبها ، وصار لقنص وغيره من ولد معد أرض مكة وأوديتها وشعابها وجبالها وما صاقبها من البلاد ( ص ١٧٠ : تاريخ العرب ) .

فاستقرت هذه القبائل في منازلها حتى وقعت بينهم الفتن وفرقتهم الحروب ، فتباينت مساكنهم ، وكانت قضاة أول من نزع منهم حوالى تاريخ الميلاد، فنزلت بطونها في مساكن مختلفة ، ثم نزحت أنمار ، ثم إياد ، ثم ربيعة ، ثم مضر؛ ولذلك تاريخ لا محل له هنا ، فملأوا الجزيرة وابتدأ تاريخهم الاجتماعي الحديث ، لأن بأسهم أصبح بينهم ، فنشأت فيهم يومئذ مقتضيات الشعر ومثلت لهم أغراضه .



## نشأة الشعر

ليس شعر الجاهلية مطلق الكلام الموزون ، ولكنه مع وزنه ينبغي أن يكون ممتازاً في تركيبه وتأليف ألفاظه ، فإذا عارضته بالمشهور من كلامهم رجح برونق العبارة والاختصار في الدلالة واستجماع الغرض من الكلام ، حتى يصح أن يقال فيه إنه إحساس ناطق . وهذه الأمة من أمم الفطرة ، فليس لديها من أسباب التعلم والأخذ عن الأمم الأخرى شيء ، فلا بد أن يكون شعرها كلاً في اللغة ، فلم ينطقوا به حتى هذبت وصفيت وصارت إلى المطاوعة في تصوير الإحساس وتأديته على وجه الأتم ؛ وهذا شأن لا يكون في لغة من اللغات إلا بعد أن تستقل طريقة تصريفها واشتقاقها ثم يتناولها التنقيح ، ثم يُجمَع عليها في الاستعمال ؛ وقد جرت على ذلك لغة العرب العدنانية ؛ فإنها انفصلت عن اللغة السامية التي تفرعت منها ، ثم استقلت طريقتهما بالوضع والارتجال ، ثم أخذوا في تهذيبها وتصفيتها حتى خرجت منها لغة مضر ؛ ومن هذه اللغة خرج الشعر ، ولا يتجاوز ذلك مائتي سنة قبل الهجرة على التحقيق .

اعتبر ذلك بما قاله أبو عبيدة من أن العرب لا تروي شعر أبي دؤاد وعدي ابن زيد ، لأن ألفاظها ليست بنجدية ؛ فلا بد أن يكون أساس الشعر عندهم على صميم العربية من لسان مضر ، وما عدا ذلك فهو مما تبعث عليه فطرة صاحبه ، ولكن العرب لا يبالون به ولا يروونه ، وعلى هذا مشى المتأخرون في الاحتجاج بالشعر العربي ، فالعلماء لا يرون شعر عدي بن زيد حجة

( ٣٤ - الطبقات (\*) ) ؛ لأنه كان يسكن بالحيرة ويدخل الأرياف ، فتقل لسانه ؛ وهذا الاعتبار يحدد لنا منشأ الشعر ، فإن عرب الجنوب وعرب الشمال كانوا يرتضخون لكنته خميرية أو أرامية أو نبطية أو عربية مشوبة بإحداها ، وإن أكثر قبائل مضر هي التي نزلت نجداً وما حوله إلى تهامة والحجاز ، فهي صميم العربية ، وهنا منشأ الشعر على ما نرجح .

ومن الأدلة على حداثة الشعر ما رووه من أن كل قبيلة ادعت لشاعرها أنه الأول ، ولم يدعوا ذلك لقائل البيتين والثلاثة ، لأنهم لا يسمون ذلك شعراً ، فادعت اليمانية لامرئ القيس ، وبنو أسد لعبيد بن الأبرص ، وتغلب لمهلل ، وبكر لعمر بن قميئة والمرقس الأكبر ، وإياد لأبي دؤاد ( ص ٢٣٨ ج ٢ - المزهر ) وأقدم هؤلاء في القرن الرابع للميلاد ، وليس يدل ذلك على أنهم تنازعوا في أول من قال الشعر ، ولكن في أول من أطاله وتصرف فيه ، ولولا أن مبدأه قريب من هؤلاء لوقع إليهم من الشعر المروي ما يحسم مادة النزاع .

ودليل آخر ، وهو أن لعبيد بن الأبرص قصيدته التي مطلعها :

\* أقفر من أهله ملحوب \*

وهي مما لا يستقيم على وزن معروف من أوزانهم ، ولا يطرد الموزون منها على وزنه ، وهم مع ذلك يروونها وتعدُّ من مفردات قائلها ، وقد أسقطوا غيرها كثيراً ، فلولا أن أوزان الشعر كانت يومئذ لم يمر عليها جيل بحيث لم تكن ألفتها الطباع بعد ، لأنكروا قصيدة عبيد ، ولالتوت دونها ألسنتهم ؛ ولم يبلغنا من ذلك شيء على كثرة اهتمام الرواة بالتجريح والتعديل .

---

(\*) قلت : يعني الشعر والشعراء لابن قتيبة .

## الباعث على اختراع الشعر

الشعر قديم في فطرة العرب كما قلنا ، ولكننا إنما نبحث في هذا الكلام المقفى الموزون ، فهو بهذا القيد لا يكون شعراً حتى يكون فد استوفى صفة اللفظ ، ولا يستوفىها حتى تكون الألفاظ قد مرت بها اللغة في أدوار كثيرة كما أشرنا إلى ذلك ، وقد بقي أن نعرف كيف نطقوا بهذا الكلام ، وما الذي نبههم إليه وأجراه على ألسنتهم ، وهو معلوم أن ذلك لا يمكن أن يكون احتذاءً لشعر أمة أخرى ، فإن السريانيين والعبرانيين لا يشترطون في شعرهم التقفية ، والعبرانيون قد يشترطون القافية دون الوزن ، فيكون الشعر شبيهاً بالسجع عند العرب ؛ فضلاً عن أن هذه الأوزان العربية ليست لأمة من الأمم ؛ قال ابن رشيق في ذلك : كان الكلام كله منشوراً فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها ، وطيب أعراقها ، وذكر أيامها الصالحة ، وأوطانها النازحة ، وفرسانها الأنجاد ، وسمحاتها الأجواد ، لتَهز نفوسها إلى الكرم ، وتدل أبنائها على حسن الشيم ، فتوهوا أعاريض فعملوها موازين للكلام ؛ فلما تم لهم وزنه سموه شعراً ؛ لأنهم قد شعروا به ، أي فطنوا له .

وهو كلام يعطيك من ظاهره ما شئت أن تتأول ولا باطن له ؛ ولكن الذي عندنا من ذلك أن الوزن نفسه مر في العرب على أدوار ، فكانوا يحدون الإبل من أقدم أزمانهم بكلام وأصوات تشبه التوقيع ؛ لأنه من المعلوم بالضرورة أنه لا ينفس من التعب ولا يبعث على النشاط غير الأصوات الموقعة على وزن ما ؛ وقد نقل ابن رشيق في العمدة أن أصل الحداء عندهم من النصب ، وهو غناء الركبان والفتيان ، اشتقه رجل من كلب يقال له جناب بن عبدالله بن هبل ، فسمي لذلك : الغناء الجنابي ، وكله يخرج من أصل الطويل في العروض . وهو لا يريد إلا الحداء المنظم الموزون الذي جروا عليه أخيراً صنعة لا فطرة فيها . وقال في موضع آخر : ويقال إن أول من أخذ في ترجيع الحداء ، مضر بن نزار ؛ فإنه سقط عن جبل فانكسرت يده ، فحملوه وهو يقول : وايداه ! وايداه ! وكان أحسن خلق الله جرماً وصوتاً ،



فأصغت الإبل إليه وجدّت في السير ، فجعلت العرب مثلاً لقوله « هايدا هايدا » يحدون به الإبل . وقالوا في أصل الحداء غير ذلك ( ص ٢٤١ ج ٢ - العمدة) ولكنهم لم يرجعوه إلى ما قبل زمن مضر ، وهي أقوال لا دليل عليها ، وإنما جاءوا بها تأويلاً للفظ الحداء عند العرب .

ثم خرجوا عن هذا الوزن في الحداء إلى وزن الأصوات في الحروب ، إذ كانوا في ذلك لا يجرون على نظام كنظام الأمم المتحضرة ، ومن أجل ذلك كان طبيعياً أن تكون تلك الأصوات القوية مما تشدّ به القلوب على القلوب ، وهم لا يمدحون شيئاً كجهازة الصوت وسعة الجرم ، ولهم في ذلك أخبار عريضة ذكر الجاحظ منها طرفاً في كتابه « البيان » ؛ ثم إنهم كانوا يخرجون تلك الأصوات في مواقفهم للضرب والطنن والصرع والجلاد ، وتارة مقاطيع من الحروف تكون صيحات ، وتارة كلمات ، كقولهم مثلاً عند الطعن : خذها وأنا فلان ! ونحو ذلك ، وهو مما تبعث عليه فطرتهم وأحوالهم من الأخلاق والاجتماع ، فلا بد أن يكون ذلك منشأ انتباههم إلى الوزن ؛ إذ لا يبعد أن يكون قد صاح بعضهم بكلمات قذفها القلب غضباً وحدة ، فجاءت كما يجيء قسم بيت ، ثم خرجت على أثرها كلمات أخرى وكانت أشد من تلك ، فانتهدت بحركة مفزعة هي حركة القافية ، ثم انتبه الصائح إلى تتابع هذه الحركات ، ووافق ذلك رفيف قلبه واهتزاز نفسه وتحريك الحمية والإعجاب ، فقفى على البيت بآخر ؛ وكان هذا سبب الانتباه إليه والشعور به ، ثم شاع بينهم بعد ذلك وقصدوا إليه قصداً في أغراضهم التي مثلت لهم بعد ذلك ، من المقارضة والممانعة والمفاتنة حين بعثتهم على ذلك طبيعة التفرق وأحوال الاجتماع البدوي ، بعد أن طارت بهم الفتن ومزقتهم الحروب على ما نعرفه من التاريخ ؛ فتبعوا الوزن وبنوا عليه ورتبوا فيه المحاسن التي يقع الاضطراب بوزنها وتهش النفوس إليها ، ثم خصوه بعد ذلك بما ينصرف إليه القول من وجوه التفاسيح ، فكان ذلك سبباً في اطالته وإحكامه .

وأنت إذا تدبرت حركات الأبحر التي شاع فيها نظم العرب ، رأيتها من

الحركات الحماسية ، ولذلك بني أكثر شعرهم على الحماسة ، خصوصاً ما وقع  
الينا من الشعر القديم ، فإن لم تكن تفاعيل الوزن من الحركات الحماسية كانت  
موسيقية مما تتحرك به العواطف ؛ من أجل ذلك قلت في شعرهم القوافي  
الضعيفة الى حد الندرة ، لأن القافية قرار المعنى ، وهي الصوت الطبيعي  
الذي ينزل من الشعر منزلة الإشارة التي تصحب كلام المتكلم ؛ وتلك العناية  
منهم بها مما يرجح عندنا أن أصل الاهتداء الى الوزن إنما كان بالقافية وما فيها  
من الرنين وما وافق من ذلك حمية الجاهلية كما سلفت الإشارة اليه .

وعلى هذا كان لا بد في الأوزان التي نظموا بها من موافقة المعنى في  
حركاته النفسية ، للوزن في حركاته اللفظية ، حتى يكون هذا قالب ذلك ؛  
وإذا أنت اعترضت شعر الجاهلية فإنك ترى كل بحر من البحور مخصوصاً بنوع  
من المعاني ، فالطويل وهو أكثر الأوزان شيوعاً بينهم ، إنما اتسع لتفرد  
فيه العواطف جملة ، فهو يتناول الغزل الممزوج بالحسرة ، والحماسة التي يخاطبها  
شيء من الإنسانية ، والرثاء الذي يتوسع فيه بقص الأعمال مبالغة في  
الأسف والحزن؛ ويتصل بذلك سائر ما يدل على التأمل المستخرج من أعماق  
النفس ، كالتشبهات والأوصاف ونحوها ؛ وبالجملة فإن حركات هذا الوزن  
إنما تجري على نغمة واحدة في سائر المعاني ، وهذه النغمة تشبه أن تكون  
حركة الوقار في نفس الانسان ، بخلاف الكامل ؛ فإن كل ما يحمل من المعاني  
لا يدل الا على حركة من حركات النزق في هذه النفوس ، فإن كان حماسة  
كان شديداً ، وان كان غزلاً كان أدخل في باب العتاب والارتفاع الى الشكوى ،  
وان كان رثاء كان أقرب الى التذمر والسخط ، وان كان وصفاً كان نظراً  
سريماً لا سكون فيه ولا ابطاء ؛ وقس على ذلك سائر الأوزان ، وهذه الأسرار  
الدقيقة هي التي امتاز بها الشعر العربي على كل ما سواه من أشعار الأمم ،  
وهي هي التي يتفاضل بها الشعراء على مقدار رعايتها وعلى حساب ما يلهمون  
منها فيما ينظمون .

## أول من قصّد القصائد

قال محمد بن سلام الجمحي - في طبقات الشعراء - لم يكن لأوائل العرب من الشعر الا الأبيات يقولها الرجل في حاجته ، وانما قصّدت القصائد وطول الشعر على عهد عبد المطلب أو هاشم بن عبد مناف ، وهاشم هذا هو الجد الثاني للنبي ﷺ ، فيكون ذلك قبل الهجرة بمائة سنة على الأكثر ، وهو العهد الذي نبغ فيه عدي بن ربيعة التغلبي الملقب بالمهلل ، خال امرئ القيس . وقال الأصمعي : إنه أول من يروى له كلمة تبلغ ثلاثين بيتاً من الشعر . نقول : ولعل هذه الكلمة هي التي قام بها على قبر أخيه كليب ومطلعها :

\* أهاج قذاة عيني الادّكار \*

وإذا كان الشعر العربي طبيعياً كما أسلفنا ، فإن العوامل في نموه لا بد أن تكون طبيعية ، وعلى ذلك فنحن نرجح ما قالوه من أن عدياً هذا هو أول من قصّد القصائد وذكر الوقائع في شعره؛ لأنه كان غزلاً على همته ، زير نساء على شجاعته ، وكان أخوه كليب بن وائل الفارس المشهور أحد الثلاثة الذين اجتمعت عليهم معد ، وهم عامر بن الظرب ، وربيعه بن الحارث وكليب هذا (ص ٢٣٧ ج ١ - ابن الأثير) ، فلما قتل في الخبر المعروف ، وكان قتله سبب الأيام بين بكر وتغلب ، سيرّ فيه عديّ قصائد عدة ، أرقّ بها الشعر وهلّسه ؛ وبهذا السبب لزمه لقب المهليل ، فكان طبيعياً بعد أن كان أخوه يعيره بأنه زير نساء ، أن يعلن همته في القيام بثأره وحميته لذلك ، وأن يشير بهذه الفجيجة ليعرف العرب منزلته من أخيه في الهمة ، ومنزلة أخيه من نفسه في المحبة والجاهلية ؛ وسنأتي على وصف هذه المراثي في ترجمته .

فكان الشعر قبل مهلل رجزاً وقطعاً ، فقصّده مهلل ، ثم جاء امرؤ القيس فافتنّ به ، وظل الرجز على قصره بمقدار ما تمتح الدلاء ، أو يتنفس المنشد في الحداء ، حتى كان الأغلب المجلي وهو على عهد النبي ﷺ ، فطوّله شيئاً يسيراً وجعله كالقصيد ، وجاء بعده العجاج وهو وابنه رؤبة أشهر أهل الرجز ، ففعل به ما فعل امرؤ القيس بالشعر بعد المهلل .

## الرجز والتقصيد

ومما نقله ابن رشيق أن الراجز قلما يقصّد ؛ فإن جمعها كان نهاية ، نحو أبي النجم ؛ فإنه كان يقصّد ، وأما غيلان - ذو الرمة - فإنه كان راجزاً ، ثم صار إلى التقصيد ، وسئل عن ذلك فقال : رأيتني لا أقع بين هذين الرجلين على شيء ، يعني العجاج وابنه رؤبة ؛ وكان جرير والفرزدق يرجزان ، وكذلك عمر بن لجأ كان راجزاً مقصداً ، ومثله حميد الأرقط والعماني أيضاً ، وأقلهم رجزاً الفرزدق (ص ١٢٤ ج ١ - العمدة). والرجز كثير عند العرب لسهولة الحمل عليه ، حتى سمّاه المتأخرون حمار الشعر ، وقد وقع إلى الرواة من ذلك شيء كثير ، فكان الأصمعي يحفظ ستة عشر ألف أرجوزة على ما قيل ، وعندنا أن ذلك ليس بكثير إذا علمت ما نقله الجاحظ عن أبي عبيدة ، قال : اجتمع ثلاثة من بني سعد يراجزون بني جمدة ، فقيل لشيخ من بني سعد : ما عندك ؟ قال : أرجز بهم يوماً إلى الليل لا أفشج<sup>(١)</sup> ؛ وقيل لآخر : ما عندك ؟ قال : أرجز بهم يوماً إلى الليل لا أنكف<sup>(٢)</sup> ؛ فقيل للآخر الثالث : ما عندك ؟ قال : أرجز بهم يوماً إلى الليل لا أنكش<sup>(٣)</sup> . فلما سمعت بنو جمدة كلامهم انصرفوا وخلوهم ( ج ٢ - البيان) . وكانوا يروون صبيانهم الأرجاز ويعلمونهم المناقلات ويأمرونهم برفع الصوت وتحقيق الإعراب ؛ لأن ذلك يفتق المهارة ويفتح الجرم ، واللسان إذا كثرت تحريكه رق ولان ، وإذا قلت تقلبيه وأطلت إسكاته جساً وغلظ ( ج ١ - البيان) . وليس كالرجز ما يهت الأشداق ويوطئ للشعر ويأخذ النفس بهذه الملكة

(١) لا أعيأ .

(٢) لا أنقطع .

(٣) لا أنزف .

الموسيقية ، ويكاد يكون منفصلاً عن الشعر من حيث الارتباط بين وزنه ومعناه ، فهم يرسلونه كلاماً كالكلام ، ولكنه أخص ما يكون فيما يؤلف بين حركات البدن وحركات النفس ؛ فكانوا يتراجزون على أفواه القلب ، وفي بطون الطرق ، وعند مجاثاة الخصم ، وساعة المشاورة ، وفي نفس المجادلة ونحو ذلك ( ج ٢ - البيان ) .



## الشعري القبائل

كان الشعر الى مائة سنة قبل الهجرة في أول عهده بالافتنان والتصرف ، ولم يكن تم تهذيب اللغة على نحو ما صارت إليه لعهد القرآن ، فكان طبيعياً أن لا ينصرف العرب إلى المباهاة به والمفاخرة بقائمه منهم ؛ ولكن لما جعل الشعراء يحتفلون ويتصرفون في اللغة ويتناولون أعذب ألفاظها ثم يأتون مكة في موسم الحج فيعرضون أشعارهم على أندية قريش ، فما استحسناه منها روي وكان فخراً لقائمه في القبائل كلها ؛ إذ يحضرون الموسم جميعاً لأن كل قبيلة كان لها صنم في الكعبة تأتي لزيارته حتى زادت عدة الأصنام فيها على ثلاثمائة صنم - أصبح العرب بعد ذلك يفاخرون بشعرائهم ، وصار الشاعر أيضاً يباهي بقبيلته ويفض من غيرها ، فذلك دينه السياسي ودينه ، حتى لا يصدق الرواة أن شاعراً يمدح قبيلة بينها وبين حيه عداوة ؛ وكان أبو عبيدة إذا أنشدود أبيات العرندس وهو أحد بني بكر بن كلاب التي يقال إنه مدح بها بني بدر الغنويين ، ومنها البيت المشهور :

من تلق منهم تقل لاقيتُ سيدهم      مثل النجوم التي يسري بها الساري

يقول : هذا والله محال ، كلاي يمدح غنوياً ؟ يعني عداوة الحيين ( ص ٢٩٦ - شرح العيون ) كان من ذلك أن انصرفوا الى المناقرات وهي تزيد مادة الحرص في الطبائع ، وتمكن غريزة الفخر في النفوس ، فصاروا من حاجتهم للشعراء إلى حال كانوا إذا نبغ الشاعر في قبيلة أتت القبائل فهنأتها

بذلك وصنعت الأظعمة واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن في الأعراس وتبشتر الرجال والولدان ، لأنه حماية لأعراضهم وذبح عن أحسابهم وتخليد لمآثرهم وإشادة لذكورهم ؛ وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد أو شاعر ينبغ أو فرس تنتج ؛ وسنلم بشيء من أدلة ذلك في باب الهجاء .

ولا عجب بعد ما أمر بك أن يكون الشعر عصبية في القبائل ، ومن ذلك ما يقولون إن الشعر كان في الجاهلية في ربيعة ، فكان منهم مهلهل والمرقشان ، والأكبر منها عم الأصغر ، والأصغر عم طرفة بن العبد ، واسم الأكبر عوف ابن سعد ، واسم الأصغر عمرو بن حرملة ، وقيل ربيعة بن سفيان ؛ ثم كان منهم أيضاً سعد بن مالك ، وطرفة بن العبد ، وعمرو بن قننة ، والحارث بن حنزة ، والمتلمس ، والأعشى ، وخاله المسيب بن علس . ثم تحول الشعر الى قيس ، فمنهم النابقتان ، وزهير بن أبي سلمى وابنه كعب ، ولييد ، والحطيئة ، والشاخ وأخوه مُزرد ، وخدش بن زهير ؛ ثم استقر الشعر في تميم ، ومنهم كان أوس بن حجر شاعر مضر في الجاهلية ، لم يتقدمه أحد منهم حتى نشأ النابغة وزهير فأخلاه وبقي شاعر تميم في الجاهلية غير مدافع .

وقال الأصمعي : قال أبو عمرو بن العلاء : أفصح الشعراء لساناً وأعذبهم ، أهل السروات ، وهن ثلاث - وهي الجبال المطلة على تهامة مما يلي اليمن - فأولها هذيل ، وهي تلي السهل من تهامة ؛ ثم بجيلة السراة الوسطى وقد شركتهم ثقيف في ناحية منها ؛ ثم سراة الأزديين وأزد شنوءة ، وهم بنو الحارث كعب بن الحارث بن نضر بن الأزدي . وقوم يرون تقدمه الشعر لليمن في الجاهلية بامرئ القيس ، وفي الإسلام بحسان بن ثابت ، وفي المولدين بالحسن بن هانئ وأصحابه : مسلم بن الوليد ، وأبي الشيص ، ودعبل ، وفي الطبقة التي تليهم بالطائنين حبيب والبحثري (ص ٥٥ ج ١ - العمدة) على أنه ليس من الممكن أن يحاط بالشعراء المعروفين في قبائلهم وعشائرهم في الجاهلية والإسلام ، ولم يقع لأحد من العلماء أنه استغرق شعر قبيلة حتى لم يفته منها شاعر إلا عرفه ، وأشهر من يعرفون أكثر شعرائهم قبائل هذيل ، فقد رووا منها لأربعين شاعراً في الجاهلية والإسلام ، وجمع بعض شعرهم في ديوان شرحه العسكري (وطبع

الجزء الأول منه في أوربا ) ؛ وقد ترجم منهم ابن قتيبة في طبقاته طائفة قليلة ، وكان منهم بنو مرة ، وهم عشرة رهط كلهم دُهامة شعراء ، وهم أبو خراش وأبو جندب والأبجّ والأسود وأبو الأسود وعمرو وزهير وجناد وسفيان وعروة . ومرة أبوهم هو أحد بني قرد بن معاوية بن تميم ابن سعد بن هذيل . وأمهم أم سفيان لبني وهي امرأة من بني حنيفة . وذلك لم يتفق في العرب لغير هذيل . ومن شعراء هذه القبيلة ، جنوب المشهورة أخت عمرو ذي الكلب وأختها عمرة ، وأول من عرف من شعرائها خويلد ابن وائلة بن مطحّل من بني سهم بن معاوية وهو أبو معقل بن خويلد الشاعر الممدود - وكان معقل زمن أبي يكسوم ملك الحبشة صاحب الفيل - ولكن أشهرهم جميعاً وأشعرهم أبو ذؤيب الذي كان في زمن عبدالله بن الزبير وخرج معه في مغزى نحو المغرب فمات .

ومن عجيب أمر الشعر في القبائل ما ذكره الجاحظ أن عبد القيس بعد محاربة إياد ، تفرقوا فرقتين ؛ ففرقة وقعت بعمان وشق عمان وفيهم خطباء العرب ، وفرقة وقعت إلى البحرين وشق البحرين وهم من أشعر قبيلة في العرب ، قال : ولم يكونوا كذلك حين كانوا في سرّة البادية ، وفي معدن الفصاحة ( ج ١ - البيان ) ، وهذا يصح دليلاً على ما قدمناه من أن الشعر لم ينشأ في العرب حين كانوا قبائل مجتمعين ، وإنما نشأ بعد تفرقهم وتمزيق الحروب لهم ، إذ مثلت لهم أغراضه واتفقت البواعث عليه .

وقال يونس بن حبيب الضبي : ليس في بني أسد إلا خطيب أو شاعر أو قائف أو زاجر أو كاهن أو فارس ، وليس في هذيل إلا شاعر أو رام أو شديد العدو ( ج ١ - البيان ) وقد يظن بعضهم أنه لم تخل قبيلة من قبائل العرب بعد الإسلام أن ينبغ فيها شاعر أو شعراء ، ولكن ذلك غير مطرد ، فقد ذكر صاحب الأغاني أن قبيلة قيس لم يكن بها في الإسلام شعر قبل أشجع السلمي وهو من شعراء الرشيد ، وإنما كان الشعر في ربيعة واليمن ، فلما نجم أشجع وقال الشعر انتهضت به قيس وافتخرت على العرب ( ص ٣٠ ج ١٧ - الأغاني ) .



## بيوتات الشعر والمعرقون فيه جاهلية وإسلاماً .

تلك وراثه الشعر في القبائل ، وأما وراثته في البيوتات فهم قد عدوا من ذلك أشياء ، لقرب بعضها من الإسلام ولظهور بعضها معه وبعده ، ولكنهم لم يذكروها في المفاخرات كما ذكروا بيوتات المجد الغلابة في عرب الجاهلية ، وهم بيت تميم بنو عبد الله بن دارم ومركزه بنو زرارة ، وبيت قيس بنو فزارة ومركزه بنو بدر ، وبيت بكر بن وائل بنو شيبان ومركزه بنو ذي الجدين ( ص ٣٥ ج ١ : الكامل للبرد ) .

ومن بيوتات الشعر في الجاهلية بيت أبي سلمى ... الخ (ص ٢٣٥ ج ٢ :  
العمدة ) .



## سيما الشعراء

لا بد لكل متميز من شكل ومنظر يلقي في الأنفس عنوان حقيقته ؛ ومرجع التميز في الأشكال من اللباس والحلية وهيئة الحالة ونحوها إنما يكون الى مطابقة إحساس الشخص أو موافقة إحساس المجتمع الذي هو مناط العادات ومبنى الصفة القومية ، فليس زي الشاعر في بيته وهيئته فيما ينشد لنفسه كزيه في يوم الحفل وبين السماطين ، ولا كهينته فيما ينشد للناس يومئذ . وقد اصطلح أهل الأدب والمناصب العلمية وغيرها من رتب الملك في الاجتماع الإسلامي على أزياء يرون فيها أنفسهم أجزل اعتباراً وأكمل وقاراً وأفخم أقداراً ، وكذلك تحشو هذه الآلات صدور الناس من إفراط التعظيم ، وتملأ قلوبهم من سكون المهابة ؛ وقد شاع ذلك في الحضارة الإسلامية منذ أمر أبو جعفر المنصور رجاله سنة ١٥٣ أن يتخذوا القلانس الفارسية الطويلة تدعم بعيدان من داخلها ، بدل العيائم التي كانت الى ذلك العهد من مميزات العرب ، وأن يعلقوا السيوف في أوساطهم وأن يكون شعارهم السواد كما كان البياض شعار الأمويين ؛ ثم تنوعت الأزياء ، فكان للقضاة زي ولأصحابهم زي وللشرط زي ، وللكتاب زي ، ولكتاب الخبر زي ؛ وأصحاب السلطان ومن دخل داره على مراتب ، فمنهم من يلبس المبطنة ، ومنهم من يلبس الدراعة ، ومنهم من يلبس القباء . وهكذا مما لا محل لاستيفائه وتفصيله هنا .

وفي علم الفراسة نوع من قيافة الآثار النفسية يمتاز به الناس ، وربما وجدت من الشعراء مثلاً من يكون منظر وجهه وحالة تركيبه أشعر عند

التأمل من شعره ؛ وكان العرب يعرفون هذه القيافة ولكنهم يستعملونها في تحقيق الأنساب وتميز القبائل ، وفي الحديث : أن قوماً يزعمون أنهم من قريش أتوا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكان قائفاً ليثبتهم في قريش . فقال : اخرجوا بنا إلى البقيع ، فنظر في أكفهم ثم قال : اطرحوا العطف ( جمع عطف ) ثم أمرهم فأقبلوا وأدبروا ، ثم أقبل عليهم فقال : ليست بأكف قريش ولا شمائلها ، فأعطاهم فيمن هم منه ( ص ١٣ ج ٢ : الكامل للمبرد ) . ولسنا بسبيل ما يكون من هذه القيافة في الشعراء ، ولكننا نذكر ما وقفنا عليه من تمييز الهيئة دلالة السيا بعد مطاولة التعب في البحث والتنقيب .

ذكر المرتضى في أماليه في خبر وفود العامريين على النعمان بن المنذر وكانوا ثلاثين رجلاً فيهم لبيد بن ربيعة وهو يومئذ غلام له ذؤابة ، وكان القيسيون قد صدوا وجه النعمان عنهم فأرادوا تقديم لبيد ليرجز بالربيع بن زياد رجزاً مؤلماً مضاً ، وكان هو الذي صرف الملك بالطنم فيهم وذكر معايبهم ، فحلقوا رأسه وتركوا له ذؤابتين وألبسوه حلة وغدوا به معهم فدخلوا على النعمان . فقام وقد دهن أحد شقي رأسه وأرخص إزاره وانتعل نعلًا واحدة ، قال : وكذلك كانت الشعراء تفعل في الجاهلية إذا أرادت الهجاء ( ص ١٣٥ ج ١ : أمالي المرتضى ) . وكانت لشعراء الأعراب هيئة في الإنشاد إلى ما بعد الإسلام ، فقد دخل العباسي الراجز على الرشيد ينشده شعراً وعليه قلنسوة طويلة على الزي العباسي وخف ساذج ، فقال له الرشيد : إياك أن تنشدني إلا وعليك عمامة عظمية الكور ( الطي ) وخفان دُمالقان فبكر عليه من الغد وقد تزيأ بزّي الأعراب فأنشده ... ( ج ١ : البيان ) . وكان الشاعر العربي ينشد في يوم الحفل وقد أخذ المخصرة بيده أو اتكأ على سية قوسه ؛ وإذا فاخر جأثى خصمه والناس حولهما ؛ وكذلك كان للخطيب زي خاص سنذكره في بحث الخطابة .

وكان زي حسان بن ثابت في خضابه ، فكان يلوث شاربيه وعنفقته بالحناء دون سائر لحيته ، فيبدو لأول وهلة كأنه أسد والغ في الدم ( ص ٣

ج ٤ : الأغاني) . ومن أزياء الجاهلية وإن كانت في غير ما نحن بسبيله ، أن فرسان العرب كانوا في أيام المواسم والمجموع وأسواق العرب كعكاظ وذو الحجاز وما أشبه ذلك ، يتقنعون ، وذلك زيهم ، إلا ما كان من أبي سليط طريف بن تميم أحد بني عمرو بن جندب ، فإنه كان لا يتقنع ولا يبالي أن يثبت عينه جميع فرسان العرب ، وكانوا يكرهون أن يعرفوا ، وربما أعلم الفارس نفسه بسيا ، كريشة نعامة أو عمامة مصبغة ( ج ٢ : البيان ) .

وكان من زي الكاهن أن لا يلبس المصبغ ، والعرفان لا يدع تذييل قميصه وسحب رداءه ، والحكم لا يفارق الوبر ( ج ٢ : البيان ) .

وكان الشعراء في أوائل الدولة العباسية يلبسون الوشي والمقطعات والأردية السود وكل ثوب مشهر ، قال الجاحظ : وكان عندنا منذ نحو خمسين سنة شاعر يتزيا بزي الماضين وكان له برد أسود يلبسه في الصيف والشتاء ( ج ٢ : البيان ) وهذا يدل على أن ذلك الزي بطل في زمنه .

وقد اخترعوا في تلك الدولة أثواب المنادمة وهي خاصة بالشعراء والأدباء ولا تقييد لها بشكل خاص إلا ما يكون من الأصباغ والخلوق ونحو ذلك مما يستعان به على زيادة التبسط والانشراح ، ولا يزال مثل ذلك في جهات العراق إلى اليوم ؛ ومن هذه الثياب رداء يسمونه رداء الشرب ، ويظهر أنه كان خاصاً بالشعراء في منادمة الملوك والأمراء ، وقد وصفه ابن الحجاج من شعراء المهلبى بقوله :

أبيض الغزل فيه خط سواد      مثل خط الرئيس في القرطاس

( ص ٢٣٧ جزء ٢ : اليتيمة )



## حالة الإنشاد

أما حالة الإنشاد فإن شعراء العرب إنما كانوا يتحققون بجهارة الصوت ووضوح المخرج ونفض الكلام نفضاً ، ولا يخلون ذلك من الترنم على اللحن الذي يتسمح به الطبع ، لأنهم لم يكونوا يعرفون شيئاً من أوزان الموسيقى الفارسية والرومية ولا الغناء الرقيق ، وليس بينهم اختلاف إذا أرادوا الترنم ومد الصوت إلى الفصل ( ص ٢٣٩ جزء ٢ : العمدة ) .

ولما شاع الغناء بعد الإسلام ووضعت قواعده صار تلحين الشعر مقصوراً على ما يفنى به منه في بعض أبيات من الرقائق إلا ما كان في بعض شعراء الأندلسيين ، وسيأتي ذلك في موضعه .

ثم بقي الإنشاد جارياً مجراه الأول ، لا يتأثر إلا بما يكون في المنشد من الزهو واهتزاز العطف ، كما كان يفعل البحري ، فإنه كان إذا أنشد اهتز ونظر في عطفه وطرب طرباً بيتناً ، وربما أقبل على جلسائه فقال : مالكم لا تمجبون ؟ وكان مثل هذا وأكثر منه في جملة من الشعراء ، إلا أننا لم نقف على أن الإنشاد كان تمثيلاً صحيحاً وإن خالطه الزهو والعجب الثقيل ، إلا فيما ذكره الصاحب بن عباد - في كتابه المعروف بالروزنامه - في وصف إنشاد أبي الحسن علي بن هرون بن المنجم ، قال يخاطب أستاذه ابن العميد : « دعاني الأستاذ أبو محمد فحضرت وابنا المنجم في مجلسه وقد أعدنا قصيدتين في مدحه ، ففمنهما من النشيد لأحضره فأنشداً قعوداً وجوداً بعد تشبيب طويل وحديث كثير ، فإن لأبي الحسن رسماً أخشى تكذيب سيدنا إن

شرحته ، وعتابه إن طويته ... يبتدىء فيقول ببحه عجيبة بعد إرسال  
دموعه وتردد الزفرات في حلقة واستدعائه من جوذر غلامه منديل عباراته :  
والله ، والله ... الخ ( ص ٢٨٤ ج ٢ : يتيمة الدهر ) .

[ ولعل فعل أبي الحسن هذا على بساطته أول ما عرف من صنعة التمثيل  
في الإسلام ، فإن الأصل في التمثيل على ما حققه علماء النفس هو تأدية المراكز  
العصبية المحركة للوظيفة العضوية لأن الأعصاب الممتدة من ظاهر الجسد إلى  
مراكز الجهاز العصبي ، وكذلك هذه المراكز نفسها والأعصاب الممتدة منها  
إلى العصل ، تكون جميعها آلة واحدة علائق أجزائها بعضها ببعض عضوية  
آلية ، فتمت حركت من أي موضع تسرد سائر أجزاء وظيفتها الآلية سرداً .

وهم بذلك يحققون وجود ارتباط قوي بين الصور الذهنية والحركات  
العضلية ، ويثبتون تفاعل الصور في الحركات والحركات في الصور .

فإذا مثلت هيئة الحزين ، أي الحركات التي تبدو بها تلك الحالة النفسية  
وهي الحزن ، وحركت العضلات الخاصة بها من الإطراق والدمع ، أثرت  
هذه الحركات فيك حتى لتحزن حقيقة ، وبالعكس إذا جرت في ذهنك  
صورة مضحكة لا تلبث أن ترى عضلات الضحك والابتسام قد انفعلت بهذه  
الصورة فتضحك أو تبسم [ (\*) ] .



---

(\*) قلت : هذه الكلمة الموضوعية بين العلامتين [ ] كانت مثبتة في حاشية الصفحة  
الأخيرة من هذا الفصل ، وقد جاء في آخرها كلمة : ( تتقح وتبسط ) يذكر المؤلف نفسه ،  
فأبنتناها هنا كما هي .

## ألقاب الشعراء

كان العرب ربما أخذوا الكلمة يصيبونها في بيت من الشعر فيطلقونها لقباً على قائله بحيث تغلب على اسمه وكنيته فلا يعرف إلا بها ، كشأس بن نهار العبدي ؛ وفي البيان للجاحظ : سالم ؛ لقب بالممزق لقوله :

فإن كنت ما كولا فكن خير آكل وإلا فأدركني ولما أمزق

والممزق هذا بالفتح ، قال الآمدي : وهو جاهلي ، وأما الممزق الحضرمي فبكسر الزاي متأخر وابنه عباد ولقبه « الممزق » وهو القائل :

إني الممزق أعراض الكرام كما كان الممزق أعراض اللثام أبي

وقد نقل السيوطي في المزهري عن الوشاح لابن دريد وغيره ، وأورد الجاحظ في الجزء الأول من البيان ، وابن رشيق في كتابه العمدة - زهاء ستين لقباً لشعراء من الجاهلية والإسلام .

قال ابن رشيق في سبب هذه التسمية : وإنما هذا لمكان الشعر من قلوب العرب وسرعة ولوجه في آذانهم وتعلقه بأنفسهم .

وليس ذلك بشيء وإلا لزم أن يطرد ذلك في مشاهير الشعراء ، ولم يقل به أحد ، والذي عندها أنه لا يصح كل ما نقلوه من ذلك ، وأن بعضه من وضع الرواة والنقلة ، وإلا فما وجه تسمية منبه بن سعد بأعصر لقوله :

أعير إن أباك غير لونه مرء الليالي واختلاف الأعصر

إلا أن تكون الكلمة قد ارتجلها منبه هذا ولم تكن معروفة قبله في لغات العرب بحيث تستغرب منه فيكون السبب في التسمية وجه الغرابة ، وهو ما لا سبيل الى تحقيقه وتصديقه .

والذي تغلب عليه الصحة من ذلك ما يكون سبب التسمية به صفة يحكيها الشاعر عن نفسه ويمكن أن يكون في إطلاقها عليه نوع من الغرابة كالمرقس الذي لقب بذلك لقوله :

الدار قفر والرسوم كما رقس في ظهر الأديم قلم

فهذه صفة غريبة من شاعر أُمي يمكن أن ينبز بها تهكاً أو مزحاً ، كما يمكن أن تطلق عليه تحبباً أو مدحاً أو تكون الصفة المسمى بها من الصفات التي تدل على عمل يصح أن ينعت به ، كالجوَّاب الذي سمي بذلك لقوله :

لا تسقني بيديك إن لم تأتني رقص المطية ، انني جوَّاب

أو تكون الكلمة التي تطلق على الشاعر بما يصح أن تشق منه صفة ذلك سبيلها ، كجابر الكلي المسمى المرني لقوله :

إذا ما مشى يُتبعينه عند خطوه عيوناً مراضاً طرفهن روانيا

ولا بد من هذا القياس لأن الألقاب إنما تشعر بمدح أو ذم ، والأسماء لم توضع إلا للامتياز في التعريف ، فأما أن تجيء الكلمة لا هي مما يمتاز بمثله عادة ، وليست موضع مدح أو ذم ولو من طريق العتب ، ثم يقال إنها اسم أو لقب - فهذا ما لا يصدق . ولو أجزنا ذلك لاستغرق جميع الشعراء الى اليوم ، وذلك شيء لم يكن ، وقد ذكر الجاحظ أن الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة - وكان خطيباً من وجوه قريش ورجالهم سمي القَبَاع - قال : وإنما سمي القباع لأنه أتى بمكتل لأهل المدينة فقال : إن هذا المكتل لقباع ، فسمي به . والقباع الواسع الرأس القصير ( ج ١ : البيان ) فهذا سبب يدل على أنهم لم يكونوا يجازفون بالتلقب والتسمية ، ولا بد من معنى لذلك ،



وهو أمر شائع في كل زمن ؛ ومن هذا القبيل - وإن كنا نورده استجماماً  
وفكاهة - ما ذكره الجاحظ أيضاً في سبب تسمية علي بن إسحق بن  
يحيى المهنون المسمى بمقوم الأعضاء ، أنه جلس مع بعض متعاقلي فتيان  
المسكر وجاءهم النخاس بجوارٍ ، فقال : ليس نحن في تقويم الأبدان ، إنما  
نحن في تقويم الأعضاء ، ثمن أنف هذه خمسة وعشرون ديناراً ، وثمان  
أذنيها ثمانية عشر ، وثمان عينيها ستة وسبعون ، وثمان رأسها بلا شيء من حواسها  
مائة دينار . فقال صاحبه المتعاقل : ها هنا باب هو أدخل في الحكمة من  
هذا ؛ كان ينبغي لقدم هذه أن تكون لساق تلك ، وأصابع تلك أن تكون  
لقدم هذه ؛ وكان ينبغي لشفتي تيك أن تكونا لفك تيك ، وأن يكون  
حاجبا تيك لجبين هذه . فسُمِّيَ مقوم الأعضاء ( ج ٢ : البيان ) والشرط  
في التلقيب بالكلمات أن تسير الكلمة ؛ فإذا قرنت بالاسم زادت معنًى ،  
وإذا كانت مفردة أغنت عنه ؛ وهذا ما لا يتفق إلا بمثل الأسباب التي  
ذكرنا ، فتنبه له .



## المقلون والمكثرون

من الشعراء شاعرٌ نفسه الذي يقول على مؤاةة السجية والطبع دون أن يستكره على الشعر أو يرهق بالأغراض المتنوعة ، وهذا إنما جهده أن يصيب حظ نفسه أقلّ أو أكثر ؛ ولكن منهم شاعر الناس الذي يحرث حياته الأرضية على أفقيتهم ، فهم إن تركوه أو تركهم مات ، ومثل هذا لا يصيب حظ روحه من القول إلا بعد أن يصيب حظ جسمه منه ، فهو مكثرٌ أبدأً من الشعر ، يقلّب على أغراض الناس ليأخذ به مكاناً على الأفواه ينزل فيه بضاعته من سوق الكلام ، ولا يعرف المقل من المكثر في شعراء الجاهلية إلا بهذا التقسيم ؛ لأنهم قد استووا في ضياع كثير من شعرهم وسقوطه من أيدي الرواة المصححين ، بحيث لو اعتبرت شهرة أحدهم بقيمة ما يصح له من الشعر لنبا به موضعه حيث وضع من الشهرة والتقدم . فقد عدوا من المقلين طرفة بن العبد ، وعبيد بن الأبرص ، وعلقمة بن عبدة الفحل ، الفحل ، وعدي بن زيد ، وسلامة بن جندل ، وحصين بن الحمام المري ، والمتامس ، والمسيب بن علس ؛ وهؤلاء الثلاثة فيما رووا عن أبي عبيدة أشهر المقلين في الجاهلية باتفاق ، وعدوا منهم عنزة ، والحارث بن حلزة ، وعمرو ابن كلثوم ، وعمرو بن معديكرب ، والأشعر بن حمران الجعفي ، وسهيل بن أبي كاهل ، والأسود بن يعفر ؛ ومن أولئك من يعرف بالقصيدة الواحدة كطرفة ، ومنهم من يعرف بثلاث قصائد كعلقمة ، ومنهم من يعرف بالأربع كعدي ابن زيد ، ومنهم من يعرف بالأبيات المتفرقة ولا عبرة بما ينسب إليهم عند غير المصححين وأهل التحقيق ، فإن الحمل على شعراء الجاهلية كثير ، وهو

يتفاوت في هذه الكثرة بحسب صنعة الشاعر المحمول عليه وتلاحم كلماته وامتلاء أعطافها ، ولذلك قالوا : إن عدي بن زيد لقربه من الريف وسكنه الحيرة في جيرة النعمان بن المنذر لانت ألفاظه فحمل عليه كثير ، وقد ذكر ابن رشيقي بعض مطالع القصائد المشهورة في أيدي الناس التي صحت نسبتها لبعض هؤلاء المقلين ( ص ٦٦ ج ١ : العمدة ) .

ولا يبعد أن يشتهر الشاعر الجاهلي بالقصيدة الواحدة ، بل بالأبيات القليلة ، بل بالبيت المفرد ؛ لأنهم يزنون الكلمة بمقدار ما تحرك من ميزانها الطبيعي الذي هو القلب ، وكانوا يسمون البيت الواحد يتيماً ، فإذا بلغ البيتين والثلاثة ، فهي نتفة ، وإلى العشرة تسمى قطعة ، وإذا بلغ العشرين استحسّن أن يسمى قصيداً ؛ قال ثعلب : وذلك مأخوذ من المخ القصيد ، وهو المتراكم بعضه على بعض ، وهو ضدّ الراد ، ومثله الرئيد ( ص ١١٩ : إعجاز القرآن ) ؛ وهذا أصح مما ذهب إليه المتأخرون من أن أدنى حدّ القصيدة سبعة أبيات ، لأنه لا يلتئم مع وجه الاشتقاق الذي رواه ثعلب كما ترى . وكانوا يستحبون الإطالة عند الإعذار والإنذار والترهيب والترغيب والإصلاح بين القبائل ، كما فعل زهير والحارث بن حنظلة وغيرهما ، والقطع أطير في بعض المواضع كالمحاضرات والمنازعات والتمثيل والملح وغيرها مما ليس من المواقف المشهورات .

وكان العرب يعرفون للإكثار من الشعر صفة طبيعية ، وهي قرع رونة الأنف بطرف اللسان ، كأن اللسان إذا طال كان ذلك أدعى إلى رقته ولينه ومؤاثاته على التغليب فيبعت من الصغر على الارتياض للكلام والحمل في شعابه وفنونه ؛ ولا نعرف أصل هذه الصفة ولا تاريخها فيهم ، ولكن ذكر الجاحظ في البيان أن النبي ﷺ قال لحسان بن ثابت : ما بقي من لسانك ؟ فأخرج لسانه حتى قرع بطرفه طرف أنفه ، ثم قال : والله إني لو وضعته على صخر لفلقه ، أو على شجر لحلقه ، وما يسرني به مقول من معدّ ! فهذا يدل على أن الصفة كانت معروفة فيهم ، وإلا فلا أسقط من هذا الكلام . قال

الجاحظ : وأبو الصمت مروان بن أبي الجنوب بن مروان بن أبي حفصة وأبوه وابنه في نسق واحد : يقرعون بأطراف ألسنتهم أطراف أنوفهم ( ج ١ : البيان ) . والمعجب في أمر الإقلال والإكثار أنك تجد شعراء من المطبوعين لا يُقدَّر على جمع شعرهم لكثرتهم ( شرح العميون ص ٣٢٠ ) وقد عدوا من هؤلاء بشار العقيلي ، والسيد الحميري ، وأبا العتاهية ، وابن أبي عيينة ؛ وكان بشار يقول إن له اثني عشر ألف قصيدة ؛ قال الجاحظ : وقد ذكر الناس في هذا الباب يحيى بن نوفل ، وسليمان الخاسر ، وخلف بن خليفة ، قال : وأبان بن عبد الحميد اللاهقي أولى بالطبع من هؤلاء ، وبشار أطبعهم كلهم ( ج ١ : البيان ) .

وتجد شعراء آخرين لا يزيدون في شعرهم الجيد عن البيتين والثلاثة إلى القطع الصغيرة ، وقد يتعمدون ذلك في أغراض معلومة ، كمقيل بن علفة الذي كان يقصر هجاءه ويقول في الاحتجاج لذلك : يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق ؛ وأبي المهوس أيضاً وكان يقول محتجاً : لم أجل المثل النادر إلا بيتاً واحداً ، ولم أجد الشعر السائر إلا بيتاً واحداً ( ج ١ : البيان ) .

وكان ابن الزهري يقصر أشعاره ويقول : إن القصار أولج في المسامع ، وأجول في المحافل ، ويكفيك من الشعر غرة لائحة ، وسية فاضحة ، وقد يكون الإقلال في بعض أولئك عاماً في جميع الجيد من شعرهم كالجماز وقال له بعض المحدثين وقد أنشده بيتين : ما تزيد على البيت والبيتين ؟ فقال : أردت أن أنشدك مذارعة ! وهو القائل :

أقول بيتاً واحداً أكتفي      بذكره من دون أبيات  
( ص ١٧٥ ج ١ : العمدة ) .

وكان لنكك البصري « من شعراء القرن الرابع » قال الثعالبي في البيتية : وما أشبه شعره في الملاحه وقلة مجاوزة البيتين والثلاثة إلا بشعر كنية أبي الحسن بن فارس ، وأقدر أنه في الجبال كهو في العراق ؛ وكان يقال في

منصور الفقيه : إذا رمح بزوجه قتل<sup>(١)</sup> ! وكذلك ابن لنكك : إذا قال البيت والبيتين والثلاثة أغرب بما جلب وأبدع فيما صنع ، فأما إذا قصد القصيد فقلما يفلح ( ١١٧ جزء ٢ : اليتيمة ) . واشتهر بجودة القطع من المولدين قبل هؤلاء ، بشار بن برد ، وعباس بن الأحنف ، والحسين بن الضحاك ، وأبو نواس ، وأبو علي البصير ، وعلي بن الجهم ، وابن المدل ، وابن المعتز ، وإن كان بعضهم يحسن في الإطالة ، كبشار وأبي نواس وابن الجهم ؛ ومن الإسلاميين قبلهم الفرزدق ، حتى قال الجاحظ : إن أحببت أن تروي من قصار القصائد شعراً لم يسمع بمثله فالتمس ذلك في قصار قصائد الفرزدق ، فإنك لم ترَ شاعراً قط يجمع التجويد في القصار والطوال غيره . وقد قيل للكيت : الناس يزعمون أنك لا تقدر على القصار ، قال : من قدر على الطوال فهو على القصار أقدر . وهذا الكلام يخرج في ظاهر الرأي والظن ، ولم نجد ذلك عند التحصيل على ما قال ( ص ٣١ ج ٣ : الحيوان ) .

أما المعروفون بالإطالة فهم كثير ، وأشهرهم ابن الرومي ، وهو على إطلاته محسن ، وربما تجاوز حتى يسرف .



(١) في العمدة : كانوا يقولون : إياكم ومنصوراً إذا رمح بالزوج ، وكان ربما هجياً بالبيت الواحد . وفي بعض النسخ : إذا رمى ، وهو خطأ .

## الارتجال والبديهة والروية

قد يكون لفظ الارتجال مأخوذاً من الانصباب والسهولة ، ومنه قيل :  
شعراً رَجُلٌ إذا كان سَبْطاً مسترسلاً غير جعد، أو من ارتجال البئر ، وذلك  
أن ينزلها الرجل برجليه من غير حبل ، لأن الشعر لا يسمى مرتجلاً إلا إذا  
كان انهاراً واندفاقاً لا تعمل فيه ولا تروثة ، وكانت هذه سنة العرب في  
جاهليتهم ، إذ هم لم يحتدوا الشعر على مثال ، بل كان ذلك نوعاً من كلامهم  
مقُبَعث أحدهم عليه انبعث ، ولما كانت أسبابه الطبيعية فيهم ترجع الى  
جمله النفس ، كان هذا الكلام كامناً فيها ، لا يهيجه إلا اضطرابها فكان من  
أسباب ذلك ما تجدد النفس في لذة المغالبة والمدافعة ، كالماتنة والمقارضة ونحوها ،  
وما يرفه عليها ويحسم عنها كالحذاء وما في حكمه مما ينشدونه على أفواه  
القلب وعند الانكفاء من الغارات وأمثال ذلك ، وبما يغمر النفس فتكون  
فيه طاقة راسبة ؛ ومن هذا النوع شعر العواطف ، كالغزل والثناء والاستغاثة  
والتحريض وما إليها ، ومن أجل ذلك ابتدأ الشعر عند العرب بالبيتين  
والأبيات يقولها الرجل في حاجته ، حتى وجد فيهم من جعل تلك الأسباب  
همه وهو الشاعر ، فتركوا ذلك له وصار من عدا الشعراء منهم كما كان  
العرب في أوليتهم : لا يكاد الرجل يجد سبب الأبيات حتى ينتزعها من نفسه  
وينبعث بها طبعه ، ثم فعلت الوراثة في ذلك فعلها فعظم الشعر وصار في  
الارتجال شيء من الصنعة يكفي له تقليب العين وخطرة الوهم ، فيجيء  
الشاعر بالقصيدة فيها من بديع الشبيه وبارع الاستعارة وكرم الديباجة  
وحسن الرونق ، لا يتعاون عليها إلا طبعه ومادته من الأسباب التي قدمناها ،

فإذا اعترض النفس ما يصرفها عن تلك الأسباب ، تبدد الطبع ونضبت  
المادة ، فربما استحال البدية بعد الارتجال ، وربما استحالت الروية بعد  
البدية ، كما وقع لعبيد بن الأبرص وهو من أقدم شعراء الجاهلية وأقوام  
غريزة ، إذ يقول له النعمان في يوم بؤسه : أنشدني ، فقال : حال الجريض  
دون القريض ! قال : أنشدني قولك :

أقفر من أهله ملحوب فالقطبيات فالذئوب !

فقال : لا ، ولكن :

أقفر من أهله عبيد فاليوم لا يبدي ولا يعيد !

فبلغت به حال الجزع الى مثل هذا القول بعد روية ومراجعة . وقد  
عدوا نفرأ من الشعراء في عصور مختلفة كانوا في هذه الحال كما يكونون في  
غيرها من أحوال الأمن والدعة ، وذلك لقدرتهم وسكون جأشهم وقوة  
غريزتهم ، كهذبة بن الحشرم العذري ، وطرفة بن العبد البكري ، ومرة بن  
محكان السعدي ، وعبد يغوث بن صلاة ، وتميم بن جميل ، وعلي بن الجهم  
وغيرهم . قال الجاحظ : وكل شيء للعرب فإنما هو بدية وارتجال ، وكأنه  
إلهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجابة فكرة ولا استعانة ، وإنما  
هو أن يصرف وهمه الى الكلام ، والى رجز يوم الخصام ، أو حين يمتح على  
رأس بئر ، أو يحدو ببعير ، أو عند المقارعة والمناقلة ، أو عند صراع أو في  
حرب ، فما هو إلا أن يصرف وهمه الى جملة المذهب ، والى العمود الذي  
إليه يقصد ، فتأتيه المعاني أرسالاً ، وتثالث عليه الألفاظ اثثالاً ( ج ٢ :  
البيان والتبين ) .

واستمر ذلك شأنهم حتى نشأ الذين تكسبوا بالشعر والتمسوا به الصلات  
والجوائز ، وجعلوا للسماطين وأيام الحفل ، كالنابغة وزهير والأعشى وغيرهم  
فلم يحدوا من السبب ما وجد الذين قبلهم ، لأن الشاعر إذا مدح اليد وأشاد  
بالصنعة لم يكن له بدء من التكلف والاستكراه ، إذ يعلم أنه لا يقبل منه  
عفو الكلام ، ولأن ذلك المقام لا تجدي فيه غير المبالغة التي تكون من

استعراض الصفات وتخيير المعاني والتغلغل والإغراق وأشباهاها ، فكان من ذلك القيام على الشعر ومعاودة النظر فيه وتتبع الشاعر على نفسه حتى يخرج شعره مستويًا في الجودة ، لأن الطبع في مثل تلك المعاني يندفع ويتبدل ، ويضعف ويتجدد ؛ فإذا لم تجتذب الألفاظ ولم تجتلب المعاني جاء الشعر جديداً مرقعاً أو ليساً ممزقاً ، فلا يصلح أن يكون حلة الفخر التي لا تبلى على الدهر ؛ وقد يكون من أسباب ذلك أيضاً أن الشعر لما فشا فيهم بعد نبوغ امرئ القيس ومن في طبقته ، وكان الشعراء يستعينون عليه بالروية استجابةً لحاسنه - خشي آخرهم أن يقصر عن أولهم إذا هو لم يجار سنة النمو والارتقاء ، فكان يبني المعاني يلتمس لها وجوه الصنعة ، ويدع القصيدة تمكث عنده زمناً طويلاً يردّد فيها نظره ويقلب رأيه ويرصد أوقات نشاطه ، فيجعل عقله زماماً على رأيه ، ورأيه عياراً على شعره ؛ وكانوا يسمون تلك القصائد الحوليات والمقلدات والمنقحات والمحكات ، ليصير قائلها فحلاً خنذيذاً وشاعراً مقلقاً ( ج ١ : البيان ) .

وأول من ذهب لذلك منهم طفيل الغنوي ؛ وكان يسمى محبراً لحسن شعره « العمدة » وكلا السببين قد اجتمعا في زهير ، لأنه كان يروي شعر ثلاثة من الفحول منهم طفيل ، وكان مذهب شعره المديح كما ستراه في الكلام عنه ؛ ولذلك كان أول من اشتهر بالثابت المحكك<sup>(١)</sup> من الشعر ، وهو الذي كان يسمى كبار قصائده الحوليات ، لأنه ينظم القصيدة منها في شهر ثم لا يزال ينقحها ويهذبها حتى يمر عليها الحول ؛ غير أن مثل زهير من أهل السيادة والورع لا يمدح لرغبة ولا يكذب في مديح ، فكان بديهاً أن يكون من بعض بواعثه على الرواية مغالبة الأنفة ومدافعة الطبع والتماس عذر النفس الأبية في صدق المديح ، وهذا كله مما لا يعني فيه الارتجال شيئاً .

(١) قال الجاحظ في كتابه ( البيان ج ١ ) كنت أظن قولهم « محكك » كلمة مولدة ، حتى سمعت قول الصعب بن علي الكتاني :

أبلغ قرارة إن الذئب آكلها      وجائع سغب شر من الذئب  
أدل أطلس ذو نفس محككة      قد كان طار زماناً في اليعاسيب



وما ظهرت الصنعة والتجويد في الشعر حتى اتقته العرب اتقاء شديداً لأنها رأت الشاعر في ترويته إنما يسمُ كلماته فلا يرمي بها إلا قاتلاً ؛ ولا جرم كان ذلك أيضاً سبباً من الأسباب في ضعف الارتجال ، لأن شاعر الجاهلية الآخرة ميزان الأحساب ، لا يصلح إلا لأن يرفع ويضع ، غير أن سبيل هؤلاء [الصنعين] في غير تلك الطرائق سبيل غيرم من أهل الطبع ، فهم يرتجلون في الحماسة والهجاء وغيرها .

ثم جاء الإسلام فكانت أسباب الشعر في أوله على ما كانت في أولية العرب ؛ إذ كان مثل حسان ينصب له منبر في مؤخر المسجد لينافح عن رسول الله ﷺ ، ولذلك مر الخضرمون بروفق الطبع ووشي الغريزة ، حتى نبغ الخطيئة وهو من هو في الصراعة والجشع وسقوط الهمة ، وكان رواية زهير وابنه ، فاستعبده الشعر ، واستفرغ مجهوده ، وكان الأصمعي يسميه هو وزهيراً وأشباهها (عبيد الشعر) لذلك . ثم ضعف شأن الارتجال إلا في بعض المائتات ، وفي الأبيات القليلة من غيرها تخرج على الطبع وتنبعث بها المادة ؛ واستحال الارتجال الى البدئية وهي الإطراق القليل التفكير غير الطويل ، وما قصر عنها فهو الروية . وامتاز بالبدئية شعراء الدولة الأموية ، وقليل من شعراء العباسيين ، وأشهر هؤلاء في ذلك أبو نواس ، فقد كان قوي البدئية والارتجال ، لا ينقطع ولا يرومي إلا فلتة ، وقالوا إنه بها غلب على مسلم بن الوليد . غير أن ذلك لم يكن منه إلا في الأبيات الممدودة ، أما الطوال كقصائد السامطين وغيرها فلم نعتز على رواية في ارتجالها بعد الخضرمين إلا ما رواه ابن خلدون عند ذكر استقبال عبد الرحمن الناصر من أمراء الدولة الأموية بالأندلس لرسل الملوك الوافدين عليه من رومة والقسطنطينية وغيرها؛ قال بعد أن وصف من جلال مجلس الخلافة ما قال : وأمر يومئذ الأعلام أن يخطبوا في ذلك الحفل... وكان من خطباء هذا المجلس منذر بن سعيد ( توفي سنة ٣٥٥ وهو فقيه شاعر كاتب خطيب جريء على ذلك كله ، وقد أورد الجلسة صاحب نفح الطيب وفصل أبهة ذلك المجلس وحالة الخطباء فراجعه هناك ) ( ص ١٧١ ج ١ : نفح الطيب ) .

ولا يبعد أن يكون في كل عصر من يرتجل مثل ذلك حق في المتأخرين إلا أنه لا يجيء بالجيد ولا يباري أهل الروية . ومن عجائب ذلك في المتأخرين ما ذكره صاحب خلاصة الأثر في ترجمة أبي السماع البصير المصري أنه كان أعجوبة الزمان وأحد الأفراد في البديهة وارتجال الشعر ؛ قال : وكانت طريقته إذا أراد الارتجال أن يبدأ بإنشاد قصيدة من كلام أحد الشعراء المتقدمين بصوت شجي ، وفي أثناء إنشاده يبتدر على وزن تلك القصيدة في أي باب كان من أبواب الشعر مدحاً كان أو غزلاً أو غيرها . ( ص ١٣٩ ج ١ ) ولم نقف على نظير لهذه الرواية إلى عصرنا ، ولكن هناك عجيبة أخرى في ارتجال الرسائل ذكرها الثعالبي في اليتيمة ( ص ٣١ ج ٤ ) .

أما البديهة فهي عند سببها في كل عصر وزمن ، وقد جمع علي بن ظافر كتاباً حسناً في ذلك سماه « بدائع البدائه » وهو مشهور .

ومن البديهة سريع يقارب الارتجال ، وهو الذي تجوز المتأخرون في تسميته بالارتجال ، وفي كتب الأدباء أشياء كثيرة منه كالذخيرة لابن بسام والقلائد وغيرها .

\* \* \*

[ كان عمود الارتجال القافية ، وربما حدا بعضهم بالرجز حتى إذا شردت عليه القافية تركه وسجع بغيره ] (\*) .

[ ... من أسباب ضعف الارتجال ... غلبة اللحن ومعاشرة اللحانين ، حتى صار الشاعر يحتاج إلى الإطراق ونحو ذلك ] (\*) .



(\*) قلت : هاتان العبارةان كانتا مثبتتين في حاشية بعض الصفحات من هذا الفصل ، فرأيت إثباتها في الحاشية حين لم أجد ما يعين موضع كل منها في سياق الكلام .

## النبوغ والقاب في الشعراء

جرى المتأخرون على أن يصفوا الشاعر المحسن إحساناً عالياً بالنبوغ والنابعة في المبالغة ، ويطلقون هذا الوصف إطلاقاً عاماً غير ملتفتين الى أصل الكلمة ووجه اشتقاقها ، ولا إلى استعمال العرب إياها ، وإن كان ذلك يطابق ما ذهبوا إليه بعض المطابقة ، ولكننا رأينا الاستعمال العلمي الحديث ( السيكوفسيولوجيا ) والاستعمال اللغوي القديم ، يضعفان هذه الكلمة في جنب القوة التي يجر كونها لها كما سنبينه فيما يلي :

لم يكن النبوغ عند العرب لقباً عاماً كما توهموا ، ولكنه كان خاصاً بالشعراء الذين يقولون الشعر ويمجدونه ولم يكونوا في إرث الشعر ، ومن أجل ذلك لم يلقبوا بالنابعة إلا ثمانية من الشعراء ذكرهم بأسمائهم جميعاً الزبيدي في تاج العروس في شرح مادة - نبغ - وهم : زياد بن معاوية الذبياني ، وفيس ابن عبد الله الجعدي ، وعبد الله بن المحارق الشيباني ، ويزيد بن أبان الحارثي المعروف بنابعة بني الديان ، والنابعة ابن لأبي الغنوي ، والحارث بن كعب اليربوعي ، والحارث بن عدوان التغلبي ، والنابعة العدواني ولم يسموه .

وعلى السبب في تلقيب هؤلاء بالنوابغ بنى اللغويون تعريف النبوغ في الشعر كما مر ، فيظهر من ذلك أنه تعريف خاص مقيد بسبب معروف فلا يطلق إلا مجازاً . أما الألقاب العامة عند العرب فقد ذكرها الجاحظ في البيان ، قال : والشعراء عندهم أربع طبقات : فأولهم الفحل الحنذيذ ، والحنذيذ هو التام ، ودون الفحل الحنذيذ ، الشاعر المفلق ، ودون ذلك

الشاعر فقط ، والرابع الشعور ( البيان والتبيين . ج ١ ) فالخنذيد هو الذي يجمع إلى جودة شعره رواية الجيد من شعر غيره ؛ وسئل رؤبة عن الفحولة قال : هم الرواة ، والمطلق الذي لا رواية له إلا أنه مجود كالأول في شعره [ وقالوا في سبب هذه التسمية إنه يأتي في شعره بالفلق وهو العجب ، وقيل الفلق الداهية ] والشاعر فقط هو الذي يكون فوق الرديء بدرجة ، أما الشعور فهو لا شيء . قال الجاحظ : وسمعت بعض العلماء يقول : طبقات للشعراء ثلاثة : شاعر ، وشويعر ؛ وشعور . وأول من سُمي بالشويعر امرؤ القيس ؛ سُمي به محمد بن حران بن أبي حران ، وقد سُمي بعده بذلك نفر ، منهم المفوف شاعر بني حميس ، وصفوان بن عبد ياليل من بني سعد إلا أنهم إنما يبنذون بذلك في الهجاء وعلى وجه النقيصة ؛ وقبل هذه الألقاب كان عندهم لقب بسيط لا يدل على أكثر من هيئة النظم ، وبهذه البساطة استدللنا على أنه أقدم من الألقاب المذكورة آنفاً ؛ ذكر صاحب المحصص ( ج ٢ ص ١١٥ ) قال أبو زيد : العرب تقول : خطيب مصقع وشاعر مرقع ؛ فالمصقع : الذي يأخذ في كل صقع من الكلام أي ناحية منه ؛ والمرقع : الذي يصل الكلام بعضه ببعض يرقع ما انخرق منه ، وبهذا قيل للشعر نظام ، لاتصاله واتساقه ، فكأن هذا اللقب نشأ عندهم في أوائل العهد بإطالة الشعر ومجازة البيتين والثلاثة ، لأن مدّ البيتين مثلاً إلى أن يبلغا أبياتاً هو حقيقة ذلك الوصل الذي وضعوا هذه الكلمة لتعريفه .

وبعد أن أخذ شعراء العرب في التروية والتنقيح وتحكيك الشعر نشأ عندهم لقب المطبوع واستعملوه فيمن يجري على طبعه العربي ولا يتصنع ولا يتكلف ما يلزم التروية من التبسيط ومعاودة النظر ونحو ذلك ، فهذه جملة ألقاب الشعراء عندهم .

أما تعريف النبوغ في علم السيكوفيسولوجيا ، وهو الذي يبحث فيه عن ارتباط أحوال النفس بالوظائف العضوية ، فإن أهل هذا العلم يقولون : إن النبوغ تميز الخلق بتأدية أعمال مألوفة على وجه من الإقتان يصعب على كثير ممن يقومون بهذه الأعمال عادة ، فهو إذن استعداد فطري تنميه المثابرة

على العمل حتى يبلغ حظه المقسوم له من الكمال ، وعلى ذلك يكون عامماً في كل المخلوقات ؛ لأن كل جنس منها يمتاز بعضه على بعضه في أداء الحركات والأعمال الطبيعية له .

ولكن عندهم نبوغاً عبقرياً خاصاً بالإنسان يصح أن يسمى بالجهنزة ، وهو ابتداع المرء ما يكون غيره قد غفل عنه ، أو اتباعه ما جرى عليه غيره ولكن على وجه ذاتي يكون له فيه صفة من الابتداع ، فهو إذن نمو عضوي كإلي يثبت للعامل شخصية العمل . وهذا المعنى في الشاعر هو الذي يريده العرب بلقب الفحل والحنديذ - كما سبق - وبه ميزوا السرقة من الاختراع في المعاني ، كما سيأتي في موضعه .



## الاختراع والاتباع

لم يغفل علماء الأدب العربي عن معنى الجهبذة والنبوغ المبقري ، وهم يسمون ذلك بقسميه الاختراع والإبداع ، والفرق بينها عندهم أن الاختراع خلق المعاني التي لم يسبق إليها والإتيان بما لم يكن منها قط ، والإبداع إتيان الشاعر بالمعنى المستظرف والذي لم تجر العادة بمثله ، ثم لزمته هذه التسمية حتى قيل له بديع ، فصار الاختراع للمعنى والإبداع للفظ ، قالوا : فإذا تم للشاعر أن يأتي بمعنى مخترع في لفظ بديع فقد استولى على الأمر وحاز قصب السبق ( ج ١ ص ١٧٧ : العمدة ) وإنما ذلك معنى شخصية الكلام التي تميزه وتجعله خلقاً وابتكاراً فيكون عملاً ذاتياً يدل على صفة شعرية متخصصة ، وليس يصح لقب الشاعر لغير هذه الصفة وإلا فهو منتحل أو مقتصب . واشتقاق الاختراع من التلين ، يقال : بيت خرع إذا كان ليناً، والخروج منه ، فكان الشاعر سهل طريقة هذا المعنى أو لينه حتى أبرزه ، وأما البديع فهو الجديد ، وأصله في الجبال ، وذلك أن يُقتل الجبل جديداً ، ليس من قوى جبل نقضته ثم فتلته فتلا آخر .

والاختراع في شعر العرب مما يظلمون به عند المحدثين والمولدين ، لأن أولئك أهل البادية وتربية العراء وشعراء الفطرة ، وهؤلاء أهل الحضارة التي تفتق القرائح بما تنوعه من المآخذ المختلفة ؛ ولذلك كانت المعاني قليلة في شعر الجاهليين تكاد تحصر لو حاول ذلك محاول، وإنما نريد المعاني التي لا يشتركون فيها بطبيعة الاجتماع ، والتي لو اختلطت جميع أشعارهم لتزايلت وانفصل

بعضها عن بعض، فكأن كل معنى قلب فيه سر حياة القصيدة أو القطعة،  
كقول امرئ القيس :

سموت إليها بعد ما تام أهلها      سموّ حباب الماء حالاً على حال

فهذا المعنى الذي لا تصوره إلا الحواس الدقيقة ، قد سلمته له الشعراء  
جميعاً فلم ينازعه فيه أحد ، وقد مكن مزية الاختراع فيه أنه وصف طبيعي  
ثابت لا يطوارح في التوليد والتشويق إلا بالعنت والاستكراه، ومن أجل ذلك  
لم يأخذه أحد إلا فضحه ؛ وسلم به في ترجمة امرئ القيس .

وقد جاء المخضرمون ولا مزية لهم على شعراء الجاهلية في الاختراع ، ثم  
جاء بعدهم شعراء الصدر الأول من الإسلاميين فزادوا في ذلك بعض الزيادة  
بما مكنتهم منه الحالة الدينية ، ثم كانت طبقة جرير والفرزدق والأخطل  
وأصحابهم فذهبوا في التوليد والإبداع والاختراع مذهبا واضحا ، وطرقوا  
لذلك طريقا سابلة ، ثم أتى أبو المحدثين بشار بن برد وأصحابه فنظروا إلى  
مفارس الفطن ومعادن الحقيقة ولطائف التشبيهات فأحكوا سبها وساروا  
إليها بالفكر الجيد والغريزة القوية ، وقد التقى إليهم طرفا العربية في منطقة  
البداءة الزائلة ومفتح الحضارة الثابتة ، فأصبح شعرهم خلقا جديدا ، ووقف  
شعر من قبلهم عند الاستشهاد بألفاظه ، حتى لتجرت اللفظة الواحدة قصيدة  
بطولها . وكان من افتتان هؤلاء المحدثين أن نصبوا لأنفسهم منزلة تضارع  
المنزلة التي وقف عندها الشعر القديم ، فصار يستشهد بهم في المعاني كما  
يستشهد بالقدماء في الألفاظ ، وعلماء الأدب مجمعون على أن أكثر الشعراء  
المولدين اختراعاً وقوليداً ، أبو تمام وابن الرومي .

وهذا الأخير كان ضنينا بالمعاني حريصا عليها : يأخذ المعنى الواحد  
ويولده فلا يزال يقلبه ظهراً لبطن ، ويصرفه في كل وجه وفي كل ناحية ،  
حتى يميتة ويعلم أنه لا مطمع فيه لأحد يتخصص به ويزيد بذلك مادة النبوغ  
المبقر في شعره ؛ وقد تجدد من يحيى بعده ممن لا يعد في طبقته قد أخذ  
هذا المعنى بعينه فولد فيه زيادة ووجهه جهة حسنة تدل البصير بالصناعة على

أن ابن الرومي مع شرهه لم يتركها عن قدرة . وقد ذكر ابن رشيق في موضع من كتابه ( العمدة ) عزمه على تأليف كتاب يحصي فيه معاني الجاهلية ويذكر ما انفرد به المحدثون وما شاركهم فيه المتقدمون ، كصفات النجوم ومواقعها ، والسحب وما فيها من البروق والرعود ، والغيث وما ينبت عنه ، وبكاء الحمام ، وكثير مما لم يتسع له كتاب العمدة ، وشرط [ على نفسه ] في ذلك إحصاء المخترعات للمحدثين وإقامة البرهان منها على أن ابن الرومي أكثر الشعراء اختراعاً . وابن رشيق [ أهل لهذا ] التأليف ، ولكننا لم نعرف عنه خبراً غير ما ذكره هو .

والمعاني بما فيها من صفة الحياة وفسحة الروح خاصة كالأحياء لناوس الانتخاب الطبيعي الذي يقضي بتنازع البقاء، ولولا ذلك لأقفل باب الاختراع والتوليد ، لأنه إذا اقتصر الناس على طبقة واحدة من الشعر ولم يكن في طباعهم ما يساعد معنى من الكلام على إماتة معنى آخر أو إسقاطه والحلول محله لم يبق من الكلام ما يتفتح للتوليد ، ولم يبق من القرائح ما يتمخض للولادة ؛ ولو تتبعت معاني الشعر السائرة ورتبتها ترتيباً تاريخياً على العصور التي قيلت فيها ، لأمكنك أن تضع من ذلك تاريخاً لهذه الوفيات المعنوية ، ومن أمثلة ذلك ما قاله الجاحظ أن الناس كانوا يستحسنون قول الأعشى :

تشب لمقرورين يصطليانها      وبات على النار الندى والمهلق

فلما قال الحطيئة :

مق تآته تعشو إلى ضوء ناره      تجد خير نار عندها خير موقد

سقط بيت الأعشى ( ج ١ - البيان والتبيين ) مع أن بيت الحطيئة مولد من قول الأعشى ، والتوليد أن يستخرج الشاعر معنى من معنى شاعر تقدمه أو يزيد فيه زيادة ، وليس باختراع لما فيه من الاقتداء بغيره ، ولا يقال له أيضاً سرقة إذا كان الشاعر ليس آخذاً على وجهه .



## الاتباع وأنواعه .

فالتوليد اتباع ، ولكن هذا الاتباع على نوعين : اتباع في طريق المعنى ، واتباع للمعنى نفسه ؛ والأول يكون إلاماً وملاحظة واسترواحاً ، والثاني لا يكون إلا غصباً وسرقة واستكراهاً ، وذلك دليل البلادة وسقوط الهمة وضعف القدرة والعجز ؛ وقد ذكروا للاتباع في الشعر أنواعاً سموها بأسماء خاصة ، وهي ألقاب محدثة وضعوا أكثرها في القرن الرابع وذكرها الحاتمي في حلبة المحاضرة ، وتبسط فيها ابن رشيق ( ص ١٦ ج ٢ : العمدة ) وأورد مثلاً لكل من هذه الألقاب فارجع إليها إن شئت .

ولا غنى للشاعر - جاهلياً أو إسلامياً - عن اتباع غيره من الشعراء ، وأول ذلك الرواية ، وقد كانت شائعة إلى أن انتشر الخط وكثرت الدواوين فصار الشعراء يتلقون عنها ، وقد وقفنا على أسماء بعض الشعراء الذين رووا لغيرهم وتخصصوا بهذه الرواية لهم مبعثرة في بطون الأوراق فجمعناها ، وهي على قلتها كافية في الدلالة ، فمنهم امرؤ القيس ، كان راوية أبي دؤاد الإيادي ( ص ٦١ ج ١ : العمدة ) ، وكان زهير راوية أوس بن حجر ، وهو زوج أمه وطفييل الغنوي ( ص ١٣٢ و ١٥٥ ج ١ : العمدة ) وكان الحطيئة راوية زهير وابنه ( ص ٧٨ ج ٧ : الأغاني ) ولم يقتصر على الرواية لهما بل كان يروي شعر الجعازيين أيضاً وكان منقطعاً لهم ( ص ٣٤ - الطبقات ) وكان هدبة بن الحشرم راوية الحطيئة ، وجميل راوية هدبة ، وكثير راوية جميل ( ص ٨ ج ٧ : الأغاني ) وبلغ من اعتباره إياه أنه كان إذا استنشد لنفسه بدأ فأنشد لجميل ( ص ١٣٢ ج ١ : العمدة ) وكان أبو ذؤيب الهذلي راوية ساعدة بن جوية الهذلي ( ص ١٥٤ : الطبقات ) ولا نظن استغراق هذا الباب ممكناً إلا أن يكون قد كتب فيه أحد المتقدمين من أئمة الأدب .



## شَيَاطِينُ الشَّعْرَاءِ

نذكر في هذا الفصل ما يعتقد العرب من قول الجنّ على ألسنة الشعراء ولا نجاوز ذلك ، لأن استيفاء هذا البحث خاص بالتكاذيب ( الميثولوجيا ) ولهم من هذا القبيل عقائد وعادات كثيرة سنشير إليها في ذلك الموضع .

لم يكن الشعر في فحول أهله من العرب لفظاً لسان يطير ويقع ، ولكنه كان حسباً ونسباً ، وكان الشعراء هم أهل التاريخ ، فإذا لم يستطع الشاعر أن يرفع ويضع ، وأن يبعث لسانه مع الموت الى الموتى بحيث يكون كما وصفوا الجنّي بأنّ فيه يتأجج ناراً ، فذلك الساقط المغمور ؛ من أجل هذا كان ينجح الشعراء إلى اعتقاد أن شعرهم أحرف نارية تلقي بها الجن على ألسنتهم ، وأنهم إنما يتناولون من الغيب ، فهم فوق أن يُعَدَّوا من الناس ودون أن يحسبوا من الجن ؛ فإذا جاء أحدهم بالقصيدة البارعة ، ورمى بالكلمة النافذة ، ضرب قلبه أنها من هناك ، وأنه إنما يؤديها عن لسان قائلها ، فيكون ذلك مدعاة الى توكيد الثقة والاعتداد ، والى الذهاب بالنفس ونفرة الأنف ونحو ذلك مما هو من كِبَر القرائح وترفع العقول . والعرب فيما حكاه أبو عبيدة يعرفون الجنّيّ بأسماء ، فإذا كفر وظلم وتعدّى وأفسد قبيل شيطان... الخ ، وقد يسمون الغضب شيطاناً ، ومن ذلك قول أبي الوجيه العكلي في أمر : كان ذلك حين ركبني شيطاني ! قبيل : وأي الشياطين تعني ؟ قال : الغضب ! كما يسمون به الكبر ، ومنه قول عمر : لأزعنّ شيطانه من تغرته ؛ وكذلك يريدون بالشيطان في بعض معانيه الفطنة وشدة العارضة ( ج ١ - الحيوان ) فيكون ما جاء في الشعر من ذكر شياطين الشعراء على وجه المثل ؛ لأن كل

الصفات التي سبقت إنما هي خصيصة بالشاعر قبل الشيطان ؛ وعندنا أنهم أخذوا هذا الاعتقاد من الكهانة وهي أقدم فيهم من الشعر ، وكان لكل كاهن نجي يسمونه الرئي والتابع ، فذهب الشعراء هذا المذهب وسموا شياطينهم أو سماها لهم الرواة ... كما ستعرف . وقد درج شعراء الأمم على استعانة القوى الغيبية من قديم ، لأن البيان وحى ، ولأن الشعر يكاد يكون تفاعلاً روحياً من امتزاج روح الشاعر بروح أخرى ، إذ هو كالحالة الطارئة على النفس : تشعر بها وقتاً دون وقت ، وفي موضع دون موضع ؛ فكان شعراء اليونان والرومان يستدعون في أوائل منظوماتهم ( Les Muses ) وقد اصطالحوا على تسميتها بألهة الشعراء أو عرائسه أو ربوات الأغاني ، ولهم في هذه العرائس أساطير منقولة ( انظر شرح الجزء الثالث من الديوان ) وقد انسحب على آثارهم المتأخرون من شعراء الأوربيين ، فهم يسمون ربة الشعر ، بالمشدة الساوية ، ونحو ذلك مما يتوكأ عليه القلب ويلوذ به الاعتقاد .

والعرب لم يكونوا يفتتحون في أشعارهم باستدعاء تلك القوة الغيبية أو الاستمداد منها ، كما فعل اليونان والرومان ، ولكن ذلك كان لا يجاوز الاعتقاد وحركة النفس كبراً وغروراً ، وكان ذلك فيهم قبيل الإسلام ؛ ونظن أن الذي اخترعه الأعشى ؛ لأنه أول من احترق الشعر وجعله تجارة ؛ إذ هو لم يكن مكفي المؤنة ولا سري التكسب كالنابغة ؛ وقد ذكر صاحب القاموس أن جهنم تابعة الأعشى - أي شيطانه - وهو نفس لقب عمرو بن قطن من بني سعد بن قيس بن ثعلبة ، وكان يهاجي الأعشى ، فكأنه شيطانه لأنه لا يزال يبيجه ويبعثه على الشر ، ولعل هذا هو الأصل . ثم اتخذ الأعشى بعد ذلك مسحلاً ؛ أما ما نسب من ذلك الى أوائل الشعراء كما مرء القيس ، وما زعموا من أن له قصائد ومطارحات مع عمرو الجني وأن شيطانه لافظ ابن لاحتل ، فهو من تخرصات الرواة وما يجيئون به استيفاء لهذا البحث الخرافي وتكثرأ من النظائر والأشياء في الروايات ، ولهم في ذلك أخبار ذكر بعضها صاحب جمهرة أشعار العرب وصاحب كتاب آكام المرجان وغيرها .

ونحن ذاكرون ما وقفنا عليه من أسماء شياطين الشعراء ، إذ هم جعلوا ذلك مادة في تاريخ آدابهم :

قالوا إن لافظ بن لاحظ هو صاحب امرئ القيس ، وهيبه صاحب عبيد ابن الأبرص وبشير بن أبي حازم ، وهاذر بن ماهر صاحب زياد الذبياني ، وهو الذي استنبغه وهو أشعر الجن وأضنهم بشعره ؛ فالعجب منه كيف سلسل لذبيان به ...؟ ( ص ١٩ - الجمهرة ) ، ومسحل بن أئانة صاحب الأعشى ، وجهنم صاحب عمرو بن قطن ، وعمرو صاحب الخجل السعدي وصاحب حسان بن ثابت من بني الشيبان ، ومدرك بن واغم صاحب الكميت ؛ قالوا وكان الصلادم وواغم من أشعر الجن ، وسنقناق صاحب بشار ؛ وذكر جريز أنه يلقي عليه الشعر مكتهل من الشياطين ؛ والفزردق يقول إن لسانه لسان أشعر خلق الله شيطاناً ، ولكنها لم يسميا هاجسيها .

وقالوا إن رجلاً أتى الفزردق فقال : إني قلت شعراً فانظره ، قال أنشد ، فقال :

وفيهمُ عمر الحمودُ نائله كأنما رأسه طين الخواتيم

فضحك الفزردق ثم قال : يا ابن أخي إن للشعر شيطانين يدعى أحدهما الهوبر والآخر الهوجل ، فمن انفرد به الهوبر جاد شعره وصح كلامه ، ومن انفرد به الهوجل فسد شعره ، وإنها قد اجتمعا لك في هذا البيت فكان معك الهوبر في أوله فأجدت ، وخالطك الهوجل في آخره فأفسدت ( ص ٢٤ - الجمهرة ) .

وكانوا يسمون الشعراء كلاب الحي ، وأول من لقبهم بذلك عمرو بن كلثوم في مقوله :

وقد هرت كلاب الحي منا وشذبنا قتادة من يلينا

والرواية التي أتت كلاب الجن خطأ ، لأن المراد بكلاب الجن شعراؤهم

وهم الذين ينبحون دونهم ويحمون أعراضهم كما ذكر الجاحظ ( ج ١ - الحيوان )  
وقد تابعه الشعراء على هذه التسمية ، لأن كل هجاء منهم يفخر بأنه عقور...

ولم يلتفت المحدثون من الشعراء بعد بشار بن برد لأمر هؤلاء الشياطين إلا  
ما يجيء لهم من سبيل الفكاهة والبادرة ، ولكنهم لم يدعوا الاستعانة بأسماء  
الله في رأس القصيدة ، فيكتبون اسم الفتاح أو العليم أو المعين ، أو يبتدئون  
بالبسملة ، وقد درجوا على ذلك الى اليوم ، وبخاصة في العراق .



## طبقات الشعراء

يقسمون الشعراء باعتبار عصورهم الى أربع طبقات : جاهلي قديم .  
ومخضرم ، وهو الذي أدرك الجاهلية والإسلام . وإسلامي . ومحدث . قال  
ابن رشيقي : ثم صار المحدثون طبقات : أولى ، وثانية مع التدرج ؛ وهكذا  
في الهبوط ؛ ويسمى المحدثون بالمولدين أيضاً ، وبعضهم يطلق هذا اللقب على  
الإسلاميين ويخصه بهم .

وأصل المخضرم عندهم من أدرك الجاهلية والإسلام ، ثم أطلقوه على هذه  
الطبقة ، فقالوا شاعر مخضرم ، قال ابن بري : أكثر أهل اللغة على أنه مخضرم  
- بكسر الراء - لأن الجاهلية لما دخلوا في الإسلام خضرموا آذان إبلهم :  
قطعوا أطرافها ، ( وكان أهل الجاهلية يخضرمون نَعَمهم ، فلما جاء الإسلام  
أمروا أن يخضرموا من غير الموضع الذي يخضرم فيه أهل الجاهلية ) لتكون  
علامة لإسلامهم إن أغير عليها أو حوربوا ؛ وأما من قال : مخضرم - بفتح  
الراء - فتأويله عنده أنه قطع عن الكفر الى الإسلام ( تاج العروس  
ج ٧ ص ٢٨ ) .

وأشهر المخضرمين لبدي ، وحسان ، والحطيئة ، والنابغة الجعدي ،  
والخنساء . ثم شعراء الجاهلية عند بعض العلماء ثلاث طبقات ، يعدون في  
الأولى : أصحاب السبع الطوال على المشهور ، والنابغة ، وأعشى قيس ،  
والمهلل ، وعدي بن زيد ، وعبيد بن الأبرص ، وأمّية بن أبي الصلت ؛ وفي  
الطبقة الثانية : الشنفرى ، وأبو دواد ، وسلامة بن جندل ، والمثقّب العبدي ،

والبراق بن روحان ، وتأبط شرا ، والسموول بن عادياء ، وعلقمة الفحل ،  
والحارث بن عباد ، وخداش بن زهير ، وعروة بن الورد ، والأسود بن يعفر ،  
وحاتم الطائي ، وأوس بن حجر ، ودريد بن الصمة ، والحنساء ؛ ولا يعدون  
من الطبقة الثالثة غير لقيط بن زرارة . وهذا التحديد يسقط كثيراً من شعراء  
الجاهلية وشواعرهم . وهم إنما قسموم على رتبهم في الإجدادة كما يقولون ؛ ثم  
إن من يقف على مجازفتهم في التفضيل بالقطعة والبيت ، بل وينصف بيت ،  
لا يرى في هذا التقسيم إلا أنه رأى مرسل كما اتفق ، لا كما تجري به الأدلة  
وتسيثره البراهين ؛ ولهم بعد كلام كثير فيمن هو أشعر العرب ، تجده مبعوثاً  
في سطور الكتب ، وهو مما لا يؤخذ به لأن سبيله سبيل ذلك الرأي ؛  
وعندنا أن قولهم فلان أشعر العرب لبيت كذا أو لقصيدة كذا ، محمول على  
المبالغة في الاستحسان ، كما يقولون أشعر الإنس والجن ونحو هذا ؛ فكأنهم  
يمدحون الشاعر بكلام على مذهب الشعر .

وشعراء الجاهلية معروف أكثرهم ، والمخضرمون معروفون جميعاً ، ولكن  
الإسلاميين لا يعرف منهم إلا عدد قليل ، وذلك راجع للفتن الإسلامية التي  
صرفت قرائحهم واستأصلت أكثر أهل الاستعداد منهم ، كما سنبينه  
في موضعه .

أما المحدثون فلم يسقط من مشاهيرهم أحد ، وقد وضعت لهم كتب  
التراجم في عصورهم المختلفة الى اليوم ، وسندكرها في « باب التاريخ » إن  
شاء الله .



## الشاعرات (\*)

كان ابن أبي ذؤاد يقول : ليس أحد من العرب إلا وهو يقدر على قول الشعر ، طبع ركب فيهم ، قلّ قوله أو كثر ، فإن صدق هذا على رجالهم صدق على نساءهم ، إذ الطبع واحد واللغة متفقة والغريزة لا تختلف ، وإنما يتفاوت الجنسان في فنون القول لا في القول نفسه ، ثم في براعة الصناعة من جهة قوة الشعر وسبكه ورففه والتثامه ، ومن ناحية المعنى وصحته والإبداع فيه ؛ أما في استقامة الألفاظ وفصاحتها ، وفي استقامة الأوزان الشعرية بعضها أو كلها فما أحسب ذلك يعمي أحداً منهم رجالاً ونساء متى أراد وحمل طبعه عليه ، إن لم يكن في جميعهم ففي أكثرهم ؛ ولهذا كان الذي

---

(\*) قلت : هذا الفصل من باب الشعر له صورتان فيما تحتي يدي من ( الأصل ) المکتوب بخط المؤلف ، إحداهما بعنوان « شاعر العرب » والثانية هذه التي نشرها هنا . وقد آثرت هذه بالنشر دون تلك ، إذ كان فيها ما يعني عن الأخرى في موضوعها ، وإذ كانت أحدث عهداً في الكتابة كما حققت ، على أن هذه الصورة نفسها التي آثرتها بالنشر ، كان فيها صفحة مكررة ، وقد بدا لي أن إحدى الصورتين من هذه الصفحة كانت تعديلاً للأخرى . فحذفت من إحداهما ما كان مكرراً في الثانية ووصلت الكلام بعضه ببعض بحيث تتلاحق المعاني من غير أن أزيد شيئاً فيها أو أنقص ؛ ثم بقيت بعد ذلك فقرة من الصفحة التي طويتها لم أجد لها مرادفاً في أختها فرأيت أن أثبتتها في الهامش عند الموضع الذي يناسبها من الكلام .

وقد عانيت ما عانيت في قراءة خط المؤلف في هذا الفصل حتى نشرته على الصفحة في جلته ، ولكن كلمات عييت بها ولم أستطع قراءتها على وجه تظمنن إليه نفسي ، فكتبتّها على الظن بين العلامتين [ ] لأخرج من تبعه التقصير .



قصر بالشعر العربي وجعل أكثره متخلفاً لا يثبت على أفواه الرواة - كثرته  
وتعاطي كل أصوله ، حتى العامة والسفلة ؛ وما من قائل إلا وهو معدٌّ لقوله  
سامعاً ، ولا من سامع إلا وهو يحفظ ويروي بعض ما سمع ، فقد خرج الأمر  
إلى أن صار كالعادة والطبيعة ؛ وإذا وجدت أمة كلها شعراء تساقط شعراؤها  
حتى لا يثبت منهم ولا يتفرد إلا من كان فوق الطبيعة وجاء من وراء العادة  
فيما قالوا وفيما سمعوا ، أو من احتاجوا أن يعتبروه كذلك الأمر من أمورهم  
كما يحتاج أهل المملكة إلى الملك ، وما هو بنفسه صار ملكاً ولكنه بما  
رضوا وخضعوا وبما سمعوا وأطاعوا .

فهذا سببان إن وقعا في حكم الشعراء من الرجال لم يتفق أحدهما ولا  
كلاهما للشاعرات من النساء ؛ إذ كانت المرأة دون الرجل في هذه القوة ،  
فلا هو ينقلب أنثى ولا هي تنقلب رجلاً ، ثم كان لها من الشأن في التاريخ  
على مقدارها ، فما قط عرفت شاعرة أخملت شعراء دهرها ، ولا كاتبة غطت  
على كتاب زمنها ، ولا عرفت مثل هذا في الأدب ولا في الرواية ولا في شيء  
من هذه الصناعة بوسائلها وأسبابها ، فكانت الطبيعة نفسها حجاباً مضروباً  
على النساء قبل الحجاب الذي ضربه الرجال عليهن .

بهذين السببين قلّ الشاعرات من النساء طبيعة ، ثم زادهن قلة في العرب  
أن تاريخ النساء فيهم كان [ ينشئ ] جزءاً من تاريخ السيوف ، فكانت المرأة  
العربية كأنها طبيعة من طبائع النعمة ؛ إذ لم تكن إلا عرضاً يُجَمَى بالسيف  
أو عرضاً يُسَلَّب بالسيف ، وجعلها ذلك منهم بمنزلة الذاكرة من وقائع  
التاريخ ، فهي التي تذكرهم النار وأيام الدم ، وهي التي لا تنسى شيئاً مما  
حياتها له الطبيعة الاجتماعية في أرضها وقومها ، فإن كانت لم تمش إلا في ظلال  
السيوف ، وإن كانت أما لم تلد إلا قاتلاً أو مقتولاً ، فهي في الأولى يتصل بها  
تاريخ القتل من أهلها ، وفي الثانية تتصل هي بتاريخ القتل من ذويها ؛ فمن ثم  
انصرفت عن الشعر إلا في أخص شئونها ، وشغلت من الخيال بإحساسها  
الذي لا هم لها إلا أن تستمد من الحوادث لتوقع منه حوادث مثلها ، سيئة  
بسيئة ؛ فهي بعيدة عن القول بمقدار قربها من العمل .

ولذلك بنيت المرأة العربية على أخلاق شديدة ، لمكان الطباع والعادات والحوادث التي أنشأتها [ وانحدرت ] فيها وجرت عليها ، فجاءت في مثل تركيب الصحراء : إن يكن فيها ساعات ندية من الليل وضوئه ونسجه وأحلامه ، ففيها نهار يصبّ النار على [ الأحياء ] ملء أفطار السموات ، كأنه لم يقسم لها إلا شدة الحب وشدة البغض ، تجري فيهما على أسباب وعلل مذ صارت جزءاً من طبيعتها الثانية فتستفرغ فيها كل وسائلها وتبلغ بها ما بلغت قواها . فتنتهي إلى خلقين ثابتين : شدة الجزع ، وشدة الصبر ؛ وكل ذلك مما لا يترك للشعر في طبعها إلا مكاناً محدوداً في معانٍ محدودة .

وسبب رابع في قلة الشاعرات عند العرب ، وهو أن كل قبيلة إنما تعدد الشاعر لسانها السياسي ، وتعدده للخصومة في تاريخها والنضج عن أحسابها ، وتنال به ما ينال الأسد من أنيابه ، فهو منهم إن أرادوه كان المعنى المتوحش في المعنى الإنساني ، وإن أرادوه [ لأفئدتهم ] كان المعنى الإنساني في المعاني الوحشية ولذلك يسمون الشعراء « أظفار العشرة » . والمرأة لا تصلح ظفراً ولا ناباً ، ولا تحسن أن تمضغ لحوم الأعداء في هجائها ، ولا أن تأتي بالكلام الذي تترقرق فيه دماؤهم ، ثم هي نفسها [ جزءٌ ] تقع عليه الخصومة بينهم ، وفيها أكثر المعاني التي يستبثون بها ، بل هي أم هذه المعاني ... ثم كانت [ طبيعة جنسهم ] أن ينشئوها في الحلية لا في الخصام ، وأن يجعلوها فاكهة العيش لا ثمره المر ، وكل هذه حدود تتراجع فيها حدّاً وراء حد ، والشعراء منطلقون من جميعها (\*).

(\*) قلت : بخط المؤلف في بعض الصفحات من الأصل قرأت العبارة التالية ، فرأيت إثباتها هنا .

« ... ثم إن هذه اللفظة في العربية فعולה في أكثر ألفاظها وأساليبها ، لا تلائم أوثق النساء ، فهذا سبب آخر في اقتصارهن على الرقيق المأنوس مما يجري في المعاني الرقيقة ولا يصلح لغيرها كالرثاء والغزل ونحوهما ... »

والعرب لا يرون كل من تقول الشعر شاعرة ؛ إذ كان ذلك طبيعياً فيهم وإنما الشأن فيمن تتخطى حدود الحجاب الطبيعي وتكثر من القول وتتصرف في فنونه ومعانيه بما يتعدد من حوادثها ومصائبها ؛ فتلك هي الشاعرة عندهم لا غيرها ، وبذلك جرت لهم العادة في السماع والرواية ؛ إذ المصائب تجعل المرأة في [ جَوّ ] الرجل أو قريبة منه ، بما تضيف إليها من الشعور وبما تبعثها عليه من العمل ، ثم هي في تلك الحال إنما تدون لهم بعض التاريخ وتزيدهم لساناً في رواية المفاخر ، ومن هذه الجهة تشبه الشعراء ، فيتناشدون شعرها ويستمعون إليها ، وتنبغ بالمصائب ثم تكون ندرتها فيهم نبوغاً آخر ، وقبلها تقدمت المرأة عندهم في باب من أبواب الكلام أو العمل إلا كانت غريبة نادرة ، وهي سنة طبيعية في التاريخ انتفعت بها النساء الشاعرات إلى يومنا هذا ؛ فإن الشيء الغريب لو لم تكن له قيمة لكفى بغرابته قيمة فيه .

وكان نساء العرب يقلن الشعر في معانٍ متقاربة يرجع [ أكثرها ] إلى إحساس المرأة وحسن تصريفه بين عقلها ولسانها ؛ ولم يكن لهن من معاني الشعر غير الرثاء وبعض الغزل ، وشعر ترقيص الأطفال ، وشعر التحضيض يثرن به نخوة الرجال ويحضضهم على طلب الثأر والثبات والاستماتة في الحرب ؛ وقد تجعل المرأة جسمها قصيدة مع شعرها في التحضيض ، كالذي فعلته ابنتا الفيند الزماني ، فقد قالوا إنه لما اشتدت الوغى يوم التحالق وخاف بنو بكر من الفرار ، عمدت إحدهما إلى أنوابها فألقتها عنها وأقبلت عارية مجردة وجعلت تحض الناس وترتجز ، وفعلت أختها مثل ذلك ، فتحمس القوم ووثبوا يقاتلون قتالاً منكراً ؛ فهذه مادة من شعر النساء لا يستطيعها أبلغ الشعراء من الرجال .

والرجز الذي ارتجزت به إحدى هاتين هو الرجز المشهور :

نحن بنات طارق      نشي على الخارق

وهذه الأبيات تروى أيضاً لهند بنت عتبة أم معاوية بن أبي سفيان ، فقد

كانت ترتجز بها في وقعة أحد وخلفها النساء يضربن بالدفوف ؛ وهند هذه هي التي شقت بطن حمزة لما قتل ، وقد كان أسداً من أسود الله على قومها ، فاستخرجت كبده فلاكتها في فمها فلم تطق إساغتها فلفظتها ، وهذا من شر ما يعرف عن امرأة ، وليس يشبهه إلا ما فعلته ريحانة أخت عمرو ابن معديكرب الفارس المشهور ؛ وأم دريد بن الصمة فارس هوازن وسيد بني جشم ، فإنه لما قتل ابنها عبد الله بن الصمة لم تزل تعير أخاه دريداً وتحضه ، حتى نفر في طلب النار من غطفان ، فغزاهم وقتل منهم قوماً ، ثم أسر قاتل أخيه وأتى به إلى [ فناء ] أمه فقتله تحت عينيها ، فأحضرت السيف وجعلت تلحس الدم بلسانها إلى أن انقطع منه شيء وهي لا تشعر لعلبة الفرح عليها ؛ ومع هذا الظمأ إلى الدم لا يروى لريحانة شعر في ابنها ، ولا هي معدودة في الشواعر ، وإنما رثته أختها كبشة بنت معديكرب ، فأجزأت الحالة عن الأم ؛ ومن أعجب ما يروى عن شاعرة ، خبر عجوز تسمى خويلة ، وكان يدخل عليها أربعون رجلاً كلهم لها محرم بنو إخوة وبنو أخوات ، طرقتهم بنو واهن وبنو ناغب فقتلوا منهم ثلاثين ، فوقفت خويلة على مصارعهم ثم عمدت إلى خناصرهم فقطعتها [ ونظمت ] منها قلادة وألقنها في عنقها وخرجت حتى لحقت بابن أختها تستنفره للنار في شعر جاف [ مقتضب ] كخناصر قتلها ، رواه القالي في أماليه ( ص ١٢٧ ج ١ ) .

ومن أعجب شعر النساء القديم في الجاهلية الأبيات المشهورة المروية لليلي بنت لكيز الملقبة بالعفيفة ، وهي التي تصف فيها ابتدال الأعداء لعفافها بهذا البيت النادر :

قيدونى غلوني ضربوا ملس العفة منى بالعصا

وقولها « ملس العفة » من الكلام الذي لا يفنى التعجب من بلاغته ومن حسن التعبير فيه ؛ وكذلك أبيات جليمة أخت جساس ، وكان أخوها قتل زوجها كليباً بن ربيعة ؛ فلما اجتمع النساء يندبنه أخرجنها وحسبنها شامته لأنها أخت القاتل ، فبلغ ذلك إليها فقالت أبياتاً من أعجب الشعر :

جَلَّ عِنْدِي فَعْلُ جَسَاسٍ ، فَوَا  
 فَعْلُ جَسَاسٍ عَلَيَّ وَجَدِي بِهِ  
 لَوْ بَعِينُ فَفَقِئْتُ عَيْنُ سَوَى  
 يَا قَتِيلًا قَوْضُ الدَّهْرِ بِهِ  
 هَدَمَ الْبَيْتَ الَّذِي اسْتَحَدَّثْتَهُ  
 يَشْفِي الْمُدْرِكُ بِالثَّارِ ، وَفِي  
 إِنِّي قَاتِلَةٌ مَقْتُولَةٌ  
 حَسْرًا مِمَّا انْجَلَى أَوْ يَنْجَلِي !  
 قَاطِعَ ظَهْرِي وَمُدْنٍ أَجَلِي  
 أُخْتَهَا فَانْفَقَاتُ لَمْ أَحْفَلِ  
 سَقْفَ بَيْتِي جَمِيعًا مِنْ عَلِيٍّ  
 وَانْتَنَى فِي هَدْمِ بَيْتِي الْأَوَّلِ  
 دَرَكِي ثَارِي نُكَلِّ مَشْكَلِي  
 وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَرْتَاحَ لِي (١)

قال صاحب المثل السائر : وهذه الأبيات لو نطق بها الفحول المعدودون لاستعظمت ، فكيف بها من امرأة ! .

ولا يهولنك كثرة أسماء النساء اللاتي قلن شعراً ، فعمود الشعر عندهن الرثاء ، وليس هن إلا المقاطيع والأبيات القليلة ، ولم تبين منهن إلا الخنساء ولبلى [ الأخيلية ] ؛ وما شعرت الخنساء حتى كثرت مصائبها ؛ وكانت قبل ذلك كغيرها من النساء : تقول البيتين والثلاثة ، حتى قُتل أخوها صخر [ ... ] به من كان مثله ، فأجادت وأطالت ؛ لأنها أصبحت مصروفة المهم إلى نوع من الحب في نوع من الشعر ؛ وسمت همتها إلى أن صارت تعاضم العرب في مصيبتها بأبيها وأخوها صخر ومعاوية ؛ فصارت تشهد المواسم وقد سَوَّمت هودجها براية وتقول : أنا أعظم العرب مصيبة ! وتبكي أهلها وتنشد مرثيتهم فدارت أشعارها على الألسنة ؛ وقد قلدها في هذا الصنيع هند بنت عتبة ، فإنه لما قُتل أبوها وعمها وأخوها ، وبلغها ما تفعل الخنساء في الموسم وتسويها هودجها ومُعاضمتها العرب بمصيبتها ، قالت : أنا أعظم من الخنساء مصيبة ! وأمرت بهودجها فسوِّم براية ، وشهدت الموسم بعكاظ ، وجعلت تسأل عن الخنساء فدُلَّت عليها ، وجعلت كل منها تعاضم الأخرى وتنشد مرثي أهلها . فلو كان يُعرَف عندهم أشعر من هاتين لسَمَّوهن .

(١) كناية عن الموت .

وقد استفحلت الخنساء في رثاء أخيها صخر ، وكان أخاها لأبيها ولكنه كان أحبَّ إليها من معاوية وهو لأبيها وأما .

غير أن المصائب لا تجعل غير الشاعرة شاعرة ، ولا بد من تركيب ملائم في بعض الناس لتلقّي مادة الشعر عن الروح والقلب والطبيعة ، ولم يأت في شعر النساء [خاصة] أفحل ولا أجزل من شعر الخنساء ، كأن فقد رجالها جعلها رجلاً .

وكثير من أشعار النساء يضعه الرواة ويهينون له أخباراً يجري فيها ذلك الشعر ، ولكن ما تقوله المرأة في لوعتها لا يُحسن الرجل أن يقول مثله مها تكلف لذلك ولبسه على تصنُّع ؛ وبهذا تستطيع أن تميز الصحيح والمنحول من شعر النساء .

وقد [ يُنسيك ] لسان امرأة في مصيبتها زمناً إلى الحول إذا فجمعت بحبيبتها ، فلا تقول شيئاً مع قدرتها على القول ؛ لأنها لا تسلو ولا تفتيق ، ولا تريد أن تسلو ولا تفتيق ، كامرأة مالك بن عمرو الغساني ، فلما زوّجها بعد زوجها الأول نطقت ترثيه ليلة عرسها ؛ فكان شعرها طلاقها من بعلمها الثاني !

ومن نادر الشعر في مرثي النساء أبيات تروى لامرأة من بني الحارث ابن كعب كان لها طفلان من عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب ، وكان عبيد الله هذا عاملاً لعليّ بن أبي طالب على اليمن ، فوجّه معاوية إلى اليمن بسر بن أرطاة فأرشد على الطفلين ، فوارثها أمها تحت ذيلها ، فأخذها وذبحها تحت عينها ؛ فكانت تقول في رثائها ونديها أبياتاً ، منها :

يا من أحسَّ بُنيِّيَّ الذين هما

كالدُّرّتين تشظّى عنها الصدفُ

يا من أحسَّ بُنيِّيَّ الذين هما

سمعي وطر في فطري اليوم مُختطف

يا من أحسن بُنْيَيْيَ اللذين هما  
مُخُّ العظام فمخي اليوم مُزْدَهَفُ

ولا أبلغ في البلاغة ولا أحسن حكاية لصوت البكاء والندب من قولها  
« بُنْيَيْي » ، فهاتان الياءان المشددتان تعصران الدموع عصرأً وتصوران غصص  
العبرات مترددة في حلق الباكية أبداع تصوير .

ولم يكن نساء العرب يقلن في الغزل ووصف الهوى إلا قليلا ، لمكان  
المرأة بينهم وشدة الغيرة فيهم ، ثم لا يكون غزلهن إلا عفيفاً ، كهذه الأبيات ،  
التي رواها ثعلب لامرأة من العرب (\*) تقول فيها تصف خلوة مع حبيبها :

وبتنا خلاف الحي لا نحن منهم      ولا نحن بالأعداء مختلطان  
وبتنا يقينا ساقط الطل والندى      من الليل بُرْدًا يُمْتَنَةِ عَطِرَان  
ندود بذكر الله عنا من الصبي      إذا كان قلبانا بنا بردان (\*\*)

وهذا المصراع الأخير من أبداع الكنايات ومن أبلغ البلاغة العربية .  
فلما تحضر العرب ونشأت طبقة الشعراء العشاق ، وبدأ عصر القيان  
النادبات المغنيات - مثل جميلة وعزة الميلاء وسلامة الزرقاء ومن في طبقتهم -  
فشا الغزل في شعر النساء ، وكان يندر بعد ذلك أن تظهر الشاعرة المتفحّلة  
التي تجسري على سنة العربيات ، كليلى بنت طريف الشاعرة [ الفارسة ] التي  
كانت في أواسط القرن الثاني للهجرة ، وكانت تسلك في رثاء أخيها الوليد بن  
طريف الشيباني الخارجي مسلك الحنساء في رثاء صخر ، ولها الأبيات الطائرة  
التي منها هذا البيت البليغ المشهور في كتب النحاة :

أيا شجر الخابور ما لك مورقا      كأنك لم تجزع على ابن طريف

(\*) قلت : هي أم ضيفم البلوية .

(\*\*) قلت : الرواية المشهورة : إذا كان قلبانا بنا يجفان .

ولا غرابة في فروسية هذه الشاعرة وفصاحتها وجزالتها ؛ فهي من نساء  
الخوارج ، وهن في النساء الإسلاميات كالعزل في الجسم !

وللقيان النادبات تأثير بعيد في تاريخ الأدب ، لأنهن يتهاكن رقة وظرفاً  
وحباً ، وشعر الشاعرات منهن كخفقان القلوب ، كله مقاطيع لا قصائد ،  
وكان منهن من تجلس للشعراء تناقضهم وللأدباء تحاورهم ، كخلوب جارية  
يحيى بن خالد البرمكي ، وفضل الشاعرة جارية المتوكل ، ولم تكن تشعر  
الواحدة منهن حتى يتصل [ الهوى ] بينها وبين شاعر أو شعراء وكاتب أو  
كتاب ، تأخذ منهم وتدع ، وتعرف منهم وتكر ؛ وليس بعد الخنساء  
وليلي الأخيلية أشهر من فضل الشاعرة جارية المتوكل ؛ وروى صاحب الأغاني  
في أخبار سعيد بن حميد الشاعر الكاتب المترسل ، وكانت تهواه فضل ، عن  
إبراهيم بن المهدي ، قال : كانت فضل الشاعرة من أحسن خلق الله خطأ  
وأفصحهم كلاماً وأبلغهم في مخاطبة وأثبتهم في محاوره ؛ فقلت يوماً لسعيد بن  
حميد : أظنك يا أبا عثمان تكتب لفضل رقاعها وتفيدها [ وتُخَرِّجها ] فقد  
أخذت نحوك في الكلام وسلكت سبيلك ، فقال لي وهو يضحك : ما أخبت  
ظنك ... ! [ والله ] يا أخي لو أخذ [ أوائل ] للكتاب و [ أمثالهم ] عنها  
لما [ استغنوا ] عن ذلك .

ومن مضحكات فضل هذه أنها كانت تهاجي خنساء الشاعرة جارية هشام  
المكفوف ، وذلك ما لم نعرف له نظيراً في الأدب العربي ، فقد عرفنا أن  
الهجاء قد يلج بين شاعرين ، أو بين شاعر وشاعرة ، ولكننا لم نعرفه بين  
شاعرة وأخرى مثلها ، إلا ما قيل عن فضل وخنساء ؛ وكان هجاءهما  
نسائياً [ حياً ] وكانت كلتاها تستعين في ذلك بالرجال ؛ فكان أبو شبل  
عاصم بن وهب يعاون فضلاً ، وكان القصيري والحفصي يعينان خنساء ، وبهذا  
رجع الهجاء إلى حقيقته فصار بين رجال بعضهم وبعض .

وكان عند المتوكل شاعران غير فضل ، هما : بنان ومحبوبة ، غير أن  
السبق لفضل ؛ فهي شاعرة زمنها .



وعلى كثرة أسماء النساء الشاعرات في التاريخ الأدبي وروايتهم ؛ عن أبي نواس أنه قال : ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة منهن الخنساء وليلى ؛ وقول أبي تمام : لم أنظم شعراً حتى حفظت سبعة عشر ديواناً للنساء خاصة - لم ينته إلينا ولا ديوان واحد إلا المقطعات التي جمعت للخنساء ، وهي ليست ديوانها ؛ ولعل السبب في ذلك أن الناس لم يكونوا يحفلون بشعر النساء ، إذ كان شعر الرجال قد ملأ الدنيا وذهب المذاهب كلها في فنون الكلام وبلاغته ، وإنما كان يجمع بعض الرواة والعلماء أشياء من ذلك ، كالكتاب الذي جمعه أبو عبد الرحمن العتبي الشاعر البصري المتوفى سنة ٢٢٨ هـ من أشعار النساء اللاتي أحبين ثم أبغضن ، وكلمن من العرب ، وأشعار النساء للبرزباني ، وهذا الكتاب لا يزال موجوداً ؛ ثم ما ألف في طبقاتهن ، كالإمام الشواعر للأصبهاني المتوفى سنة ٣٥٠ هـ ، والنساء الشاعرات لعدة أدباء.

والمعجب أن الذين ألفوا في طبقات الشعراء لم يذكروا الشاعرات معهن ، لا في الحجاز ولا في الشام ولا في العراق ولا في مصر ولا في المغرب ولا في الأندلس ؛ وضربوا الحجاب عليهن ؛ إذ كان شعر النساء تظرفاً ، وإذ لا يكاد يعرف في التاريخ كله من تستحق اسم الشاعرة غير بضعة نساء معدودات أشهرهن من عددنا ؛ وإذا عرفت امرأة واحدة في عصر ؛ غطى عليها مائة رجل في حجاب من لحمى الرجال فلا تكاد تظهر ؛ فيا رحمتا لهؤلاء الضعيفات !



## تنوع الشعر العربي وفنونه

الشاعر إنسان منفرد في الناس ، وهو في نفسه عالم مجتمع من حيث تشبكت في نفسه علائق الموجودات وترتبط أسباب الحوادث وتتألف من ذلك كله صور مرتبة تلقىها إليه حقائق هذا العالم التي يستمد منها الشعر ؛ غير أن تلك الصور يدخل عليها ما يعترض الصور الحسية من الجمال والقبح على اختلاف أنواعها من الرقة والمناسبة والغلظة واختلال التركيب ونحوها ؛ وذلك تابع لتأثير العصور على الشاعر ومقدار ما يكون قد تخلف في عصره من أسباب الرقي الإنساني ، فإن جهد الشاعر أن يكتبه حكمة الخالق في خلقه - وليس العالم كله إلا تفسيراً مرتباً على أجزاء هذه الحكمة البالغة - فالعصر الطويل بمجواته التي تغير وجه الأرض إنما هو صفحة تطوى لتترك من المعاني ما تبني عليه صفحة أخرى ، وما هذا التشابه في حوادث العالم إلا نوع من الالتئام ؛ كما يتشابه الثوب في جملة نسجه ولكن قطعة منه لا تغني عن قطعة ؛ بل لا بد لظهور حقيقته من التئامها كلها على حسب ما يقدر له في كاله . وعلى ذلك يمكن تقسيم الشعر مطلقاً إلى ثلاثة أقسام باعتبار علاقة روح الإنسان بالقوى الغيبية ؛ وعلاقتها بأحوال الناس ؛ وعلاقتها بسائر الموجودات الأخرى ، لأن الشعر ليس أكثر من أن يكون لغة الروح ؛ فجميع أنواعه إلى هذه الأقسام الثلاثة ؛ وعلى مقدار ارتقاء كل أمة يكون مبلغ شعرها منها ؛ فالعرب في جاهليتهم كانوا منصرفين عن الفكر في حقائق القوى الغيبية ، مستسلمين للأوهام بحكم العادة ولذلك فقدت من شعرهم مادة الجمال الروحاني التي يتألق فيها نور السماء ، فكان شعراً مادياً لا يصف

المحسوس بأكثر من كونه محسوساً وإن تنوعت العبارات واختلفت الأساليب، وكذلك كانت علائقهم الاجتماعية بسيطة في أكثر أحوالها، لأنهم أهل بادية لا يختلطون بغيرهم ولا يعرفون من تاريخ العصور أكثر من عوائد أسلافهم الأقربين، فكأنهم في أوائل من عمروا الأرض، وكأنهم عند أنفسهم من آباء التاريخ؛ ولذلك جاءت فنون شعرهم غير مرتبة ولا مستقصاة، بل تنحصر في أنواع لا تكافئ ما يكون من العلائق في أمة راقية، وكانوا يعرفون ذلك النقص في مادة أشعارهم فوجهوا جهدهم وصرفوا قواهم إلى الفصاحة وتشقيق الكلام وتصريف اللغة؛ فبلغوا في ذلك منزعاً بعيداً؛ لأنها من الصناعات التي تلائم الظواهر النفسية، وكانت أحوالهم الاجتماعية كلها بعيدة عن أن يخاص عليها في قرارة النفس، فلما صادف ذلك الاتفاق منهم المشابهة التامة والمطابقة الصحيحة، نهضت به طباعهم الراقية إلى ما قصرت فيه عنهم سائر الأمم، لانصراف طباعها إلى غير ذلك وتوزع قوى الابتكار في أفرادها ونوابغها المدودين.

وبهذا يتضح لك خطأ ما حكاه ابن خلدان وأقره من اعتقاد أئمة الصناعة الأدبية أن ما لم يجر على أساليب العرب كشعر المتنبي والمعري ليس هو من الشعر في شيء؛ وهو يريد بأساليب العرب ما صرفوا إليه جهدهم بما وافق ظواهر أحوالهم على نقصه؛ وقد سقط في ذلك جمهور الأدباء حتى كبارهم كالجاحظ وغيره؛ فكان من هذا علة أصل الجمود الذي جعل الشعر العربي يضطرب في دورة الأزمنة لأنه لا يدور معها إلا قليلاً عندما يدفعه أهل القرائح المستقلة، ومدار الاستقلال في القريحة على نوع من الإبداع خاص بها هو الذي يقال فيه نفس فلان وروح فلان، فإذا اقتدت القرائح بعضها ببعض فقد استعبدت وذلت؛ لأنها تتبع آثاراً في طريق مصنوعة؛ ولكن طريق الإلهام لا أثر فيها إلا حس الأرواح بعضها ببعض، وليس يحق هذا الحس إلا خذلان من الله، فالقريحة المستقلة لا تتبع صفة قريحة أخرى؛ ولكنها تتبع الروح الملهم وتبين آثاره في الصنعة وتبالغ في تمييزها حتى تتجه إلى مصدر الإلهام؛ وذلك سر النبوغ العبقري.

وقد يتفق للجاحظ أن يحوم بخاطره حول المعنى المقصود من الشعر ولكنه لا يسقط إلا على أطرافه وأعالى فروعه ، وإنما يعنى عليه أنه ينظر الى أن الشعر عمل فرديّ مبدؤه الشخص وغايته الشخص ؛ وكان ذلك صحيحاً في العرب لأنه ينطبق على حالتهم الاجتماعية ؛ إذ كانوا أفراداً أو في حكم الأفراد ؛ وكانت كل أعمالهم تجري هذا الجرى ، فهم لا يغزون مثلاً مدافعة عن الحياة العامة للقبيلة ؛ أي من أجل باعث سياسي ؛ ولكنهم يغزون للحياة الفردية ؛ أي مدافعة عن العيش أو التماس له أو مغالبة عليه ؛ وكذلك هم في كل شأنهم ما دام قوام الاجتماع عندهم بالعصبية ، وقد ظهر أثر ذلك في شعرهم فهو شخصي في معانيه ، يمتاز بهذه الشخصية ، حتى لا تجد فيه الحوادث المركبة التي يرمى بها الى غرض عام ، كتاريخ قبيلة من القبائل ؛ والشعر التمثيلي الذي يُتَحَيَّل فيه على تصريف المعاني وسياسة الحوادث ؛ وكان ذلك سهلاً عليهم لو أنه في طبيعة معيشتهم ومن مقتضى نظامهم الاجتماعي ، أما فيما عدا ذلك ، أي في المعاني الشخصية ، فقد بلغوا في إجادتها مبلغاً يناسب إحكام اللغة وإتقانها ؛ وهو الذي يُخدع به الرواة حتى ظنوه كالأ إنسانياً كان مقسوماً للعرب فخصوا به وذهب في مآثر زمنهم ، لأن على أسلوبهم وشي الغريزة ، وفيه حوك الطبيعة ، وذلك معدوم في طبع من بعدهم بالضرورة ؛ ولما سُئل أبو عمرو بن العلاء عن المولدين قال : ما كان من حسن فقد سبقوا إليه وما كان من قبيح فمن عندهم ، ليس النمط واحداً ، ترى قطعة ديباج وقطعة [ نسيج ] وقطعة نطع ...

قال الجاحظ : عامة العرب والأعراب والبدو والحضر من سائر العرب أشعر من عامة شعراء الأمصار والقرى من المولدة وليس ذلك بواجب لهم في كل ما قالوه ؛ وقد رأيت ناساً منهم يبهجون أشعار المولدين ويستسقطون من رواها ؛ ولم أر ذلك قط إلا في راوية للشعر غير بصير يجوهر ما يروى ، ولو كان له بصر لعرف موضع الجيد ممن كان وفي أي زمان كان ... الى أن قال : والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي ؛ وإنما الشأن

في إقامة الوزن وتخيير اللفظ وسهولة المخرج، وفي صحة الطبع وجودة السبك؛  
فإنما الشعر صناعة وضرب من الصبغ وجنس من التصوير ...

ونقول إن الفرق بين المولد والأعرابي أن المولد يقول بنشاطه وجمع باله  
الآبيات اللاحقة بأشعار أهل البدو؛ فإذا أمعن انحلت قوته واضطرب  
كلامه . اهـ (ج ٣ ص ٤٠ : الحيوان) .

قلت : وإذا كان الشعر ضرباً من الصبغ وبنسباً من التصوير فلا ينبغي  
أن يكون كله ماءً ورونقاً ، وهو اللون البليغ الذي يريدونه ؛ لأن تصوير  
الحياة العامة يحتاج الى الألوان الكثيرة ؛ وربما دخل فيها أقبح الألوان فكان  
أحسن شيء ، لوقوعه مع المناسبة بين الألوان الأخرى .

على أن المحدثين قد خالفوا العرب في كثير من الشعر الى ما هو أليق  
وأمسّ بأزمانهم ، ولكن ذلك إنما كان من تأثير العصور عليهم ضرورة ولم  
يتجاوزوا به التشبيه والأوصاف ، أما فنون الشعر فبقيت على ما تركها  
العرب ، إلا ما كان من التصرف القليل في بعضها - كما ستعرفه - وأول من  
عد هذه الفنون وميز الشعر بها تمييزاً أخذ عنه ، أبو تمام ؛ فإنه رتب كتاب  
الحماسة في عشرة أبواب : هي الحماسة ، والمرائي ، والأدب ، والتشبيب ،  
والهجاء ، والإضافات ، والصفات ، والسير ، والملح ، ومعرفة النساء ؛ ثم  
جاء عبد العزيز بن أبي الأصبغ فجعلها بعد التبع والاستقصاء ثمانية عشر :  
وهي الغزل ، والوصف ، والفخر ، والمدح ، والهجاء ، والعتاب ،  
والاعتذار ، والأدب ، والخمريات ، والأهديات ، والمرائي ، والبشارة ،  
والتهاني ، والوعيد ، والتحذير ، والتحريض ، والملح ، وباب مفرد  
للسؤال والجواب .

وقد ذكر الثعالبي في ترجمة ابن حجاج الشاعر الهذلي الكبير وكان في  
القرن الرابع ، أن البديع الأسطرلابي رتب ديوانه على مائة وأربعين باباً  
وواحد ؛ ثم قفى كل باب وجعله في فن من فنون شعر الزجل ؛ ولكن هذه

الفنون غير متباينة في تنوعها ، بل ربما كان منها مائة نوع من الهجاء والسباب وحده ، والباقي في المديح وغيره .

فأنت ترى أن تلك الفنون جميعها متداخل بعضها في بعض من حيث الوصف الشعري ، وإنما هي أسماء نوعية تتباين مسمياتها بالحالة لا بالذات ، فإن الشعر في الأعم الأغلب واحد في جميع تلك المتناقضات والمتشابهات من حيث روحه وأسلوبه والمبدأ الذي يأخذ منه والغرض الذي ينتهي إليه ، ولكن أحواله متعددة بحسب اختلاف تلك الأنواع ، فإن حالة الرثاء وصفة الفجيرة مثلا غير حالة الشعر الحمري وصفة الطرب والانشراح .

ولكن تنوع الشعر في الحقيقة إنما يكون ذاتياً ، أي في الروح والأسلوب والمبدأ والغرض ؛ فروح الشعر هو نوع التأثير الذي يخلقه الشاعر فيه ، والأسلوب هو الطريقة التي يخصص بها نوع هذا التأثير ، والمبدأ هو المعنى النفسي الخاص الذي يكيف به الشعر المؤثر ، والغرض هو المعنى العام النفسي الذي يقصده من التأثير .

وبذلك يكون الشعر تمثيلاً حقيقياً للحياة ، لأن الحياة مجموع من العادات العملية والانفعالية والذهنية مرتبة ترتيباً منظماً يؤدي الى سعادة أو شقاء ، ويسوق الى الأقدار أيها كان ؛ والناس كذلك مختلفون في قيمة التأثير بأحوال هذه الحياة ، ونوع هذا التأثير ، وفي المبادئ الخاصة التي تبني عليها تلك الأحوال ، والأغراض العامة التي تساق إليها ، فالشاعر ينبغي أن يكون قوة من قوى الطبيعة التي تساعد في تكوين هذا الاجتماع على حالة من أحواله المختلفة ، والقوى الطبيعية كلها متغايرة متباينة ، ولكن هذا التغاير فيها إنما هو شكل الانتظام الذي قامت به الحياة . والذي يحتاج الى المطر لا يشترط في السحاب أن يجيء من هنا أو من هناك ، ولا أن يكون قد تصاعد من بحر كذا أو غيره ، ولا أن يساق بريح شديدة أو لينية ؛ وكذلك الشاعر لا يقيد في شعره بنوع أو حالة ؛ لأن الشعر قوة مؤلفة من عناصر دقيقة تنتظم بطبيعتها على النحو الذي يصورها في شكلها الملائم لتصريف مادة القوة فيها وعلى حسب ما يصرف الشاعر من هذه القوة .

فإذا اتفق الشعراء على شكل واحد وعلى أنواع معروفة لا تكافىء أغراض الحياة ، فقد سقطوا من منزلتهم الطبيعية المبنية على تنوع القوى ، وعند ذلك تظهر في مجموعة شعرهم الزيادة عن الحاجة الخاصة بأكثر مما يظهر فيه النقص عن الحاجة العامة اللازمة للاجتماع ، وتكون النتيجة من ذلك أن يضح أكثرهم [ من وقت الحرفة ] لأن المتفردين منهم بظهور القوة هم الذين يكونون شعراء الناس فيجتازون ، والباقيين يكونون شعراء أنفسهم فيغيبون في شعراء الناس .

وليس يؤخذ مما ذكرناه أن شعراء العرب لم يكونوا على بينة من حقيقة الشعر ، بل هم قد تبيينوها ولكن لم تمكنهم حالة عصرهم التفنن في أقسام الشعر وتنوعه على معاني الحياة الراقية ؛ إذ كانت هذه الحياة غير متيسرة لهم ، وكان ذلك حقاً على من جاءوا بعدهم ، ولكنهم إنما درسوا الشعر في الغالب لينوعوا به الحياة ، وكان الصحيح لو أثبتوا سنة العرب أنفسهم ودرسوا الحياة لينوعوا بها الشعر .

وسنأخذ في تاريخ أهم الأبواب التي فيها يدخل النظم العربي وهي : الهجاء ، والمديح ، والحماسة ، والرثاء ، والتشبيب ، والوصف ، والسياسة ، والحكمة ، والهزل ، وشعر الحكاية ، وشعر الترقيص . ونتبعها بفصل في الشعر العلمي ، وهو الذي تنظم فيه المتون والضوابط والكتب ، مقتصرين على تأريخ كل باب دون البحث في وجه المعنى وطريق صنعته ، فذلك من موضوع البلاغة ونقد الشعر .



## الهجاء

نحن في تأريخ هذه الأبواب لا نبسط فلسفة الأخلاق ، ولا نكتنه أسرار تركيبها نريد أن نلون أجزاء الصورة الإنسانية بالأصباغ حتى نعيّن منها ما يكون صباغة بالشعر وما لا يكون ؛ لأننا لو ذهبنا نُعيدّ لذلك لأدخلنا في هذا الكتاب كتاباً آخر ، وأحدهما لا محالة مخرج الثاني عن غرضه الذي وضع له ؛ فالكلام في الهجاء يحتمل كثيراً من فلسفة النفس ، كتعريف العيوب والردائل وما يتأثر بها من الأخلاق والأحوال التي يكون فيها هذا التأثير على اختلافه ليناً وشدة ، إلى ما يتصل بهذه المعاني أو يقارنها . فنحن نتجاوز ذلك كله الى التأريخ . وإنما نلم فيه بما لا يحسن بنا أن نتخطاه وإن ترامت أطراف الكلام ، وكان الإسراع وسيلة السائر فيه الى الأمام .

العرب أمة أخلاق ، لم تصفها الحضارة ، ولم يذهب بخشونتها النعم والترف ، فهي جارية طبيعة في مجرى العادات الوراثة الذي تخطّه المصور ويتحيّف جوانبه تيار الاجتماع ؛ وبديهي أن ذلك المجرى لا يكون مطرداً على اتساق ، بل هو يستقيم وينحرف ، وتلتئم جوانبه وتمزق على مقتضى سنة التكون الطبيعي الذي يرجع في كل ظواهره الى الاتفاق [ وقذفات ] الأقدار . لذلك يرى العربي نفسه خلقاً محضاً ، ولكن فطرة الحياة غطت على بعض جوانب منه وكشفت عن بعضها . فهذا يظهر منه جانب الكرم وإن كان شجاعاً ، ويظهر من الآخر جانب الشجاعة وإن كان كريماً ، وهلم جرّاً ، حقّ إنهم لا يُميزون بوصف من الأوصاف إلا من تناهى فيه ، وتجذ ذلك في أمثالهم ، فيقولون : أكرم من فلان ، وأشجع من فلان ، وأحلم



من فلان ؛ ولكنهم لا يميزون من يستجمع الفضائل الكثيرة ويكون كلُّها غالباً ظاهراً ، فلا يضربون به أمثالهم ، لأنه عندهم دون من يستغرق الخلقَ الواحد ويستوفي مناقبه على ما يعرفونها؛ فلما قضى عليهم نظام الحياة بالمغالبة ، كان جانب التنافس بالأخلاق أغلب فيهم على جانب المنازعة بالأعمال ، لأن العمل مظهر الخلق ، ولما يأتون شيئاً من أعمالهم إلا ابتغاء أن يُظهروا تلك الأخلاق أو يكتسبوا ما يساعدهم على المبالغة في إظهارها ، وذلك بيتن في حروبهم ومنافراتهم وكثير من عوائدهم ؛ فكان من الطبيعي أن يدعو إلى ظهور الهجاء .

ولهذا لم يكن الهجاء عند العرب في اعتبار السباب والإفحاش ؛ ولكنه سلبُ الخلق أو سلب النفس ، أو فصل المرء من مجموع الخلق الحي الذي يؤلف قومية الجماعة وتركه عضواً ميتاً يتواصفون ازدرائه ويجرّكه جسم الأمة حركة جامدة كلما نهض أو تقدم .

لا جرم كان للهجاء عندهم ذلك الشأن ؛ وعدوا بكاء الأشراف منه أول مكارمهم كما ستعرف ؛ وكان السباب والإفحاش فيه مما يحيله عن أن يكون هجواً ولا يضر المهجوة شيئاً ؛ فالهجاء عندهم قسبان : قسم يسمونه هجو الأشراف ، وهو ما لم يبلغ أن يكون سباباً مقنعاً ، بل هو [ التضريب ] بين الأحساب ، وتعليق الكلام على الأخلاق يمتص منها مادة الحياة ؛ وقسم هو السباب ، ولا يعبأون به لأنه هجو المهجوة بطبيعتهم وهم السفلة ؛ فليس ينجح إليه الشاعر إلا إذا عجز عن إصابة المعز الذي يكن فيه الألم من الموضوع الصحيح . ولما قدم النابغة بعد وقعة حسي سأل بني ذبيان : ما قلت لعامر بن الطفيل وما قال لكم ؟ فأنشدوه ؛ فقال : أفحشتم على الرجل وهو شريف لا يقال له مثل ذلك ؛ ولكني سأقوله ؛ ثم قال :

فإن يكُ عامرٌ قد قال جهلاً فإن مطية الجهل السبابُ

الأبيات ( ص ١٣٩ ج ٢ : العمدة ) فلما بلغ عامراً ما قال النابغة شق

عليه وقال: ما هجاني أحد حتى هجاني النابغة؛ جعلني القومُ رئيساً وجعلني  
النابغة سفيهاً جاهلاً وتهكم بي !

ولذلك السبب كان أليق ما يسمى به الهجاء ( شعر التاريخ ) لأن  
الهجاء مؤرخ يذكر مثالب الناس ومناقبهم ، ويقص من التاريخ ما يستعين  
به على إحكام معنى الهجاء ؛ حتى إنك لتقرأ كثيراً من الشعر الذي أثر عنهم  
في ذلك وفيه ذكر العادات وأخبار من التاريخ فلا تجد فيه شعراً ، حتى إذا  
عرفت شرحه وتأويله وجدت فيه شعراً لا يكون ذلك المنظوم إلا إشارة  
إليه ، وذلك كقول جرير يعير الفرزدق ويعلمه فخر قيس عليه :

تَحَضُّضُ يَا ابْنَ الْقَيْنِ قَيْسًا لِيَجْمَلُوا      لِقَوْمِكَ يَوْمًا مِثْلَ يَوْمِ الْأَرَاقِمِ  
كَأَنَّكَ لَمْ تَشْهَدْ لِقَيْطًا وَخَاجِبًا      وَعَمْرُو بْنُ عَمْرٍو إِذْ دَعَوْا يَالَ دَارِمِ  
وَلَمْ تَشْهَدْ الْجُونِينَ وَالشَّعْبَ وَالصَّفَا      وَشَدَاتِ قَيْسِ يَوْمِ دِيرِ الْجَمَاجِمِ

وقد أوردها المبرد في كتابه الكامل ( ص ١٣٤ ج ١ ) وشرحها ، وعلى  
هذا التأويل قال يونس بن حبيب : لولا شعر الفرزدق لذهب نصف أخبار  
الناس . ومن الهجاء بالعادة قول ابن لسان الحمرة لرجل من بني أسد مر به :  
قد علمت العرب يا معشر بني أسد أنكم أشدها بياض جعور ! فمظف عليه  
الأسدي فضربه بالسيف حتى برد ، وتأويل ذلك أنه عيّرهم بأنهم لا يعرفون  
البقل ولا يعرفون إلا اللبن ؛ لأنهم يقولون إن الجعور قد تبيض إذا كان قوت  
صاحبها اللبن . وقال الشاعر يهجو ناساً منهم بذلك ( ص ٧٥ ج ٢ : الحيوان ) :

عراجة بيض الجُعور كأنهم      بمنعرج الفيضان شهب العناكب

وهذا وإن كان تطرفاً في الهجاء إلا أنه شائع فيهم ، لأنهم يهجون بكل  
شيء حتى بأكل الكراث ، كما عيّر به جرير عبد قيس بالبحرين ( ص ٨١ ج ٢ :  
الكامل ) ؛ وبأكل السخينة ، وعيرت بها قريش . وبأكل لحوم الكلاب ،  
وعيرت به بنو أسد ؛ وبأكل لحوم الناس أيضاً ... وهجيت به هذيل وأسد  
وبلعتنير وباهلة ( ص ١٣٩ ج ١ : الحيوان ) ؛ وبكثرة الأكل ، وهجيت به تميم .

والأشعار في ذلك مأثورة تفيض بها الكتب .

## الهجاء في القبائل .

وكان هجاء الشريف عندهم مما [ينذرع] الى هجاء قبيلته وتشميتها ، لأنه لا يشرف إلا إذا فخرت القبيلة به وجعلته معقد ألسنتها فيما بينها وعنوان شرفها بين القبائل ، وكان له عز الأمر والنهي ، وعقد المن في أعناق الرجال وسرور الرياسة ، وثمره السيادة . قال الجاحظ في سبب ذلك : وإذا بلغ السيد في السؤدد الكمال حسده من الأشراف من يظن أنه الأحق به ، وفخرت به عشيرته ، فلا يزال سفيه من شعراء تلك القبائل قد غاظه ارتفاعه على مرتبة سيد عشيرته فهجاه . ومن طلب عيباً وجده ، فإن لم يجد عيباً وجد بعض ما إذا ذكر وجد من يغلط فيه ويحمله عنه . ولذلك هُجى حصن ابن حذيفة ، وهُجى زرارة بن عدس ، وهجى عبد الله بن جدعان ، وهجى حاجب بن زرارة . وإنما ذكرت لك هؤلاء لأنهم من سؤددهم ، وطاعة القبيلة لهم ، لم يذهبوا فيمن تحت أيديهم من قومهم ومن حلفائهم وجيرانهم مذهب كليب بن ربيعة ، ولا مذهب حذيفة بن بدر ، ومذهب عيينة بن حصن ، ولا مذهب لقيط بن زرارة - أي في إغيات الناس بطغيانهم وبغيهم كما كان يفعل كليب إذ كان يحمي موقع السحاب فلا يُرعى ونحو ذلك - ( ص ١٥٦ ج ١ : الحيوان . و ص ٢٣٧ ج ١٠ : ابن الأثير ) فإن هؤلاء وإن كانوا سادة فقد كانوا يظلمون ... وكان أولئك السادة لم يكن شأنهم أن يردوا الناس الى أهوائهم ، والى الانسياق لهم بعنف السوق وبالحراب في القود ؛ وهم مع ذلك قد هجوا بأقبح الهجاء . ومتى أحب السيد الجامع والرئيس الكامل قومه أشد الحب ، وحاطهم على حسب حبه لهم ، كان بفض أعدائهم له على حسب حب قومه ( ص ٣١ ج ٢ : الحيوان ) . هذا إذا لم يتوثب إليه ، ولم يعترض عليه من بني عمه وإخوته من قد أطمعته الحال في اللحاق به ، كخبر أوس بن حارثة بن أم الطائي حين ألبسه النعمان الحلة التي جعلها لأكرم العرب ، فحسده قوم من أهله ، فقالوا للحطيئة : اهتجئه ولك ثلاثمائة ناقة ! فقال الحطيئة : كيف أهجو رجلا لا أرى في بيتي أثاثا ولا مالا إلا من عنده؟ ثم أخذها بشر بن أبي خازم أحد بني أسد وهجاه ... والخبر يحملته ساقه

المبرد في الكامل ( ص ١٣٧ ج ١ ) . ولذلك لم يكن يسلم من ضروب الهجاء إلا القبائل المغمورة والمنسية ، حيث لا يكون فيها خير كثير ولا شر كثير ، وحيث يكون محلم من القلوب محل من لا يغيظ الشعراء ولا يحسدهم الأكفاء ، فيسلمون من أن يضرب بهم المثل في قلة ونذالة ، بخلاف القبائل التي يعرفونها بالمناقب والمثالب . وقد تكون القبائل متقدمة الميلاد ، ويكون في شطرها خير كثير وفي الشطر الآخر شر وضعة ، مثل قبائل غطفان وقيس عيلان ؛ ومثل فزارة ومرة وثعلبة ؛ ومثل عبس وعبد الله بن غطفان ؛ ثم غنى وباهلة واليعسوب والطفافة ؛ فالشرف والخطر في عبس وذبيان ؛ وربما ذكروا القبائل الوضيعة ببعض الذكر ؛ مثل اليعسوب والطفافة وهاربة البقعاء وأشجع الخنثى ؛ ولكن البلاء كله لم يقع إلا بغنى وباهلة ، وهم أرفع من هؤلاء وأكثر مناقب ، ولكنهم لقوا من صوائب سهام الشعراء ومرّ الهجاء كأنهم آلة لمدارج الأقدام ينكب فيها كل ساع ويعثر بها كل ماش ، حتى صار من لا خير فيه ولا شر عنده أحسن حالاً ممن فيه الخير الكثير وبعض الشر ، قال الجاحظ : ومن هذا الضرب تميم بن مر وثور وعكل وتيم ومزينة ، ففي عكل ومزينة من الشرف ما ليس في ثور ؛ وقد سلم ثور إلا من الشيء اليسير مما لا يرويه إلا العلماء ؛ ثم حلت البلية وركد الشر والتحف الهجاء على عكل وتيم وقد شعثوا بين مزينة شيئاً ؛ ولكنهم حببهم الى المسلمين قاطبة ما تهبأ لهم من الإسلام حين قل حظ تيم فيه ...

ولولا الربيع بن خيثم وسفيان الثوري لما علم العامة أن في العرب قبيلة يقال لها ثور ؛ ولشريف واحد ممن قبلت تيم أكثر من ثور وما ولد ؛ وكذلك بلعنبر قد ابتليت وظلمت وبُخِست مع ما فيها من الفرسان والشعراء .. ومن نوادر الرجال إسلاميين وجاهليين ؛ وقد سلمت كعب بن عمرو ؛ فإنه لم ينلها من الهجاء إلا الخمس والنتف ...

ولأمر ما بكت العرب بالدموع الغزار من وقع الهجاء ، وهذا من أول كرمها ، كما بكى مخارق بن شهاب ، وكما بكى علقمة بن علاثة ، وكما بكى

عبد الله بن جدعان ( ص ١٧٦ ج ١ : الحيوان ) ؛ أما مخارق بن شهاب فذكر في البيان أنه وفد رجل من بني مازن على النعمان بن المنذر ، فقال له النعمان : كيف مخارق بن شهاب فيكم ؟ قال : سيد كريم ، وحسبك من رجل يمدح نفسه ويهجو ابن عمه . ذهب الى قوله :

تري ضيفها فيها بيت بغبطة وجار ابن قيس جائع يتَحَوَّبُ  
ولعله بكى لذلك ؛ وأما علقمة بن علاثة فقد ذكر ابن بسام في الذخيرة أنه لما سمع قول الأعشى :

تبيتون في المشتى ملاء بطونكم وجاراتكم غرثى يبتن خائفا  
بكى وقال : أنحن نفعل ذلك يجاراتنا ؟ وأما عبد الله بن جدعان ، فقد قال الجاحظ في الحيوان : إنه بكى من بيت لخداش بن زهير ولم يذكره ، ولم نقف عليه ؛ وكان خداش قد هجاه من غير أن يكون قد رآه ؛ وكذلك فعل دريد بن الصمة ؛ لأنه رأى فيه شرفاً ونبلاً فأراد أن يضع شعره موضعه ( ص ٢٥٤ : سرح العيون ) .

ومن أسباب الهجاء في القبائل أيضاً أن يكون القبيل متقادماً الميلاد قليل الذلة قليل السيادة ؛ فينتهي أن يصير في ولد إخوتهم الشرف الكامل والعدد التام ؛ فإنه يستبين حينئذ لكل من رآهم أو سمع بهم أضعاف الذي هم عليه من القلة والضعف ، وتكون البلية في شرف إخوتهم ؛ وكذلك عندهم كل أخوين إذا برع أحدهما وسبق وعلا الرجال في الجود والإفضال أو في الفروسة والبيان ؛ فإنهم يقصدون بآثر الآخر في الطبقة السفلى لتبين البراعة في أخيه ، وقد يكون مع ذلك وسطاً من الرجال ، فصارت قرابته التي كانت مفخرة هي التي بلغت به أسفل السافلين ( ص ١٧٩ ج ١ : الحيوان ) .

ولما صار للهجاء في القبائل هذا الشأن واعتقدوه سياسة ، صار البيت الواحد يربطه الشاعر في قوم لهم النباهة والعدد والفعال ، فيدور بهم في الناس دوران الرحي ؛ كما أهلك الحَبَطَات وهم بنو الحارث بن عمرو بن تميم قول الشاعر فسيه :

رأيت الحُمُر من شر المطايا      كما الجبّطاتُ شرّ بني تميم

فلازمهم هذا القول ؛ وكما أهلك ظليمَ البراجمِ قول الآخر :

إن أبانا فقحة لدارم      كما الظليمُ فقحةُ البراجمِ

وكما أهلك بني عجلان قول النجاشي :

وما سُمّي العجلانَ إلا لقولهم

خذ العقبَ واحلب أيها العبد واعجل

وكما أهلك نيراً قول جرير يهجو الراعي :

فغُضَّ الطرف إنك من نير      فلا كعباً بلفتَ ولا كلاباً

وهذه القصيدة تسميها العرب : الفاضحة ، وقيل سماها جرير: الدماغه ، وقد تركت بني نير ينتسبون بالبصرة إلى عامر بن صعصعة ويتجاوزون أباهم نيراً إلى أبيه عامر ؛ هرباً من ذكر نير ؛ وفراراً مما سم به من الفضيحة والوصمة ( ص ٢٦ ج ١ : العمدة ) ، وكان بنو نير من جمرات العرب الذين تجمعوا في أنفسهم ولم يُدْخِلُوا معهم غيرهم في أنسابهم بالخالفة ونحوها ؛ والجمرات هم بنو نير ؛ وبنو الحارث بن كعب ؛ وبنو ضبة ؛ وبنو عبس بن بغيض ؛ قال المبرد في « الكامل » : وأبو عبيدة لم يعدد فيهم عبساً في « كتاب الديباج » ولكنه قال : فطفئت جمرتان وهما : بنو ضبة ، لأنها صارت إلى الرباب فخالفت ؛ وبنو الحارث ، لأنها صارت إلى مذحج ؛ وبقيت بنو نير إلى الساعة لأنها لم تحالف ( ص ٣٧٧ ج ١ : الكامل ) وقد أجاب شاعرهم جريراً فلم يغن عن قومه شيئاً .

وعلى الضدّ من ذلك خبر بني أنف الناقة ؛ فإن الواحد منهم كان إذا قيل له : ممن الرجل ؟ قال : من بني قريع ، فيتجاوز جعفرأ أنف الناقة ابن قريع بن عوف بن مالك ؛ فما هو إلا أن قال الحطيئة :

قوم هم الأنف والأذنان غيرهم      ومن يسوي بأنف الناقة الذنبا؟

حتى صاروا يتطاولون بهذا النسب ويمدّون به أصواتهم في جهازة ( ص ٢٩ ج ١ : العمدة ) . وقد بلغ من خوفهم من الهجاء ومن شدة السب عليهم وتخوفهم أن يبقى ذكر ذلك في الأعقاب ويسب به الأحياء والأموات ، أنهم إذا أسروا الشاعر أخذوا عليه الموائيق ؛ وربما شذوا لسانه بنسعة كما صنعوا بعبد يغوث بن وقاص حين أسرته بنو تميم يوم الكلاب ، وأبياته في ذلك مشهورة ( ج ٢ : البيان ) وأسْر رُوْبِيَة في بعض حروب تميم فمنع الكلام ؛ فجعل يصرخ : يا صباحاه ! ويا بني تميم ؛ أطلقوا من لساني ( ج ٢ : البيان ) .

ثم صاروا يستنجدون بالشعراء ليحضوا لهم الأشراف في ردّ الفارة وغيرها فيخشى الشريف إن هو لم يغثه أن يفضحه بهجائه ( ص ١٧٠ و ١٧١ ج ١ : الحيوان ) .

وكما سلم بعض القبائل من الهجاء بالخنول والقلة ، كغسان وغيلان من قبائل عمرو بن تميم سلمت بعض القبائل بالنباهة العالية من مضرة الهجاء فكأنها لم تهج ، مثل نباهة بني بدر وبني فزارة ، ومثل نباهة بني عدّاس بن زيد وبني عبد الله بن دارم ، ومثل نباهة الذبان بن عبد المدان ، وبني الحارث ابن كعب ، فليس يسلم من مضرة الهجاء إلا خامل جداً أو نبيه جداً ( ج ٢ : البيان ) .

وذكروا عن حجناء بن جرير أنه قال لأبيه : يا أبت إنك لم تهج أحداً إلا وضعته إلا التيم . فقال جرير : إني لم أجد حسباً فأضعه ولا بناء فأهدمه ( ج ٢ : البيان ) .

وقد سمر يزيد الرقاشي ذات ليلة عند السفاح فحدثه بحديث ساقه فيه أشعاراً هجيت بها ثلاث وأربعون قبيلة ، وقد حكاه المسعودي في ( مروج الذهب - ص ٢ ) فالتمه هناك .

وكان الشعراء يعرفون تاريخ الهجاء في القبائل حتى ليستطيعون أن يميزوا القبائل التي انتضلت بينها تلك السلام من القبائل التي تحاجزت فلم يكن بينهما

هجاء ، وقد أنشد الكيت بن زيد نصيباً الشاعر فاستمع له ، فكان فيما أنشده قوله يصف غليان القدر :

كأن الغطامط من غليها أراجيز أسلم تهجو غفارا

( يشبه غليان القدر وارتفاع اللحم فيها بالموج الذي يرتفع ) . فقال له نصيب : ما هجت أسلم غفارا قط ، فاستحيا الكيت فسكت ( ص ٣٣٥ ج ١ : الكامل ) .

### الهجاء في الشعراء .

قد عرفت أن الشاعر لا يكون هجاءً إلا وهو في معنى المؤرخ ، فليس كل القبائل يعرف بعضها مثالب بعض ، ولا كل الناس يعرف ذلك ، فتى ستر الشاعر قصيدة فكانه نشر كتاباً في أمة كلها يقرأ ويكتب ، ومن أجل هذا لما استأذن حسان النبي ﷺ أن يهجو قريشاً قبل إسلامهم ويسلته منهم سل الشعرة من العجين ، أمره أن يستعين بأبي بكر ، ولم يكن في زمنه أعلم بالأنساب منه ، حتى إن أنسب العرب إنما أخذوا عنه كما ستعرفه في موضعه .

ولمكانة ذلك الشعر من التاريخ ، صار الراوية للأشعار لا يكون راوية حتى يكون نسابة عالماً بالأخبار ، وقد تغلب على بعضهم رواية المثالب خاصة كعقيل بن أبي طالب ، وهو أحد الأربعة من قريش الذين كانوا رواة الناس للأشعار وعلماءهم بالأنساب والأخبار ، وهم مخزومة بن نوفل ، وأبو الجهم بن حذيفة ، وحويطب بن عبد العزى ، وعقيل هذا ( ج ٢ : البيان ) ومن تخصصوا بالمثالب والعيوب في الرواة : دغفل النسابة ، والنخار العذري ، وابن الكيس النمري ، وصحار العبدي ، وابن شرية ، وابن أبي الشطاح وهشام بن الكلبي .

ولم يبلغ جرير مبلغه من الهجاء إلا لمكان علمه بالنسب والمثالب من جده الحنظلي ، وهو حذيفة بن بدر بن سلم . وكان الحنظلي هذا من العرفاء



العلاء بالنسب وبالغريب (ج ١ : البيان) وكذلك الفرزدق ، كان هو شاعر الناس وراوية أخبارهم ، وهما يكادان لشهرتهما يكونان فكياً الهجاء فيما يُبلاك ويُمضغ من الأعراض .

ولما كان الشعراء ألسنة قبائلهم ونوابها في السياسة العامة ، كان هجاء بعضهم بعضاً لا يزال عاملاً حتى إذا ذهبت عصبية القبائل ووهنت عقدة الجاهلية وسكنت نائرة الأحزاب ، صار الهجاء كسائر أغراض الشعر : يقال فيه للبراعة وابتكار المعاني فاتخذ لحك الحزازات وشق المرائر وتحول إلى كذب وسخف وإفحاش وإقذاع وكان من هذا شيء في الجاهلية حين يكون الشاعر منبوذاً من قبيلته ، أو حين يلتبس لنفسه الذكر في القبائل وشيوع المقالة باسمه ، فيقصد الأسواق والمواسم ؛ كالذي نقله السكري في شرح أشعار الهذليين قال : أقبل رجل من أهل اليمن شاعر يقال له حبيب - والناس بندي الهجاز - يهجو الناس ، فأشار له بعضهم الى خباء أبي ذرة الهذلي حتى وقف عليه فرجز به فخرج إليه أبو ذرة من قبل أن يعرفه فأشار له بيده ورجز به أيضاً ، ثم سأله عن اسمه فعرّفه ، فماد الى الرجز به ، فطرده أهل اليمن ؛ ثم كان الحطيئة وهو الحسب الموضوع ، فسلح بالشعر سلحاً ، ثم جاء جرير وطبقته فصار أكثر الهجاء من يومئذ فحشاً خالصاً وكذباً مصمتاً وسباباً محضاً ، ثم كان كل متعاصرين من الشعراء يكون بينهما مثل ذلك ويعدونه من منافسة الحرفة وطبع الصناعة ، فمضى نظم الشاعر قصيدة نقضها الآخر عليه ، ويسمون هذه القصائد بالنقائض ، وأشهرها نقائض جرير والفرزدق ، وهي محفوظة متداولة ، وقد نقل المبرد في الكامل شيئاً منها ( ج ١ : ص ٢٨٢ ) .

وقالوا إن جنازة مرت بجرير فبكى وقال : أحرقني هذه الجنازة ! قيل فلم تقذف في المحصنات ؟ قال : يبدو لي ولا أصبر (ج ٢ : البيان) ؛ فكذلك كان يبدو لمن في طبقته حتى صار الناس يستجرون بقبر أبي الفرزدق من هجائه فيجبرم ( ج ١ ص ٢٩١ : الكامل ) .

وقد نسب الفرزدق في آخر عمره وتعلق بأستار الكعبة وعاهد الله أن لا يكذب ولا يشتم مسلماً ، وذكر ذلك في شعره (ص ٧٠ ج ١ : الكامل ) وكان جرير مؤلماً بقذف المحصنات يعدهن شطر الهجاء ومادة الإقذاع وقد دعا مرة رجلاً من شعراء بني كلاب الى مهاجته فقال الكلابي : إن نسائي بأمتعتن ولم تدع الشعراء في نسائك مترقعا ( ج ١ : البيان ) .

ولانطباع الشعراء على هذه الشراسة الشديدة والجرح العريض لما يدلون به من طول اللسان وإحجام الناس عن مخاشنتهم كان الأشراف يتجنبون مازحة الشاعر خوف لفضة تسمع منه مزحاً فتعود جداً ( ج ١ ص ٤٦ : العمدة ) كما كانوا يتقون من أنفسهم مأثور القول في المصيبة والمرزقة ، خوف أن يسبق لسانهم بكلمة من التوجع فتؤخذ عليهم وتجري في الناس مثلاً مضروباً وعبياً منسوباً .

#### مشاهير المهجائين .

ليست الشهرة بالهجاء مما تيسر لكل شاعر يسب ويفحش ، فلو كان هذا لقد كان غلب الهجاء على كل شاعر ، ولكن أصحاب الهجاء كأصحاب السياسة من أهلها وغير أهلها ؛ يستطيع كل امرئ أن يتأول ويتنبأ وينذر ويأتي بصنوف القول كلها ، ومع ذلك لا تجد شهرة السياسة إلا لنوادير الرجال ، لأن حوادثها أرزاق وحظوظ ، فلا يتفق لكل من ينتحل السياسة أن يصرف الدول ويضع ويرفع ، كما لا يتفق مثل ذلك لكل هجاء ؛ قال أبو عبيدة : والذين هجوا فوضعوا من قدر من هجوه ، ومدحوا فرفعوا من قدر من مدحوه ، وهجاء قوم فردوا عليهم وأفحمهم وسكت عنهم بعض من هجاء مخافة التعرض لهم ، وسكتوا عن هجاءهم رغبة بأنفسهم عن الرد عليهم وهم إسلاميون - الحطيئة ، وجرير ، والفرزدق ، والأخطل ؛ وفي الجاهلية زهير ، وطرفة ، والأعشى ، والنايفة ( ج ٢ : البيان ) .

فهؤلاء أفراد الهجائين وأقطاب السياسة اللسانية ، ولم يبلغوا أن يكونوا كذلك حتى كانت فيهم السلطة والسلطة معاً ؛ وهي جماع الصفات التي ذكرهم بها أبو عبيدة ، فانظر أين يقع ثمانية من جمهور شعراء الجاهلية والإسلاميين لولا أن في الشر كما في الخير أزراقاً وأقساماً؛ وهذا الفرزدق نفسه قد تجنب مهاجاة زياد الأعجم ووهب لمخافته عبد القيس ( ج ١ ص ٣٧ العمدة ) وتجنب هو وجريز معاً مهاجاة الأحوص إكباراً لشعره ( ص ٣٨ منه ) ومع ذلك لم يذكر معها هذان الشاعران في قليل ولا كثير ، ولو بقي الأمر بعد الدولة الأموية عربياً كما كان فيها لظهرت طبقات أخرى تستحق التأريخ ، ولكن الذين ظهروا ، وأولهم بشار بن برد ، إنما صرفوا بأسهم بعضهم الى بعض ، وهجوا الكبراء لأموالهم لا لأحسابهم ، حتى قيل فيهم إنهم يمدحون بئسهم ويهجون مجاناً ... وقد صار الهجاء من يومئذ كما قلنا ضرباً من الصناعة ونوعاً معدوداً من الشعر ، وإن لم تكن إجادته في طبع كل شاعر ، كما قالوا عن ذي الرمة ، فقد كان أحسن الناس نسيباً وأجودهم تشبيهاً وأوصفهم لرميل ، وهاجرة ، وفلاة ، وماء ، وقراد ، وحية ، فإذا صار الى المديح والهجاء خانه الطبع ؛ وذلك الذي أخره عن الفحول ، فقالوا : في شعره أبعاد غزلان ونقط عروس ( ص ١٤ : طبقات ) .

وأشهر المحدثين بالهجاء على هذا الوصف بشار بن برد ، وكان إذا غضب وأراد أن يقول هجاءً صفق بيديه وقفل عن يمينه ويساره ( ص ٢١٠ : سرح العيون ) ودعبل بن علي الخزاعي ، وكان هجاء الملوك جسوراً على الخليفة متعاملاً لا يبالي ما صنع حتى عرف بذلك وطار اسمه فيه ، وكان لذلك يقول عن نفسه إنه يحمل خشبة منذ كذا سنة لا يجد من يصلبه عليها، وابن الرومي علي بن عباس ، وكان لسانه أطول من عقله حتى قتله الهجاء ، وأكثر إجادته فيه لأنه كان سلك طريقة جرير من الإطالة والإفحاش ، فإن جريراً أول من أطلال الهجاء ، وكان يقول : إذا هجوت فأضحك ( ص ١٤٠ ج ٢ : العمدة ) وابن بسام ، وكان يهجو أباه وأقاربه ، يستن في ذلك سنة الخطيئة الذي

هجا أمه ، وابن الحجاج البغدادي خبيث العراق؛ وأبو بكر الخزومي هجاء الأندلس في القرن الخامس ؛ وكان أعمى شديد الشر كأنه نار صاعقة ، وكان يهجو في كل كلامه من شعر وغير شعر ؛ ويقول عن نفسه : لا تبديل لخلق الله . ومع سبقه في الهجاء كان إذا مدح ضعف شعره ( ص ٨٩ ج ١ : نفع الطيب ) ؛ وابن القطان المتوفى سنة ٤٩٨ ؛ كان هجاءً لم يسلم منه الخليفة فن دونه ، وأبو القاسم [الشميشي] الأندلسي في القرن السادس وقد جمع هجاءه في ديوان سماه « شفاء الأمراض في أخذ الأعراض » ، وعلي بن حزمون هجاء المغرب في أوائل القرن السابع وكانوا يتدارسون هجاءه حتى لم تخل بلدة في المغرب من شعره (ص ١٩٦ المعجب) وابن عنين هجاء مصر في القرن السابع . قال المقري في نفع الطيب : وله ديوان سماه « مقراض الأعراض » ولكن ابن خلكان وكان معاصراً له ورآه قال : إن المقراض قصيدة طويلة جمع فيها خلقاً كثيراً من رؤساء دمشق ، وقد نفاه صلاح الدين الأيوبي الى اليمن لإفحاشه في هجاء الناس ، وتوفي سنة ٦٣٠ .

فهؤلاء أشهر أهل الهجاء لغلبته على شعرهم وإتيانهم فيه بالأوابد وذهايمهم في معارضة كل مذهب ، وهم في المحدثين كالذين عدم أبو عبيدة في الإسلاميين والجاهليين وإن كان من عداهم كلهم يهجون ؛ ومن للشعراء قوم يسمونهم المغلبيين وهم الذين غلبوا بالهجاء وإن كان ممن ليسوا إليهم في الشعر ولا قريباً منهم ، ومعنى المغلب عندهم الذي لا يزال مغلوباً . قال ابن رشيق : ومنهم نابغة بني جمدة ، وقد غلب عليه أوس بن مغراء القريني وغلبت عليه ليلي الأخيلية ... وقد علم الكافة ما صنع جرير بالأخطل والراعي جميعاً .. ومن المغلبيين : الزبرقان ، غلبه عمرو بن الأهم وغلبه الخليل السعدي وغلبه الحطيئة ، وقد أجاب الاثنين ولم يجب الحطيئة ، ومنهم تميم بن أبي مقبل ، هجاء النجاشي فقهروه وغلب عليه ، وهاجى النجاشي عبدالرحمن بن حسان فغلبه عبدالرحمن وأفحمه ... ومن مغلبي المولدين على جلالته بشار بن برد ، فإن حماد عجرد وليس من رجاله ولا أكفائه هجاءه فأبكاه ومثل به أشد تمثيل ، وعلي بن الجهم

هاجى أبا السمط مروان بن أبي الجنوب فغلبه مروان ، وهاجاه البحثري فغلب عليه أيضاً ، على أن علياً أقذع منه لساناً وأسبق إلى ما يريده من ذلك وأقدم سناً ، ومنهم حبيب «الطائي» وهاجى السراج وعتبة فما أتى بشيء... وهاجى دعبلاً فاستطال عليه دعبل أيضاً (٦٧ و ٦٨ ج ١ : العمدة) ، وربما هجى الشاعر من هو أكبر منه وأبعد صيتاً ، لا ليغلبه ، ولكن ليحييه فيعد في طبقتة ، كما فعل بشار ، فإنه هجا جريراً بأشعار كثيرة فلم يجبه جرير أنفة واحتقاراً ، فقال : لو هجاني لكنت أشعر الناس ( ص ٧٠ ج ١ : العمدة ) .



## المديح

والمديح في فطرة الإنسان ، لأنه إحساس الكبرياء التي هي عمود الإنسانية فيه ، فإن الناس متفاضلون في القوة على الأعمال ، وهم كذلك متفاضلون في حسم لهذه القوة ، فالواثق بنفسه الذاهب بها مذهب الغناء والاعتداد يجد في طبعه حركة واهتزازاً متى حققت له أعماله تلك الثقة ولم يكذب وهمه في الاعتداد باطلاً ؛ فذلك الاهتزاز هو إحساس الكبرياء الكامنة فيه ، وهو الذي يقصد تصويره بالفخر والمديح .

ولا تكون الكبرياء رذيلة ممقوتة إلا إذا تجاوزت مقدارها الطبيعي الذي يكون دائماً مكافئاً لحقيقة الثقة بالنفس ، فهي حينئذ تنقلب صلفاً وتدخل في حكم الطباع المتكلفة ولا تحدث من الاهتزاز إلا وهماً وغروراً ، كالذي يحدث من نشوة الخمر ؛ فإذا هي زادت كانت عند العقلاء عريضة ... والمديح الذي يصور هذه الكبرياء الكاذبة لا بد أن يكون أكذب منها حتى تعوض عليه غرابة المبالغة شيئاً من رونق الحقيقة ، وهو حينئذ صنعة وتكلف ، ثم هو الذي عناه المتأخرون بقولهم : أعذب الشعر أكذبه .

فهذان شطرا المديح ، لا يكون إلا في أحدهما ، وقد ذهب العرب بالشرط الأول قبل أن تضعف أعصاب البداوة ، فكان مديحهم فخراً كله ، لأن أساس الطبيعة البدوية فضيلة الاعتماد على النفس ، وهي التي تحدث الكبرياء الصحيحة ، فلا تكاد تجد في شعر المهلهل أو امرئ القيس وطبقتهما مدحاً مبنياً على الملق والمداهنة وتصنع الاخلاق ، وإن وجد شيء من ذلك قبل النابغة وزهير فهو مصنوع لا شك في صنعه وتوليده ؛ وقد زعم الأصمعي

(ص ١٨٨ ج ٢ : الكامل) أن هذا البيت الذي يروى لمهلل مصنوع محدث، وهو قوله :

أَنْبَضُوا مَعْجِسَ الْقِسِيِّ وَأَبْرَقْنَا  
كَمَا تُرْعِدُ الْفَحُولُ الْفَحُولَا

لأن فيه غلطاً لغوياً ، إذ لا يقال إلا رعد و برق إذا أوعد وتهدد ، وأرعدنا نحن وأبرقنا إذا دخلنا في الرعد والبرق ، وليس الخطأ اللغوي وحده وهو الذي [ يدل ] (\*) على الصنعة والتوليد ، ولكن الخطأ الأخلاقي أمكن منه في باب الدلالة .

ولما وهنت أعصاب البداوة في بعض الشعراء بما وجدوا من مس الترف والنعيم ، جعلوا يبتغون بالشعر المنالة والكسب ، وبذلك حولوا شيئاً من مديحهم الى الشطر الثاني ، وقد ذكرنا منشأ ذلك في باب البدية والارتجال ؛ غير أن هذا التحول المرضي في المديح إنما كان يأخذ منه على التدرج في أول أمره ، فبقي مديح زهير طبيعياً لم يحاول فيه صبغ الحقيقة بذلك اللون الأسود الذي يعطيها في الوهم منظر الاستعباد ، ولذلك فضله عمر بن الخطاب بأنه كان لا يمدح الرجل إلا بما فيه ؛ ولكن الذي سلم من أمر زهير لم يسلم من أمر النابغة ، لأن زهيراً كان لا يقول على الرغبة والطمع ، وكان يمدح رجلاً من الأشراف بصفات مثله الصحيحة ، والنابغة كان يتكسب من المناذرة والفساسة ، وهم ملوك ، فكان يرى النابغة أن مديحهم لا بد أن يكون طبقة في الشعر تساوي طبقتهم في الناس ، ولما هرب من النعمان وجعل يعتذر إليه باعتذاراته المشهورة ، عمد إلى تجويد المديح وزخرفته ينفخ به كبريائه فيصغر في جنبها ما أتاه ويتجاوز عنه .

وقد جاء بعدها الأعشى ، فلم تكن له همة إلا في المدح والهجاء ، وكان رجلاً مجدوداً في الشعر ؛ ما مدح أحداً إلا رفعه ولا هجا أحداً إلا وضعه ،

(١) من زيادتنا .

والأمور يومئذ تطير للشعر طيراناً ؛ فكان الأعشى على التحقيق أول من احترف المديح وابتدله في طبقات الناس ؛ ولذلك اضطر أن ينفخ معانيه بالمبالغة والإغراق ، وإن تجاوز موضع الحقيقة الى ما يقع وراءها من نواحي التصوّر البعيدة ؛ وقد عرف العرب ذلك منه وألفوه ، لأن حظ هذا النوع من الشعر أن يسير وإن كان كذباً ، فإن ركذ في لسان الشاعر لم يبالوا به وإن كان حقيقة ؛ ولذلك لما نزل الأعشى بمكة وأضافه الملقب - وهو رجل فقير خامل الذكر ذو بنات قد كسدن عليه ، وأراد الأعشى إنفاقهن وأن يكفيه أمرهن - أصبح بعكاظ ينشد قصيدة وقد اجتمع الناس ( ٢٥ ج ١ : العمدة ) .

يقول فيها :

أرقتُ وما هذا السهادُ المؤرِّقُ

وما بيَ من سقمٍ وما بيَ مَعشوقُ

نَفَى الذمَّ عن آلِ المَلتقِ جفنة

كجافيةِ الشيخِ العِراقِيِّ تفهقُ

فما أتم القصيدة إلا والناس ينسلون الى الملقب يهنئونه ، والأشراف من كل قبيلة يتسابقون إليه جرياً يخطبون بناته ، لمكان شعر الأعشى ، فلم تمس منهن واحدة إلا في عصمة رجل أفضل من أبيها ألف ضعف . واقتنان هذا الشاعر في صنعة المديح وقصده فيه الى تصوير الكبرياء الكاذبة ، هو الذي طوع له أن يكذب في التاريخ حين نظم قصائده التي ذكر فيها منافرة عامر ابن الطفيل وعلقمة بن علاثة ، وقد كانا تنافرا إلى هرم بن قطبة . فأقاما عنده سنة لا يقضي لأحدهما على الآخر ، حتى قدم الأعشى ، وكانت لعامر عنده يد ؛ فقال شعره في ذلك فرواه الناس ، وافترقوا وقد نفر عامر على علقمة بحكم الأعشى ، والقصة مشهورة ( العمدة : ج ١ ص ٢٨ ؛ وسرح العيون ص ١٠٦ ) وفيها أقوال ولكن الرواة مجمعون على حكم هذا الأعشى .



وكذلك كذب الحطيئة على التاريخ في مديح قومه ، وكانوا من القائمين في أهل الردة ، فقال :

فَدَىٰ لبني نصرٍ طريفٍ وتالدي عشيّةً زادوا بالرماح أبا بكر

قال المبرد : قوله زادوا بالرماح أبا بكر ، كذب ؛ إنما خرجوا على الإبل فقعقعوا لها بالشتان فنفرت وقرّت ( ج ١ ص ٢٣٢ : الكامل ) والمعاني تخضع الحقائق وتصرّفها فيما شاءت ولكنها لا تخضع التاريخ ، لأنه في نفسه حقيقة خالدة لا تمسخ ولا تموت ، فإذا حاول الشاعر أن يكذب فيه فلا يكون ذلك إلا إذا اعتاد تحويل الحقائق فيمدح كذباً ويهجو كذباً ، وذلك من ضرورة الصنعة والاحتراف ، فلا يفعله إلا وقد ابتذل الشعر واتخذة حرفة ، وذلك ما ذهبنا إليه في أمر الأعشى .

وقد نقلت في فصل (الشعر في القبائل) قول الجاحظ إنه لم تمدح قبيلة في الجاهلية من قريش كما مدحت مخزوم ، ولم يتهاى من الشاهد والمثل لمادح في أحد من العرب ما تهاى في بني بدر .

ولما دجا الإسلام وتحضرت الدولة واستأصلت الفتن أهل الطبع الشعري من العرب ، انفرد بالشعر جماعة هم الذين اتصلوا بدولة الذهب ( الأمويين ) فاستقلت طريقة المديح من يومئذ وأطاله الشعراء ، وقد أجمعوا على أن كثيراً أول من فعل ذلك ( ص ٦٢ ج ١ : العمدة ) كما أن جريراً هو أول من استن إطالة الهجاء وتقصير المادحة . قال : فإنه ينسى أولها ولا يحفظ آخرها ( ص ١٠٣ ج ٢ : العمدة ) .

وقد نصوا على أن أمدح الناس في طبقة الجاهلية والإسلاميين زهير والأعشى ثم الأخطل وكثير ( ص ١٠٤ ج ٢ : العمدة ) أما المحدثون فقلّ منهم من لا يحترف المديح ويجعله عمود شعره وموضع كدّه وإجادته ، وقد جرّأهم على ذلك جود الخلفاء والأمراء ورغبتهم في اصطناعهم وتسنية الجوائز لهم من أجل ذلك ؛ ولا أعجب من أن يدخل الحيص بيص الشاعر المتوفى سنة ٥٧٤ على خالد القسري أحد أمراء الدولة الأموية فيقول له : إني مدحتك

ببيتين قيمتها عشرة آلاف درهم فأحضرها حتى أنشدها، فيحضر خالد الدرهم  
ثم ينشد الحيص بيص قوله :

قد كان آدم قبل حين وفاته      أوصاك وهو يجود بالحواء  
بينه أن ترعاهم فرعيتهم      وكفيت آدم عيلة الأبناء !

فيدفع إليه خالد الدرهم ويأمر أن يضرب أسواطاً وينادى عليه : هذا  
جزاء من لا يعرف قيمة شعره ، ثم يقول له : إن قيمتها مائة ألف (ص ٢٠٤  
سرح العيون) ، وخالد هذا هو الذي كان يجلس للشعراء في يوم معين ويجيزهم  
فيه ، وهو أول من فعل ذلك ، وقد حذا حذوه الخليفة المهدي العباسي ،  
ولكنه لم يقصر اتخاذ الأيام على الشعراء ، بل اتخذ كذلك أياماً لأرباب  
الصناعات والغايات ؛ وكان الوليد بن يزيد من خلفاء بني أمية أول من تحرق  
في البذل للشعراء ، فعبدت أبيات الشعر وأعطى على كل بيت ألف درهم  
( ص ١٤٨ ج ١٧ : الأغاني ) فلما جاء المهدي من خلفاء العباسيين وصل  
مروان بن أبي حفصة بمائة ألف درهم على قصيدته التي مطلعها :

\* طرقتك زائرة فحيّ خيالها \*

يعارض بها قصيدة للأعشى ؛ وكذلك كان يعطيه الرشيد ؛ وقد كثر  
الشعراء في أيامه فكان باباه منهم من لم يجتمع لأحد قبله - وسنذكر  
فحولهم لمناسبة تأتي في بحث الأدب الأندلسي - وضاعت بهم بغداد فاضطروا  
الى تقديرهم بالاختبار وترتيبهم في الجوائز ؛ فعهد يحيى بن خالد بذلك الى  
شاعره أبان اللاهقي ( ص ٧٣ ج ٢٠ : الأغاني ) ؛ وكان ذلك عهد البرامكة  
وهم من هم ؛ فقد نال شاعرهم أبان اللاهقي على قصيدة واحدة فيهم مثل  
ما ناله مروان من الرشيد كل عمره ( ص ٧٣ ج ٢٠ : الأغاني ) ؛ وأعطى  
المتوكل حسين بن الضحاك ألف دينار عن كل بيت من إحدى قصائده ؛ وهو  
أول من أعطى ذلك (ص ١٩٤ ج ٦ : الأغاني) ، ولم يساو هؤلاء في ذلك غير  
الأندلسيين - وسنلم بشيء من خبرهم في موضعه - ولو ذهبنا نتتبع تاريخ  
الجوائز ونستقصي مقاديرها للزمنا لذلك مؤنة في التأليف وكلفة في الجمع ؛

لأنها مع تاريخ الشعر في كل عصر ؛ وقد كان من الشعراء من يتراجع طبعه وتنضب مادته بعد ممدوحه الذي اختص به ، كأبي الحسن السلمي توفي سنة ٣٩٤ شاعر عضد الدولة ؛ وكان عضد الدولة يقول : إذا رأيت السلمي في مجلسي ظننت أن عطارذ نزل من الفلك إليّ ووقف بين يديّ ! فلما توفي تراجع طبعه ورقّت حاله ولم ينتفع بنفسه ( ص ١٦٣ ج ٢ : بقيمة الدهر ) ومثله كثيرون .

ويحسب الناس أن من نقائص شعراء المتأخرين أنهم ينقلون المديح من رجل إلى رجل ؛ فيلقون بالقصيدة الواحدة جماعة من الناس ؛ ولكن ابن رشيقي يقول إن ذلك كان دأب البحثري ؛ وفعله أبو تمام في قصائد معدودة ؛ منها :

\* قَدَكَ اتَّيَدُ أَرْبَيْتَ فِي الْغُلُوءِ \*

نقلها عن يحيى بن ثابت إلى محمد بن حسان ( ص ١١٤ ج ٢ : العمدة ) ؛ وإن كان وجه ذلك في المتأخرين العجز عن الشعر فلا نرى له وجهاً في المتقدمين إلا أن يكون إخلافَ الأمل في المثوبة والإجازة بالحرمان ؛ فيقول قائلهم : هن بُنَيَاتِي أَنْكَحُهُنَّ مِنْ أَشَاءِ !

شعر الكدية أو الشعر الساساني .

الكدية حرفه السائل الملح ؛ وهي أيضاً شدة الدهر ؛ وكان من شعراء العرب صعاليك وشطّار ومتلصّصون ؛ وأشهرهم عروة بن الورد المعروف بعروة الصعاليك ، وتأبط شراً ، وسعد بن ناسب ؛ ولكن لم يكن فيهم مكدون ؛ والفرق بين الحالتين أن الشطارة تبسط اليد قوية عزيزة ؛ والكدية بسطها بالسؤال ضارعة ذليلة ؛ فلما استفحل التمدن الإسلامي وامتزج العرب بالفرس ؛ أخذ خبثاؤهم فيما أخذوه منهم تلك الحرفة ؛ ولذلك يسمّون بني ساسان كما أخذوا عن الهنود مذهب الخنّاقين واستعدوا له استعداداً عجيباً ؛ فانتحلّه جماعة من أصحاب المنصورية والغالية وغيرها ؛ وقد ذكر الجاحظ من

ذلك طرفاً صالحاً (ص ٩٧ و ٩٨ ج ٢ : الحيوان ) وأورد شعراً لحمد الراوية يذكر فيه القبائل المشهورة بالحنق لعهده؛ أي في منتصف القرن الثاني؛ وهي عجل وكندة ويحيلة ، فراجعها هناك ، ثم نسب هذا الشعر في موضع آخر لأعشى ممدان ( ص ١١٩ ج ٦ : الحيوان ) .

أما الكندية فهي عند أهلها كل ما يحتال به على الشر والأذى في سبيل العيش من الشعوذة والمخرقة وما إليها ، ولهم فيها رموز لا يفهمها غيرهم ، وأصحابها أهل بأس وشدة وفساد كبير ، ولكن من الشعراء من كان يقبل على هذه الحرفة لا ينبغي بها بدلاً من عرض الحياة ووفرة الفنى وإقبال الأمراء ، ومنهم من كان يحفظ رموزها نظراً وتلحاً ، ونظن أنهم لم يظهروا بها إلا في القرن الرابع ، وأشهرهم في ذلك الأحنف العكبري ، وكان فرد بني ساسان بمدينة السلام ، وهو من جماعة الصاحب بن عباد ( ص ٢٨٥ ج ٢ : يتيمة الدهر ) . وكان من شعرائه فيها أيضاً أبو دلف الخزرجي الينبوعي ، قال الثعالبي فيه : شاعر كثير الملح والظرف ، مشحوذ المدية في الكندية ، خنق التسعين في الاطراب والاعتراب ، وركوب الأسفار الصعاب ، وضرب صفحة المهراب بالحراب ... قال : وكان الصاحب يحفظ مناكاة بني ساسان حفظاً عجبياً ، ويعجبه من أبي دلف وفور حظه منها ، وكان يتجاذبان أهدابها ، ويجريان فيما لا يفتن له حاضرهما ، ولما أتخفه أبو دلف بقصيدته التي عارض بها دالية الأحنف العكبري في المناكاة وذكر المكدين والتنبيه على فنون حرفهم وأنواع رسومهم وتنادر بإدخال الخليفة المطيع لله في جملتهم ، وقد فسرها تفسيراً شافياً كافياً - اهتز ونشط لها وتبجح بها ، وتحفظ كلها ، وأجزل صلته عليها ، وقد اختار منها الثعالبي ١٩٥ بيتاً وساقها في يتيمة مع شرحها ( جزء ثالث ) وأكثر مصطلحاتها فارسي ، ورأينا صاحبها يقول فيها :

ومنا شعراء الأر ض أهل البدو والحضر

فإذا لم يكن منهم يومئذ طائفة كبيرة طوام التاريخ بأجناسهم على أدناسهم ، فإن أبا دلف إنما أراد صنعة المديح وتكسب الشعراء بها ، وهي فن من تلك الفنون اختص به الشعراء كما اختص غيرهم بغيره من فنونها الكثيرة ، ومدار جميعها على أخذ « جزية الخلق » كما يقولون ، وليس للمديح عند الشعراء الذين يتكسبون به معنى أكثر من ذلك .



## الفخر والحماسة

يقول ابن رشيقي : إن الفخر هو المديح نفسه ، ولكن الشاعر يخص نفسه وقومه . ونحن كذلك نراه قد يكون شطراً من الهجاء ؛ إذ يقصد به التفضيل والترجيح بين الصفات المدحوة التي يعترف بها والصفات المهجوة التي يفتخر عليها ، أما في الهجاء فهو طبيعي كما ترى ، لأنه بعض مادته ، ولكن مدح النفس مردول ، يدل على سقوط الهمة ، وعلى فسولة الرأي ، وعلى أن المرء يزور من نفسه لساناً غير مخلوق ، وهذا أدخل في باب المذلة والضعمة منه في باب الفخر والحمية ؛ والصحيح أن هذا الفخر الذي عناه ابن رشيقي إنما هو الفخر الصناعي الذي تريد فيه المتأخرون واستظهرت به طبيعتهم ، فصنعتهم مديحٌ صرف ، وكل من قدر على أن يقول حاتم كريم ، فهو قادرٌ بديئاً على أن يقول أنا كريم ، وقس على ذلك ؛ لأن التأريخ يعتبر دائماً ميتاً موتاً حقيقياً إذا أريد تقليد أعماله الخالدة بالأقوال ، فلو كان الذي يقول : أنا كريم كرم حاتم ؛ إنما قال هذا القول في الناس الذين شهروا حاتمًا بالكرم ؛ لكان قد وجد التأريخ حيًّا فإما يكذبه أو يصدقه ؛ على مقدار عمله الذي يساوي به عمل حاتم ، ولا يكون لكلمته معنى إلا التنبيه على هذه الفضيلة فيه .

فحقيقة الفخر إذن ليست مدحاً كما قيل ، ولكنها تأريخ ، وسواء في معنى التأريخ فضيلة الفرد وفضيلة الجماعة ، لأنه كما يكون ظفّرُ الجيش في الحرب نتيجة حوادث كثيرة ، كذلك تكون فضيلة الكرم عن حوادث

معروفة أنتجت هذه التسمية ؛ والمرء لا يكون كريماً في العرب بلا شيء ،  
ولا بشيء قليل .

وعلى هذا التأويل نرى الفخر فطرة في العرب ، فلا يكاد السيد منهم  
يأتي عملاً إلا تناوله شاعر قبيلته وفخر به ، لأنه لسان القبيلة ومؤرخ  
أحسابها ، وإذا فخر أحدهم بفضيلة في نفسه كالشجاعة أو الكرم أو غيرها ،  
فإنما يكون ذلك في معرض التذكير بهذه الفضيلة واستشهاد التاريخ الحي  
عليها ، أو يكون توطئاً لنفسه وتحميساً لها بما يهيج من كبريائها ، كما يغني  
الشجاع في الحرب ، وكما ينبه عن نفسه عند الضربة القاضية والطعنة النافذة ؛  
وهذا هو باب الحماسة .

وفيما عدا ذلك فلا يكون في الفخر معنى المديح إلا لأن فيه معنى الهجاء ،  
كالمنافرات المشهورة في العرب ؛ وكانوا إذا تنازع الرجلان منهم وادعى كل  
واحد أنه أعزّ من صاحبه ، تحاكما إلى عالم من حكائهم المحيطين بالأنساب  
والتاريخ ، فمن نفرّ منها - أي فضل نفره على الآخر - لا يفلح الثاني  
بعدها أبداً ؛ والأصل في هذا كما ترى الهجاء لا المدح ، لأن الذي يقارع  
الآخر عن حسبه ويكاثره بالأحياء والأموات من أشرف قومه ، إنما يريد  
الفض منه ، ليظهر هو وقبيلته بهذه المقابلة ، ولو أراد معنى التمدح وحده  
لقد كان في حسب قومه غنى .

وتمّ نوع آخر من الفخر عند العرب هو شبيه بالفخر المصنوع في ظاهره  
لا في حقيقته ، وذلك أن العربي يعاف الشيء ويهجو به غيره ، فإن ابتكس به  
ملاً ماضيه فخراً ، ولكنه لا يفخر به لنفسه من جهة ما هجا به صاحبه ،  
قال الجاحظ : فافهم هذه ، فإن الناس يغلطون على العرب ويزعمون أنهم قد  
يمدحون الشيء الذي قد يهجون به ، وهذا باطل ، فإنه ليس شيء إلا وله  
وجهان وطريقان . فإذا مدحوا ذكروا أحسن الوجيين ؛ وإذا ذموا ذكروا  
أقبح الوجيين (ص ٥٧ ج ٥ : الحيوان) . ويدخل في هذا النوع باب الميوب  
الخَلِيقَةِ كالبرص فإنهم يهجون به ، ولكن من ابتلي به من شعرائهم ضرب له  
المثل الذي يستفرقه ويشغل عنه كقول ابن حبناء :

إني امرؤ حنظلي حين تنسبني      لا من عتيك ولا أخوالي العوق  
لا تحسن بياضاً في منقصة      إن اللهاميم في أقرانها البلق  
( الحيوان : ص ٥٤ ج ٥ ) .

وقس على ذلك ، فهذا المدح المصنوع ، ولكن عذرهم فيه أنهم اضطروا إليه فراراً من معنى الهجاء ، ومن هذه الجهة اكتسب معنى المديح .

فكيفما أدركنا القول لا نجد هذا الباب خالصاً عند العرب غير مقصود به إلا صنعة الكلام وحدها كما يفعل المولدون ، ولذلك لم يغلّب هذا النوع على قول الشاعر منهم كما يغلّب المديح الهجاء والوصف ، بل لم يكده يتميز به بعضهم على بعض ؛ واعتبر ذلك بالأبيات التي يمدونها أفخر الشعر ، وقد روى منها ابن رشيقي طائفة ، فإنك لا تجد لجاهلي بيتاً يبرعها أو يكون منها بمنزلة في الصنعة ، وإنما تجد أكثر ذلك للإسلاميين والمولدين .

أما الإسلاميون فقد شاع الفخر في أيامهم ، للخلافات التي كانت بين بني هاشم وبني أمية ، وبين هؤلاء وبني العباس ، ولكنه بُني على الهجاء كما مرّ في مناقرات العرب ، ولذلك استفرقت الخطب والكتب ولم تكن سُهمة الشعر منه إلا القليل ؛ وكان منهم من يغري بين الوجوه من الناس وبين العلماء بالأنساب ، يجب أن يعرف حالات الناس وعيوب الأشراف ، كعبدالله ابن عامر ، ومصعب بن الزبير ؛ قال الجاحظ: فلا جرم أنها كانت إذا سباً أوجعا ( ج ١ البيان ) وسلم بشيء من هذا الباب في بحث الخطابة .

وكان فيهم قوم متميزون دون سائر القبائل بالكبر ، أبطروهم ما وجدوا لأنفسهم من الفضيلة ، ولم يكن في قوى عقولهم وديانتهم فضل على قوى دواعي الحمية فيهم ، وهم من قريش بنو مخزوم ، ربنو أمية . ومن العرب بنو جعفر ابن كلاب ، وبنو زرارة بن عدس خاصة ( ص ٢١ ؛ ٢٢ ج ٦ : الحيوان ) فلا جرم كان من هؤلاء ديوان مفرد لمعاني الفخر والحماسة . وقد ذهب بشهرة الفخر في الإسلاميين من الشعراء جرير والفرزدق ؛ لذهابها بشهرة الهجاء .

أما في المولدين فالذين برعوا في صنعة الفخر والحماسة كثيرون ، وقد



صارت الإجابة في ذلك على حسب قوة الشاعر وبمقدار ما تؤتي القريحة من التصرف ؛ لأن هذا الشعر لا يصنع لرغبة ولا لرغبة وليس وراء معانيه ظل ، فلا يجيده إلا مجيد ، ولكن شهرته أكثر ما تعلق بالأمراء والشجعان وأهل النسب ؛ كالشريف الرضي ، وهم يقصدون إلى هذا النوع في شعرهم قصداً ، ويتخذون منه لساناً للسياسة والتاريخ . ثم هو شيء في طباعهم ، لا يتكلفون منه الكثير كما يفعل من دونهم . ولذلك لا يعُدوه وشئ الطبيعة وروثق الغريزة ، وذلك شائع فيهم . وأول هذه الطبقة في الإسلام شعراء الخوارج ، وأشهرهم قطري بن الفجاءة ، ثم الأمراء والوزراء . كأمرء بني حمدان ، وأشهرهم أبو فراس الحمداني ، وكالوزير الطغرثي ، وكثيرين من وزراء الأندلس ، وسندكرم في موضعهم ، وكان آخر من أداه إلينا الزمان من هذه الفئة ، المرحوم محمود سامي البارودي .

وقد استحدث المتأخرون طريقة صناعية في الحماسة ؛ وهي مزجها بالغزل والافتنان في ذلك ؛ وأخذوا هذه الطريقة عن عنزة في البيتين المنسوبين إليه :

\* ولقد ذكرك والرماح نواهل \*

وكان يتفق ذلك في الأبيات من القصيدة ؛ حتى صنع فيه القاضي السعيد هبة الله بن سناء الملك قصيدته الشهيرة التي مطلعها :

سواي يخاف الدهر أو يرهب الردى

وغيري هوى أن يكون غلّدا

وقسمها على الحماسة والغزل ؛ وهي أشهر القصائد في هذا النوع .



## الرشاء

الشعر في المراثي إنما يقال على الوفاء، فيقضي الشاعر بقوله حقوقاً سلفت، أو على السجية إذا كان الشاعر قد فجع ببعض أهله، أما أن يقال على الرغبة فلا؛ لأن العرب التزموا في ذلك مذهباً واحداً، وهو ذكر ما يدل على أن الميت قد مات؛ فيجمعون بين التفجع والحسرة والأسف والتلف والاستعظام، ثم [يذكرون] صفات المدح مبللة بالدموع، حتى قال قدامة: إنه ليس بين المرثية والمدحة فصل إلا أن يُذكر في اللفظ ما يدل على أنه لهالك؛ ومن أجل ذلك لم يتبسطوا في معاني الرثاء والفجعية من [الموجودات] وما يتبع ذلك من درس العواطف المحزنة والبحث عن أماكن الألم في نفس الإنسان، كما كان ذلك عند اليونان، إذ كان من شعرائهم من تخصص للفواجع وعرف بصفات الحزن كأوريببندس وغيره، وكما كان عند العبرانيين، وهم أبكى الناس، حتى إن الرثاء من الصفات المميزة لأشعارهم؛ ويرجع ذلك النقص في العرب إلى أسبابه الطبيعية مما يتعلق بالبدواة والأخلاق التي تكون عنها، وقد مر ذكر ذلك في مواضع كثيرة.

ومن تلك الأخلاق كانوا لا يرثون قتلى الحروب، لأنهم ما خرجوا إلا ليقتلوا، فإذا بكوهم كان ذلك هجاءً أو في حكمة؛ ولكن الرثاء لمن يموت حتف أنفه؛ أو يقتل في غير حرب من حروب التاريخ، كالغارة ونحوها، فحينئذ يعددون المآثر ويبالقون في الفجعية كأن هذا الموت غير طبيعي فيمن يستحق أن يموت...

وقد مرّ في الكلام عن شواعر العرب شيء عن موضعين من الرثاء ، لأنهن أشجى الناس قلوباً عند المصيبة وأشدهن جزعاً على هالك؛ لِمَا رُكِبَ في طبيعتهن من الخور ، وفي قلوبهن من سهولة الانخلاع . أما الرجال فلم يشتهر منهم بالرثاء إلا أفراد عضتهم المصيبة بما لم يبرأ من الألم فصاحوا تلك الصيحة التي ينجذب معها القلب الى الشفتين .

قال المبرد في الكامل ( ص ٣٩٠ ج ٢ ) : وكانت العرب تقدم مرثي وتفضلها ، وترى قائلها بها فوق كل مؤبّن . وكأنهم يرون ما بعدها من المرثي منها أخذت وفي كنفها تصلّح... ثم ذكر منها قصيدة أعشى باهلة التي يرثي بها المنتشر بن وهب الباهلي وساق خبرها . وكذلك روى قصيدة متمم بن نويرة في أخيه مالك ، وهذه القصائد التي يشير إليها المبرد هي عيون المرثي التي رواها محمد بن أبي الخطاب القرشي في كتابه « جمهرة أشعار العرب » وهي لأبي ذؤيب الهذلي ، وعلقمة بن ذي جَدَن الحيري ، ومحمد بن كعب الغنوي ، والأعشى الباهلي ، وأبي زيد الطائي ، ومالك بن الربيع ، ومتمم بن نويرة . ولم يذكروا منها شعر النابغة في حصن بن حذيفة ، ولا مرثي أوس بن حجر في فضالة بن كَلْدَةَ . ولأوث هذا فيه مرث جيد ، من أحسنها القصيدة السائرة التي أولها :

أيتها النفس أجْمَلِي جَزَعاً إن الذي تحذرين قد وقعا !

وبديهى أن الرثاء لا يتعلق بالنسب كما يتعلق به المدح والهجاء وغيرهما ولكن وردت للعرب في ذلك قصيدة واحدة . قال ابن الكلبي : لا أعلم مرثية أولها نسيب إلا قصيدة دريد بن الصمة :

أرثّ جديدُ الحبل من أم معبدٍ بعافية وأخلفت كل موعد

وقال ابن رشيقي : « وإنما تَغَزَلُ دريد بعد قتل أخيه بسنة وحين أخذ نأره وأدرك طلبته ، وربما قال الشاعر في مقدمة الرثاء : تركت كذا أو كبرت عن كذا وشغلت عن كذا ، وهو في ذلك كله يتغزل ويصف أحوال النساء ، وكان الكيت ركاباً لهذه الطريقة في أكثر شعره ، فأما ابن مقبل

فمن جفاء أعرابيته أنه رثى عثمان بن عفان بقصيدة حسنة أتى فيها على ما في النفس ثم عطف وقال :

نَدَعُ ذَا وَلَكِنْ عَلَقْتُ حَبْلَ عَاشِقٍ . . . . . «الأبيات»

والنسب في أول القصيدة على مذهب دريد خير مما ختم به هذا الجلف على تقدمه في الصناعة ( ص ١٢١ و ١٢٢ ج ٢ : العمدة ) .

ومما حدث بعد الإسلام في طرق الرثاء الجمع بين التعزية والتهنئة ، وهو مخصوص بالخلفاء في تعزية من يلي عهد أبيه منهم ، وكان أول ذلك حين مات معاوية وقدم يزيد ولده فلم يقدم أحد على تعزيتيه ، حتى دخل عليه عبد الله ابن همام السلولي فأنشده ( ج ١ : البيان ) ففتح للناس بعده باب القول ، وقد روى ابن رشيح هذه الأبيات في العمدة ( ص ١٢٤ ج ٢ ) ووطأ لها بسجعات نسبها للسلولي ، والصحيح أن له الشعر وحده ، أما السجع فهو لعطاء بن أبي سفيان الثقفي ، وهو من الخطباء الذين فتح لهم الكلام بذلك الشعر ( ج ١ البيان ) . ولما توفي عبد الملك وجلس ابنه الوليد دخل عليه الناس وهم لا يدرون أيهنثونه أم يعزونه ؟ فأقبل غيلان ابن مسلمة الثقفي ، فسلم عليه ثم خطب معزياً ومهنئاً . وكذلك لما توفي المنصور دخل ابن عتبة مع الخطباء على المهدي فسلم ونحا هذا المنحى ، وقد روى كلامها الجاحظ في الجزء الأول من البيان .

والذي ابتدأ بالإجادة في هذه الطريقة من الشعراء ، أبو نواس في قصيدته النونية التي يعزي بها الفضل بن الربيع عن الرشيد ويهنيه بالأمين ، يقول منها :

وفى الحيِّ بالميتِ الذي غَيَّبَ الثرى

فلا الملكُ مَغْبُونٌ ولا الموتُ غَابِنٌ

ثم اتبعه أبو تمام في قصيدته التي أوَّلها :

\* ما للدموع تروم كل مرام \*

يقولها للوائق بعد موت المعتصم ، وقد صرف الكلام فيها كيف شاء

وأُتِيب كما أراد ، وتقدم فيها على كل من سلك هذه الناحية من الشعراء ؛  
وليس في المتأخرين من يؤمّ في هذه الطريقة غير جمال الدين بن نباتة المصري ،  
من شعراء القرن السابع ، فإنه جاء في قصيدته الميمية التي عزي فيها عبد الملك  
المؤيد صاحب حماء وهناً ولده الأفضل ، بما يعد من عجائب الصناعة ، لأنه  
استطرد في القصيدة على طولها بالجمع بين التهئة والتعزية الى آخرها ، وهي  
مشهورة ، مطلعها :

هنا محاذك العزاء المقدّما      فما عَبَسَ الحزون حتى تبسّما

وأبو تمام من المعدودين في إجادة الرثاء خاصة ، حتى قيل فيه إنه نواحة  
ندابة ؛ وكذلك عبد السلام بن زغبان المعروف بديك الجنّ ؛ واشتهر في  
الرثاء بطريقة انفراد بها لا ترجع الى الأسلوب ولا الى الصناعة ، ولكن الى  
معنى الفجعية ، وذلك أنه قتل له جارية وغلماً كان يهواها ثم جعل ينوح  
عليها ويرثيها ، فاشتهر بهذه الطريقة ، وليس أدل على جودة رثائه من  
قوله فيها :

لو كان يدري الميتُ ماذا بعده      بالحيّ منه ، بكى له في قبره

وكان للرثاء شأن في أوّل الدولة الأموية ، حتى كانت المراثي يُنّاح بها  
نوْحاً على القتلى والأموات ، وأشهر من عرف بذلك الغريض المغني ، وقد  
ربته الثريا بنت عبد الله بن الحارث وعلمته النوح بالمراثي علي من قتله يزيد  
ابن معاوية من أهلها يوم الحرة ( ص ٨٥ ج ١ : الأغاني ) ؛ وكان المشهور قبله  
بالنوح ابن سريج المغني ، وقد عدل بعد ظهور الغريض الى الغناء فعدل معه  
الغريض إليه ( ص ١٠٠ ج ١ : الأغاني ) ، ثم كان بنو أمية يشترطون في  
تقريب الراوية منهم أن يكون لمراثي العرب [ أحفظ ] ، وكان القائم برثاء  
المتقدمين منهم النصيب الشاعر ، فكان إذا قدم على هشام ابن عبد الملك أخلى  
له مجلسه واستنشد مرثي قومه ، فإذا أنشده بكى وبكى معه ( ص ١٣٥  
ج ١ : الأغاني ) وكان يتقرّب بذلك الى ملوكهم وأمرائهم ، حتى إنه لما  
دخل على عمر بن عبد العزيز وهو أمير المدينة ابتدأه في الاستئذان أن ينشده

من مرثي أبيه عبدالعزيز، فقال: لا تفعل فتحزني(ص ١٣٧ ج ١ : الأغاني)؛ وقد عارض بني أمية في الولع بالرقاء شعراء الطالبيين ومن نبغ بعد ذلك من هذه الشيعة الى اليوم .

ومن طرق الرقاء التي أحدثها المتأخرون ، ما يرثون به الدواب والآفات والأدوات ، وقد مرت الإشارة الى ذلك في موضع آخر ؛ ولكن القصيدة التي احتذوها في ذلك إنما هي القصيدة الهرية الشهيرة التي نظمها ابن العلاف الشاعر المتوفى سنة ٣١٨ ، وكان له هرّ يأنس به ، وكان يدخل أبراج الحمام التي لجيرانه ويأكل فراخها ، وكثر ذلك منه فأمسكه أربابها فذبحوه ، فرثاه بها ؛ وقيل إنه إنما رثى بها عبد الله بن المعتز وخشي من الإمام المقتدر لأنه هو الذي قتله ، فنسبها الى الهر وعرض به في أبيات منها ، ويقال بل كنى بالهر عن الوزير أبي الحسن بن الفرات أيام محنته ، لأنه لم يحسر أن يذكره ويرثيه . وقيل غير ذلك ، وهذه القصيدة في ٦٥ بيتاً ، وهي معدودة من أحسن الشعر وأبدعه ، وقد نقل زبدتها ابن خلكان في تاريخه ( الجزء الأول ص ١٣٧ ) . وللعلاف قصائد أخرى في الهر أيضاً ولكن هذه أشهرها .

[ واستحسن ] من يعده هذا المذهب ، فعارض ابن العميد القصيدة الهرية صناعة ، ونقل الثعالبي شيئاً من قصيدته في اليتيمة ( الجزء الثالث ص ٢٣ ) ولما نفق بردون أبي عيسى المنجم بأصبهان وكان قد طالت صحبته له ، أوعز الصاحب ابن عباد الى الندماء المقيمين في حلبته أن يعزوا أبا عيسى ويرثوا بردونه ، فقال كل منهم قصيدة فريدة ، نقل الثعالبي مختارات منها ( الجزء الثالث ص ٥٥ : يتيمة الدهر ) . ثم شاع هذا النوع بعد ذلك وتقلبوا في أغراضه .



## الغزل والنسيب

ليست هاتان الكلمتان مترادفتين بالمعنى الأخص كما جرى في عرف الناس ، ولكن بينها فرقا نبه عليه قدامة فقال : إن النسيب ذكر خلق النساء وأخلاقهن ، وتصرف أحوال الهوى به معهن ، وقد يذهب [ عن ] قوم موضع الفرق بين النسيب والغزل ، والفرق بينها أن الغزل هو المعنى الذي اعتقده الإنسان في الصبوة الى النساء نسب بهن من أجله ، فكأن النسيب ذكر الغزل والغزل المعنى نفسه . قال : والغزل إنما هو التصابي والاستهتار بمودات النساء ... وإذ قد بان أن الذي قلناه على ما قلنا فيجب أن يكون النسيب الذي يتم به الغرض هو ما كثرت فيه الأدلة على التهالك في الصباية ، وتظاهرت فيه الشواهد على إفراط الوجد واللوعة ، وما كان فيه من التصابي والرقّة أكثر مما يكون من الحشن والجلادة ، ومن الحشوع والذلة أكثر مما يكون فيه من الإباء والعز ، وأن يكون جماع الأمر فيه ما ضادّ التحافظ والعزيمة ووافق الانحلال والرخاوة ، فإذا كان النسيب كذلك فهو المصاب به الغرض .

لا جرم كانت هذه الأخلاق التي يحلو بها النسيب ويعذب الغزل غير صريحة في البداوة، ولا خالصة في تلك الحشونة الفطرية التي طبع عليها العرب في جاهليتهم ، فكان نسيب شعرائهم قليلا بمقدار تلك الأخلاق التي انسلخت من الطبيعة العربية وتحولت عن صميمها بما فيها من المادة الحضرية الموروثة أو المكتسبة ، لأن أول من تعهّر في شعره من العرب وشبّب بالنساء ، إنما هو امرؤ القيس بإجماع الرواة ، وكان أبوه من ملوك كندة فظهرت في غزله

الحضارة اليمنية وأفسدتها صلعة الرجل ؛ إذ كان على أنه ابن ملك لا يستتبع إلا صعاليك العرب وذؤبانهم ، وقد شب حتى بنساء أبيه ؛ وكان هذا سبب نفيه ، لا ما زعموه من أن الملوك كانت تأنف لأبنائها من الشعر ، وقد نبه على ذلك الجاحظ « في الحيوان » وسنكشف قلب هذا الشاعر متى وصلنا إلى ترجمته . وكان قبل امرئ القيس خاله مهلهل ، وهو زير نساء ، ولكنه كان بعين أخيه كليب فارس العرب المشهور - وقد مرّ وصفه - فلم يك بالفحش ولا بالبذئ ، ولما كان مهلهل أول من أرقّ الشعر كان كذلك أول من غني بالتشبيب من شعره ( ص ٦١ : سرح العيون ) .

ولم يجيء بعد هذين الشعارين من يتهالك في غزله غير النابغة الذبياني ، وقد أفحش في بعض نسيبه إفحاشاً كأنه رومي أو فارسي ، لطول ما صحب المناذرة والفساسنة ، أما سائر الشعراء من العرب فكانوا على سنّة قومهم من الغيرة والأنفة ؛ ولذلك ظهر النسب فيهم طبيعياً [ فقامت ] فيه الطول والآثار ، وتشوقوا بالرياح الهابة والبروق اللامعة والجمائم الهاتفة والخيالات الطائفة وبكوا على آثار الديار العافية وأشخاص الأطلال الدائرة .

وهم إذا وصفوا محاسن النساء لم يزيدوا على الأوصاف الطبيعية التي تقع عليها الأعين ؛ إذ كن غير مقصورات ولا محجوبات ، وإنما تجيء طهارة الغزل من اعتبار الحسن اعتباراً طبيعياً ، كالذي تعرفه النفس من جمال الشمس والقمر ، وخضرة الرياض ، وأريج الأزهار ، ونحو ذلك ؛ وأظن أن إجماع الناس كافة على اختلاف أممهم في تشبيه الحسن النسائي بتلك المعاني إنما جاءهم من ذلك الاعتبار ، لأنه فيهم إرث الطهارة الطبيعية من لدن الإنسان الأول ؛ ولذلك السبب عينه لم تكن تأنف العربية أن توصف محاسنها ، لأن الحسناء فيهم [ صفة ] نفسها ، وإنما كان الشأن في ريبة النظر ودنس الفؤاد ، وذلك الذي كان يستطير له الشر بينهم وتعتقد عليه الغارات فهو غزل الأسنة لا غزل الألسنة ، وهو أيضاً كان السبب في أن النسب لم يغلب على شعر واحد من شعرائهم فيعرف به كما عرف قوم بالهجاء والمديح وغيرها ، وعلى أن هذا النسب كان نوعاً من أنواع الوصف فهو كذلك لم يتميز به شاعر تميّزَه



بالأوصاف الأخرى ؛ وهذه تراجم شعراء الجاهلية وأشعارهم بين أيدينا ، وهي يجملتها الدليل على ما أسلفنا بيانه .

فلما جاء الإسلام آمنت العيون المريبة ، وصدق النظر في عفته ، وتلجلجت الألسنة فيما كانت تنطلق به ؛ فكان ذلك أبلغ في عفة النسب ، حتى صار يؤخذ من طرف اللسان ، ولا يقصد به إلا إقامة السنة التي درج عليها العرب ، وتحريك ما في القلوب من بقايا الشباب ؛ حتى يستجيب الطبع للشاعر وتسلس له الخواطر ، كما قال مالك بن زغبة الباهلي ( ص ٩٨ ج ٢ : العمدة ) .

وما كان طبي حبها غير أنه يُقامُ بسلمى للقوافي صدورُها

ولولا ذلك ما سمعه رسول الله ﷺ في مسجده من قصيدة كعب بن زهير الشهيرة ؛ ولتبين الناس منه الكراهة له ؛ وهم لم يرووا من ذلك شيئاً كما رووا في غيره ( هو منافرة الزبرقان ؛ راجع العمدة ) .

ومضى الشعراء على ذلك الى زمن عمر بن الخطاب ، وكان لشدته في الدين ينكر من الشعر غير معالي الأخلاق وصواب الرأي وما يرجع الى الأنساب ؛ حتى لقد مرَّ بحسان وهو ينشد في مسجد رسول الله ﷺ فأنكر ذلك ، ثم قال : أرغاء كرغاء البكر ؟ فقال حسان : دعني عنك يا عمر ، فوالله إنك لتعلم لقد كنت أنشد في هذا المسجد من هو خيرٌ منك فما يغير عليّ ذلك ! لا جرم أنه استبطل النسب وراه عبثاً ، إن لم تكن فيه حرمة فقد يكون سبباً إليها ، خصوصاً وقد توأف الناس في زمنه معاني الغزل بما جلبته لهم الفتوح من السراري ، فتقدم عمر إلى الشعراء أن لا يتشبه أحد بامرأة إلا جلده ( ج ٤ ص ٩٨ : الأغاني ) ؛ وكان يأبى أن يساكنه جميل من الرجال تهتف به العواتق في خدورهن ؛ وقصة نصر بن حجاج معه مشهورة ، ولكن ما جاءتهم به الفتوح كان قد أدخل عليهم رخاوة المدينة ونقض من طباعهم ، ثم جعلت قلوبهم تسيب وتسيب معها أخلاق البداوة ؛ فما هدأت الفتن بعد عثمان واستقر الأمر لمعاوية حتى قويت قلوب وضعفت عقول ، وانصرف أكثر

القرشيين الى ما ألهام به معاوية من الترف والنعمّة ، وما جرأهم عليه من مباحات النظر واللسان، وهو كان يبذل إليهم الأموال في هذا السبيل ويعينهم عليه بما وسعه من الجهد ، ليكسر من قرشيتهم التي هي قوام الخلافة . وظهر يومئذ الغناء [ مُمْتَرَى ] فيه حتى أباحه يزيد بن معاوية ( ٦٠ - ٦٤ هـ ) ففشا في الحجاز ؛ والنسيب مادة الغناء الطبيعية وبه يقوم أمره ؛ فكان المغنون يتناولون في أول أمرهم نسيب الجاهليين والمخضرمين ؛ كالمهلل وامرئ القيس والنابغة وذو الإصبع العدواني وحميد بن ثور وغيرهم ؛ وكان هذا منشأ الظرف الحجازي الذين ضربوه مثلاً ؛ لأن أهل العراق كانوا ينكرون الغناء ولكن لا يرون بأساً بالرجز ، وهو ما يجدي به ( ص ١٦٣ ج ١ : الأغاني ) ؛ وكذلك صاروا يكرهون النسيب من أجله ؛ حتى قال فيهم سعيد بن المسيب : إنهم نسكوا نسكاً أعجيباً . ونبغ في ذلك العهد عمر بن أبي ربيعة الغزل المترف ، وكانت أمه سبيت من حضرموت ، ويقال من حمير ، ومن هناك أتاه الغزل ( ص ٣٢ ج ١ : الأغاني ) كما أتى امرأ القيس من قبله ، وليس بينها من يساويها في هذه الطريقة ، وإنما نشأ لزمانه فتيان الشعر من القرشيين ، كأبي دهب الجمحي ، ومن ينزل منزلتهم بما يدل به من سابق الحرمة ، كعبد الرحمن بن حسان ، فلم يتركوا أن يقولوا النسيب في كل من جاز أن يقولوه فيه وكل من لم يجز ، حتى تناولوا به بنت معاوية ؛ ولكن ابن أبي ربيعة هو الذي استقلت [ له ] هذه الطريقة وكان أول من شهر بها ، فبرع نظراءه بسهولة الشعر وشدة الأسر وحسن الوصف وإرسال شعره قصصاً غزلية حتى كأنه إنما يدون فيه تاريخ قلبه ، ولذلك فتن به الناس ، وكان أشهر أهل الحجاز يومئذ بالظرف والرقّة وطباع الغزل ، ابن أبي عتيق ، وهو عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر ، فكان عمر يذهب في شعره الى أخلاقه ( ص ٢٨ ج ٢ : الحيوان ) وأخبارهما مشهورة ، ثم كان يعني في أشعاره ابن سريج المعني النوّاحة ، فلو أن القلوب لا ترى ببصائرها إلا لونا واحداً لكان هو اللون الذي يعطيه غناء ابن سريج بشعر ابن أبي ربيعة ، ولذلك طار نسيبه وصار الحسان يتعرضن في آفاق لحظه كواكباً وأقماراً

ليشهرن فيرتفعن في الناس بصفته ؛ وبلغ من فتنة شعره للنساء أنهن كن يتدارسنه ويكتبنه ( ص ٣٧ ج ١ : الأغاني ) .

وقد خلقت تلك البيئة عمر خلقاً نسائياً ، حتى كأنما كن ينجذبين إليه للمناسبة الجنسية... فقد كان في أيام الجمع يلبس حلل الوشي ويركب النجائب الخضوبة بالحناء عليها القطوع والديباج ويسبل لمته ويخرج يتلقى العراقيات الى ذات عرق ، ويتلقى المدينيات إلى مرّ ويتلقى الشاميات الى الكديد (ص ٨٨ ج ١ : الأغاني) كل ذلك التماساً للغزل وطلباً لمآثه ، وأخباره كثيرة مثبتة في موضعها من كتاب الأغاني .

وظهرت مع عمر طبقة العشاق من شعراء العرب : كجميل ، وكثير ، ونصيب ، وجنادة العذري وغيرهم ؛ ثم الشعراء الذين صاغتهم البيئة : كالأحوص الذي كان يشبب بالنساء ذوات الأخطار من أهل المدينة ، حتى نفاه سليمان بن عبد الملك ( ص ٤٨ ج ٤ : الأغاني ) ؛ ووضاح اليمن وكان يشبب بامرأة الوليد بن عبد الملك .

وفشا أمر الغناء فكان ابن سريج وابن محرز ومعبد والغريض ومالك وابن عائشة وغيرهم [ يفتنون ] في النسب من شعر تلك الطبقة كلها ، وبذلك ظهر النسب في وضع يشبه أن يكون فارسياً أو رومياً ولا يلتئم مع أخلاق العرب ؛ إذ تحكى فيه قصة الغزل ويفتخر فيه بنقض العفة والخلال الطباع ، إلى أمثال هذه المعاني ؛ وكان ذلك أصل ما ورثه المولدون من هذه الصناعة .

وتم نوع من الهجاء استخدم فيه النسب ، واستعين على البلوغ الى حقيقته بهذا الغزل الحديث ، وأوّل من فعل ذلك الشاعر الملقب بالعرجي ، وهو عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان، وقد نبغ بعد موت ابن أبي ربيعة ونحا نحوه وتشبه به فأجاد ، وكان جريئاً في شعره على نساء قريش ونساء بني أمية ، قليل [ المحاشاة ] لأحد ، وكان يهجو محمد بن هشام ابن عبد الملك الخليفة الأموي ، فلما رأى أنه لم يبلغ منه ولم [ يُمِضَه ] جعل يشبب بأمه

وامراته ( ص ١٦٦ ج ١ : الأغاني ) وينسب بها ، وخصوصاً أمه ، على تلك الطريقة من حكاية الوقائع واقتراء الإفك ، لا لحة ولا لمعنى من معاني الغزل ( ص ١٥٤ ج ١ : الأغاني ) ؛ ولكن ليفضح الرجل بإشاعة الشعر على ألسنة المغنين ؛ وليس يؤخذ بالنسب هذا المأخذ إلا وقد استقامت طريقته تلك بما يمتهد لها من الأعراض ويوطأ من الأخلاق ؛ ولذلك صار الأشراف والأمراء يتقون تلك الألسنة أكثر مما يتقون العيون المريبة بعد أن شدوا في الحجاب وفرقوا بين الرجال والنساء في الطواف ، وذلك في إمارة خالد القسري عامل سليمان بن عبد الملك على مكة ، إذ بلغه قول بعض الشعراء ( ص ١١٦ ج ٢ : المسعودي ) :

يا حبذا الموسم من موقف      وحبذا الكعبة من مسجد  
وحبذا اللاتي يزاحمننا      عند استلام الحجر الأسود

فتحوّلت الأخلاق يومئذ في سواد الأمة بهذا النسب ، حتى كان من الأشراف من يحاول أن يعيد الأخلاق العربية ، كعبد العزيز بن مروان [ والي ] عبد الملك على مصر ، فإنه كان لا يعطي شاعراً شيئاً حتى يذكر أمه في مدحه لشرفها ، فكان الشعراء يذكرونها باسمها في أشعارهم ( ص ١٣٦ ج ١ : الأغاني ) .

ولما كانت خلافة عمر بن عبد العزيز تحامى شعراء الغزل أن يشهروا النساء في نسيبهم ، وتحوّلوا عن طريقة ابن ربي ربيعة ، حتى إن النصيب الشاعر المقدم في ذلك لم يأخذ جائزته إلا بعد أن شهدوا له أنه عاهد الله أن لا يقول نسبياً يشهر به النساء ( ص ١٣٨ ج ١ : الأغاني ) واستمر أكثرهم على ذلك : لا ينسب إلا تلمحاً واستجماماً على غير ريبة ولا فاحشة ، ومالوا في ذلك إلى طريقة العرب ، إلا ما لا بد منه من صنعة الأخلاق التي تناسب الغزل والتشاجي ، حتى ظهر أبو المحدثين بشار بن برد ، فأفرط في الصنعة ، لأنه كان أعمى ، وبالغ في تصوير الإحساس ليمتاز بذلك على المبصرين وهو والأعشى معدودان كذلك عندهم ، فكان سبيله إلى هذا الغرض أن نصب في

شعره حبائل الشيطان وزخرفه بتزويق اللسان وقارب في غزله النساء بما كان يجتريء، ابن أبي ربيعة بنظره عن التحدث به في النسب ، حتى [ اشتهر ] نساء البصرة وشابها بشعر بشار ، وانتهى خبره من وجوه كثيرة الى المهدي ابن المنصور العباسي ، وكان أشد الناس غيرة ، فنهاه عن ذكر النساء وقول التشبيب ( ص ٤١ ج ١ : الأغاني ) ثم ظهر بعد ذلك أبو فراس والعباس بن الأحنف ، وهذا الأخير ليس في شعره مديح ، إنما هو مصروفٌ الى النسب يتوخى فيه صفة المعنى لصفة الحكاية ، وشعره عكس شعر الفرزدق لأنه كان لا يقول في الغزل ( ج ١ : البيان ) والعباس لا يقول إلا فيه .

ومن ذلك العهد شاع النسب والتحم بالشعر ، ورغب فيه الخلفاء من شعرائهم حتى إن الرشيد أمر بحبس أبي العتاهية والتضييق عليه لما تزهد وآلى على نفسه أن لا يقول شعراً في الغزل ( ص ١٦٠ ج ٣ : الأغاني ) ثم أضاف البحري الى النسب معنى تعلق به وردده في شعره واستقصاه ، حتى كان الباب الذي شهر به على أنه أرق الناس نسبياً وأملحهم طريقة ، وذلك المعنى هو ذكر الطيف والخيال ، وكان من ذلك شيء قليل في أشعار المتقدمين يركبون فيه صنعة جافية تتخون محاسنه وتُعفي على معنى الغزل فيه ، إذ كانوا يطردونه ؛ وأشهر ما في ذلك قول جرير :

طرتك صائدةُ القلوب وليس ذا وقتَ الزيارة فارجمي بسلام

ومن انفراد بطريقته في النسب بعد البحري وشهر بالغزل خاصة ، أبو الوليد بن زيدون ، وهو الذي لقبه الأندلس ببحتري المغرب ، وقصائده مشهورة ، وخصوصاً النونية التي يتشوق بها الى ولادة ، وكذلك أبو الوليد ابن الجنان من شعراء الملك الناصر صاحب الشام في القرن السابع ، قال ابن سعيد المغربي : ومقاطيعه الغرامية قلائد أهل الغرام ( ص ٣٧٩ ج ١ : نفع الطيب ) وكان في ذلك القرن أيضاً أبو الفضل زهير الشهير بهاء الدين ، وهو صاحب الديوان المشهور الذي يقال في غزله إنه السهل الممتنع ، وقد انفراد بهذه الطريقة حتى لا يذكر معه فيها أحد من المتأخرين إلا تابعاً ، ثم

تتابع الشعراء بعد هؤلاء وكلهم ينسبون وأكثرهم يجيدون ، ولكننا لا نعرف  
لواحد منهم طريقة يتبع فيها بل كلهم ، إلا ما اشتهروا به من السخافات ،  
كالغزل المقوت الذي يصفون فيه الأحداث والمخنثين ، وكان منشأ ذلك في  
أوائل الدولة العباسية بعد اقتناء المالك من الروم والترك وغيرهم ؛ ولبعض  
خلفائهم ولع به واستهتار ، كالمعتضد وغيره ، وليس هذا موضع شرحه  
ولا تأريخه ، وقد رأينا لبعض المتأخرين فيه كتاباً مطبوعاً ، ولكننا ننزه  
كتابنا عن الإشارة إليه .

ويدخل في تاريخ النسب بعض المذاهب الصناعية التي استحدثت فيه ،  
ونخص بالذكر من ذلك مذهبين : الأول ما سلكه المتنبّي من التغزل بمدوحه ،  
وقد نبه عليه الثعالبي في اليتيمة ، والثاني ما استنته الوزير الطغرثائي من الجمع  
بين مدح فتیان الحي والتغزل بفتياته ، وقد شغف بهذه الطريقة من المتأخرين  
ابن معتوق الموسوي وأكثر غزله فيها .



## الشعر الوصفي

الوصف جزء طبيعي من منطلق الإنسان ، لأن النفس محتاجة من أصل الفطرة الى ما يكشف لها من الموجودات وما يكشف للموجودات منها ، ولا يكون ذلك إلا بتمثيل الحقيقة وتأديتها الى التصوّر في طريق من طرق السمع والبصر والفؤاد ، أي الحس المعنوي ، فالأمم الطبيعية هي أصدق الأمم في الوصف طبيعة ، لأنه سبيل الحقيقة في ألسنتها ، ولأن حاجاتها الماسة إليه تجعل هذا الحس فيها أقرب إلى الكمال ، فإذا أضفت إلى ذلك سعة العبارة ومطاوعة اللغة في التصريف - كما هو الشأن عند العرب - كان أجمع للحس وأبدع في تصوير الحقيقة بما تكثر اللغة من أصباغها ويحيد الحس في تأليف بينها وتكوين المناسبات الطبيعية التي تظهرها تلك الألوان المهيأة على حسب هذه المناسبات .

ولما كان الوصف الشعري هو أرقى ما يكون في اللغة من صناعة الأصباغ والتلوين ، كان لا يقع إلا على الأشياء المركبة من ضروب المعاني ، وكان أجوده لذلك ما استجمع أكثر المعاني التي يتركب منها الشيء الموصوف وأظهرها فيه وأولاهها بتمثيل حقيقته ، وهي الطريقة التي اتبعها العرب في أوصافهم بدلالة الفطرة القوية والطبيعة الراقية، وقد كان هذا سبباً في تطبيقهم وصف الحيوان والنبات وغيرهما على علومهم ومعارفهم التي خلدوها بذلك في أشعارهم؛ لأن من أخص مزايا العلم التدقيق والاستقصاء، حتى قال الجاحظ: قلّ معنى سمعناه في باب معرفة الحيوان من الفلاسفة وقرأناه في كتب الأطباء

والمتكلمين إلا ونحن قد وجدنا قريباً منه في أشعار العرب والأعراب (ص ٨٣ ج ٣ : الحيوان ) . فاستقصاء المعاني التي يتركب منها الموصوف طبيعة عامة في شعرائهم ، ولكنهم يتفاوتون في قوة الاحتيال على إبراز هذه المعاني وابتداع الأساليب في تصويرها ، وهذا هو موضع التفضيل بينهم ، لأنه راجع الى اختلاف القرائح خلقةً واستعداداً . وقد غفل أكثر الأدباء عن هذه الحقيقة ، فتراهم يعجبون لما يرونه في بعض أشعارهم مما يكون سبيله الاحتيال على تصوير أجزاء الموصوف ، ويعدونّه خشونة وجفاء طبع ، كالذي يذكرونه في وصف الناقة بأن هراً قد ثبت في دفتها ، كقول عنتره :

و كأنما ينأى بجانب دفتها الـ      وحشي من هزج العشي مؤومـ  
هر جنيبٌ كلما عطفت له      غَضْبى اتقاها باليدين وبالقم

وإنما أرادوا صفة الناقة بأنها روائية شديدة التفزع لفرط نشاطها ومرحها ، فجاءوا بهذا المعنى الذي تلزم عنه تلك الصفة ، وخصّوا الهر لأنه يجمع العضّ بالناب والمحض بالخالب ، فيكون ذلك أبلغ فيما أرادوه .  
ومنه قول أوس بن حجر ، وقد جاء بأكثر من ذلك ، يريد أنها لا تستقر :

كأن هراً جنيباً تحت عُرضتها      والتفّ ديكٌ بحقّوَيها وخنزير  
وقول الشماخ :

كأن ابن آوى موققٌ تحت عُرضها  
إذا هو لم يكلمُ بنابيه ظفراً

« والغرضة والغرض : حزام الرجل (ص ٧٤ ج ٢ : الكامل) » .  
وعلى ذلك يؤول كل ما ورد في أوصافهم من أمثال تلك المعاني التي يستقصون بها أجزاء الصفة وأساليب التركيب ، وهي عامة في الشعر الجاهلي والطبقة التي تليهم من الإسلاميين ، ومن أعجبها قول الراعي حين أراد أن يصف لون الذئب :



متوقع الأقران فيه شبهة      هشّ الـيدين نخاله مشكولا  
كدخان مرتجل بأعلى تلمة      غرثانَ صرّمَ عرفجا مبلولا

المرتجل : الذي أصاب رجلاً من جراد فهو يشويه ، وجعله غرثان لأنه على طول الغرث لا يختار الحطب اليابس على رطبه ، فهو يشويه بما حضره . وأدار الراعي هذا الكلام ليكون لون الدخان بلون الذئب الأطلح متفقين ( ص ٢٤ ج ٥ : الحيوان ) .

ومن تفاوتهم في الأساليب قول الشماخ في صفة الحرّ :

كأن قتودي فوق جاب مطرد  
من الحقب لاحتَه الجداد الفوارز

( الأبيات ... ص ٢٨ ج ٥ : الحيوان ) قال الجاحظ : وهذه الأبيات كان الحطيئة والفرزدق يقدمان الشماخ بغاية التقديم . وسجد الفرزدق مرة إذ سمع رجلاً ينشد بيتاً للبيد :

وجلا السيول عن الطلول كأنها      زُبُرٌ تُجِدُّ متونها أقلامها

فقيل له : ما هذا ؟ قال : موضع سجدة في الشعر أعرفه كما تعرفون مواضع السجود في القرآن ! ( ص ٢٧٥ : شرح العيون ) .

ولما كان الوصف عند العرب أشبه بالحقيقة العلمية كما مر ، كان الشاعر منهم لا يتعاطى الى ما يُحسن من ذلك ضرورة ، وقد يشارك في أوصاف كثيرة ولكنه ينفرد بالشهرة في بعضها ، من جهة العلم لا من جهة الصناعة ، فكلما كان أعلم بأجزاء الموصوف وحالاته ، وأقدر على استقصاء هذا العلم في شعره ، كان أبلغ في الوصف وأولى بالتقديم فيه ؛ وإن أحسن ما يكون الوصف الصادق إذا خرج عن علم ، وصرفته روعة العجب ، فإن العلم يعطي مادة الحقيقة ، والمعجب يكسبها صورة من المبالغة الشعرية ، وكل وصف لا يكون عن هذين أو أحدهما فهو تزيُّد من الكذب ، وتكثّر بالباطل ، لأن سبيله سبيل المصنوع المتكلف ، ولا يسلم متعاطيه من الخطأ ، كما ترى

شعراء المولدين يصنعون في صفة الإبل ونحوها من خصائص الشعر الجاهلي .  
وقد أخطأ أبو نواس على جلالة في وصف الأسد حين تماطاه ، وسيأتي ذلك  
في موضع آخر .

وعلى جهتي الوصف الصادق اللتين ذكرناهما ، يجري كل شعر العرب ومَن  
بعدهم من طبقتي المحضمين والإسلاميين ، ولا يبقى موضع للعجب في  
تناولهم بالوصف كل أجزاء طبيعتهم ، حتى الحشرات ، وحق ما لا يستحسن  
مثله عادة من الوصف ، كما فعل مخارق بن شهاب المازني ؛ وهو على  
سيادته وكرمه ، وعلى أنه من رؤساء العرب ، تراه يصف تيس غنمه ،  
ولولا روعة العجب لترك ذلك لأخلاق الرعاة ومَن في طبقتهم ( ص ١٤٣  
ج ٥ : الحيوان ) .

على أنهم في ذلك جميعه إنما كانوا يتوسعون فيما يتعلق بالأجزاء من  
الموصوفات دون ما يتعلق بالمعاني ، والأجزاء متعلقة بالهيئة الخاصة ، والمعاني  
متعلقة بالحالة العامة ؛ فإذا وصفوا الناقة مثلاً وهي ذات هيئة خاصة مميزة  
بأجزائها أتوا على هذه الأجزاء واستغرقوا كل ما يتعلق بالهيئة ؛ وحسبك أن تقرأ  
قصيدة التغلبي في وصف القطاة ، وقد رواها الجاحظ وقال إنها أجود قصيدة  
قيلت في القطاة ( ص ١٦٩ ج ٥ : الحيوان ) وإنما كانت كذلك لاستغراقها  
كل أجزاء الصفة بحيث تصوّرها تصويراً حياً ، ولكنهم إذا وصفوا حرباً  
انصرفوا عما فيها من المعاني العامة وردّوها إلى النوع الأوّل فجزءوها أجزاء  
واعتبروها هيئة ، فربما وصفوا منها الخيل وفرسانها وأدوات القتال وذكروا  
الصفة العامة للحرب ، من النقع والدماء والطير التي تتبع القتلى ونحو ذلك  
مما ترد جملة إلى أجزاء مفردة بأعيانها ، ولكنهم لا يصفون حالة المتقاتلين  
مما يبنى على معاني النفس وتقام به فلسفة الإنسانية ، لأن ذلك بعيد عن نظام  
اجتماعهم ، ولو اقتضاه الاجتماع لاهتدوا إليه ؛ ولهذا السبب عينه لم يؤثر  
عنهم شيء في الأوصاف التاريخية التي يستمد منها الشعر القصصي ، وقد ذكر  
شعراؤهم واقعة الفيل وسيل العرم وغيرها ( انظر ج ٧ : الحيوان ) ولكنهم  
لم يحتالوا على أن يصفوا ذلك بمعانيه العامة في قصة أو شبه قصة ، كما رأيتهم

يحتالون على إبراز الصفات الطبيعية ويتكلفون لذلك نوعاً من القصص على ما سلف بيانه (\*) . وقد تجدهم يزحمون أجزاء الهيئة وبيالغون في استقصائها حتى تقصر الألفاظ عن بسط المعنى وتترك في التصوير مواضع للنظر والفكر ، كقول الشماخ يصف أرضاً تسير النبالة فيها :

تقعقع في الآباط منها وفاضها . . . خلت غير آثار الأراجيل ترمي

قال قدامة : فقد أتى هذا البيت بذكر الرجالة وبيّن أفعالها بقوله « ترمي » ، ومن الحال في مقدار سيرها بوصفه تقعقع الوفاض ، إذ كان في ذلك دليل على الهرولة أو نحوها من ضروب السير ، ودل أيضاً على الموضع الذي حملت فيه الرجالة الوفاض ، وهي أوعية السهام ، حيث قال « في الآباط » فاستوعب أكثر « هيآت » النبالة وأتى من صفاتها بأولائها وأظهرها عليها ، وحكاها حتى كأن سامع قوله يراها ( ص ٤١ : نقد الشعر ) ولم يلتزم المولدون سنن العرب في الوصف ، بل قلبوه الى التشبيه ، وبينها فرق عند العرب ، وهو أن الوصف إخبار عن حقيقة الشيء ، والتشبيه مجاز وتمثيل ، لأنه مبني على أن يوقع بين الشئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما فيها ، إذ لا بدّ أن يكون بين المشبه والمشبّه به اشتراك في معانٍ تعمها ويوصفان بها ، وافتراق في أشياء ينفرد كل واحد منها بصفتها ، فهو يدخل في الوصف كما ترى وليس به في الحقيقة .

ومن أجل ذلك بالغوا في أوصافهم وجاءوا بالتشبيه المفرط والبعيد ، وكان هذا شيء اقتضته حضارتهم المبنية على الترف وتمويه الأشياء بالزخرفة ، وقل منهم من يصف عن علم كأبي نواس في أوصافه للكلاب واستغراقه في سنها ، لأنه كان عالماً راوية ، وكان قد لعب بالكلاب زماناً وعرف منها

---

(\*) قلت : لعله كان يقصد أن يكون موضع هذا الفصل مبحث ( الشعر القصصي ) ولكننا رتبنا فصول هذا الباب على ما أشار إليه في مبحث ( تنوع الشعر وفنونه ) ص ٧٩ من هذا الجزء ، فلم تنتبه لهذه العبارة إلا من بعد ...

ما لا تعرفه الأعراب ؛ قال الجاحظ : وذلك موجود في شعره ، وصفات الكلاب مستقصاة في أراجيزه ؛ هذا مع جودة الطبع وجودة السيك والحدق بالصنعة ؛ وإن تأملت شعره فضلته ، إلا أن تعترض عليك فيه العصبية أو ترى أن أهل البدو أبدأ أشعر وأن المولدين لا يقاربونهم في شيء ، قال : فإن اعترض هذا الباب عليك فإنك لا تبصر الحق من الباطل ما دمت مغلوباً ( ص ١٠ ج ٢ : الحيوان ) وهذه الصفات هي التي تذكر في شعر الصيد والطرده ؛ ولانصراف المولدين عن حقائق الموصوفات كانوا يسمون الأوصاف الشعرية بما يجري مجرى العويص ( ص ٢٢٨ ج ٣ : البيتمة ) وجعلوا لبعض التشبيهات ألفاظاً سموها بالألفاظ الملوكية ( زهر الآداب ص ٥٣ : على هامش العقد الفريد ) وهي خاصة بوصف ما يكون عند الملوك من أدوات الترف والنعمة .

أما مشاهير الوصافين في تاريخ الأدب جاهلية وإسلاماً فهم وإن كانوا يجيدون أكثر الأوصاف لكنهم اشتهروا بأنواع غلبت عليهم الإجابة فيها ، فاشتهر من نعتات الخيل امرؤ القيس وأبو دؤاد وطفيل الغنوي والنابغة الجعدي ، ومن نعتات الإبل طرفة وأوس بن حجر وكعب بن زهير والشماخ ، وإن كان أكثر القدماء يجيدون وصفها لأنها مراكبهم ؛ وكان عبيد بن حصين الراعي النميري أوصف الناس لها ، ولذلك سمي راعياً ؛ وأما الحُمُر الوحشية والقسي والنبل فأوصف الناس لها الشماخ ، ولقد أنشد الوليد بن عبد الملك شيئاً من شعره في الحُمُر فقال : ما أوصفه لها ! إني لأحسب أن أحد أبويه كان حماراً ... وأما الحمر فمن أوصاف الأعشى والأخطل وأبي نواس ، واشتهر أبو نواس وابن المعتز أيضاً بصفة الصيد والطرده ، ولا يذكر مع امرئ القيس في منزلته من اختراع التشبيه إلا ابن المعتز ، وكان ذو الرمة أوصف الناس لرملة وهاجرة وفلاة وماء وقراد وحية ، وهو رئيس المشبهين الإسلاميين ، وكان يقول : إذا قلت كأن ... ولم أجد مخلصاً منها فقطع الله لساني ! وقد اشتهر بوصف الطبيعة الوحشية أيضاً عبيد بن أيوب العبدي ، وكان نافراً من الإنس جواراً في مجهول الأرض ، فاستغرق ذلك شعره

(ص ٥٠ ج ٦ : الحيوان) ومن الوصافين المتفتنين في الأوصاف علي بن إسحاق المعروف بالراجحي المتوفى سنة ٣٥٢ ، وأبو طالب المأموني المتوفى سنة ٣٨٣ ، وله أشياء كثيرة فيما يجري مجرى العويص ، واشتهر كشاجم بآلات المنادمة ، والصنوبري بالروضيات ، وابن خفاجة الأندلسي بأوصاف الطبيعة الحضرية وابن حمديس الصقلي بأوصاف البرك والمياه والأنهار ، وسنذكر كلمة عن أوصاف الأندلسيين متى وصلنا الى تاريخ الادب الأندلسي إن شاء الله .

والوصف باب من الشعر قلما تجد شاعراً لا يحسن منه شيئاً أو أشياء ، ولكن هؤلاء الذين عددهم قد ذهب لهم بالأوصاف التي غلبت عليهم الإجابة فيها صيتٌ بعيد وذكر ، ولم يكن مثل ذلك لمن جاءوا بعدهم وإن أحسنوا في أشياء كثيرة ، إما لأن الإجابة لم تغلب عليهم في نوع دون آخر ، وإما لإهمال الأدباء والمؤرخين أن يعينوا لهم مثل تلك الأوصاف . والله أعلم .



## (\*) الشعر الحكي

إذا استصفينا المأثور من شعر العرب ومَن بعدهم ، وميزنا كل نوع منه بفرضه الذي يجمع جلته كما فعلنا في هذه الأبواب التي نكتب فيها ، خرج لنا من ذلك هذا النوع الذي نسميه الشعر الحكي ، وهو المقصور على الدين والفلسفة وما يرمي الى هذه الناحية ، ونحن وإن لم نكن نراه شعراً خالصاً ولكننا نراه مذهباً من مذاهب الشعر ، ولذلك خصصناه بالتأريخ .

كانت حكمة العرب راجعة الى وثاقة الحلوم وشدة العقول وفضل المنزلة في تجارب الأيام ، فهي حكمة لا تجري على مذهب ولا تدور على نحلة ولا يبلغ بها الزمن مبلغ أحد هذين النوعين بالقياس والاستنباط ، كما يكون ذلك في القضايا العلمية وعلى النحو الذي أخذت إليه شرائع الرومان وفلسفة اليونان مثلاً ، وإنما كان أساس تلك الحكمة رسوخ الأخلاق فيهم بحكم العادة ونظر كل امرئ لنفسه بحكم الطبيعة ، وذلك كان محور دينهم الطبيعي .

لا جرم أنهم صرفوا حكمتهم في الشعر الى ما يتعلق بالأخلاق والسياسة ولم يبألوا بتقرير مذهب من مذاهب أديانهم ولا أقاموا لظواهر هذه الأديان في شعرهم وزناً ، وقد صرفهم عن ذلك أنهم لم يدرسوا شيئاً من كتب

---

(\*) قلت : كان نهج المؤلف - رحمه الله - أن يسبق هذا الفصل حديث عن الشعر السياسي ، ولكنني لم أجد فيما خلف فصلاً معقوداً لهذا الغرض ، وأحسبه لم يكتبه !

الأديان ، وأنهم كانوا يحتقرون هذه الحمرء من الفرس والنبط والروم وغيرهم ، وقد كانت النصرانية واليهودية في بعض قبائلهم ، فكانت اليهودية في بني كنانة وكندة وبني الحارث ، وكانت النصرانية في ربيعة وغسان وبعض قضاة وبني تغلب وأهل نجران ، غير من كانوا في الحيرة ممن يطلقون عليهم اسم العباد ، ومنهم عديّ بن زيد العبادي ( انظر الحيوان ص ٦٦ ج ٧ ) ففيه أسماء القبائل المحليين ومن كانوا على غير دين مشركي العرب .

وقال الجاحظ في نحو هذا : والمهلثون من العرب ممن كان لا يرى للحرم ولا للشهر الحرام حرمة ... الخ .

وخرج من أهل الملتين شعراء معروفون ومع ذلك تؤثر لهم أشعار دينية على نحو ما تجد في الشعر العبراني مثلاً ، إلا أن يكون لذلك سبب تستدعيه طبيعة الشاعر فيغلب على الأسباب الأخرى ، والطبيعة دائماً تقوى أسبابها وتضعف على هذا التقدير ؛ ولم نعثر بعد جهد التفتيش وطول التنقيب إلا على [ اثنين ] من الشعراء اشتهرا بهذا النوع الديني من الشعر ... وهما عدي بن زيد العبادي ، وأمّية بن أبي الصلت ؛ أما عدي فكان يسكن الحيرة ويجاوز الريف ، وشعره لإحكام أمثاله مَثَلٌ في الحكم ، ومن مشهوره أبياته في الاعتبار بنهاب القرون وهلاك الملوك ، ومطلعه :

أها الشاعر المعير بالدهر      ر أنت المبرأ الموفور ؟

قال الجاحظ في عدي ( ص ٦٥ ج ٤ : الحيوان ) وكان نصرانياً دياناً وترجماناً وصاحب كتب ؛ وكان من دهاة أهل ذلك الدهر ... ثم أورد شعراً له يذكر فيه شأن آدم ومعصيته وكيف أغواه إبليس وكيف دخل في الحية وأن الحية كانت في صورة جمل فمسخها الله عقوبة لها حين طاوعت عدوه على وليه ، ومطلع هذا الشعر :

قضى لسته أيام خليقته      وكان آخرها أن صورّ الرجل  
دعاه آدم صوتاً فاستجاب له      بنفخة الروح في الجسم الذي جبلا

وهذا هو المذهب الذي قلنا إننا لم نعرف به في شعراء العرب غير اثنين ،  
عدي هذا أحدهما .

وأما أمية بن أبي الصلت فقد كان أعرابياً مدرياً ، قال الجاحظ : وكان  
داهية من دواهي ثقيف ، وثقيف من دهاة العرب ، وقد بلغ من اقتداره في  
نفسه أنه قد كان هم بادعاء النبوة وهو يعلم كيف الخصال التي يكون بها  
الرجل نبياً أو متنبياً إذا اجتمعت له . نعم وحق تَرَشَّح لذلك بطلب  
الروايات ودرس الكتب ، وقد بان عند العرب علّامة ومعروفاً بالحوالان في  
البلاد وراوية ( ص ١١٧ ج ٢ : الحيوان ) .

قال ابن قتيبة: وكان أمية يخبر أن نبياً يخرج قد أظل زمانه، وكان يؤمل  
أن يكون ذلك النبي ، فلما بلغه خروج النبي ﷺ كفر به حسداً له ، ولما  
أنشد النبي ﷺ شعره قال: آمن لسانه وكفر قلبه ( ص ١٠٧ : طبقات )؛  
وله من الشعر الديني شيء كثير، يقص فيه أحوال الثواب والعقاب وخرافات  
الأمم ونحو ذلك ، وبعضه مذكور في المجموعة المسماة شعراء النصرانية .

ومن يذهب هذا المذهب من العرب غير هذين الاثنين وإن كان ليس  
مذكوراً بالشعر ولا يتعلق بها فيه - ورقة بن نوفل ، وكان يتناشد مع زيد  
ابن عمرو بن نفيل أشعاراً في التوحيد وعبادة الله ، ومنهم قس بن ساعدة  
الإيادي الحكيم الخطيب ، وكان مذهبه الوعظ والاعتبار ، ولم يكن يقص  
كأمية وعدي ؛ لأنه صرف ذلك الى الخطابة ، وهو بها أعرف وأشهر .

ذلك شأن الجاهلية ، أما الإسلام فقد مضى الصدر الاول منه والشعراء  
على سنة العرب ، وإنما تتفق لبعضهم الأبيات مما يذكر فيه أمر الآخرة أو  
تحقيق معنى من معاني الحكمة الأخلاقية ونحو ذلك ، حتى نشأت الخلافات  
الأموية بين علي ومعاوية ، وكان شاعر الشام يومئذ كعب بن جعيل ، وشاعر  
العراق النجاشي أحد بني الحارث بن كعب ( ص ١٩٤ ج ١ : الكامل ) ،  
فاستنجد كل منهما بشاعر مصره ودفعهما الى التشيع ، وكان هذا فيما نعلم أول  
ما تشيع الشعراء في الإسلام ، ثم استبحرت هذه الفتن في الأعقاب واستحرت



المفاخرات ، فكان من المتشيعين لآل عليّ الفرزدق وكثير والكيت ، فكانوا ينظمون في تفضيلهم ومدحهم وأنهم أحقّ بالأمر الذي خرج من أيديهم ، وكان الكيت شيعياً من الغالية ، وكان صاحبه الطّرِمَاح خارجياً من الصُفوية يتعصب لأهل الشام ، ومع ذلك كانت بينها من الخاصة والمخالطة ما لم يكن بين نفسين ( ج ١ : البيان ) ثم فشت المقالات وتفرقت الفرق وشاعت المذاهب ، فدخل أكثر الشعراء والرواة في غمار أهلها ، وسنذكر في بحث الرواية شيئاً عن الرواة (\*) ولكننا نقول هنا إنهم جعلوا يستخرجون من بعض شعر الجاهلية مذاهب كالتي ينتحلونها ، فكان أبو عمرو بن العلاء يقول :  
كان ليبد مجبراً ؛ وكان الأعشى عدلياً ، وأنشد ليبد :

من هداه سُبلَ الخير اهتدى ناعمَ البال ومن شاء أضلّ

وأنشد للأعشى ( ص ٢٩٢ : شرح العمون ) :

استأثر الله بالوفاء وبالعدّ ل وولى الملامة الرجال

أما الشعراء فكان غيلان ذو الرمة على ما يقال أول من تكلم في القدر وخلق القرآن في الإسلام ؛ وقيل أول من تكلم في القدر رجل من أهل العراق كان نصرانياً فأسلم ثم تنصر ، وأخذ عنه معبد الجبني وغيلان الدمشقي ( ص ٢٠١ : شرح العمون ) ؛ وكان رؤية الراجز من أهل الجبر ؛ وقد تحاكم في ذلك مع غيلان الى بلال بن أبي بردة صاحب القضاء ؛ وكان السيد الحميري من المفرطين في التشيع ، وهو يقول برأي الإمامية ، وكان أبو المحدثين بشار

(\*) قلت : هذه العبارة مما يرجّح عندي أن تأليف هذا الفصل كان قبل سنة ١٩١١ - أي قبل الطبعة الأولى للجزء الأول - وكنت أظن أن المؤلف فرغ من تأليف هذه الفصول حوالي سنة ١٩١٣ بعد الفراغ من طبع الجزء الثاني في ( إعجاز القرآن ) ولكن في هذه العبارة تنبيهاً الى أنه قد يكون وضع هذه الفصول جملة ثم جعلها أجزاء من بعد ، ويكون تاريخ هذا الجزء هو تاريخ الجزء الأول ، ليس بينها إلا السبق المطبعي .  
(ملاحظة : بحث « الرواية والرواة » يشكل الباب الثاني من أبواب الكتاب ، وقد ورد في الجزء الأول ص ٢٦٩ ) .

ابن برد - على جلالته في الشعر - يسخف شعره بالاعتذار عن إبليس في أن النار خير من الأرض ، ونحو ذلك من آراء الزنادقة ( ج ١ : البيان ) . وكذلك كان سليمان الأعمى أخو مسلم بن الوليد ، ثم كان بشار ينكر على حماد عجرد وحماد الراوية وأبان بن عبد الحميد اللاهقي وسائر إخوانهم في الرأي ، وكانوا يتواصلون كأنهم نفس واحدة ( ص ١٤٣ : الحيوان ) . وكان أبو نواس يجلس لبعض هؤلاء وينظم في سخيف ما يذهبون إليه ، وذكر الجاحظ في البيان : أنه كان لابن عقب الليثي ( انظر الأغاني ص ١٦٩ ج ١ ) وتصحيح اسم ابن أبي العقب وأنه مجهول لا يُعرف... الخ ) مذهب شعري في الملاحم والمغيبات ، وأن أبا نواس والرقاشي كانا يقولان أشعاراً على مذاهب أشعار ابن عقب هذا وينحلانها أبا ياسين الحاسب الذي ذهب عقله بسبب تفكيره في مسألة ، فلما جن كان يهذي أنه سيصير ملكاً ؛ وقد ألهم ما يحدث في الدنيا من الملاحم ؛ وقد روى في البيان ( ص ٧ ج ٢ ) قطعة من تلك الأشعار .

وكان أبو العتاهية يتشيع على مذهب الزيدية ؛ وكان مجبراً ، وكان كثيراً ما يعارض ثمامة بن أشرس بين يدي المأمون . ومن شعراء النحل زرارة ابن أئمن مولى بني أسعد بن همام ، وهو رأس النميمية ( ص ٣٩ ج ٧ : الحيوان ) وأبو السري معدان الأعمى الشميطي ؛ وله قصيدة صنف فيها الرافضة ثم الغالية وشرح مذاهبهم وذكر رؤسائهم ( ص ٩٨ ج ٢ : الحيوان ) . ومنهم أبو سهيل بشر بن المعتز ، وكان خاصاً بالفضل بن يحيى من البرامكة ؛ فإن له قصيدتين ذكر فيها آيات الله في صنعه . وخلق ؛ ودل على مواضع الحكمة ومغزى الاعتبار ، وصنف في الأولى منها الرافضة والإباضية والناطقة ، وقد رواها الجاحظ في الحيوان ( ج ٦ ) وشرح منها ما يختص بالحكمة دون النحلة ؛ وكان بشر أروى المعتزلة للشعر ، ولكن كل أولئك ومن حذا حذوهم لم يتخذوا الفلسفة والنحلة إلا مذهباً ، وإنما كان شعرهم لسان اعتقادهم فيها ولهذا كان خيراً لهم لو كانوا على غير ذلك ، بخلاف الفلاسفة من شعراء الأندلس - وسنذكرهم في موضع الكلام عليهم - وبخلاف من استعان بالحكمة اليونانية والفارسية في الشعر ، كآبي العتاهية وأبان بن عبد الحميد اللاهقي شاعر

البرامكة ، وكلمتني والمعري وأبي علي بن الشبل الحكيم البغدادي المتوفى سنة ٤٧٣ ، وغيرهم . فإنهم إنما وصلوا بالحكمة بين العقل والقلب ، وجعلوا لها من الشعر منفذاً بينها الى الروح ، ولذلك قال بعضهم : لو سألوا الحقيقة أن تختار لها مكاناً تشرف منه على الكون لما اختارت غير بيت من الشعر .

وكان صالح بن عبد القدوس من الشعراء الفلاسفة ، وجميع شعره في الحكمة والأمثال ؛ ولذلك عابه الجاحظ عليه وقال إنه لو تفرق في أشعار كثيرة لزانها ؛ وكان مذهبه مذهب السوفسطائية الذين يزعمون أن الأشياء لا حقيقة لها ؛ وأن حال اليقظان كحال النائم ؛ وله كتاب سماه كتاب الشكوك ، قال فيه : كتاب وضعته من قرأه شك فيما كان حتى يتوهم أنه لم يكن ، وفيما لم يكن حتى يظن أنه قد كان !

### الشعر الالهي .

وهو النوع الذي يكون إلهياً محضاً تستخدم فيه المادة الشعرية للرمز عن الحقائق كأشعار الصوفية من أخذ إخدم ، والعماء يسمون طريقة ذلك النظم « طريقة التحقيق » ويقول المتصوفة فيه :

جسوم أحرفه للسرّ عاملةٌ إن شئت تعرفه جربْ معانيه

وقد كان بعض العلماء ينكر هذه الشطحات وهو يعتقد بهنبا ، صيانة لظاهر الشرع ، إلا أن الأدب لا ظاهر له دون حقيقته ، فيمكن أن نقول إن هذا الشعر نوع من العلم موزون ، وقد سميناه علماً لأنه لا بد ان يكون مؤولاً لا يقصد ظاهره وإنما تكون له محامل يحمل عليها ، كقول الشيخ محيي بن العربي ( كان المغاربة يقولون ابن العربي واصطلح أهل المشرق على ذكره بغير ألف ولام ، فرقاً بينه وبين القاضي أبي بكر بن العربي - ص ٤٠٤ ج ١ : نفع الطيب ) :

يا من يراني ولا أراهُ      كم ذا أراه ولا يراني

فلو أدرت القول في هذا سنة ما عرفتَ وجه تأويله، ولكن بمض إخوان  
الشيخ سأله : كيف تقول إنه لا يراك وأنت تعلم أنه يراك؟ فقال مرتجلاً :

يا من يراه مجرماً      ولا أراه آخِذاً  
كم ذا أراه منعماً      ولا يراني لائذاً !

( ص ٤٠١ ج ١ : نفع الطيب )

وكان أصل هذا النوع من الشعر في الأندلس في أواخر القرن الثاني أيام  
الحكم بن هشام الملقب بالربضي ، فإنه كان طاغياً مسرفاً له آثار سوء قبيحة ،  
وقد كان من قبله أهل تقوى ودين ، وكان أهل الأندلس يومئذ كأنهم من  
بلادهم في مسجد ؛ فأوقع الحكم هذا بالفقهاء لأنهم كانوا أشد الناس عليه ؛  
ولذلك أحدثوا في أيامه إنشاد أشعار الزهد بديئاً حتى شاعت وألفها الناس ،  
ثم خلطوا على ذلك شيئاً من التعريض بالحكم على جهة الرمز والإشارة ، ثقة  
بفهم الناس عنهم ؛ ( ص ١٣ : المعجب ) فلما طويت أيامه ولم تبق حاجة  
إلى التعريض بشخص معين ، أطلقوا تلك الرموز وقصروها على الحقائق ،  
حتى ظهرت الفلسفة الإلهية واستعمل أهلها في كتبهم الرموز والاصطلاحات ،  
فاتسع الصوفية بذلك في شعرهم ، خصوصاً بعد أن تلقوا كتب الشيخ  
أبي حامد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ . قال الفيلسوف أبو جعفر ابن طفيل في  
صفة تعاليمه : وأكثره إنما هو رمز وإشارة لا ينتفع به إلا من وقف عليها  
بصيرة نفسه أولاً ، ثم سمعها منه ثانياً ، أو من كان مُعدداً لفهمها فائق الفطرة  
يكتفي بأيسر إشارة ، وقد ذكر في كتاب الجواهر أن له كتباً مضموناً بها  
على غير أهلها ، وأنه ضمنها طريق الحق ( ص ٦ : حي بن يقظان ) يريد  
كتبه المشتملة على علم المكاشفة ، ولم نعرف قبل هذا الزمن شاعراً من شعراء  
الإلهيات الذين ينظمون على « طريقة التحقيق » وإن كان للمعري المتوفى  
سنة ٤٤٩ شيء من ذلك ، ولكنه مكشوف ليس فيه من أسرار المكاشفة  
شيء ، وإنما كان المعري حكيماً متفلسفاً ولم يكن إلهياً محققاً وإن كان على  
قدم التجرد في طريقة الفقراء . وكان قبل المعري الحسين بن منصور الحلاج

الذي أحرق سنة ٣٢٢ ، وينسبون له أبياتاً قليلة على طريق الاصطلاح  
والإشارة وإن كان ليس من الشعراء ، كقوله :

لا كنت إن كنت أدري كيف كنت ولا  
لا كنت إن كنت أدري كيف لم أكن

والبيت المشهور :

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء !

ولسنا نصحح مثل هذه للنسبة ، فإن هذا رجل اشتهرت حاله فسهل  
الحمل عليه ، وكان أشعر شعراء القرن السادس في هذه الطريقة وما ناسبها  
محمد بن عبد المنعم الفسائي الجلياني ( جليانة : قرية من أعمال غرناطة )  
المتوفى بدمشق سنة ٦٠٢ ، وكان يقال له حكيم الزمان . وأكثر شعره في  
الحكم والإلهيات وآداب النفوس والرياضيات والكلام على طريق القوم  
( ص ١٦ ج ٢ : نفح الطيب ) وفي القرن السابع نشأ أكبر شعراء الصوفية  
الذين تركوا لغيرهم هذا الميراث ، وهم الشيخ ابن الفارض المتوفى سنة ٦٣٢ ،  
والشيخ ابن العربي المتوفى سنة ٦٤٠ ، وأبو الحسن التستري المتوفى سنة ٦٦٨  
( ص ٤١٠ ج ١ : نفح الطيب ) . وابن سبعين المتوفى سنة ٦٦٩ ، ولم ينشأ  
بعد هؤلاء من يساويهم أو يذكر معهم في طريقة التحقيق ؛ على أن أشهر  
المتأخرين بعدهم الشيخ عبد الغني النابلسي المتوفى سنة ١١٤٣ .

ولم يكن نظمهم مقصوراً على الشعر وحده ، بل كانوا ينظمون في الموشح  
والزجل أيضاً . ولكن ذلك منهم قليل ، لأنهم إنما يريدون بالشعر المدارس  
والحفظ ، وأن يكون من أشعار المذاكرة عندهم وأبيات الطرائف .



## الشعر الأخلاقي والمبادئ الاجتماعية

قد عرفت ما زريده من الفرق بين الشعر الحكيم والأخلاقي ، فهذا الأخير هو ديوان التجارب ، وإن في كتاب القلب صفحتين : واحدة يحفظها التاريخ وينساها الاجتماع ، وهي التي تخط عليها تفاصيل الحوادث ، والأخرى يحفظها الاجتماع وينساها التاريخ ، وهي صفحة الحكمة الأخلاقية التي تستخلص من جملة التاريخ ، فهذه هي التي تستملي منها النفس معاني الشعر الأخلاقي دائماً ، ولذلك تجد هذا النوع من الشعر كثيراً عند العرب يصوّرون فيه أخلاقهم تصويراً طبيعياً لم تخلق فيه صنعة الكلام شيئاً ، ويذكرون حكمتهم المستفادة من التجارب ، ويدونون نصائحهم التي هي صفوة تلك الحكمة ، وذلك هو الذي سماه أبو تمام في حماسه « باب الأدب » .

نرى العرب لصفاء فطرتهم وحيدة أذهانهم وقوة طباعهم كأنما ينظمون في شعرهم الأخلاقي قضايا الفلسفة التي ذهب في تحقيقها شطر كبير من عمر الاجتماع الإنساني ، حتى لا تكاد تجد مبدأ من المبادئ الاجتماعية التي قررتها الفلسفة الحديثة إلا ومثلته ذكر في شعر هؤلاء الأعراب ، وتأويل ذلك أن هذا الاجتماع الحديث مصنوع لا طبيعي ، والفلسفة إنما هي حقائق الطبيعة ، فهي تدعو لها أبداً ، ولكون الناس مجتمعين على صورة يجهلون حقيقة ألوانها وأصباغها اختلفوا في الدلالة على ذلك اختلافاً بيئياً نشأت منه هذه المذاهب الكثيرة التي ترمي يجمعتها إلى غرض واحد ، وهو تلوين الصورة الاجتماعية بألوانها التي تصلح لها في الحقيقة حتى تظهر من دقة التناسب وإحكام الملاءمة وسلامة الوضع في صبغ كأنه إلهي ؛ فالعرب لما كانوا من صميم البداوة وفي

إقليم كأنه بموافقتِه لنمو العقل أقرب إلى السماء من سواه ، كانوا يذكرون الصفات الأخلاقية للفرد والمجتمع فلا يَعدون حقيقة الصفة ؛ ولو أخذت تلك الصفاتُ اليوم لخرجت عن موضوعها إلى أن تكون في اعتبارنا مبادئ ، لأنها قبلت في حالة طبيعية فكانت صفة تحق ، ولما استدار الزمان صارت حقاً بوصف ؛ خذ مثلاً قول زهير :

على مُكثَرِهِمْ حَقٌّ من يَعتَرِيهِمْ

وعند المُقلين الساحة والبذل

فهما أدرت مذهب الاشتراكية ، ومهما قلبت آراء علمائه ، لا تجد صوابه يخرج عن هذا البيت ؛ فلو راعى المكثرون حق من يعترهم ممن يعملون عندهم ومن هم مادة قوتهم - والحق كلمة جامعة لكل ما يوافق حقيقة المرء - وكذلك لو صار المقلون من أهل الساحة والبذل يتجاوزون عما لا يضر بالحق ولا يريدون من هذا الحق إلا أن يبذلوه في إصلاح أحوالهم حتى لا يأخذهم طمعُ الادخار بوم المزاحمة للمكثرين - لو راعوا ذلك حق مراعاته لبقى أهل المال مهنتين بأموالهم ؛ والمقلون مغتبطين بإقلاهم ؛ والاشتراكية إنما هي الموصل الذي يشرك هذين الطرفين في الامتزاج بالرضى . ولعل أديباً أن يستقرىء هذه المعاني في الشعر العربي ويشرحها بالمبادئ الحديثة ، فإنه لا يعدم من ذلك كتاباً حكيماً .

وكان الشعراء من العرب أثبتَ الناس على أخلاقهم التي يصفونها ، ولذلك دلت عليهم دلالة المطابقة ، بخلاف الإسلاميين فإنهم مارسوا صفة الأخلاق ومرنوا عليها ، حتى تجد للشاعر منهم في الباب الواحد أقوالاً متناقضة ، وهم مع ذلك لا يدرسون تلك الأخلاق ، بل يتلقون من تجارب غيرهم ، ومن الحكمة التي وَضَحَتْ لهم ، ثم يرسلون الشعر في ذلك على أنه صنعة دقيقة يستدل بها على لطف الحس وذكاء الفؤاد، ثم لا يعجب من ذلك إلا من يصيب بفظنته موضع الدقة ويقع على ممكن الخاطر ، ولذلك لم يكن للشعر الإخلاقي تأثير في الاجتماع الإسلامي ، ولم تستمد منه مبادئ ذلك الاجتماع شيئاً ،

لأنهم لم [يداوروا] به السياسة ، ولا أرادوا به مكامن الاعتقاد ، ولا أجروه مجرى النظر في طبقة من الطبقات ؛ وإذا أخرج الكلام على أنه صنعة ، نظر فيه الناس على أنهم متفرجون (يقال تفرج بكذا إذا جعل منه لنفسه هواً )

أما من خالف ذلك من الشعراء بعض المخالفة ؛ وحاول أن يجعل كلامه في الأخلاق للناس لا لنفسه ، وأن يقرر فيه مبادئ قد درسها ؛ ويعطيه من مادة التأثير الاجتماعي ، كالمعري في بعض ديوانه « اللزوميات » فإنه يُطرح ويُجفَى ، لأنه لا يؤتى من قبل الناس وفسولة آرائهم ، بل من قبل نفسه أيضاً ؛ لأن أحداً من الشعراء في التاريخ الإسلامي كله لم يترك أن يتخذ الشعر [صفة] تأديباً أو تكسباً ، ولم يقف أحد منهم شعره أو جزءاً منه على مذهب واحد في السياسة أو الاجتماع يتفان في شرحه والاحتجاج له والاحتيال في تصوير معانيه وإيراد أجزائها على نحو ما يقتضي ( لمصره ) ، بل تراهم يخرجون أشعارهم مخرج الخواطر والسانحات ، وهمهم أن يجمعوا فيها أبواباً من الحكمة وفنوناً من الأخلاق ، ثم يتركوا للناس شأن الاختيار ، وإطلاق الاختيار وحده كاف في إضعاف كل مذهب ، لأن من توخى الإقناع توخى به الحمل عليه .

وذلك هو شعر المواعظ والنصائح والحكم ، وهو كثير ، وقد اشتهر به أفراد ، كصالح بن عبد القدوس ، وأبي الشيص ، وغيرهما ؛ وتهافت به بعض العلماء حتى وضعوا فيه الكتب المستقلة ، كسعد بن ليون التجيبي في القرن الثامن ؛ وهو من أشياخ لسان الدين بن الخطيب ، فقد نظم في ذلك ثلاثة كتب وأورد في بعضها أشياء لغيره ، وقد ساق منها المقرئ - في نفع الطيب - قطعة كبيرة ( ص ٣٠٢ - ٣ ) .

وعندنا أن شعراء الجاهلية لو قدر لهم أن يسخروا الشعر في السياسة والاجتماع ، الرأقي « الديموقراطي » لقدم الإسلاميون في ذلك ولبلقوا بهذا النوع مبلغ الكمال ، ولكن من أين للعرب سياسة الملك ونظام الاجتماع ؟ على أنهم مع ذلك لم يهملوا نوعاً من الشعر السياسي ، وإن كان قليلاً بينهم



لقلة البواعث عليه ، كقصيدة لقيط بن يعمر الإيادي التي ينذر بها قومه غزو كسرى إياهم ، وكان كاتباً في ديوانه . ويعلمهم وجه الحزم في تدبير أمرهم وسياسة مجتمعاتهم واختيار من يُلقون إليه المقادة في ذلك ، وهي شهيرة متداولة ، وكأبيات سلمة بن خرشب التي أرسل بها إلى سبيع التغلبي في شأن الرهن التي وضعت على يديه في قتال عبس وذبيان ، يذكر فيها لسبيع سياسة القضاء وتدبير الحكم ، وقد رواها الجاحظ في البيان ( ج ١ ) ولا بد أن يكون لهم من مثل ذلك أشياء لم تقع إلينا ، والله أعلم .



## الشعر الهزلي

وهذا النوع آخر ما تبلغ إليه رقة الحضارة من فنون الأدب ، لأنه إنما يتخصص به أناس لا يباليون أن يغمروهم سواد المحقى وأهل الجهول ، وهم يعلمون أنهم شعراء العامة ، وأنهم لا يلجئون الى الخاصة إلا من باب الطبع المنسجم ومن جهة الذهن المتفكك ، وإنما قوام أمرهم الحيلة الطريفة والنادرة المعجبة والكلمة المتهالكة ، وهذا كله وإن كان محتاجاً الى ظرف اللسان ، والى شدة المعارضة ، والى نبوغ متميز في القريحة - إلا أنه لا يقوم عليه شيء من أمر اللغة ، فإذا كان فيها لم يزددها ، وإذا سقط منها لم ينقصها ، ولذلك ترى هذا النوع أكثر ما يكون في الأمم التي هرمت لغتها ، كاللاتين واليونان . ومن أشهر نوابغ اليونان فيه : الشاعر تراس ، والشاعر مياندر الذي يقال إنه ألف ثمانمائة رواية كلها قصائد مضحكة ، وكان قبل الميلاد بثلاثة قرون ، وقد عثروا من زمن قريب في إحدى القرى المغمورة في ضفة النيل على أربع قطع له كانت ضحكاً مدفوناً في الأرض من ٢٢٠٠ سنة ...

لا جرم أنه لم يكن للعرب شعر هزلي في جاهليتهم ، ولكنهم مع ذلك لم يدعوا التنادر ؛ إذ هو شيء في أصل الفطرة وفي مذاهب المعاني ، فجاءوا لذلك في شعرهم بنوع من التهمك يستخف الوقور ويرمي الى الغاية من سياسة الهزل ، فيبقى حسرة ولا يذهب ضحكاً ، كقول بعضهم :

إذا ما تيمى\* أذاك مُفاخراً

فقل : عدّ عن ذا ، كيف أكلت للضبّ

وقول المُكعَّبَرِ الضَّبِّي في بني العنبر، وكان قومه أُغير عليهم فاستغاثوا  
بهم فلم يفيثوم ( ص ٤٩ ج ١ : الكامل ) :

وإني لأرجوكم على بطء سعيكم كما في بطون الحاملات رجاء !

يتهمك بهم ويقول : هذا رجاء غير صادق ولا موقوف عليه ، كما أن هذه  
الحوامل لا يُعلم ما في بطونها وليس بميثوس منهم .

وأكثر ما يكون ذلك عندهم في معاني الهجاء ، ولهذا سماه المتأخرون  
التهمك ، والهزل الذي يراد به الجد ، وقالوا في الفرق بينها إن التهمك ظاهره  
جِدٌّ وباطنه هزل ، وهو ضد الثاني ؛ لأن ظاهره يكون هزلاً وباطنه جد ،  
وقد ورد منه في القرآن قوله تعالى : « بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً »  
وقوله : « ذق إنك أنت العزيز الكريم » .

وقد مرَّ عصر الجاهلية والإسلاميين لا يعدو بها الشعراء ذلك هزلاً ،  
حتى إذا استبحر الترف وفسدت مرّة الاجتماع ، وتهاكت طبيعته ، جعل  
الشعراء يتظرفون ويتنادرون ويفتنثون في أساليب الهزل ؛ لأن ذلك كان  
سبباً من أسباب معاشهم ؛ إذ رأوا الخلفاء والأمراء قد اتخذوا لأنفسهم  
مقربين ممن يضحكونهم بالنوادر والمجون ، شعراء وغير شعراء ، كأشعب  
الطَّمَاع ، وأبي دلامة الشاعر ، وأبي الحسين بن الضحاك المعروف بالخليع  
المتوفى سنة ٢٥٠ ، وأبي العبر ، وأبي العيناء ، ومزيد وغيرهم ؛ ومن هؤلاء  
نوع يحكون ألقاظ الناس من الأقطار المختلفة مع مخارج حروفهم ، لا يفادرون  
من ذلك شيئاً ، ويحكون ألسنة الدواب والبهائم ؛ وذكر الجاحظ من  
مشاهيرهم أبا ربوبة الزنجي مولى آل زياد ، وقال إنه يقف بباب الكرخ  
لحضرة المكارين فينطق فلا يبقى حمار مريض ولا هرم حسير ولا متعب يهير  
إلا نطق ... ( ج ١ : البيان ) .

وليس ذلك عجبياً في مثل طبقة أبي ربوبة ، ولكن العجيب أن يكون  
مثله في الشعراء الظرفاء ؛ فقد ذكر الثعالبي في ترجمة أبي محمد بن زريق

الكوفي الكاتب الشاعر أنه كان من عجائب الدنيا في المطايب والمحاكاة ، وكان يخدم مجلس الوزير المهلب ، ويحكي شمائل الناس وألسنتهم فيؤديها كما هي ، فيعجب الناظر والسامع ويضحك التكلان (ص ١٤٢ ج ٢ : يتيمة الدهر) ؛ وهذا نوع من التمثيل انفرد به اليوم في أوروبا قوم ربما صور الواحد منهم في نفسه العالم مناطق ولهجات وأزياء .

وقد يكون من البواعث على الشعر الهزلي والتزام هذا المذهب أن يجد الشاعر نفسه لا يقع مع فحول المعاصرين له في شيء ، فيسلك هذا المسلك يتميز به بينهم ، كما فعل رأس الشعراء الهزليين ابن الحجاج البغدادي المتوفى سنة ٣٩١ ، وهو الذي جعلوه بعد ذلك مقياساً في الشعر الهزلي ؛ ويقال إنه في الشعر كأمريء القيس ولم يكن بينها مثلها ، لأن كل واحد منهما اخترع طريقة ، وكان مع ذلك من كبار شعراء الشيعة ، وعاصره أبو حامد الأنطاكي المنبوز بأبي الرقعمق المتوفى سنة ٣٩٩ . قال الثعالبي : هو بالشام كابن حجاج بالعراق ، وكما فعل أبو عبد الله محمد الهمداني الكاتب ، وقد دخل البلاد المصرية في زمن صلاح الدين فرأى بها القاضي الفاضل ، وعماد الدين الأصبهاني ، وتلك الحلبة ، وعلم من نفسه أنه ليس من طبقتهم ، فتفتق عندهم برسانه الهزلية ومقاماته المشهورة ، وسنذكرها في موضعها ، وتوفي الهمداني سنة ٥٧٥ .

ويكون من ذلك أيضاً التزام الشاعر مذهباً واحداً في الهجاء يريد أن يُعرف به ويجعله عرضة ملححه ونوادره ، كما فعل ابن سكرة الهاشمي معاصر ابن الحجاج ، وكان يقال فيها : إن زماناً جاد بان سكرة وابن الحجاج لسخيٌّ جداً ، وهو من شعراء الجون والسخف كابن الحجاج ، إلا أنه انفرد عنه بهجائه الهزلي في قينة له سوداء يقال لها خمرة ، وقد نظم في هجائها عشرة آلاف بيت (ص ١٨٩ ج ٢ : يتيمة الدهر) . وكما فعل اسماعيل بن إبراهيم البصري الهمدوني الشاعر في الطيلسان الذي أعطاه إياه أحمد بن حرب ، وكان خليعاً ، فسُيّر فيه الهمدوني مائتي مقطوع ، في كل مقطوع معنى بديع ،

حتى ذهب طيلسان ابن حرب مثلاً إلى اليوم ، وكان الأصل الذي عمل عليه الحمدوني أنه وقف على أبيات عملها أبو حمران السلمي في طيلسانه ، وكان قد أخلق حتى بلي ، فتهافت بمعارضتها وجعل ذلك له طريقة يعرف بها ( ص ٤٧٣ ج ٢ : ابن خلكان ) .

ومن ذلك أيضاً أن يهزل الشاعر في تصوير حالة من الفقر أو الضعف أو نحو ذلك من الصفات التي يتباين فيها الناس ، فكأنه يرمي إلى انتقاد الحظوظ والأقسام ، كما فعل أبو الشمقمق في ذكر فقره وفقر بيته من الفئران ومصيبة سنوره من ذلك ، وساق الجاحظ بعض أشعاره تلك في الحيوان ( ص ٨٢ ج ٥ ) .

وكان عند الأعراب كثير من هذا النوع ، وكذلك ترى منه قصائد وقطعا في شعر المولدين والمتأخرين ، وبعضهم خص أكثر شعره بالفحش والتعهر حتى ضربه مثلاً فنحن نضرب عنه صفحا .

وجاء بعد هؤلاء علي بن عبد الواحد صريح الدلاء وقتيل الغواني المتوفى سنة ٤١٢ ، فسلك مسلك أبي الرقعمق ، ونيز بلقب ذي الرقاعتين ، وله مقصورة في الهزل يعارض بها مقصورة ابن دريد المشهورة ، وابن الهبارية الملقب بنظام الدين البغدادي المتوفى سنة ٥٤٠ ، قال العماد الكاتب في الخريدة : إنه غلب على شعره الهجاء والهزل والسخف ، وسبك في قالب ابن حجاج وسلك أسلوبه وفاقه في الخلاعة ، قال : والنظيف من شعره ... في غاية الحسن ، ثم كان بعده الشاعر المتصرف في أكثر فنون الهزل أبو الحكم الباهلي الأندلسي المتوفى بدمشق سنة ٥٤٩ ، قال المقرئ : وكان ذا معرفة بالأدب والطب والهندسة ، وله ديوان شعر سماه نهج الوضاعة لأولي الخلاعة ، ذكر فيه جملة شعراء كانوا بمدينة دمشق كطالب الصوري ، ونصر الهيثي وغيرهما ... ورثي فيه أنواعاً من الدواب ومن الأثاث وخلقاً من المغنين والأطراف ، قال : وشرح هذا الديوان ابنه الحكيم الفاضل أبو المجد محمد بن أبي الحكم الملقب بأفضل الدولة ( ص ١٧ ج ٢ : نفع الطيب ) فانظر

ما عسى أن يكون هذا الشرح ؟ ولأبي الحكم هذا مقصورة هزلية عارض بها مقصورة ابن دريد أيضاً ، ومثل هذه المعارضة كثيرة للقوائد المعروفة يتعلق عليها أهل الظرف والملح ، وقد رأيت شاعراً من شعراء الحلبة التي سبقت وقتنا هذا وغاب عني اسمه ، تناول ألفية ابن مالك فقلبها كلها تطفلاً ونقل ما فيها من أحكام اللسان على الأضراس والأسنان ، وكان يفتخر دائماً بهذا الطبخ ... !

وأورد المقرئ أيضاً قصيدة من هزل الأندلسيين ومجونهم قال إنها منسوبة لأبي عبد الله بن الأزرق وقد ذكر فيها صوت الصفع وصوت الضحك ، كما هو ، على نحو ما صوّرت العرب أصوات الأشياء كقولهم : « جرت الخيل فقالت حَبَطَ قَطَقٌ » ونحو ذلك ، والقصيدة متشعبة الفنون ( ص ١٩٣ ج ٢ : نفح الطيب ) .

ثم نبغ محمد بن دانيال الموصل الحكيمة المتوفى بمصر سنة ٦٠٨ قال فيه الصفدي : هو ابن حجاج عصره ، وابن سكرة مصره ، وله غرائب يتناقلها المصريون عنه من النكت والنوادر ؛ وتقي الدين بن العربي المتوفى سنة ٦٨٤ وهو صاحب القصيدة الدبديبية الشهيرة التي جمعت فنوناً من الهزل ، وقد ذكرها العاملي في الكشكول .

وبالجملة فقلما تجد شاعراً قد نضجت قريحته ونفذ خاطره في أسرار الأشياء إلا وله في مطارح نظره شيء من الضحك يخرج تهكاً واستهزاء ، فكأنما تكشف له الطبيعة عن حقيقة تركيبها على ما خلقها الله ، فكلمة قارن بها هذا الوضع الاجتماعي المصنوع رأى تركيباً مضحكاً ؛ ولولا ذلك لمحت مادة الانتقاد ، والانتقاد قوة إلهية في قريحة الشعراء ؛ فإذا أردنا بهزل القرائح هذا المعنى الجدي فالشاعر الذي لا يكون فيه هذه القوة يشبه أن يكون على نقص تركيبه في نظر الحكم المتأمل ، كائناً من الكائنات المضحكة أيضاً .

أما إذا أردنا المعنى العام وهو التطرف في الانتقاد بمقدار ما يتطرف  
المتبسم الى القهقهة أو المجون والسخف أو العمل في صناعة الضحك وتركيبه  
في النوادر والملح حتى تكون قابلة للانفجار ضحكاً ... فذلك الذي جننا  
بمساقه ، وهو عند العرب كما علمت كثير في جهتي المجون والانتقاد ، قليل في  
جهة المطايبه والإضحاك ، لاستغنائهم عنه بالنوادر ، ولخالفته فطرة  
الشعر فيهم .



## الشعر القصصي

المراد بهذا النوع ما يسميه الإفرنج epic ، وهو عندهم ما تروى فيه الوقائع والحوادث على طريقة الشعر ، مما لا يخلو من الغلو والإطراء ، حتى يتميز عن التاريخ البحت ؛ والنظم فيه قديم في الأمم التي اغتدى خيالها بالدين والعادات كالمهبهارات عند الهنود ، والأوديسا عند اليونان ، والإنيادا عند الرومان ، وكذلك نظمت فيه شعراء الأمم المتأخرة كالفرنسيين والألمان والاطليان والإنكليز . وعندهم في ذلك الملاحم المأثورة ( ذكرت هذه اللفظة في باب الشعر الحكيم ، وقد استعملها الجاحظ في الحوادث والوقائع التي يتضمنها الشعر ، ثم نقلها أدباء المغاربة لما يقارب في المنظوم العامي معنى الشعر القصصي ) .

وللفرس والترک في تاريخهم الإسلامي منظومات من هذا النوع ، أشهرها شاهنامه الفردوسي ، وشاهنامه الشاعر التركي الملقب بالفردوسي الطويل ، قال في كشف الظنون : إنه نظمها في مليون وسبعمائة ألف بيت ، وكتبها في ٣٣٠ مجلداً ، فلما عرضت على السلطان بايزيد العثماني أمر بانتخاب ثمانين مجلداً وإحراق الباقي ، فترك المؤلف بلاد الروم وذهب الى خراسان فمات فيها كمدأ .

وفي كل ذلك شرح طويل لا موضع لبسطه هنا ، ونحن إنما نتكلم عن العرب خاصة ، ولقد حار المتأخرون الذين كتبوا في تاريخهم وآدابهم عندما ألموا بذكر هذا النوع والتمسوه في أشعارهم ثم قطع بهم دونه - كيف يعللون ذلك وكيف يتأولونه ؛ فمنهم من زعم أن العرب نظموا فيه كثيراً



وضاع ما نظموه ، فلم يبق لعهد التدوين والرواية إلا القليل مما 'ذكرت' فيه أخبارُ الحروب ؛ ومنهم من رجع إلى أبعد من ذلك وتعلق بذنَب التاريخ فزعم أن سفر أيوب في التوراة ليس إلا منظومة عربية نقلت إلى العبرانية ولحق أصلها بدفائن العدم ، والكلام في هذا المعنى لا يُحتمل على التاريخ ، فإن حَمِلَ عليه خَطَا به إلى الخطأ ؛ لأننا لا نتصور أن العرب خَلِقُوا من فطرتهم شعراء ينحتون الأوزان ويؤلفون الكلام على هذا النحو الذي وصل إلينا ، بل ذلك شيء أوجدته الحاجة إليه في عصر يميته تأريخ الاجتماع كما أشرنا إليه من قبل ، ولو ذهب عنا تاريخ الأندلس مثلا ثم رأينا بعض الموشحات أكننا نزعم أن ذلك النمط قديم في عرب الجاهلية ونُغْفِل دلالة اللغة التي نظمت بها الموشحات وحالة الاجتماع التي تشير إليها ؟

ثم إن الرواة الموثوق بهم والعلماء ( المفتشين ) كالجاحظ وغيره يقطعون على الجزم بأنه لم يضع من شعر الجاهلية منذ جودوه على كثرة القبائل ، ولا من أرجازهم ، شيء كثير ؛ والجاحظ يكرر هذا المعنى في مواضع من كتاب الحيوان ، والتكرار أبلغ في التوكيد ، فلو كان في طبيعة اللغة وحالة الاجتماع ما يدعو إلى نظم الوقائع الكبرى لما أغفلوه ولا ذهب عن الرواة خبره ؛ وفي أيدينا أثر مما يشبه ذلك وهو قاطع في الدلالة التاريخية التي تؤخذ منه على أنه قائم بنفسه وأنه نوع صحيح الكفاية لا تدعو الحاجة لأكثر منه ، والحاجة دائما أم الاختراع ، وهذا هو الذي خصصناه بالكلام .

إذا كان الغرض من الشعر القصصي ما يجمع من التاريخ ويحفظ من الأخبار ، فذلك موجود في أشعارهم ، ولكنهم لم يطيلوها إطالة الإلياذة وغيرها ، لأن ذلك يقتضي له عمل من النظم وضرب من التأليف المقصود لا يتم حسنه إلا بالتنسيق وسياسة الألفاظ واستكراه المعاني واقتسارها ، ثم إحكام اللحمة بين فصل وفصل وبين قطعة وقطعة ، ثم تحكيك الألفاظ وتصفية الأسلوب واستيفاء صنعة التأليف ، ولا يكون ذلك جميعه إلا بالصبر والمطاولة ورصد الأوقات التي تكون أجْم للنشاط وأصفى للخواطر ؛

ولو أن في العرب من انقطع لهذا العمل لهجتوا صنيعه ورموه بالعيب ولتركوه مثلاً وآية ، لأن الشعر فيهم عند أسبابه التي ذكرناها فيما تقدم ، وتأريخ البديهة والروية معروفٌ أجمع عليه الرواة ، ولم يسقط بعد طبقة المصنّعين - كزهير والنابغة - شيءٌ من الشعر ، وهذا النوع لا يتفق على الارتجال أبداً ولا بد فيه من الصنعة ، فلو كان مما تدعو إليه الحاجة لقاله مثل زهير والنابغة ، ولكنهم لم يقولوه بإجماع الرواة ، فدل ذلك على أنه ليس من حاجة اجتماعهم .

ووجه آخر ، وهو أن العرب لا يطيلون أشعارهم إلا في المواقف وفي أيام الحفل ، كما فعل الحارث بن حلزة في طويلته ، وهي أقرب دليل على الشعر القصصي ومنزلته وأسبابه عندهم ، وسيأتي الكلام عن سببها في موضعه ؛ ثم إن طبيعة لغتهم تأبى الإطالة إلى أكثر مما تبعث عليه حاجة المفاخرة والمقارعة ، [لأن] البلاغة فيها مبنية على الحذف أو الإشارة والإيجاز والاكتفاء من المعنى باللحمة الدالة ومن البصة بالمثل المعروف ، ثقة بفهم بعضهم عن بعض ، ثم هم إنما يتفاخرون [على هذه السنة] وبهذه البلاغة ، فلو أنهم ابتلوا بمفاخرة اليونان أو الرومان مثلاً لاحتلوا في نوع آخر من الشعر يبسطون فيه اللغة ويمدّون معاني الخطاب ، لأن مفاخرة القبيلة للقبيلة إنما تكون بمعاني من تاريخ الاثنتين ، ولكن مفاخرة أمة لأمة لا تكون إلا بتاريخ كلتيهما دون بعض معانيه ، كما فعل الشعوبية والعرب ، ومن تدبر طرق الخطاب التي جاء بها القرآن وهو أبلغ ما يمكن أن تصل إليه العربية ، وجده يوجز في مخاطبة العرب ويكتفي بأيسر إشارة وأدنى لمحة ، فإذا خاطب اليهود بسط الكلام وفرغ منه وكرر بعض المعاني بزيادة في بعضها عن بعض ، فكذلك كان يفعل العرب .

وإذا كان الغرض من الشعر القصصي ما يحمله من الخرافات أو القصص الموضوعية ، فهذا أيضاً قد نظم فيه العرب ، ولكنهم لم يفرده بالقصائد ولم يطيلوه إطالة بالغة ، لذهاب معنى التقديس من عقائدهم وعاداتهم ، فليس لهم آلهة ولا أنصاف آلهة ولا أساطير من هذا القبيل على نحو ما كان عند

الهنود واليونان والرومان ، وإنما كانوا يتناقلون من ذلك أشياء تناسب طبيعتهم ومذهبهم الاجتماعي ، كالقصص الموضوعة على السنة الحيوانات والجمادات وبعض الحرافات المادية ، فهذه كلها نظموها في شعرهم على طريقة المثل كما فعل اليونان ، لا على طريقة التاريخ كما سنبينه .

يخرج من ذلك أن الشعر القصصي - بالمعنى المصطلح عليه - لم يكن في طبيعة العرب ولا هو من مقتضيات اجتماعهم ، فهم لم ينظموه في جاهليتهم قطعاً ، ولم ينظمه من بعدهم لوقوفهم عند حد التقليد كما أشرنا إليه مراراً فيما سبق ، أما ما كان من ذلك عند الجاهليين والإسلاميين فنحن ذاكروه فيما يلي :

قد تتبعنا أشعارهم وتقصصناها في دواوينهم ودرسنا أكثر ما استخرجه العلماء ، ومنها شواهد وأمثلة على الأخبار والعلوم ، ثم اعتبرنا ذلك وتدبرناه فلم نرم يقصون في شعرهم إلا في مواضع معدودة .

أولاً - إذا كانت القصة ترمي الى خلق من الأخلاق ، كالوفاء والعدو والحفيظة ونحوها ، فتكون صبغاً من أصباغ الشعر يعطيه لوناً ثابتاً من ألوان الحفيظة التي يرمي الشاعر الى تأييدها ، ولا أثبت في ذلك من لون التاريخ ؛ ومن هذا النوع قصص الحارث بن حنظلة في طويلته . وقد يكون في القصة من هذا النوع مواضع تصلح أن تبني عليها المعاني الكثيرة في الأخلاق فيتجاوزونها ويختصرون القصة بضرب من الإشارة إليها ، ثقة بالفهم عنهم ، كأنهم يريدون أن يجعلوا القصة كلها معنى واحداً من معاني الشعر ، كقول جابر بن حنظل التغلبي : ( ص ٤٢ ج ٣ : الحيوان ) .

ولسنا كأقوام قريب محلهم	ولسنا كمن يرضيك بالتملق
فسائل شرحبيل بنا ومحلنا	غداة نكر الخيل في كل خندق
لعمرك ما عمرو بن هند وقد دعا	لتخدم ليلى أمه بموقن
فقام ابن كلثوم الى السيف مفضباً	فأمسك من ندمانه بالخنق
وعتمه عمداً على السيف ضربة	بذي شطب صافي الحديدية مخنق

والقصة مشهورة وهي من مفاخر العرب (\*) ؛ فكان جابراً يقول : أنا وإياك فيما تريده من التملق كإبن كلثوم فيما أرادته عمرو بن هند ، فجعل القصة معنى من معاني شعره واقتصر منها على ما يؤدي غرضه ، فذكر الباغي والمبغى عليه وعاقبة البغي ، وترك ما وراء ذلك للأسماء التي تنبئ إليه الذاكرة .

ثانياً - إذا كانت القصة ذريعة لجلاء صفة من الصفات التي يريدون تحقيقها ، فإنها حينئذ تكون ضرباً من التمثيل الذي يقرب الحقيقة ويكشفها للعقل ، كآيات النابغة في بعض اعتذاره للنعمان (ص ٦٧ ج ٣ : الحيوان) :

واحكم كحكم فتاة الحيّ إذ نظرت  
إلى حمام شرعٍ وارد الشمد  
يحفته جانباً نيقٍ ويتبفه  
مثل الزجاجة لم تُكحل من الرمد  
قالت : ألا ليتنا هذا الحمام لنا  
إلى حمامتنا ونصفه فقد  
فحسبوه فالفوه كما حسبت  
تسماً وتسمين لم تنقص ولم تزدد  
فكملت مائةً فيها حمامتها  
وأسرعت حسبةً في ذلك العدد

فإن ظاهرها يؤدي معنى من القصص ؛ ولكن باطنها يؤدي إلى غرض لا حيلة في إبرازه بغير هذا الوضع ، فإنه أراد أن يصور للنعمان اضطراب أمره ، وأن ذنبه مظنة الخطأ في الحكم لما فيه مما يثير الحمية ويهيج الكبرياء ، ثم يستنزه إلى العفو والصفح والنظر فيما أتاه بالعقل لا بالقلب ، وأن ذلك أحمد له وألحق بموضعه من الفضل والتمكن ، فصور له هذه الفتاة تحزر

(\*) قلت : انظر الأغاني ج ٩ ص ١٧٦ .

طيراً ، والطيورُ أخفُّ من غيره ، ثم جعله حَمَاماً ، والحمامُ أسرعُ الطيرِ ، ثم جعله كثيراً ، لأنه يكون أكثر اجتهاداً في السرعة إذا كثرت عدده ، وذلك أنه يشتد طيرانه عند المسابقة والمنافسة ، ثم لم يرض بذلك حتى جاء بما يدعو إلى منتهى السرعة الممكنة فقال : « يحفه جانباً نيق ويتبعه » ، وذلك أن الحمام إذا كان في مضيق من الهواء كان أسرع منه إذا اتسع عليه الفضاء ، فشدّد الأمر وضيّقه على الفتاة كما ترى ، بما يقيم لها ألفَ عذرٍ إن أخطأتُ في الحساب ، ثم لم يكفه أن يذكر مع ذلك أنها أصابت ، بل جعل إصابتها مثلاً في الفطنة ، إذ عبّرت في تلك الحالة عن تسع وتسعين بمجموعٍ ونصفه أي ٦٦ و ٣٣ فهذه غاية البيان ، وإذا لم تكن القصة من وضع النابغة وكانت صحيحة النسبة إلى زرقاء اليمامة ، فلا شك عندنا في أن النابغة قصد منها هذا التصوير بعينه ، ولا عجب مع هذا أن يكون من أهل الصنعة والتنقيح . ولا يشترط أن تكون القصة في هذا النوع تاريخية ، بل ربما وضعها الشاعر كقول بعضهم في صفة صائد بعينه بقصة معيشته وحياته ، والضمير في البيت الأول راجع للصيد :

أُتِيحُ لَهُ طَلْحٌ إِذَا هُ بَكَفَهُ	خَنُوفٌ وَأَشْبَاهُ تَحْيِرُنْ مِنْ حَجْرٍ
أَبُو صَبِيئَةٍ ، لَا يَسْتَدِرُّ إِذَا شَتَا	لِقَوْحَا وَلَا عَزَا ، وَلَيْسَ بِنَدِيٍّ وَفَرٍ
لَهُ زَوْجَةٌ شَمَطَاءٌ يَدْرُجُ حَوْلَهَا	فَطِيمٌ تَتَاجِيهِ ، وَآخِرُ فِي الْحِجْرِ
...	(الأبيات ص ١٤٠ ج ٤ : الحيوان)

فقد بالغ في صفة هذا الصائد بالتوحش والقوة وحسن الإصابة ، وذكر كل ما يدل على انفراده بالكدح ، ليكون أقوى له وأبلغ في الاعتماد ؛ إذ زوجته شمطاء ، وأولاده فطيم وآخر في الحجر ، ثم وصف انفراد قلبه كذلك بما شوّه من عجوزة ، حتى لا يكون فيه موضع للرقعة على الحيوان ، وليس يتعين أن يكون هذا الصائد كذلك ، ولكن صفة الرمية النافذة اقتضت هذه القصة .

ثالثاً - إذا كانت القصة خرافة من الخرافات ، فيضربونها مثلاً لتوكيد

الحقيقة ، وأكثر ما يكون ذلك في الخرافات الموضوعة على ألسنة الحيوان ، وهي شائعة في الأعراب ، ومثلها في كل أمة ، ولها في أكثر الأمم شعراء ينفردون بها ، وأشهرهم في المتأخرين لافونتين الشاعر الفرنسي ، ومن هذا النوع قول النابغة في هذا المثل البديع :

أليس لنا مولى يجب سراحنا فيعذرنا من مرة المتناصره

( الأبيات في خرافة الحية وحليفها ص ٦٨ ج ٤ : الحيوان ، و ص ١١ : حسن التوسل ) .

وقول الهذلي :

وإخال إن أخاكم رعنانة<sup>١</sup> إذ جاءكم بتعطف وسكون

( الأبيات في خرافة النعامة التي ذهبت تطلب أذنين فمادت صلاء ، ص ١٠٧ ج ٤ : الحيوان ) .

وقول ابن هرمة في خرافة الضب والضفدع :

ألم تأرق لضوء البرق في أسحمَ لَمَاحِ

( الأبيات ص ٣٨ ج ٦ : الحيوان ) . . . . .

ومن أراد أن يقف على بعض خرافات الأعراب فعليه بقصيدة الحكم ابن عمرو البهراني ، وكان أتى بني العنبر بالبادية فنفوه الى الحاضرة ، فجعل يتفقه ويُنْفِقِي نُفْتِيَا الأعراب ، وكان مكفوفاً دهرياً ، وقصيدته كلها ظريف غريب ، وكلها باطل ، والأعراب تؤمن بها أجمع ، وقد رواها الجاحظ في الحيوان ( ص ٢٤ ج ٦ ) وشرحها شرحاً مطولاً .

وقد وقفنا على نوع غريب من الشعر القصصي كنا نظن أن العرب لم يقولوا فيه ، وذلك محاورة الحيوان ومساءلته ، في نظم قائم بنفسه وعلى نمط فئات المتأخرين الذين عربّوا مثل هذا الشعر عن اليونان والفرنسيين وغيرهم ، فإنهم ينظمون ذلك شعراً مزاجاً من الرجز ، يستقل كل بيت منه بقافيتين ، ولكن هذا الشاعر أطلق القوافي في رجزه ، فهو يغيرها عند انتقاله من معنى

لمعنى مباين ؛ ولا جرم أن الشعر القصصي لو نظم على هذا النحو لأمكن منه ما ظنه الأدباء غير ممكن ، أما الأرجوزة فهي عن أبي زياد الكلابي ، قال :  
أكلت الضبع شاة رجل من الأعراب ، فجعل يخاطبها ويقول :

ما أنا يا جعار من خطابك      عليّ دق العصل من أنيابك  
.....  
(الأبيات ص ١٥١ ج ٦ : الحيوان)

أما الأساطير الدينية فليس في العرب من يتعمل لنظمها غير أمية بن أبي الصلت ، لما مرّ من شأنه في باب الشعر الحكمي ، وله من ذلك أشياء مروية ، كقصة سفينة نوح ، وقصة الحمامة التي بعثها ترداد في الأرض موضعاً يكون مرفأً للسفينة بعد أن بعث الغراب فوقع على جيفة ونحو ذلك ؛ وبما نظم أمية من خرافات الأعراب خرافة الغراب والديك التي يقولون فيها إن الديك كان نديماً للغراب ، وإنها شربا الخمر عند حمار ولم يعطياه شيئاً ، وذهب الغراب ليأتيه بالثمن ورهن الديك ، فخاس به ولم يرجع ، ولذلك ذهب الغراب مطلقاً في الأرض وبقي الديك محبوساً عند الناس ؛ ولكن نظم أمية في هذه المعاني لا يرمي الى شيء غير معنى القصص ، كأنه لا يريد من الشعر إلا أن يكون دليلاً على علمه وترشحه للأمر الذي يحدث به نفسه كما سبق ...

وقد نظم بعض المولدين في الشعر القصصي بما يقارب المعنى المصطلح عليه . من ذلك قصيدة محمد بن عبد العزيز السوسي من شعراء اليتيمة ؛ قال الثعالي فيه إنه أحد شياطين الأنس ، يقول قصيدة 'تربي على أربعائة بنت في وصف حاله وتنقله في الأديان والمذاهب والصناعات ، وقد أورد منها قطعة (ص ٢٣٧ ج ٣ : يتيمة الدهر) ونظم المتأخرون في السيرة النبوية خاصة ، وأشهرهم في ذلك حكمة وإحكاماً ، الإمام شرف الدين البوصيري ، وشهرة قصيدته البردة والهمزية قد ملأت الدنيا .



## (\*) الشُّعْرُ الْعِلْمِيُّ

قد علمت أن الشعر كان مستودع علوم العرب وكتاب تجاربهم وحكمهم ، فليس هذا الذي نريده بالشعر العلمي ، ولكننا نريد القصائد التاريخية أو العلمية التي جاءت في حكم الكتب ، وكذلك الكتب التي نظمها فجاءت في حكم القصائد ، وهو ما يعبر عنه المتأخرون بالمتون المنظومة ، كألفية ابن مالك وغيرها مما يجمع مسائل الفنون وضوابطها ، وليس من عالم في هؤلاء إلا وله شيء قلّ أو كثير نصيباً مفروضاً .

ونحن نريد أن نتكلم هنا عن أصل هذا النوع وأقدم ما وقفنا عليه من أمثله التي احتذاها المتأخرون ، وهم مجمعون على استعمال هذا النمط من الرجز الذي يستقل فيه كل مصراعين بقافية ، حتى لقبوه بجمار الشعر لسهولة الحمل عليه ، ثم هم مع ذلك التهافت لا تكاد تجد فيهم من يعرف اسمه عند المتقدمين ؛ والعرب أنفسهم لم يضعوا له اسماً لم يأت في مشهور أراجيزهم منه شيء ، ولم نقف منه عندهم إلا على مثال واحد ، وهو ما ذكره الخطيب التبريزي في شرحه على تهذيب الألفاظ ( ص ٣٣٢ ) من أن رجلاً من هذيل أقبل إلى عمر ابن الخطاب وهو جالس فأنشده شعراً يتجرّم فيه على أبيه ويستظهره عليه ، فبعث عمر إلى أبيه فدعاه ، فقال : ماذا يقول ابنك ؟ زعم أنك نفيته .

---

(\*) قلت : كان الترتيب أن يكون قبل هذا الفصل مبحث عن ( شعر التوقيص ) ولكننا لم نعثر به .



فقال : يا أمير المؤمنين ، غدوته صغيراً وعقتني كبيراً ، أنكحته الجرائر ،  
وكفيتها الجرائر ، فأخذ بلحيتي وأظهر مشمتعي :

شاهد ذلك من هذيل أربعه مسافع وعمته ومَشَجَمَه  
وسيدُ الحيّ جميعاً مالكُ ومالكُ محض العروق ناسكُ

وهذا الرجز كما تراه إنما انساق مع الكلام واستجرت للحكاية ، فإما أن  
يكون بعض ما يتفق من أحاديثهم العامة وأهلوا حفظه وروايته لأنه في  
سبيلها ، وإما أن يكون شيئاً جرى على لسان ذلك العربي ؛ وعلى أي الوجهين  
فما كان ليروى لولا أنه جاء تابعاً للشعر الذي قبله ؛ وفيه شاهد من شواهد  
اللغة فحفظوه ليساق مع الحديث .

ثم جاء بشر بن المعتمر الذي مر ذكره في الشعر الحكمي ، وكان من أروى  
المعتزلة للشعر ، فبنى على هذا الأصل أرجوزة طويلة ذكر فيها الملل والنحل  
وضرب الأمثال وأخذ في قواعد مذهبه . ويظهر من كلام الجاحظ أن هذه  
الأرجوزة قد رُفعت إلى الناس وذهب لها صيت ، وقد ذكرها مرتين في  
كتاب الحيوان ونقل قطعة من أمثالها ( ص ٨٠ ج ٤ : الحيوان ) وقطعة  
أخرى في ذكر فضل عليّ على الخوارج ( ص ١٥٥ ج ٦ ) وهو في كل مرة  
يقول : قال بشر بن المعتمر في شعره المزاج . وهذه التسمية أليق ما يسمّى  
به هذا النوع من الأراجيز ، ولا بد أن تكون هذه الأرجوزة الأولى من  
نوعها ، لأن الجاحظ نسب هذا النوع إليه وعينه به وكان يكفي أن يقول :  
قال بشر فقط ، ولأنه قد ظهر قبل بشر شعراء نظموا في أمثال هذه المعاني ،  
ولكن على طريقة الشعر المقفى ، ولم يرد لواحد منهم شيء من المزاج ،  
وكان أسهل عليهم لو عرفوه ؛ وقد اشتهر هذا النمط بعد بشر ، ونظم فيه  
ابن المعتز في أواخر القرن الثالث كتابه « بشر الإمام » في أرجوزة طويلة  
مثبتة في ديوانه ، ثم كان حدو المتأخرين في التون بعد ذلك على منظومة  
الإمام محمد بن عبد الله بن مالك المتوفى سنة ٦٧٢ علامة النحو واللغات  
الغريبة والآية في حفظ أشعار العرب ، وهذه المنظومة هي الألفية الشهيرة

في علم النحو ، تبع فيها ابن معطي ، قالوا : ونظّمه أجمعُ وأوعبُ ،  
ونظم ابن معطي أسلسُ وأعذبُ ( ص ٤٣٢ ج ١ : نفع الطيب ) . ولابن  
مالك منظومات أخرى غير الألفية ، ولكن هذه هي أشهر المتون المنظومة ،  
يكاد ذلك يكون إجماعاً .

أما الشعر الذي تنظم فيه الضوابط العلمية لسهولة حفظها ، فأكثر ما  
يكون قطعاً وأبياتاً قليلة ، والأغلب فيه أن لا يكون مزاجاً ، وقد وقفنا  
على مثال منه عند العرب ، وهو قول طفيل الغنوي « يصف كيف تزجر  
الخيال فجمعه في بيت واحد » هكذا قال المبرد في الكامل ، وقوله دليل على  
أن نظم الضوابط لم يكن معروفاً الى زمنه ، وإنما هو بما أحدثه  
المتأخرون :

وقيل اقدمي واقديم وأخ وأخري  
وها وهلا واضبير وقادعها هي

وهذه كلها كلمات تزجر بها الخيل ، ولم يتسع البيت للفظتين من هذا  
القبيل ؛ هما هَقَبٌ وهِقَطٌ ( ص ١٦١ ج ١ : الكامل ) .

والمتأخرون من العلماء الذين يابون أن يتركوا شيئاً غير متروك الى أصله ؛  
يزعمون أن أول من نظم المتون العلمية هو هرمس الحكيم الذي يزعم قوم من  
الصابئة أنه إدريس عليه السلام ؛ ويقولون إنه أول من نظر في الطب وتكلم  
فيه وصنف لأهل زمانه « كتباً بأشعار موزونة » بلغتهم في معرفة الأشياء  
العلوية والأرضية ( ص ١٣٨ : سرح العميون ) .

هذا في نظم المتون والضوابط ، أما الشعر الذي يحمل معاني التاريخ  
وأشعار الفنون على غير تلك الطريقة فإنما يجيء به المولدون على جهة الفخر  
بما يضمّنونه ، كقصيدة رباح بن سنيح الزنجي مولى بني ناجية ، وكان  
فصيحاً ، فلما قال جرير :

لا تطلبنّ خنولةً في تغلبٍ فالزنج أكرم منهم أخوالا

تحرك رياح فذكر أكثر من ولدته الزنج من أشرف العرب في قصيدة مشهورة معروفة ومنها البيت السائر :

إن الفرزدق صخرة عاديةً طالت فليس تناها الأجيالا

يريد طالت الأجيال فليس تناها ( ص ٨ ج ٢ : الكامل ) . ومن هذا النوع القصيدة الحميرية التي نظمها نشوان الحميري صاحب كتاب شمس العلوم ، وقد نشرها بعض المستشرقين ( تاريخ العرب ) وقد عدّ فيها من ملكوا من الحميريين وافتخر بقومه هؤلاء وصارت هذه القصيدة اليوم عند الباحثين في التاريخ العربي القديم لا يقاس بها شعر شاعر ، لما فيها من الأسماء التاريخية .

وقد ينظّمون ذلك الشعر على جهة الفخر بالنظم نفسه وقوة التصرف كما فعل أبو العباس الناشيء المعروف بابن شرشير ، وهو الناشيء الأكبر ، وكان متبحراً في عدة علوم ، وهو في الشعر من طبقة البحثري وابن الرومي وأضربها ، قال ابن خلكان: وله قصيدة في فنون من العلم على روي واحد تبلغ أربعة آلاف بيت ، وتوفي سنة ٢٩٣ ؛ فلو أنه جعل هذه القصيدة في فنون من التاريخ والقصص ونحوها ، لما خلا الشعر العربي الى اليوم من النمط القصصي الذي نفاخر به الإلياذة وأمثالها في كل شعر غير عربي .

وكذلك فعل أبو الحسن الأنصاري الجياني المتوفى سنة ٥٩٣ في نظم كتابه شذور الذهب في صناعة الكيمياء ؛ وقد قالوا فيه : إن لم يعلمك صنعة الذهب علمك صنعة الأدب ؛ وقيل في الجياني : شاعر الحكماء وحكيم الشعراء .

ومما يحسن ذكره في هذا الموضوع ، توفية للفائدة ، كتب الحكمة والأمثال التي نظمها المولدون لتسهيل حفظها ومدارستها ؛ وأهم هذه الكتب كلية ودمنة الذي عربّه ابن المقفع ؛ فقد نظمه أبان بن عبد الحميد اللاحقي شاعر البرامكة ، ونظمه أيضاً ابن الهبّارية البغدادي ، وسمى كتابه نتائج الفطنة في نظم كلية ودمنة ؛ وكلا الشاعرين مرّ ذكرهما ؛ وكذلك نظمه الأسعد بن ممتّاي المصري

ناظر الدواوين بالديار المصرية المتوفى سنة ٦٠٦ ؛ ولابن الهبارية أيضاً كتاب  
الصادح والباغم ؛ نظمه على أسلوب كلية ودمنة ؛ وهو أراجيز في ألفي بيت  
نظمها في عشر سنين ؛ ولم نذكره في الشعر القصصي لأن هذا الموضع ألتق به ؛  
ومن منظومة السّير أرجوزة ابن عبد ربه صاحب المعقد الفريد ، في أخبار  
الملك الناصر صاحب الأندلس ؛ وسيرة صلاح الدين التي نظمها الأسعد بن ممّاتي  
المذكور ؛ وذلك في الجملة ليس من الشعر ، ولكنه نوع مما أخذنا في تأريخه ،  
فكان لا بد من الإشارة الى بعض أمثله في التاريخ .



## الفنون المحدثه من الشعر

ذكرنا تاريخ الشعر وأفضنا في مناحيه ، وبقي علينا تاريخ هذه الفنون التي أحدثها البلديون ، وهي الموشح ، والزجل ، والدوبيت ، والمواليا ، والكان وكان ، والقوما ؛ وهذا الكتاب وإن كان ليس فيه متسع للفنون التي خرجت بها آداب اللغة الملحونة ، ولكننا سنلمّ بها إماماً ، ونتجوّز في ذلك بعد أن نتكلم على الموشح مقتصرين على مبتدأ خبرها ، فإن لها طرقاً ورجالاً؛ إذ هي آداب لغة منفردة يتكلم بها شعراء الناس ، واستيفاء ذلك هنا يُعدّ من تداخل التواريخ ، وهو في رأينا دليل على فساد النظر وسوء الاحتمال لهذه العلوم ؛ فلو أن مؤلفاً كتب في تاريخ لغة العامة وآدابها ، ثم بسط في كتابه الكلام عن شعر العرب بمثل ما قدمناه ، وعلى النحو الذي أخذنا إليه ، لكان حقيقاً بأن يدل فضل اطلاعه على فساد صنعته في تأليف الكتاب ، وكذلك ليس خلط الأعداد وهي مادة الحساب ، مما يعدّ في شيء من صحة الحساب .



## الموشح

ويقال له التوشيح أيضاً ، والذي نراه في أصل هذه اللفظة أنها منقولة عن قولهم : ثوب موشح ، وذلك لوشي يكون فيه ، فكأن هذه الأسماط والأغصان التي يزينونه بها هي من الكلام في سبيل الوشي من الثوب ، ثم صارت اللفظة بعد ذلك علماً ؛ إلا أن يكون الأندلسيون قد أخذوا هذه التسمية عن المشاركة ، فتكون منقولة عن التوشيح الذي عدّه قدامة بن جعفر في نقد الشعر من أنواع ائتلاف القافية مع ما يدل عليه سائر البيت ، وجرى عليه أهل البديع ، فيكون اشتقاقها من معنى الوشاح كما نصوا عليه ، لأنهم عرفوا هذا النوع بأن يكون معنى أول البيت دالاً على قافيته ، فينزل فيه هذا المعنى منزلة الوشاح ، وينزل أول الكلام وآخره منزلة محل الوشاح من العاتق والكشح اللذين يجول عليهما .

### اختراعه .

قال ابن خلدون في أصل استحداث هذا الفن : « أما أهل الأندلس فلما كثر الشعر في قطرم وتهذبت مناحيه وفنونه وبلغ التتميق فيه الغاية ، استحدث المتأخرون منهم فنا سموه بالموشح ينظمونه أسماً أسماً وأغصاناً أعصاناً ... واستظرفه الناس جملة ، الخاصة والكافة ؛ لسهولة تناوله وقرب طريقه ، وكان المخترع لها يجزيرة الأندلس مقدم بن معافر القربري من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المرواني ، وأخذ ذلك عنه أبو عبد الله أحمد بن عبدربه صاحب كتاب العقد ، ولم يظهر لها مع المتأخرين ذكر وكسدت موشحاتها ،

فكان أول من برع في هذا الشأن عبادة القزاز شاعر المعتمد بن صمادح صاحب ألمرية .. الخ ،

وعبادة هذا توفي سنة ٤٢٢ ، فالذي يفهم من كلام ابن خلدون أحد معنيين : إما أن يكون مقدم بن معافر شاعر الأمير عبد الله [ في القرن الثالث ] هو الذي سمي هذا النوع بالموشح حين اخترعه ، فيكون قد بقي الى زمن عبادة لم ينبغ فيه أحد ، ويكون الأندلسيون في القرن الثالث « قد كثر الشعر في قطرم وتهذبت مناحيه وفنونه وبلغ التتميق فيه الغاية » وإما أن تكون هذه التسمية قد أحدثها المتأخرون من زمن عبادة ، وزمنه أرقى عصور الشعر في الأندلس ، وكلاهما خطأ ، وذلك بما وهم فيه ابن خلدون لأنه إنما ذهب كعادته الى التعليل ، فظن أن استحداث هذا الفن من فضل القوة وإتقان الصناعة ، وذلك لا يكون إلا على ما وصف ، ولكن الشعر لم يكن قد بلغ في الأندلس ذلك المبلغ في القرن الثالث كما سنفصله متى انتهينا الى الكلام على الأدب الأندلسي ، ولو كان كما زعم ابن خلدون لحفظوا اسم مقدم بن معافر ، وإننا على طول ما عيننا من نصّب البحث ومطالوة التعب في التنقيب ، وقد قرأنا ما قرأناه لتهيئة مواد هذا الكتاب حتى لم نغادر كتاباً في الأدب والتاريخ بأنواعه - لم نظفر بكلام عن مقدم هذا ولا تكشفت لنا من تاريخه شيء . ومما يدل على فساد المعنى الثاني ، أن ابن بسام - وهو أعلم بهذا من ابن خلدون وغيره من المتأخرين - ذكر في كتابه الذخيرة أنه نشأ بين مخترع الموشح وبين عبادة ، يوسف بن هارون الرمادي ، وهو الشاعر الأندلسي في القرن الرابع ( توفي سنة ٤٠٣ ) فلا بد أن يكون عبادة قد أخذ عنه مثال الإتقان في هذه الصنعة ، وجينئذ يتعين أن لاخترع الموشح سبباً آخر غير كثرة الشعر وبلوغ الغاية في تنميته ، ونحن ذاكره بعد ، ولكننا ننقل هنا عبارة الذخيرة ، فإن فيها قولاً آخر في اختراع هذه الأوزان ؛ قال ابن بسام في ترجمة عبادة : « كان في ذلك العصر شيخ الصناعة وأحكم الجماعة ... وكانت صنعة التوشيح التي نهج أهل الأندلس طريقته ووصفوا حقيقتها غير مرقومة البرود ، ولا منظومة العقود ، فأقام

عبادة هذا عمادها ، وقوم ميلها وسنادها ، فكأنها لم تُسمع بالأندلس إلا منه ، ولا أخذت إلا عنه ، واشتهر بها شهرة غلبت على ذاته ، وذهب بكثير من حسناته ؛ وأول من صنع أوزان هذه الموشحات : محمد بن محمود المقبري الضريبي ؛ وقيل إن ابن عبد ربه صاحب العقد أول من سبق إلى هذا النوع من الموشحات ؛ ثم نشأ يوسف بن هارون الرمادي ؛ ثم نشأ عبادة هذا فأحدث التصغير ؛ وذلك أنه اعتمد على مواضع الوقف في المراكز ( ص ١٩٩ : فوات الوفيات ) .

### سبب اختراعه .

وعندنا أن الذي نههم إلى اختراع أوزان التوشيح إنما هو الغناء لا غيره ، فإن تلحين البيت من الشعر قد يجيء على بعض الوجوه كالموشح ، إذ يخرج جملاً مقطعة [تساوق] مع النغم ؛ فلو تنبه إلى ذلك أديب موسيقي لأمكن أن يضع أوزاناً على هذه التقاطيع ، وهم لا يختارون للغناء من الشعر إلا ما احتفل في حركاته حسن التجزئة وصحة التقسيم وإجادة المقاطع والمبادئ .

والذي يدل على أن الغناء هو الأصل في التوشيح ، أن الأندلس فتحت في أواخر القرن الأول ، ولم يخترع التوشيح إلا في الربع الأخير من القرن الثالث ، فكانت الفترة قريبة من مائتي سنة ، والسبب الطبيعي في ذلك أن أمر الأندلس كان في مبدئه دينياً محضاً - كما ستراه في موضعه - وبقي الشعر عندهم متعلقاً بنوابع مميّزين بالضعف والقلة إلى زمن الأمير عبد الرحمن بن الحكم في أوائل القرن الثالث ، حتى نبغ يحيى الغزال شاعر الأندلس وفيلسوفها ؛ ثم قدم زرياب المغني من العراق على هذا الأمير سنة ٢٠٦ ، وكان الأمير مفتوناً بالغناء ، فلم يرض على ذلك زمن حتى شاع الغناء وانحرف إليه الأندلسيون ، وكان ذلك أول تاريخه عندهم ، فلعل المدة بين شيوع الغناء واستحداث التوشيح لا تزيد عن نصف قرن .

وقد أقبل أدباء الأندلس في أواخر القرن الرابع على الموسيقى ، ومن



هاهنا دعت الحاجة الى التفنن في تلك الأوزان ، فاستقل بذلك عبادة الذي أومأنا إليه ، وليس هذا فيه بمجيب إذا عرفت أن ابن الحداد وهو معاصر عبادة ، وكلاهما من شعراء المعتصم بن صمادح ، قد وضع كتاباً في العروض مزج فيه بين الموسيقى وبين آراء الخليل - وكل ذلك سيأتيك في موضعه مفصلاً إن شاء الله .

والأندلسيون لم يلحقوا المشاركة في الغناء ، ولم يكثرُوا فحولهم فيه ؛ ولذلك انصرفوا عن الغناء في الشعر الى تحميله أوزان التوشيح ، فأغربوا بذلك كما قال ابن دحية على أهل المشرق ، لأنهم جمعوا فيه جملة التطريب ؛ وقد نبه على ذلك ابن رشد فيلسوف الأندلس في تلخيصه كتاب أرسطوطاليس في الشعر حيث قال كلامه على المحاكاة : « والمحاكاة في الأقاويل الشعرية تكون من قبل ثلاثة أشياء : من قبل النغم المتفقة ، ومن قبل الوزن ، ومن قبل التشبه نفسه ، وهذه قد يوجد كل واحد منها منفرداً عن صاحبه ، مثل وجود النغم في المزامير ، والوزن في الرقص والمحاكاة في اللفظ ، أعني الأقاويل الخيالة ( غير الموزونة ) ؛ وقد تجتمع هذه الثلاثة بأسرها ، مثل ما يوجد عندنا في النوع الذي يسمى الموشحات والأزجال ، وهي الأشعار التي استنبطها في هذا اللسان أهل هذه الجزيرة اهـ « العذارى المائسات » .

وهذا هو السبب في اختلاف أوزانه وأوضاعه ؛ لأن الغرض منه تطبيق ألفاظه على مؤلفات من الأصوات [ بمقتضى ] صناعة الموسيقى ، فكانوا يؤلفون من الأصوات التي تخرجها الضربات على الأوتار المختلفة كلاماً يناسب أن يقابل في وزنه تلك الأصوات بحروف متحركة أو ساكنة وعلى ذلك يكون مؤلف التوشيح تابعاً لما تقتضيه أصوات الموسيقى وأوزانها ، وذلك قد يوافق الأوزان العربية التي يلحن فيها الشعر وقد يخالفها وعليه أكثر علمهم ، ولم يلتفت أكثر أدباء المتأخرين الى هذه الحقيقة فحسبوا التوشيح كغيره من الأوزان ، ولذلك اقتصر شعراؤهم على النظم في مذهب العروض منه وتركوا ما عداه ، لأنهم لا يعرفون له وزناً ، إلا أهل الموسيقى منهم ؛ فإنهم ذهبوا فيه كل مذهب ، وقد ذكر الشيخ شهاب الدين في سفينته المشهورة أن موشحات

المتقدمين قد بطل العمل في تلحينها ، ولذلك اقتصر في السفينة على إيراد موشحات المتأخرين ، وأثبت من ذلك ٣٠٠ موشح فيها ٣٥٠ لحناً .

وعلى الأصل في أوزان التوشيح اخترع المتأخرون نوعين آخرين هما المستجاد والبنود ، وسنذكرهما في بحث الصناعات لأن موضعها هناك أليق بهما .

### الموشح الملحون .

ومن التوشيح ما لا يكون معرباً ، وهو من اختراع أدباء اليمن ؛ قال صاحب سلافة العصر : ولأهل اليمن نظم يسمونه الموشح ، غير موشح أهل المغرب ، والفرق بينها أن موشح أهل المغرب يُراعى فيه الإعراب بخلاف موشح أهل اليمن فإنه لا يراعى فيه شيء من الإعراب ، بل اللحن فيه أعذب ؛ وحكه في ذلك حكم الزجل اهـ ( ص ٢٤٣ ) .

ولم نزل نبحت عن أصل هذا النوع حتى وقفنا في كتاب نفحة اليمن لأحمد الأنصاري اليمني الشرواني<sup>(١)</sup> ، وهو مطبوع في مصر ، على نوع سماه الشعر الحميني لا يكون إلا ملحوناً ، وقال إنه منسوب إلى الفضل الأديب محمد بن حسين الكوكباني اليمني ، وهو توشيح أوله :

ما لقلبي لم يزلْ عَشَقْتُو فنون \* في هوى حال الثني والمجون \* زي الغصون  
قد فنى صبري وقل الإحتيال

قد قسم قلبي بأسياف الجفون \* وقسم لي الهوى تلك العيون \* ريب المنون  
ما حياتي بعد ذا إلا محال

وقال: إن شعراء اليمن هم فرسان هذا الميدان، وحاملو لواء هذا الشأن؛ وعلى هذه الطريقة نظم بعض علماء المتأخرين على نمط الشعر، كقصيدة الشيخ عليش الشهيرة التي مطلعها :

الزم باب ربك واترك كل دون

---

(١) ذكر في موضع من كتابه هذا أنه كان بكلכותا سنة ١٢٢٢ .

وأورد في النفحة قصيدة من هذا النمط قال إنها للفاضل البكري ؛ فهذا هو الشعر الحميني على ما عرفت ، وهي تسمية أهل اليمن ؛ أما المغاربة فقد استحدثت عامتهم من هذا النمط أنواعاً بأسماء أخرى ، وسنشير إليها بعد .

### بعض أنواع الموشح .

لم يوضع في صناعة الموشح ووجه نظمه وأسماء أوزانه فيما نعلم ، غير كتاب واحد وضعه صفي الدين الحلبي الشاعر المتوفى سنة ٧٥٠ ، وهذا الكتاب لم ينته إلينا إلا خبره . وسنذكر اسمه في كتب التوشيح ، ثم إن هذه الصناعة لا ضابط لأوزانها إلا الألحان كما سلف ، فهي موطأة للاختراع بمقدار ما تجرؤ عليه القرائح ؛ ولذلك تعددت فيها الأوزان واختلفت طرق الصنعة . فلا سبيل إلى حصرها إلا بالتلقّي واتصال السند عن أهلها ، ولا ندري إن كانوا قد وضعوا لكل وزن اسماً يعرف به أم كان اسم التوشيح عاماً لجميعها فلا تخصص الأوزان إلا بأسماء ألحانها فقط كما هو الشأن في أدوار الغناء ؛ وقد بحثنا في ذلك كثيراً فلم نرجع بطائل ، وكنا نظن أننا نصل إلى تسمية كل وزن وتعيين مخترعه ، ولكننا لم نقف من ذلك إلا على النذر القليل الذي لا يُعتدُّ به في استنباط التاريخ ، وقد رجح عندنا أنهم لم يسموا الموشحات بأسماء معينة كما فعلوا بالصناعات الشعرية ، كالتخميس والتشطير وغيرها ، إلا ما دخل فيه الشعر من ذلك ، كهذا النوع الذي اخترعه الصفي الحلبي وسماه الموشح المضمّن ، ومثل له بتضمين الأبيات المنسوبة لأبي نواس ، وقيل إنها للحريري ، ومطلع موشحه ( ص ٢٩٨ : ديوان صفي الدين الحلبي ) :

وهو الهوى ، ما حلتُ يوماً عن الهوى

ولكن نجمي في الهبة قد هوى

وما كنت أرجو وصل من قتلتي نوى

وأضنى فؤادي بالقطيعة والنوى

ليس في الهوى عجب إن أصابني العطب

( حامل الهوى تمب يستفزه الطرب )

فالبيت الأخير « حامل الهوى... الخ » هو المضمّن ، وما قبله توطئة له من نظم الصفي ؛ وكالموشح الممنوع ، ويسمونه أيضاً الشعري ، لأنه قصيدة على وزن ورويّ واحد من الشعر يفصل بين كل بيتين منها بيت من الموشح يناسب وزنه لحن القصيدة ، ويشترط فيه أن تكون كل أبيات التوشيح مصرعة على قافية واحدة ( انظر ص ٢٩٩ : ديوان الحلبي )

وكما خلطوا بين أوزان الشعر وبين أوزان التوشيح ، يخلطون بين وزن الدوبيت والزجل وبينه ، وكل ذلك لأن التوشيح لا ضابط لوزنه إلا المناسبة كيفما اتفقت .

ومن الأوزان التي عينوا مخترعها ، هذا الوزن الذي قال الصفي إن مخترعه السلطان المؤيد صاحب حماة المتوفى سنة ٧٣٢ ( انظر ص ٣٩١ : ديوان صفي الدين الحلبي ) .

وهو - كما ترى - يكادّ لسان الناطق ، ولكنه إذا قطع الحاناً وصححت تجزئته وأحكمت مخارج ألفاظه وجرى فيه الغناء كان طرباً عجبياً ، وعلى ذلك وضع ؛ ومن أراد أن يقف على كثير من أوزان الموشحات فليقرأ ما ورد من ذلك في نفع الطيب وفوات الوفيات وكتاب العذارى المائسات وسفينة الشيخ شهاب الدين ، وكلها مطبوعة ؛ وكنا هممنا أن نحصي ما وقفنا عليه من ذلك ، لولا إننا [ رأينا ] أن الفائدة لا تتم إلا إذا أثبتنا مطلع كل وزن ليتصفح القارئ وجوه الأنواع ويستثبت مواضع الاختلاف في أوزانها ، وذلك يستغرق قطعة كبيرة من هذا الكتاب ، ثم هو عمل تعليمي فليتبناه من مست إليه حاجته .

#### نوابغ الوشاحين .

يبتدىء تاريخ النبوغ في التوشيح من القرن الخامس ، ورأس أدبائه عبادة ، وشاح المعتصم الذي أومأنا إليه من قبل ، ثم جاء بعده ابن أرفع رأسه شاعر المأمون بن ذي النون صاحب طيطة ، وبعدهما الحلبة التي كانت في دولة الملثمين

الى القرن السادس ، وسابق فرسانها القطيلي الأعمى ( كذلك يذكره صاحب نفع الطيب ، وقد ورد اسمه في مواضع ، وفي مقدمة ابن خلدون : الطيطلي ) ثم يحيى بن بقيّ ، ومحمد بن أحمد الأنصاري المعروف بالأبيض ، والحكيم أبو بكر بن باجه صاحب التلاحين المعروفة ( وسيأتي بيان ذلك في الأدب الأندلسي ) ؛ ثم اشتهر بعد هؤلاء في صدر دولة الموحدين محمد بن أبي الفضل ابن شرف ، وأبو إسحاق الرويني ؛ ثم كان حسنة هذه المائة السادسة الفيلسوف أبا بكر بن زهر المتوفى سنة ٥٩٥ ، والشاحون عيال على إحسانه فيما اتفق له من بدائع الموشحات التي شرقت وغرّبت ؛ واشتهر بعده ابن حيون ، والمهر بن الفرس ، ثم نبغ ابن جرمون بمرسية ، وأبو الحسن سهل بن مالك بقرنطة ، وأبو بكر بن الصابوني ، واشتهر بين أهل العدوة ابن خلف الجزائري ، وابن هزر البجائي ، ولكن الذي انفرد بشهرة هذه المائة إبراهيم بن سهل الإسرائيلي وشّاح أشبيلية وشاعرها ؛ وقد طبعت له قطع صغيرة في مصر على أنها ديوانه ؛ ولكن الذي يقول في نفع الطيب إن ديوانه كبير مشهور بالمغرب حاز به قصب السبق في النظم والتواشيع ، ومات ابن سهل غريقاً سنة ٦٤٩ ؛ وظهر بعده أحمد المقريني المعروف بالكساء ، وهو شاعر وشاح زجال ( ص ٣٠٣ - ٢ : نفع الطيب ) .

ثم كان نابغة المائة الثامنة في الأندلس لسان العربية ابن الخطيب ، وله في التوشيح بدائع كثيرة ، وكان من أبرع تلامذته في ذلك ابن زمرك وزير الغني بالله ، ثم اشتهر بعده العربي العقيلي الوشاح ، ثم ظهر في المائة التاسعة في النصف الأول أبو يحيى بن عاصم الذي يقول عنه الأندلسيون إنه ابن الخطيب الثاني ؛ ثم استعجمت الأندلس وظهر في المغرب في أواخر القرن العاشر عبد العزيز بن محمد القشتالي وزير أبي العباس أحمد الشريف الحسيني ، وسنذكره بعد ؛ أما المشاركة قد تكلفوا التوشيح وبقي للأندلسيين فضل الطبع لم ينازعهم فيه إلا ابن سناء الملك المصري المتوفى سنة ٦٠٨ فقد طارت موشحاته خصوصاً موشحته التي اشتهرت شرقاً وغرباً ، وأولها :

يا حبيبي ارفع حجاب النور عن العذار  
ننظر المسك على الكافور في جلتنا  
كلي، يا سحب تيجان الربى، بالحلي واجعلي، سوارها منعطف الجدول  
ولا تزال في أفواه المغنين الى اليوم .

### كتب التوشيح .

وضع صفي الدين الحلي ديواناً سماه ( العاقل الحالي والمرخص الغالي )  
( وُذكر في كشف الظنون العاقل الحادي خطأ ) وقد أوضح فيه قاعدة  
الفنون الشعرية جميعها ، وهي الموشح ، والدوبيت ، والزجل ، والموالي ،  
والكان وكان ، والقوما ، وأورد أمثلة ذلك من نظمه . وذكر ابن خلكان  
في ترجمة ابن سناء الملك أنه جمع موشحاته التي نظمها في ديوان سماه ( دار  
الطراز ) . وفي نفح الطيب أن لسان الدين بن الخطيب أُلّف في هذا الفن  
كتابه المسمى بـيحيى التوشيح وأتى فيه بالفرائب . قال : وذيل عليه صاحبنا  
وزير القلم بالمغرب عبدالعزيز بن محمد القشتالي بكتاب سماه : «مدد الجيش...»  
وأتى فيه بكثير من موشحات أهل عصرنا من المغاربة ، وضمنه من كلام أمير  
المؤمنين مولانا المنصور أبي العباس أحمد الشريف الحسيني ما زاده زيناً ،  
وأخبرني أنه ذكر فيه لأهل العصر في أمير المؤمنين ، ولأمير المؤمنين المذكور  
أزيد من ٣٠٠ موشح ( ص ٢٢٧ ج ٤ : نفح الطيب ) .

وقد طبع بعض الأدباء مجموعة صغيرة قال إنه انتخبها من كتاب وجدته  
في بعض مكاتب رومة اسمه « العذارى المائسات في الأزجال والموشحات »  
هذا غير ما تجده في كتاب نفح الطيب وسفينة الشهاب وبعض الدواوين .



## الدُّبُوت

وهذا الاسم من كلمتين ، إحداهما فارسية وهي ( دو ) بمعنى اثنين ، والأخرى ( بيت ) العربية ؛ وسموه كذلك لأنه لا يكون أكثر من بيتين ، وقد أخذه أدباء العرب عن الفرس ، ويعرف عندهم بالرباعي ، واختص بالإجادة فيه بعض شعرائهم ، كعمر الخيام ، ورباعياته مشهورة مترجمة باللغات الأجنبية ، وهي ٥٠٠ بيت ، ولا نعرف أول من استعمل هذا النوع في العربية ، ولكن نشأته كانت في بغداد ؛ ولا ندري كيف يعده ابن خلدون من شعر عامتها ، وهو كالموشح والشعر : لا تكون ثلاثتها إلا معربة ، فإذا دخلها اللحن خرجت عن هذه الأسماء الى أسماء أخرى ، كالشعر الحميني في الموشح عند أهل اليمن، (وعروض البلد) فيه نفسه عند أهل الأمصار بالمغرب.

ونحن نرجح أن هذا النوع لم يكن في العربية قبل القرن السابع ؛ لأننا لم نجد في شعر أحد قبل ذلك الزمن ولا وجدنا إشارة إليه، ولم نجد للشعراء ولعابيه إلا في أواخر تلك المائة وما بعدها ؛ والرباعي يعد من المخترعات الحديثة في اللغة الفارسية ، لأن أول من وضعه أبو سعيد بن الخير المتوفى سنة ٤٦٥ ، وبعضهم يقول إنه كان موجوداً قبل ذلك ولا يرجع اختراعه الى تاريخ معين ؛ غير أن من عرفوا بنظمه أبا جعفر رودكي الشاعر المتوفى سنة ٣٠٢ حتى اثن في الخيام وأجاده فاشتهر بما نظمه فيه شهرة بعيدة ، لأنه ضمته أفكاراً سامية وانتقادات مرة ؛ ثم أقبل الأدباء عليه من بعده .. وقد عارضها في العربية سديد الدين الأنباري كما ذكر صاحب خلاصة الأثر ( ص ٣٩٠ ج ٤ ) ولم يقع لنا شيء من رباعياته .

وللدوبيت وزن واحد ، وهو فعلن ( بسكون العين ) متفاعلن ( وتارة  
يغير الى متفاعلين ) ، فعولن ، فعلن ( بتحريك العين وسكونها ) وأمثله  
كثيرة ؛ وقد يضمنونه أنواعاً من البديع ، ومن أكثر الشعراء ولوعاً بذلك ،  
الصفى الحلبي ، وله في ديوانه منه مقاطيع كثيرة . وللدوبيت باعتبار القوافي  
خمس أنواع : الأول يسمونه الرباعي المعرج ويشترط في قوافيه أن يكون  
بين الثلاثة منها أو [ بين ] أربعها الجنس التام ، كقول بعضهم :

يا من بسنان رحمة قد طعنا والصارم من لحظه قطعتنا  
أرحم دنفاً في سنه قد طعنا في حبك لا يصيبه قطعتنا

والرباعي الخاص ، ويشترط فيه أن تكون كل قافيتين متقابلتين بينهما  
جناس تام ؛ ويقولون إن مثاله :

أهوى رشاً بلحظه كلمنا رمزاً وبسيف لحظه كلمنا  
لو كان من الغرام قد سلمنا ما كان له بيده سلمنا

والرباعي المنطق ومثاله :

قدّم قدّم لهجتي غرام ونشّر والقلب ملك  
من كان يراك قال ما أنت بشر بل أنت ملك

والرباعي المرفل كقوله :

بدر إذا رآته شمس الأفق كسفت ورقى في يوم أحد  
عوذت جماله برب الفلق وبما خلقنا من كل أحد

وهذان النوعان لا يشترط في قوافيهما الجنس .

والخامس الرباعي المردوف ، ويحسن فيه التزام الجنس ، ومثاله :

يا مرسلاً للأنام جاهماً وحمى ها أنت لنا عزا وهدى  
في أيّ مدد

يا أفضل من مشى بأرض وسما يا شافنا في الحشر غدا  
غوثاً ومدد





## الشعر العامي والموالي

لا نعرف بالتحقيق أصل الشعر العامي ولا منشأه ؛ ولكننا لا نشك أنه قديم ، وأن ظهوره كان في أواخر القرن الأول للهجرة ، بعد ظهور الغناء وانتشاره ؛ لأن طبقات كثيرة من العامة - ومن في حكمهم ممن لا أدب لهم - لا يطربون للغناء في الشعر الفصيح ؛ وخاصة عامة أهل الشام ، ولعلمهم أصل الشعر العامي في العربية لأن الفصيح استبحر في بلادهم ، وهم مع ذلك أسقم الناس ألسنة ؛ فكان لا بد لعامتهم من هذا الشعر ، وقد وقفنا على شيء من شعرم الذي يطربون له ؛ من ذلك ما رواه صاحب الأغاني في أخبار معبد أنه أشخص إلى الوليد بن يزيد ، ثم كان في منزل بعض أهل الشام من ذوي الحال الرفيعة وقال في وصف غنائه عنده : فجعلت لا آتي بحسن إلا خرجت إلى ما هو أحسن منه ، وهو لا يرتاح ولا يحفل لما يرى مني فلما طال عليه أمري ، قال : يا غلام ، شيخنا شيخنا ! فأتى بشيخ ، فلما رآه هس إليه ، فأخذ الشيخ العود ثم اندفع يعني :

سَلَوْرٌ فِي الْقِدْرِ ، وَيَبْلِي عُلُوهُ      جَاءَ الْقِطْءُ أَكَلَهُ ، وَيَبْلِي عُلُوهُ !

والسلور : السمك بلغة أهل الشام ، قال : فجعل صاحب المنزل يصفق ويضرب برجله طرباً وسروراً ... اهـ ( ص ٢٨ ج ١ : الأغاني ) . وذكر في أخبار حنين الحيري ، وكان في أيام عبد الملك بن مروان ، أنه خرج إلى حمص يلتمس الكسب بها ويرتاد من يستفيد منه شيئاً ، فاجتمع بفتيانها ثم غنّاهم في هُنَيَّاتٍ معبد ، وغنّاهم الغريض ، وخفائف ابن سريج ، وأهزاج

حَكَمَ ، وفي غنائه هو ، فلم يتحرك منهم أحد ولا فكهوا لذلك ، وجعلوا يقولون : ليت أبا مُنَبِّه قد جاءنا ، حتى جاء أبو منبه ، فخنس حنين وصار كلا شيء ، خوفاً منه ورهبة أن يفتضح بإحسانه ، قال : فأخذ العود ثم اندفع يعني :

طرب البحرُ فاعبري يا سفينه  
لا تشقي على رجال المدينة

فأقبل القوم يصفقون ويطربون ويشربون ، ثم أخذ في نحو هذا من الغناء ( ص ١٢٣ ج ٢ : الأغاني ) .

ولا بد أن تكون مثل هذه الأشعار قد شاعت في العامة يومئذ وجعلوها فنهم ، ولكن الأدباء لم يحفلوا بها فلم يصل إلينا من خبرها شيء ، ويدل على ذلك ما نقله صاحب الأغاني [ من مثل ذلك ] في أخبار إسحاق الموصلي .

ثم ظهر بعد ذلك هذا النوع الذي يسمونه المواليا ، وقالوا في أصله أقوالاً أشهرها عند الأدباء أن الرشيد أمر بعد نكبة البرامكة أن لا يرثيهم أحد بشعر ، وتنكر لمن يفعل ذلك ، فرثت إحدى جواربهم جعفرأ بهذا النوع الذي يدخله اللحن ولا يجري على أوزان الشعر ، لتتقي بذلك نقمة الرشيد ، وجعلت تقول بعد كل شطر: يا مواليا ! فعرف هذا النوع به وتناقله الناس ؛ والذي قالته في ذلك هو :

يا دار، أين ملوك الأرض أين الفرس

أين الذين حموها بالقنا والترس

قالت : نراهم رمم تحت الأراضى الدرر

سكوت بعد الفصاحة ألسنتهم خرر !

وليس هذا النوع ملحوناً أبداً كالزجل والكان وكان والقوما ، ولكنه يحتل الإعراب واللحن ، ولا يميزون فيه مع ذلك أن يختلط الاثنان في قول واحد فتكون بعض ألفاظ البيت معربة وبعضها ملحونة ؛ فهذا من أقبح

العيوب التي لا تجوز ؛ وإنما يكون المعرب منه نوعاً بمفرده ؛ والملحون منه  
ملحوناً لا يدخله الإعراب ( المستطرف عن كتاب العاطل والحالي ) .

وللمواليا وزن واحد وأربع قواف ؛ منها واحدة اخترعها صفي الدين  
الحلي ( المستطرف ) وقد حملته المتأخرون محاسن البديع كما فعلوا بالدوبيت ؛  
وحرّف المصريون هذه الكلمة بكلمة « موال » وأهل الصعيد منهم أشهر  
الناس بهذه الماويل ؛ وخاصة أهل مديرتي قنا وجرجا ، ويقسمون الموال  
الى نوعين : أحمر ، وهو الذي ينظم في الحماسة والحرب والحكمة ، وأخضر  
وهو ما دخل في الغزل والنسيب وما إليها من الأنواع الرقيقة ؛ وقد يجعلونه  
مخمساً ومستمعاً ، ويسمى النعماني ، وذلك كله مأثور بينهم مستفيض في  
مناقلاتهم وقريب منه نوع آخر يسمونه « فن الواو » ووزنه كوزن بحر الجثث  
في الشعر : مستفعلن فاعلاتن ، ويكون في أربع شطرات ، كل شطرة تسمى  
في اصطلاحهم فردة - ومنه أحمر وأخضر كما مر في الموال - ولكنهم يسمون  
المحتوى منه على الجناسات مفلوقاً ، والأمثلة في ذلك كله كثيرة ولها رسائل  
متداولة معروفة .



## الزجل

قال ابن خلدون: ولما شاع فن التوشيح في أهل الأندلس وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه وترصيع أجزائه ، نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية ، من غير أن يلتزموا فيها إعراباً ، واستحدثوا فناً سموه بالزجل ، والتزموا النظم فيه على مناحيهم فجاءوا فيه بالفرائب ، واتسع فيه للبلاغة مجال بحسب لغتهم المستعجمة . وأول من أبدع في هذه الطريقة الزجلية ، أبو بكر بن قزمان ، وإن كانت قبلت قبله بالأندلس ، ولكن لم تظهر حلاها ولا انسكبت معانيها واشتهرت رشاقتها إلا في زمانه ، وكان لهمد المثلثين ( أول القرن الثامن ) وهو إمام الزجالين على الإطلاق اه .

ورأيت في بعض الكتب أن ابن قزمان هذا أول من تكلم بالزجل ، وسبب ذلك أنه وهو في المكتب عشق بعض الصبيان ، فرُفِع أمره للمؤدّب فزجراً ومنعه من مجالسة الصبي ، فكتب في لوحه :

الملاح ولاداً أماره [ ولاوْحاش ] ولاد نصاره  
وابن قزمان جا يففر ما قبلوا الشيخ غفاره

فاطلع عليه المؤدّب [ فقال ] : قد هجوتنا بكلام مزجول ، فيقال إنه سُمِّي زجلاً من هذه الكلمة .

ولست أثبت هذه الرواية ولا أنفيها ؛ أما ابن قزمان فهو الوزير الكاتب أبو بكر بن قزمان ، اشتمل عليه المتوكل على الله صاحب بطليوس في

أواخر القرن الخامس ؛ فاقطع في دولته أسمى الرتب ، وهو شاعر بليغ وصفه الفتح ابن خاقان في القلائد بأنه « مُبَرَّرٌ في البيان ، ومحرز للسبق عند تسابق الأعيان » وقال لسان الدين بن الخطيب : كان ابن قزمان نسيج وحده أدباً وظرفاً ولودعية ... وكان أديباً بارعاً حلو الكلام مليح النثر مبرزاً في نظم الزجل ، قال : وهذه الطريقة الزجلية بديعة تتحكم فيها ألقاب البديع وتنفسح لكثير مما يضيق على الشاعر سلوكه ، وبلغ فيها أبو بكر رحمه الله مبلغاً حجره الله عن سواه ، فهو آيتها المعجزة ، وحجتها البالغة ، وفارسها المعلم ( والمبتدي فيها والمتمم ) ص ٣٥٦ ج ٢ : نفع الطيب .

وقد شاعت أزجال ابن قزمان وأولع بها الناس خصوصاً المشاركة ، حتى كانت في القرن السابع كما قال ابن سعيد العربي ، مروية في بغداد أكثر مما هي في حواضر المغرب . واشتهر مع ابن قزمان من معاصريه بهذه الطريقة عيسى البليدي ، وأبو عمرو بن الزاهر الأشبيلي ، وأبو الحسن المقري [الداني] وأبو بكر بن [مدين] ، وكان في عصرهم بشرق الأندلس محلف الأسود ، إلا أن إمامهم الجمع عليه إنما هو ابن قزمان . ثم جاءت بعد هؤلاء حلبة كان سابقها عبدالله بن الحاج المعروف بمدغليس ، وهو خليفة ابن قزمان في زمانه وقد وقعت له المعجائب في هذه الطريقة ، وامتاز عن ابن قزمان بصنعة ألفاظه حتى طارت شهرته بذلك ، وكان أهل الأندلس يقولون : ابن قزمان في الزجالين بمنزلة المتنبي في الشعراء ، ومدغليس بمنزلة أبي تمام ، بالنظر الى الانطباع والصناعة ، فابن قزمان ملتفت الى المعنى ومدغليس ملتفت الى اللفظ ، وكان أديباً معرباً لكلامه مثل ابن قزمان ، ولكنه لما رأى نفسه في الزجل أنجب ، اقتصر عليه ( ص ٢٣٧ ج ٢ : نفع الطيب ) ، وقد ذهب مدغليس بشهرة القرن السادس ، حتى ظهر ابن جحدر الأشبيلي في النصف الأول من القرن السابع ، وكان إمام الزجالين في عصره ، ثم كانت الإمامة بعده لإمام الأدب أبي الحسن سهل بن مالك ، ثم استقل بها في أول المائة الثامنة أبو عبد الله الألويسي ، ثم محمد بن عبد العظيم من أهل وادي آش ، ومعاصره لسان الدين ابن الخطيب الشهير ، وفي هذه المائة صارت الطريقة

الزجلية فن العامة بالأندلس ، واستحدثوا منها نوعاً سموه الشعر الزجلي ، وذلك أنهم ينظمون بها في مجور الشعر ، لكن بلغتهم العامية ، فتجمع وزن الشعر ولحن الزجل على المبالغة المألوفة .

أما المشاركة فقد أولعوا بالزجل وأكثروا من أوزانه ، حتى قالوا: صاحب ألف وزن ليس بزجال ، والمتأخرون من أهل هذا الفن يقولون إنه لم يتصل بهم أكثر من خمسين وزناً . وتفننوا في إبداعه أنواع البديع ، ومن أشهرهم في ذلك علاء الدين بن مقاتل الحموي من أدباء الملك المؤيد صاحب حماة ، وقد استشهد ببعض أزجاله ابن حجة في كتابه خزنة الأدب في باب الجناس المقلوب وفي باب التوجيه وغيرهما ( ص ٥٠ ، ١٧٠ ) متابعاً في ذلك الشيخ شمس الدين بن الصائغ ، فقد ذكر أنه استشهد في شرحه المسمى رقم البردة بشيء من أزجال أهل عصره على بعض أنواع البديع ( ١٧٦ خزنة الأدب ) ، وقلده هو في ذلك ولكنه لم يورد لغير علاء الدين ابن مقاتل ، لذهاب شهرته شرقاً وغرباً ، وإبداعه في إبداعه ، وافتراعه في اختراعه .

وللمصريين تاريخ خاص في الزجل ، لأن هذه الطريقة توافق ما في طباعهم من اللين ومشايعة الكلام بشيء من التهكم الذي تبعت عليه صفة [ الفتور ] الطبيعية فيهم ، وهي التي يقال فيها إنها ذوق حلاوة النيل . وقد اخترع المصريون في الزجل نوعين سموهما البليقة والقرقية . قال صاحب كتاب الأقصى القريب ، وهو أبو عبد الله محمد التنوخي ، في كلامه على الموشحات والأزجال: ومنها قرقيات المصريين وبليقاتهم ، والفرق بينها وبين الزجل ان الزجل متى جاء فيه الكلام المعرب كان معيباً ، والبليقة ليست كذلك ، فيجيء فيها المعرب وغير المعرب ، ولذلك سميت بليقة؛ من البلق ، وهو اختلاف الألوان ، وتفارق البليقة القرقية في أن البليقة لا تزيد على خمس حشوات غالباً ، وقد تنتهي الى السبع قليلاً ، والقرقية تزيد كثيراً على حكم الزجل في ذلك ، وسميت القرقية كذلك من القرقة وهي لعبة يلعب بها صبيان الأعراب ، وهذه اللعبة سماها صاحب القاموس : القرقي ، ووصفها ورسمت خطوطها في تاج العروس ، فانظرها هناك .

وقد كان اختراع البليقة في القرن السابع ، ثم تبسطوا فيها بعد ذلك فكانت القرقيات ، ولا تحقق تاريخها ، ولكنها متأخرة عن المائة السابعة حتماً ، وقد استدللنا على ذلك بما ذكره صاحب فوات الوفيات إذ قال في ترجمة صدر الدين بن المرحل المتوفى سنة ٧١٦ بالقاهرة ، وهو المعروف في كتب الشاميين بابن الوكيل المصري : « وشعره ملبح الى الغاية ، وكان ينظم الشعر والموشح والدوبيت والخمس والزجل والبليق » . فلو كانت القرقيات يومئذ معروفة لذكرها وإن كانت من الزجل ، فقد ذكر الخمس وهو من الشعر ( ص ٢٥٤ ج ٢ : فوات الوفيات ) .

وأشهر نوابغ المصريين في الأزجال من المتقدمين ، الغباري الذي نبغ في عهد السلطان حسن ، فإن له أزجالاً بعيدة الشهرة بما فيها من دقة الصنعة وإبداع المعاني وكثرة [التفنن] . وقد رأينا في مجموعة من مداخله حملاً زجلياً (أهل هذا الفن يسمون ما يعادل القصيدة في الشعر منه : حملاً ) لرئيس العامة في هذا الفن على عهد محمد علي باشا ، وهو محمد الجباك القشاشي ، يزاها ٥٦٠ بيتاً ، مدح فيه أهل مصر على طريقة عامية ، وذكر علماءها وأشرفها ومنتزهاها وعد أكثر أسواقها - لأنه من سوق كان يسمى القشاشين ذكره في الزجل - وقال في آخره ما يستدل منه أنه يعارض الغباري في حمل له بهذا المعنى ، وقال : إن الغباري ما استطاع أن يضبط محاسن مصر فيما وصف . وما استفدناه من هذه المجموعة ، أن للزجل أوزاناً كانت مشهورة ، منها وزن : ( أصبحت مصر نزهة للناظرين ) ، ووزن ( على داري ) ، ووزن ( في الهند مكتوب ) وللمتأخرين من عوام العصر مثل هذه الأوزان أيضاً ، ويعدون منها ( بفتة هندی یا بنات ) .

ولم يزل فن الزجل مشهوراً بمصر الى عهدنا ، ولأهله فيه إحسان كثير وهم يرتجلونه ويحاضرون به ، وقد ذكر الأديب عبد الله نديم المصري الشهير في مجلة الأستاذ واقعة في المساجلة بالزجل مع بعض رؤساء الفن من العامة ، وكان الشرط أن من تلثم أو استبلع الآخر ريقه يبتغي بذلك مهل البديهة

وخلصة الفكر فهو المغلَّب ، وذكر هناك بعض الأوزان التي أخذوا فيها ؛  
فارجع إليها فإنها عجيبة .

والزجل اليوم أحد أنواع الشعر العامي الباقية لمهدنا ، وقد احتص به  
المصريون ، فيقال : الزجل المصري ، كما يقال : المعنى السوري ، والزهيري  
البغدادي .

ومما نوفي به فائدة هذا الفصل ، أن ظرفاء المصريين يقولون في الفنون  
السبعة التي نكتب تاريخها : « السبعة وتمتها » ويريدون بهذه « التمة »  
فن الواو الذي ذكرناه وأجراً أخرى ينظمون عليها العامية في أوزان خاصة ،  
يعارضون بها أسماء البحور الشعرية ، ومنها المستطيل في معارضة الطويل ،  
والمتد في معارضة المديد ، والمتوفر في معارضة الوافر ، وغير ذلك مما يبعث  
عليه الظرف المصري ، وهو يجملته معدود من الزجل فلا حاجة الى إيراد  
أنواعه وأمثله .

#### فنون أخرى .

قال ابن خلدون بعد كلامه على الأزجال : ثم استحدث أهل الأمصار  
بالمغرب فناً آخر من الشعر في أعاريض مزدوجة كالموشح ، نظموا فيه بلغتهم  
الحضرية أيضاً وسموه عروض البلد ، وكان أول من استحدثه فيهم رجل من  
أهل الأندلس نزل بفاس يعرف بابن عمير ، فنظم قطعة على طريقة الموشح  
ولم يخرج فيها عن مذاهب الإعراب ، مطلعها :

أبكافي بشاطي النهر نوح الحمام على الغصن في البستان قريب الصباح

فاستحسنه أهل فاس وأولعوا به ونظموا على طريقته وتركوا الإعراب  
الذي ليس من شأنهم وكثر سماعه بينهم واستفحل فيه كثير منهم وفرعوه  
أصنافاً الى المزدوج والكاربي والملعبة والغزل ، واختلفت أسماؤها باختلاف  
ازدواجها وملاحظاتهم فيها ... الخ ( انظر ص ٣٤٨ وما بعدها : مقدمة  
ابن خلدون ) .



... ونقل قطعة كبيرة من هذه اللعبة تشبه الشعر التاريخي المعروف بالقصبي ، حتى ذهب بعض المتأخرين الى أن أمثال هذه الملاعب تعتبر نوعاً من الشعر القصبي وإن كانت عامية .

### الأصمعيات والبديوي .

وذكر ابن خلدون أيضاً أن العرب المستعجمين عن لغة سلفهم من مصر يقرضون لعمده الشعر في سائر الأعراب على ما كان عليه سلفهم المستعربون ويأتون منه بالمطولات ... الخ ( ص ٣٣٣ : مقدمة ابن خلدون ) وقد أورد في مقدمته بعض قصائد أمثلة على ما ذكر .

### كان وكان والقوما .

وهما كما قال أصحاب الفنون فرعان من الزجل ، وإنما أفردوهما نوعين لتغيرات فيها لا تكون في الزجل ، أما الأول فلا نعرف من تاريخه شيئاً ، وله وزن واحد وقافية واحدة ، ويستعملونه كثيراً في الوعظ ونحوه من المعاني التي تدخل فيها الحرقه والحدة ونحو ذلك ، كقول بعضهم :

ما ذقت عمري جرعة      أمر من طعم الهوى  
الله يصبر قلبي      على الذي يهواه

وأما القوما فقبيل إن أول من اخترعه ابن نقطة برسم الخليفة الناصر ، والصحيح أنه مخترع من قبله ، وإنما كان الناصر يطرب له فاشتهر في زمنه ، وهو من اختراع البغداديين ، قيل كانوا ينشدونه عند السحور في رمضان كما يفعل المسحرون بالقصص والأدعية لهدنا ، وسمي بذلك من قول المغنين ( قوما نسحر قوما ) وجعلوه على وزن هذه الكلمات الثلاث ، ثم فرعوا منه فروعاً دعواها الزهري والخرري وغيرهما على حسب المعاني التي ينظمون فيها ، ومن هذا النوع ما نظمه الصفي الحلبي يسحر به بعض الخلفاء :

لا زال سعدك جديد      دائم وجدك سعيد  
(ص ٢٥٤ ج ٢ : المستطرف)

### الحاق .

وهو نوع قد يدخلونه في الزجل ، ولكن أكثرهم على أنه منفرد ، وهم ينظمونه قطعاً ، كل بيتين من القطعة في قافية ( انظر ص ٢٥٥ ج ٢ : المستطرف .

### العامي الغريب .

وهو نوع من النظم نشير إليه استطراداً ونلم به تفكها وتلثها ، وذلك أن « اللغويين » من أدباء العامة يخترعون ألفاظاً غريبة لا تجري على وزن ولا تدخل في لغة ، ثم ينظمونها معاية بها في الحفظ ، أو إغراباً في التفكها ، أو مبالغة في التشدد والتقدير ، كالقصيدة التي أوردها صاحب كتاب إعلام الناس ونسبها للأصمعي ، وقصتها هناك فالرجع إليها ، وهي من تكاذيب الظرفاء وباطل المنحول .

ورأينا في كتاب « نفحة اليمن » للأنصاري أنه اجتمع في بلدة كلكتة سنة ١٢٢٢هـ رجل من العرب اسمه جواد ساباط وقد ارتد عن الإسلام وسمي ناثانائيل ساباط ، وهو واحد فيما يرويه من المضحكات والمجائب ، قال : وله نظم على أسلوب أبي الهيمسح المنسوب إليه لفظ « حَجَلَنَجَع » وذكر هناك بعض شعره ، ومنه قصيدة شنيعة يقول فيها :

بهشوا الخرباش عنه برخشوا      طسعوا عن دارميّ حين تشوا

وذلك يدل على أن أبا الهيمسح كان متميزاً بهذه الطريقة ، وقد أولع بها أهل التقدير من المتأخرين ، ومنها قول بعضهم وقد ضبطناه بإملائه :

يا سائلي عن حَبْلَطَنْجٍ عَجْرَفَتْ عَجْرَفَتَاهُ تَمْرٌ كَالعَنْبَعَلَصِ

ولا نشك في أن هذه القافية في معارضة كلمة أبي الهميسع التي ذكرها الأنصاري وأول من ابتدأ هذه الطريقة من الفصحاء بشار بن برد أبو المحدثين كان يجيء بالكلمات اليسيرة التي لا حقيقة لها فيحشو بها شعره ليتنادر بذلك، ومنه ما حكاه قال: مات حماري فرأيت في النوم فقلت له: لِمَ متَّ؟ أم أكن أحسن إليك؟ فقال:

سيدي خذ بي أمانا	عند باب الأصهباني
تيمتي ببندان	وبدلٍ قد شجاني
ولها خدّ أسيل	مثل خدّ الشيفران

فقال له بعضهم: ما الشيفران؟ قال: ما يدريني؟ هذا من غريب المحار، فإذا لقبته فاسأله! (ص ٦٤ ج ٣: الأغاني)، ثم استظرف الناس منه ذلك فرّوا فيه حتى بلغ مبلغه في المتأخرين. والله أعلم.





## البابُ السادس

في حقيقة القصائد المعلقة ودرس شعرائها



## السَّبْعُ الطِّوَالُ

هي المعروفة بالمعلقات ، المروية لامرئ القيس ، وطرفة بن العبد ، وزهير ابن أبي سلمى ، ولييد بن ربيعة ، وعمرو بن كلثوم ، وعنترة بن شداد ، والحارث بن حلزة ، وكلهم جاهليون إلا لييداً ، فإنه من المخضرمين ؛ وإنما سميت المعلقات ، لأن العرب اختارتها من بين أشعارها فكتبوها بالذهب على الحرير ، وقيل بماء الذهب في القَبَاطِيّ ( جمع قبطية - بالكسر والضم ، وهي ثياب الى الرقة والدقة والبياض ، كانت تتخذ بمصر من الكتان ) ثم علقوها على أركان الكعبة ، وقيل في أستارها ، وزاد بعضهم أنهم كانوا يسجدون لها كما يسجدون لأصنامهم ...

أما أن هذه القصائد من مختارات الشعر فأمرٌ لا ندفعه ؛ لأن العرب في الجاهلية كان يقول الرجل منهم الشعر في أقصى الأرض ، فلا يُعْبَأُ به حتى يأتي مكة فيعرضه على قريش ، فإن استحسَنوه روي وكان فخراً لقائمه ، وإن لم يستحسنوه طُرح وذهب فيما يذهب ؛ قال أبو عمرو بن العلاء المتوفى سنة ١٥٤ ( وقيل ١٥٩ ) : وكانت العرب تجتمع في كل عام بمكة ، وكانت تعرض أشعارها على هذا الحي من قريش .

وأما خبر الكتابة بالذهب أو بمائه والتعليق على الكعبة ففي روايته نظر ، وعندني أنه من الأخبار الموضوعة التي خفي أصلها حتى وثق بها المتأخرون ، وإنما استدرجهم الى ذلك أن هذه القصائد تكاد تكون الصفحة المذهبة من ديوان الجاهلية ، وأن العرب قوم لم يصح من أديانهم إلا دين

الفصاحة وهو الذي دانوا به أجمعين ، فلو أنهم فعلوا ذلك لكانوا قد أتوا بشيء غير نكير ، وسنقص في أخبارهم وكتبهم أثر تلك الرواية ونورد ما رجَّح عندنا أنها موضوعة :

نقل ابن خلكان عن ابن جعفر النحاس المتوفى سنة ٣٣٧ ( وقيل ٣٣٨ ) أن حماداً الراوية هو الذي جمع السبع الطوال ، وحماد هذا توفي سنة ١٥٥ ، وفي المزهر أنه أول من جمع أشعار العزب وساق أحاديثها ، وقال البغدادي في خزانة الأدب ( ص ٦١ ج ١ ) بعد أن ذكر أصحاب المعلقات : وقد طرح عبد الملك بن مروان شعر أربعة منهم وأثبت مكانهم أربعة ، وعبد الملك توفي سنة ٨٦ ، فبين وفاته ووفاة حماد ٦٩ سنة ، ثم قال البغدادي : وروي أن بعض أمراء بني أمية أمر من اختار له سبعة أشعار فساها المعلقات ، وفي رواية أخرى - في غير الخزانة - : فساها المعلقات الثواني .

وقال ابن الكلبي المتوفى سنة ٢٠٤ ( وقيل سنة ٢٠٦ ) : أول شعر علق في الجاهلية شعر امرئ القيس ، عُلِّقَ على ركن من أركان الكعبة أيام الموسم حتى نظر إليه ، ثم أُحْدِرَ فَعَلَقَتِ الشعراء ذلك بعده ، وكان ذلك فخرأ للعرب في الجاهلية ، وعدوا من علق شعره سبعة نفر ، إلا أن عبد الملك طرح شعر أربعة منهم وأثبت مكانهم أربعة .

وبمعارضة هذه الرواية بما ذكره أبو جعفر النحاس يتضح لك أن أبا جعفر لم يثق بها ، فيكون خبر طرح عبد الملك وإثباته موضوعاً أيضاً ، خصوصاً وقد أغفله أبو زيد بن أبي الخطاب القرشي صاحب الجمهرة المتوفى سنة ١٧٠ ، وابن الكلبي هذا هو الذي نقل عنه الوزير أبو بكر عاصم بن أيوب في شرحه ديوان امرئ القيس عند ذكر قصيدته المختارة أنه قال : إن أعراب كلب ينشدون هذه القصيدة لابن حذام ( هو امرؤ القيس بن حذام ) وذكره امرؤ القيس بن حجر في بعض شعره حيث يقول :

عوجا على الطلل المحيل لأننا      نبكي الديار كما بكى ابن حذام



ويروى خذام - بالحاء ، وحزام بالزاي ، وحمام . ويقال إن ( لأننا ) لغةٌ في ( لعلنا ) ؛ حكى الخليل أن بعض العرب يقول : ائت السوق أنك تشتري لنا سويقاً، أي لملك. وكان ابن خذام بكى الديار قبل امرى القيس.

وقد أغفل ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ رواية ابن الكلبي يحملها في كتابه طبقات الشعراء، ولم نر أحداً ممن يوثق بروايتهم وعلمهم أشار إلى هذا التعليق ولا سمى تلك القصائد بهذا الاسم، كالجاحظ والمبرد وصاحب الجهرة وصاحب الأغاني ، مع أن جميعهم أوردوا في كتبهم نثفاً وأبياتاً منها ، وقد ذكر أبو الفرج صاحب الأغاني المتوفى سنة ٣٥٦ أن عمرو بن كلثوم قام بقصيدته خطيباً بسوق عكاظ ، وقام بها في موسم مكة، فلو كان خبر التعليق صحيحاً لما ضره أن يقول : فكتبتها العرب وعلقتها على ركن من أركان الكعبة .

وقال ابن قتيبة في ترجمة طرفة: وهو أجودهم طويلة، يعني مختارته . وفي ترجمة عنتره ، وكانت العرب تسميها الذهبية ، ولكنه قال في ترجمة الحارث ابن حازة عند ذكر قصيدته : وهي من جيد شعر العرب ، وإحدى السبع المملقات ؛ ولم ترد هذه اللفظة إلا في هذا الموضع ، غير أن البغدادي نقل كلمة في الخزانة معزوة إليه وأسقط منها لفظة المملقات ( ص ٥١٩ ج ١ ) فيكون ذكرها في طبقات ابن قتيبة زيادة من النسخ ، لشهرة الكلمة في المتأخرين وارتباطها بهذا النعت .

والأسماء التي وردت بها تلك القصائد فيما لدينا من كتب الأدب والبيان واللغة إلى آخر القرن الثالث، هي: السبع الطوال ، والسموط ، والسبعيات ؛ أما الأولى فهي تسمية حماد ، وقد نقلها من الحديث « أعطيت مكان التوراة السبع الطوال » وهي: البقرة، وآل عمران، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ؛ واختلفوا في السابعة أنها يونس ، أو يوسف ، أو الكهف - وأما الثانية ففي الجهرة عن المفضل أن امرأ القيس وزهيراً والنايفة والأعشى وليبدأ وعمرأ وطرفة ، أصحاب السبع الطوال التي تسميها العرب السموط ( ونقلها صاحب العمدة : السمط ، ونقلها عنه السيوطي في المزهري ) ، فمن

قال إن السبع لغيرهم فقد خالف ما أجمع عليه أهل العلم والمعرفة ؛ فأسقط من أصحاب المعلقات عنزة والحارث بن حازمة ، وأثبت الأعشى والنابغة ؛ وهذا مما يدل على أن بين الرواة اختلافاً فيهم ، فلو كان خبر التعليق صحيحاً لكان نصّاً في تعيين الأسماء .

وأصل التسمية بالسمط أو السموط عن حماد أيضاً ، ففي بعض أخباره قال : كانت العرب تعرّض أشعارها على قريش ، فما قبلوا منها كان مقبولاً ، وما ردّوا منها كان مردوداً ، فقدم عليهم علقمة بن عبدة فأنشدهم :

\* هل ما علمت وما استودعت مكتوم \*

فقالوا : هذه سمط الدهر ؛ ثم عاد إليهم في العام المقبل فأنشدهم :

\* طحا بك قلب في الحسان طروب \*

فقالوا : هاتان سمطا الدهر ؛ وهي رواية لا توافق ما قالوه من أن العرب كانت تقر لقريش بالتقدم عليها إلا في الشعر .

وأما السبعيات فهي تسمية وقفنا عليها في إعجاز القرآن للباقلاني المتوفى سنة ٤٠٣ ؛ وقد ذكر هناك ما تؤخذ منه حقيقة هذه القصائد ؛ قال : أنت لا تشك في جودة شعر امرئ القيس ؛ ولا ترتاب في براعته ؛ وقد ترى الأدباء أولاً يوازنون بشعره فلاناً وفلاناً ؛ ويضمون أشعارهم الى شعره ؛ حتى ربما وازنوا بين شعر من لقيناه وبين شعره في أشياء لطيفة وأمور بديعة ؛ وربما فضلوهم عليه أو سوّوا بينهم وبينه ؛ أو قرّبوا موضع تقدمهم عليه وبرّزوه بين أيديهم ؛ ولما اختاروا - أي الأدباء - قصيدته في السبعيات أضافوا إليها أمثالها ، وقرنوا بها نظائرها ؛ ثم زاهم يقولون : لفلان لامية مثلها ... الخ ، وقد أورد ذلك وبالغ في مدح القصيدة ، ثم بيّن عوارها ، وزيف كثيراً من جيدها ، ليظهر الفرق بين أجود الشعر وبين القرآن في أسباب الإعجاز ، ويبرهن على أن القرآن جنس مميّز وأسلوب متخصص ؛ فلو صح عنده خبر التعليق وأن العرب هي التي اختارتها وقدمتها على سائر الشعر - لكان في ذلك دليل يشدّ عليه يده شدّة الحريص .

وفي الجمهرة عن المفضل ( هو المفضل بن محمد الضبي ، كان عالماً بالشعر وكان أوتق من روى الشعر من الكوفيين ، وهو معاصر لحماد الراوية ، وقد غلبه عليه بصدق الرواية عند المهدي كما سيمر بك في بحث الرواة (\*) ) بعد أن ذكر أصحاب السموط قال : وقد أدركنا أكثر أهل العلم يقولون إن بعدهم سبعا ما هن بدونهن ، ولقد تلا أصحابهن أصحاب الأوائل فما قصروا ، وهن «المجهرات» لمبيد بن الأبرص ، وعترة بن عمرو ، وعدي بن زيد ، وبشر بن أبي خازم ، وأميرة بن أبي الصلت ، وخداش بن زهير ، والنمر ابن قولب .

وأما منتقيات العرب فهن للمسيب بن علس ، والمرقش ، والمتلس ، وعروة بن الورد ، والمهلل بن ربيعة ، ودريد بن الصمة ، والمتنخل ابن عويمر .

وأما المذهبات فلأوس والخزرج خاصة ، وهن لحسان بن ثابت ، وعبدالله ابن رواحة ، ومالك بن العجلان ، وقيس بن الخطيم ، وأحيحة بن الجلاح ، وأبي قيس بن الأسلت ، وعمرو بن امرئ القيس .

وعيون المرثي سبع ، لأبي ذؤيب الهذلي ، وعلقمة بن ذي جدن الحميري ؛ وعمد بن كعب الغنوي ، والأعشى الباهلي ، وأبي زبيد الطائي ، ومالك بن الربيع النهشلي ، ومتمم بن نويرة اليربوعي .

وأما مشوبات العرب وهي التي شابهن الكفر والإسلام ، فلنابغة بني جمدة ، وكعب بن زهير ، والقطامي ، والحطيئة ، والشباخ ، وعمرو بن أحر ، وابن مقبل .

وأما الملححات السبع في للفرزدق ، وجريز ، والأخطل ، وعبيد الراعي ، وذبي الرمة ، والكيت بن زيد ، والطرماح بن حكيم .

قال المفضل : فهذه التسع والأربعون قصيدة هي عيون أشعار العرب في

---

(\*) قلت : انظر التعليق في ص ١٢٩ .

الجاهلية والإسلام ( ص ٣٥ ) وبعد أن ساق صاحب الجمهرة أخباراً أخرى قال : هذا ما صحت به الرواية عن الشعراء وأخبارهم ... » .

فقد خلص لنا مما تقدم أن حماداً هو أول من اختار السبع الطوال وشهرها في الناس ، وأن ابن الكلبي هو الذي ذكر خبر تعليقها على الكعبة ، وهو قد علل ذلك بأن العرب ينظرونها في الموسم ، ثم ينزلونها أو يسقونها ، وأن من عدا ابن الكلبي ممن هم أوثق في رواية الشعر وأخباره لم يذكروا من ذلك شيئاً ، بل جملة كلامهم ترمي إلى أن القصائد لم تخرج عن سبيل ما يختار من الشعر ، وأن المتأخرين هم الذين بنوا على خبر التعليق ما ذكروه من أمر الكتابة بالذهب أو بجائه في الحرير أو في القباطي ، وأن العرب بقيت تسجد لها ١٥٠ سنة حتى ظهر الإسلام ، مع أن أمراً القيس لم يفته الإسلام بأكثر من مائة سنة ، [ وتسميتهم ] لذلك المعلقات بالمذنبات ، مع أنك رأيت في رواية المفضل أن المذنبات قصائد أخرى للأوس والخزرج ، وذكر ابن رشيقي في العمدة رواية أخرى في تسمية الطوال بالمعلقات ، وهي أن الملك كان يقول إذا استجيدت قصيدة الشاعر : علقوا لنا هذه ، لتكون في خزائنه ...

[ (\*) وليس ببعيد أن يكون ابن الكلبي ، وهو من متأخري الرواة ، قد رأى انصراف الناس عن شعر الجاهلية والتأدب به إلا فيما احتاجوا إليه من الشاهد والمثل ، ولا يكاد ذلك يعدو أشعاراً معروفة متداولة في أيدي العلماء لمكانة الشعر الإسلامي يومئذ ، وقد كثر فحوله وافتنوا فيه أيما افتنان ، وذهبوا في البديع كل مذهب ، فاخترت ابن الكلبي - أو غيره - خبر التعليق ، ليصرف وجوه الناس إلى هذه القصائد ، وهم يومئذ أكثر ممن قبلهم ولعاً بماثر الجاهلية ، لعفاء الصبغة العربية من سياسة عصرهم كما يعرفه الواقف على التاريخ . وليس يشك أحد أنه لولا هذا الخبر لما بقيت هذه القصائد متدارسة

---

(\*) قلت : هذه الفقرة المحصورة بين العلامتين [ ] كانت في ورقة منفصلة . وليس بها إشارة تدل على موضعها من البحث ، فأثرت إنباتها في هذا المكان .

إلى اليوم ، لا لشاهد منها ولا لمثل فيها ، ولكن لوقوع اختيار العرب عليها ] .

وعندنا أن الذي روى التعليق إنما أخذه من تعليق قريش للصحيفة ، وذلك أنه لما فشا الإسلام وقوي المسلمون بحمزة وعمر ، ائتمرت قريش في أن يكتبوا بينهم كتاباً يتعاقدون فيه على أن لا ينكحوا بني هاشم ولا يبيعوهم ولا يبتاعوا منهم شيئاً ؛ فكتبوا بذلك صحيفة بخط منصور بن عكرمة ، ثم علقوها في جوف الكعبة توكيداً لذلك الأمر على أنفسهم .

وأعجب شيء أنك لا ترى في كلام أحد من الصدر الأول من لدن النبي ﷺ ما يشير إلى ذلك الخبر ، مع أنهم تكلموا في الشعر والشعراء وفاضلوا بينهم ، وورد في الحديث كلام عن امرئ القيس وعنترة ، وكل ذلك مما يدل على أن ذلك التعليق إنما كان بحبل التلفيق !

وقد شرح هذه القصائد جماعة ذكر منهم صاحب كشف الظنون أبا جعفر ابن النحاس المتوفى سنة ٣٣٨ ، وأبا علي الثعالبي المتوفى سنة ٣٥٦ ، وأبا بكر البَطَلَيْسِيُّ المتوفى سنة ٣٩٤ ، وأبا زكريا بن الخطيب التبريزي المتوفى سنة ٥٠٢ ؛ والدميري صاحب حياة الحيوان ، والزوزني المتوفى سنة ٤٨٦ وشرحه مطبوع متداول ؛ وهي مشروحة أيضاً في كتاب الجهرة ، ولابن الأنباري عليها شرح مفرد .

وقد رأينا من ينكر أن هذه القصائد ضحيحة النسبة إلى قائلها ، مرجحاً أنها منحولة وضعها مثل حماد الراوية ، أو خلف الأحمر ، وهو رأي فائل ؛ لأن الروايات قد تواردت على نسبتها ، وتجد أشياء منها في كلام الصدر الأول ؛ وإنما تصحح الروايات بالمعارضة بينها ؛ فإذا اتفقت فلا سبيل إلى ذلك ، غير أنه مما لا شك فيه عندنا أن تلك القصائد لا تخلو من الزيادة وتعارضِ الألسنة ، قل ذلك أو أكثر ؛ أما أن تكون يجملتها مولدة فدون هذا البناء نقض التاريخ .



## امرؤ القيس

هو حندج بن حجر ، الحندج الرملة الطيبة تنبت نباتاً حسناً ، وليس في العرب 'حجر' - بضم الحاء - غير هذا ؛ ومعنى امرؤ القيس: رجل الشدة ، والمسمون بهذا الاسم في العرب جماعة ذكر منهم السيوطي ستة عشر في كتابه المزهر ؛ ومؤرخو الروم يذكرونه في كتبهم باسم قيس .

'يكنى أبا الحارث ؛ وأبا وهب ، ويلقب بالملك الضليل ؛ وذو القروح ؛ كان أبوه وأعمامه ملوكاً على قبائل من العرب ؛ وكانت لأبيه على بني أسد إتاوة في كل سنة ؛ فغبروا على ذلك دهرأ ؛ ثم إنه بعث إليهم جابيه الذي كان 'يحببهم فنعموه ذلك ؛ و'حجر يومئذ بتهمة ؛ وضربوا رسله وخرجوهم ضرباً شديداً قبيحاً ؛ فسار إليهم وأخذ سراهم فجعل يقتلهم بالعصا ؛ فسئوا عبيد العصا ؛ وآلى أن لا يساكنهم في بلد أبداً ؛ وحبس منهم عمرو ابن مسعود ؛ وكان سيداً ؛ وعبيد بن الأبرص الشاعر ؛ ثم إن عبيداً استعطفه بأبيات منها :

برمت بنو أسد كما	برمت ببيضتها الحمامة
جعلت لها عودين من	كشم وآخر من ثمامه
إما تركت تركت عفواً	أو قتلت فلا ملامه
أنت المليك عليهم	وهم العبيد الى القيامه

فرق لهم حجر وبعث في أثرهم ؛ فأقبلوا ؛ حتى إذا كانوا على مسيرة يوم من تهامة ، تكهن كاهنهم وهو عوف بن ربيعة يحضهم على قتله ، فركبوا كل

صعب وذلول ، فما أشرق لهم النهار حتى أتوا على عسكر حجر ، فهجموا على قبتة وخيّم عليه حجّابه ليمنعوه ويحبروه ، فأقبل عليهم علباء بن الحارث الكاهلي ، وكان حجر قد قتل أباه ، فطعنه من خلفه ، فأصاب نساء فقتله ، وقيل غير ذلك ، وأنهم أخذوه أسيراً في حرب بينهم وبينه ، فوثب عليه ابن أخت علباء فطعنه ولم يجهز عليه ، فأوصى ودفع كتابه الى رجل وأمره أن ينطلق الى أولاده ويستقرئهم واحداً واحداً حتى يأتي امرأ القيس ، وكان أصفرهم ، فأهم لم يجزع دفع إليه سلاحه وخيله ووصيته ، وكان بيتن فيها من قتله وكيف كان خبره ، فانطلق الرجل بوصيته الى نافع ابنه ، فأخذ التراب فوضعه على رأسه ، ثم استقرأهم واحداً واحداً ، فكلهم فعل ذلك ، حتى أتى امرأ القيس فوجده مع نديم له يشرب الخمر ويلعبه بالترد ، فقال له : قتل حجر ! فلم يلتفت الى قوله وأمسك نديمه ، فقال له امرؤ القيس : اضرب ، فضرب ، حتى إذا فرغ قال : ما كنت لأفسد عليك دستك ! ثم سأل الرسول عن أمر أبيه كله ، فأخبره ، فقال : « الخمر عليّ والنساء حرام حتى أقتل من بني أسد مائة وأجزّ نواصي مائة ! »

وفي خبر آخر أن حجراً كان طرد امرأ القيس وآلى أن لا يقيم معه ، أنفة من قوله الشعر ، وكانت الملوك تأنف من ذلك ، فكان يسير في أحياء العرب ومعه أخلاط من شذاذ العرب من طيء وكنب وبكر بن وائل فإذا صادف غديراً أو روضة أو موضع صيد أقام فذبح لمن معه في كل يوم وخرج الى الصيد فتصيد ثم عاد فأكل وأكلوا معه وشرب الخمر وسقاهم وغنته قبانة . ولا يزال كذلك حتى ينفد ماء ذلك الغدير ، ثم ينتقل عنه إلى غيره ، فاتاه خبر أبيه ومقتله وهو بدمثون من أرض اليمن فقال : ضيعني صغيراً وحملني دمه كبيراً ، لا صحو اليوم ولا سكر غداً ، اليوم خمر وغداً أمر ! ثم شرب سبماً ، فلما صحا آلى أن لا يأكل لحماً ، ولا يشرب خراً ، ولا يدّهن ، ولا يصيب امرأة ، ولا يغسل رأسه حتى يدرك ثأره ، وفي الأغاني رواية أخرى عن سيويه عن الخليل بن أحمد ( ص ٧٥ ج ٨ ) .

ثم إنه نهد الى بني أسد فقاتلهم ، وكان أدر كهم ظهراً وقد تقطعت خيله وقطع أعناقهم العطش ، فكثرت الجرحى والقتلى ، وحجز الليل بينهم وهربت بنو أسد ، فلما أصبحت بكر وتغلب - وهم الذين كانوا معه - أبوا أن يتبعوهم وقالوا له : لقد أصبت نأرك ، قال : والله ما فعلت ولا أصبت من بني كاهل ولا من غيرهم من بني أسد أحدا . قالوا : بلى ، ولكنك رجل مشئوم ، وانصرفوا عنه ، فضى هارباً لوجهه ، حتى أمده مرثد الخير بن ذي جدن الحميري ، وتبعه شذاذ من العرب ، واستأجر رجالاً من القبائل ثم خرج فظفر ببني أسد ، وألح المنذر في طلب امرئ القيس ووجه إليه الجيوش فتفرق من كان معه ونجا في عصبته ، فكان ينزل على بعض العرب ويرحل حتى قدم على السموءل فعرف له حقه ، فكان عنده ما شاء الله ، ثم إنه طلب إليه أن يكتب له الى الحارث بن أبي شمر الغساني بالشام ليوصله الى قيصر ، فاستنجد له رجلاً فلما انتهى الى قيصر - ذكر مورخو الروم أنه القيصر يوستينيانس ، وقال بعضهم إن امرأ القيس قدم عليه في القسطنطينية فقلده إمرة فلسطين ، إلا أنه لم يسع في إصلاح أمره وإعادة ملكه ، فضجر وقفل راجعاً ، ثم أصابه مرض كالجدرى في طريقه كان سبب موته - قبله وأكرمه وضم إليه جيشاً كثيراً فيهم جماعة من أبناء الملوك ، فلما فصل من عنده [ وشى به ] الطماح ، وهو رجل من بني أسد كان امرؤ القيس قد قتل أخاه له ... ( ص ٧٣ ج ٨ : الأغاني ) .

ثم دفن في سفح جبل يقال له عسيب ببلدة تدعى أنقرة ، وقيل إن ذلك سنة ٥٣٨ للميلاد ، أي سنة ٨٤ قبل الهجرة ، وقيل سنة ٥٦٥ م ، ووفيات الجاهلية لا يعتمد فيها على نصوص التاريخ إلا الذين تكون أدمغتهم مجلدات من التاريخ القديم ...

\* \*



## طويلة امرىء القيس .

ذلك نبت من تاريخ أمير الشعراء بسطنا منه بعض ما يكشف لك وجه نشأته ، لتعرف الأخلاق التي كان لا بد لشعره أن يظهر بها مظهر التميز والمتخصص ، ثم نحن نسوق إليك طرفاً من الحديث عن طويلته ، ثم نقذف بجملة الكلام عن شعره في فصل انتقادي ؛ لأن امرأ القيس ليس بالشاعر الذي يقال فيه 'ولد ومات' ، فيترجم بالفاظ لا تفوت حتى تموت ، ولكنه الرجل الذي افتتح به ديوان التاريخ الأدبي ، وما زال فيه كأنه قطعة من الزمن ، لا يغيره الموت ولا يغيبه الكفن !

كان من حديث تلك القصيدة أن امرأ القيس كان مولعاً ببنت عم له يقال لها فاطمة ، وأنه طلبها زماناً فلم يصل إليها ، حتى كان يوم الغدير (\*) [ حين مرت به فتيات وفيهن ابنة عمه يردن الغدير ليلتردن ، فتبعهن محتفياً ، فلما تجردن ودخلن الغدير وثب على ثياهن فأخذها وقعد عليها ، وقال : والله لا أعطي واحدة منكن ثوبها حتى تخرج كما هي فتأخذ بيدها . فأبين ذلك عليه ، حتى ارتفع النهار ؛ فلما خشين فوات الوقت خرجت إحداهن فوضع لها ثيابها ناحية فلبستها ... ] ، ثم تتابعن على ذلك حتى فضحن جميعاً ، وذلك العهر الذي ليس بعده 'خلق ذميم ولا عهد أئيم' ، ثم حملن متاع راحلته بعد أن نحرها لهن ، وحملته ابنة عمه على غارب بغيرها ، فلما راح إلى أهله نفت الحديث على لسانه ، فقال هذه القصيدة وقص فيها ما كان وجعلها حديثاً باقياً على الدهر .

وقد قابلنا بين أربع نسخ منها بروايات مختلفة ، فما وجدنا نسخة تساوي الأخرى في عدد أبياتها ، فهي في الجمهرة سبعون بيتاً ، وفي الديوان الذي شرحه الوزير أبو بكر عاصم بن أيوب ٧٧ بيتاً ، وهو ينقل في مواضع من شرحه عن ابن النحاس ، فلعله قابل على نسخته ؛ وفي شرح الزوزني ٧٩ ،

(\*) قلت ما بين العلامتين [ ] زيادة على الأصل .

وفي نسخة أخرى من ديوانه ٧٥ بيتاً ؛ وهذه النسخ تختلف مع ذلك في كثير من الأبيات تقديماً وتأخيراً ، وفي رواية بعض الألفاظ ، بحيث لا تجتمع اثنتان منها على صورة واحدة .

أما القصيدة فقد وقف فيها واستوقف ، وبكى واستبكى ، وذكر الديار والآثار ، ثم استشعر العزاء وتجلد ، ثم التاع وتنهّد ، ثم كأنه عفا وتجدد ، وذكر يوم الغدير ، ووصف عقر ناقته للعذارى ، وتبذّله لمن تبذّل الجأذر ، وارتماء من بلحمها وشحمها ، ثم ألمّ بأطراف العفاف من ابنة عمه ، وتمهّر في ذلك حتى كأن الكلام لا يمر بقلبه بل يخلقه لسانه خلقاً ، إلا في أبيات قليلة ، ووصف الجمال وصفاً ظاهراً يبلغ شهوة النظر ، ثم وصف طول الليل وخرج من الفخر إلى صفة الخيل ، واستتبع ذلك بالصيد والقنص والطعام ، ثم رفع عينيه إلى البرق والسحاب ، وخفضها إلى الجبل فزمله من المطر في ثياب ، ثم أغمضها وسكت كما يسكت على خير جواب .

المختار من ذلك كله قوله :

أفاطم مهلاً بعض هذا التذلل  
وإن كنت قد أزمعت صرمني فأجملي  
أغرّك مني أن حبك قاتلي  
وأنتك مهيا تأمري القلب يفعل  
وما ذرفت عيناك إلا لتضري  
بسهميك في أعشار قلب مقتل  
تصدّ وتبدي عن أسيلٍ وتتقي  
بناظرة من وحش وجرة مُطفّل  
وليل كموج البحر أرخى سدوله  
عليّ بأنواع الهموم لبيتلي  
فقلت له لما تمطى بصلبه  
وأردف أعجازاً وناء بكلكل

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي  
بصُبحٍ ؛ وما الإصباحُ منك بأمثل  
وقد أغتدي والطيْرُ في وكناتها  
بمنجردِ قيدِ الأوابد هيكَل  
مِكرَ مِقرَ مِقبلِ مدبرِ معاً  
كجلودِ صخرِ حطَّه السيلُ من عَـلِ  
له أبطلاً ظنيِّ وساقا نعامِ  
وإرخاءُ سرحانٍ وتقريبُ تتفل

#### شاعرية امرئ القيس وأسباب شهرته .

كان امرؤ القيس يماي النسب ولكنه كان نزارياً الدار والمنشأ ، فإن الديار التي وصفها في شعره كلها ديار بني أسد ، ومن ثم كانت له الفصاحة ؛ وقد رأيت أن أباه وأعمامه كانوا ملوكاً ، وللملكهم قصة رواها صاحب الأغاني ؛ فلم يألّفوا ما ألفته العرب من خشونة العيش وجفاء البداوة ، بل كان أبوه حين يرتحل يقدم بعض ثقله أمامه ويهتئء نُزله ، ثم يجيء وقد هتئء له من ذلك ما يجعبه ، فضربت القباب ، واجتمعت القيان ، فينزل ، ويقدم مثل ذلك الى ما بين يديه من المنازل ( ص ٦٧ ج ٨ : الأغاني )

فلا جرم كان ميراث امرئ القيس منه هذه الكبرياء التي تمسح شعره ، وتلك النعمة التي يرف بها رقيقاً ؛ وقد كان المهلهل الشاعرُ خاله ، فززع إليه بالعرق ، واجتمع له الشعر والنعمة والكبرياء ، على فراغ وشباب ، فأفسدته ، فشب خليعاً ماجناً يتعتهر في شعره ، ولم يطرده أبوه أنفة من الشعر لأن الملوك كانت تأنف منه كما يروى ، ولكن حياةً مما فيه ؛ إذا كان شعره قد تغالبت عليه الشهوات حتى كأنه صورة قلبه ثم كانت العرب تروي ذلك منسوباً الى ابن ملك من ملوكها ، وقد كان أبوه أراد أن يشغله عن الشعر فجعله في رعاء إبله حتى يكون في أتعب عمل ، فلما كان الليل بات يدور الى

متحدثه حيث كان يتحدث ، فقال أبوه : ما شغلته بشيء ، ثم أرسله في خيله ، فكذلك ؛ ثم جعله في الضأن ، فكث يومه فيها ، حتى إذا أمسى أراحها ، فلما بلغت المراح دنا أبوه يسمع فإذا هو يقول : أخزاها الله وقد أخزاها ، من باعها خيرٌ ممن اشتراها ! ثم سقط ليلته لا يتحرك ، فلما أصبح قال أبوه : اخرج بها ؛ فضى حتى بعد عن الحي وأشرف على الوادي ، فحشا في وجهها التراب فارتدت . وخرج مراغماً لأبيه ، فكان يسير في العرب يستتبع صماليكهم وذؤبانهم ، ويطلب الصيد والغزل وما الى ذلك فلم يبق في شعره فضلٌ لشرف النفس والعفة والحفاظ ، ولولا تصعلكه ومخالطته الرعاء لما جنح في التشبيه الى مساويك الإسحل ، وحب الفلفل ، ونقف الحنظل ، وغيرها مما هو في شعره ؛ ولما جاء من ذلك بالساقط والسفساف ، وقد عابه عليه المتأخرون وما أنصفوه ، لأنه لا يكون كإن المعتز الذي إليه انتهى التشبيه في صناعة الشعر ، فهو يصف ماعون بيته إذ يقول في الهلال :

فانظر إليه كزورق من فضة      قد أثقلته حمولة من عنبر

فانتقاد الشاعر من هذه الجهة خطأ بيّن لأن ذلك سبب طبيعي لا قبل للانتقاد به وهو أشبه شيء بعيب الطويل لطوله ، والقصير لقصره ، والجلب لنسخته ، ونحو ذلك ، مع أن في تلك مناسبات أخرى تستدعي الإعجاب وتعد في محاسن الخلق .

ولا يذهبن عنك أن الذين ينتقدون امرأ القيس وغيره بما هو من خصائص الجاهلية ، إنما نشأ عندهم ذلك بعد مقابلته بنعمة الحضارة وترف العمران ، ولو كانوا في الجاهلية لكانوا أجهل منه ؛ ولكن في شعر كل شاعر ما يمكن أن ينتقد في كل زمن ، وذلك بما يكون سبيله سبيل المعاني الطبيعية ، ولا يتفاوت في الناس إلا بميزات أخرى ترجع الى النشأة وسلامة الذوق وخلوص الفطرة ونحوها من الصفات التي هي تأويل معنى التفاوت .

ومن تدبر ما نقلوه من شعر امرئ القيس يخيل له أول وهلة أن هذه الشهرة التي رزقها ليست على مقدار شعره ، ولا هي في وزن براعته ، ولكنها جاءت من ذكره في الحديث الشريف ، وما زينت به الرواة أخباره وشعره

حق كأنما عوضه الدهر من ملك النسب ملك الأدب ، ولكن ذلك إنما يعتريه إذا قرأ بعض ما نسب إليه لا جميعه ، لأن في شعره منحولاً كثيراً ، وبعضه يلائم ديباجته فيكاد يلتحم به حتى لا يميزه إلا دقيق النظر ، ولا برهان لدينا على النفي والإثبات في شعر مثل امرئ القيس ومنزلته ما هي ؛ وليس من شاعر أو راوية إلا وقد أحب أن يكون له في كلامه لفظ أو معنى ، ولذلك تعاوروا ألفاظه بالتغيير والتبديل ، وأدخلوا في شعره ما ليس منه ، وقد نص بعضهم على أنه لم يصح له إلا نيف وعشرون شعراً بين طويل وقطعة ( ص ٦٧ ج ١ : العمدة ) ولذا نفى الأصمعي الأبيات المروية التي يقول فيها :

ألا تكن إبلٌ فِعْزَى      كأن قرونَ جِلَّتِهَا العِصِيُّ

وقال إن امرأ القيس لا يقول مثل هذا ، وأحسبه للحطيئة . فما استطاع أن يستدل على ذلك إلا بقوله فيها :

فتوسعُ أهلها أقطاً وسمناً      وحسبك من غنى شبع وريء

لأن مثل هذا لا يقوله من يذكر عن نفسه أنه لا يقتصر إلا على الحصول على الملك ( ص ١٧٥ : شرح ديوانه ) . وإنما يناسب مثل الحطيئة لما في شعره من الجشع والضراعة .

وقد بالغوا في الحمل عليه حتى كأنه دابة الشعر ، فنسبوا له سخف القول وساقط الكلام وما يجري مجرى الهذيان ؛ ورأيت في بعض نسخ ديوانه قصيدة لامية أشبه شيء بالجلجلوتية وشعر الطلاس ، منها :

فكم كم وكم كم ثم كم كم وكم وكم      قطعت الفيافي والمهامه لم أمل  
وكاف وكفكاف وكفي بكفها

وكاف كفوف الودق من كفها انهمل

وهذا المنفل الذي نحلّه هذه القصيدة جرى في بعضها على قياس قوله في القصيدة التي تروى له ( ص ١١٩ : من ديوانه ) :

وسنّ كسنننن سناءً وسننم      ذعرتُ بمِبدلاج الهجير تهوض

ولعل هذه « الككة » من قول محمد بن مناذر البصري في معنى التكثير ( ص ٦٠ ج ٢ : العمدة ) . غير أن الناقد البصير يستطيع أن يتبين أسلوب امرئ القيس من قراءة قصيدتين أو ثلاث مما صح له ، فيستخلص منها صفات شعره التي ميزته بالتقديم وجعلته أمير الشعراء وصاحب لوائهم ؛ إذ كان أحسنهم فادرة ، وأسبقهم بادرة ، وقبل أن تأتي على شيء من ذلك نذكر نشأته الشعرية وما استخلصناه من الأسباب الطبيعية في شهرته :

كان امرؤ القيس يروي شعر أبو دؤاد الإيادي ويتوكأ عليه ( ص ٦١ ج ١ : العمدة ) وهو فحل قديم كان أحد نعتات الخيل المجيدن . قال الأصمعي : هم ثلاثة : أبو دؤاد في الجاهلية ، وطفيل ، والجمدي . قال : والعرب لا تروي شعر أبي دؤاد وعدي بن زيد ، وذلك أن ألقاظها ليست بنجدية ( ص ٣٨ : الطبقات ) .

فلو أن امرأ القيس لم يكن من أهل نجد لكانوا قد أهملوا رواية شعره ثم هو كان يعرف أن امرأ القيس بن حذام يبكي في شعره الطلول ؛ فأخذ ذلك عنه كما أخذ صفة الخيل عن أبي دؤاد ، وتراه يحاول أن يلحقه في إجادة نعتها والشهرة بذلك ؛ حتى لا يخلو أكثر شعره من هذا الوصف .

وقد كان يعاصره من الشعراء المعروفين : علقمة بن عبدة ، وعبيد بن الأبرص ؛ والشنفرى ، وأبو دؤاد ، وسلامة بن جندل ، والمثقّب العبدي ، والبراق بن روحان ، وتأبط شراً ، والتوأم الليشكري ؛ وكان من حشم أبيه شاعر اسمه عمرو بن قصبه ، وهو الذي ذكره في قصيدته التي قالها حين توجه إلى قيصر ، وذلك في قوله :

بكي صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أننا لاحقان بقيصرا

وكل هؤلاء لم يقع للرواة من شعرهم مقدار ما وقع في أيديهم لامرئ القيس ؛ فكان ذلك سبباً من أسباب تميزه وانفراده .

وتم سبب آخر ، وهو أن الذي في يد العلماء من أهل الغريب والعربية وعلماء البيان لا يجتمع منه لشاعر واحد جاهلي ما اجتمع لامرئ القيس ؛ وهو

عندهم طبقة متميزة لفصاحته وقدمه ؛ ف شعره أشبه شيء بأقدم كتاب في اللغة عند من يظفر به من المتأخرين ، وكأنما كان بعضهم يجلسه عن الانتقاد في ألفاظه ؛ فكل ما استعمله فصيح من حيثاً تلقفه وكيفما جاء به ؛ وإن كان ذلك لا شك في صحته دون فصاحته ؛ فإن أهل النظر من علماء البصرة يقولون في تأويل بيته :

لها متنتان خَطَّاتَا كَا أَكْبَ عَلَى سَاعِدَيْهِ النَّيْرُ

إنه لما جاور في طيء علق من لغتهم ، وهم يلقبون اليباء ألفاً ؛ يقولون في رضىنا : رَضَانَا ؛ وكذلك خطَّاتَا أصله خطَّيتَا ؛ فقلب اليباء ألفاً ؛ وهي لغة لم يلتزمها الشاعر ، ولا وجه لها إلا أن يكون ميزان لسانه قد تعطل في هذه الكلمة كما تعطل في غيرها ؛ فانحدرت منه ثقيلة غثة باردة ؛ والمجيب أن علماء المعاني والنحو والعروض انتقدوه جميعاً وأخذوا عليه أشياء كثيرة ؛ ولكن مات الانتقاد وبقيت الألفاظ حية ، حتى إن أكثر ما قالوه لا يُعرف اليوم ولم يُورد منه شُرَّاح ديوانه إلا القليل ؛ ولعلمهم فعلموا ذلك ليتكافأ الانتقاد مع شهرة الرجل ، وهؤلاء أصحاب البيان ما زالوا يطأطئون من الغدائر المستشزرات في كلامه ويضربونها مثلاً في التنافر والثقل ، ولكن ( مستشزرات ) هذه كانت قد رسخت قبلهم حتى لم يستطيعوا أن يحدروها عن منزلتها من الشهرة ، وذلك من عجائب امرئ القيس ، فإن له ألفاظاً وإن كانت أحجاراً ، إلا أنها ثابتة من شهرته في جبل .

والعلماء بالشعر يقولون إن امرأ القيس لم يتقدم الشعراء لأنه قال ما لم يقولوا ، ولكنه سبق إلى أشياء فاستحسنها الشعراء واتبعوه فيها ؛ لأنه أول من لطف المعاني ، ومن استوقف على الطلول ، ووصف النساء بالظباء والمها والبَيْض ، وشبه الخيل بالعقبان والعصي ، وفرق بين النسب وما سواه من القصيدة ، وقرب مأخذ الكلام ، فقيّد الأوابد ، وأجاد الاستعارة والتشبيه ؛ وقلما يخلو كتاب في الأدب من هذه الكلمة ، وهي مع ذلك مقبولة كأنها ناموس من نواميس الطبيعة في شهرة هذا الشاعر ، على أنها - كما ترى -

لم تعزّز ببرهان ، ولم يسكها دليل ؛ فليس ما يمنعنا أن نمسها بالهك فنخلص إلى حقيقتها .

أما أنه أول من لطف المعاني واستوقف على الطلول الخ ، فلا يكون دليله إلا تتبع كلام العرب بمن كانوا قبله ، وإدارة الآذان في هواء الجزيرة من أكنافه ، وهو شيء لا يصدق مدعيه كائناً من كان ، لأن العرب أنفسهم أهملوا رواية كلام أبي دوّاد كما ذكر الأصمعي ، وسيله سبيل غيره ، فضلاً عن أهلهم الزمن وجلّدت صدورهم التي هي دواوين أشعارهم بصفحات من الكفن ؛ وانظر ما معنى قول ذلك القائل : « وإنه أول من فرق بين النسب وما سواه من القصيدة » فإن هي إلا كلمة مولّد قصير النظر في مطارح الكلام ، كأن شعراء العرب كلهم كانوا على سنّة المولدين من افتتاح القصيدة بالنسب ثم التخلص بعد ذلك إلى ما يأخذون فيه من المعاني ، وهو رأي لم يقل به احد ؛ ولا يزال في القصائد المروية قبل امرئ القيس بقية من القوة على تكذيبه

وأما أن هذا الشاعر أول من قرّب مأخذ الكلام ، فقيد الأوابد ، وأجاد الاستعارة والتشبيه ، فهو الصحيح ، ولكن لا على أنه أول من ابتدأ ذلك ، بل على أنه أول من اشتهر به وابتدع فيه ، وجلة ما حفظ له منه أشياء معدودة ، غير أنها لو توزّعت على شعراء الجاهلية لزانتهم جميعاً .

بقي سبب آخر من أسباب شهرة امرئ القيس في العرب وبقاء شعره على ألسنتهم وهو أنهم يحدون في بعض كلامه رقّة المنادمة وطرب الخمر وفتور الغزل وغير ذلك مما هو من حظ القلب ، ثم هم يرونه إذا أخذ في غير هذه المعاني يطبع ألفاظه على قلبها من الاستعارة والتشبيه ، فإذا قابلوا ذلك بمحسنة غيره وانصرفوا إلى أوصاف البداوة ، وجدوا في شعره كالظل الذي يفيء ، والماء الذي يجري ، والحسن الذي يتميح ، والنسيم الذي يترنح ؛ فكان ولا جرم كأنما يستهويهم استهواء ، وكان مجموع شعره في البدو حضارة وفي الحضرة بداوة ؛ وهذا مروان بن أبي حفصة الشاعر أنشده العتي زهير ،



فقال : هذا أشعر الناس ، ثم أنشده للأعشى فقال : بل هذا أشعر الناس ، ثم أنشده لامرئ القيس فكأنما سمع به غناء على الشراب ، فقال : امرؤ القيس والله أشعر الناس ( ص ٩ : الطبقات ) ومروان شاعر [ في صميم ] الحضارة ، فكيف بالعرب ؟ وعندني أن هذا أعظم ما تتميز به شاعرية امرئ القيس ؛ لأنه دليل الصنعة التي [ تبرز على ] الطبع ، والطبع الذي يبلغ في سموه مبلغه بالصنعة ؛ وهو الدليل الذي لو سقط من شعره لسقط بشعره لا محالة .

### شعر امرئ القيس .

لم نعد ما عدناه من أسباب شهرة هذا الشاعر وهو قليل بمجل ، إلا توطئة لما يأتي من انتقاد كلامه ، فإنه عند المتأخرين أفاق لا يحس إلا بالنظر ، ورجل كأنما كانت شهرته قَدْرًا من القَدَر ، يأخذون ذلك بالتسليم ، ويقولون هو أمر كان من قديم ؛ مع أن أدباء الصدر الأول قد تكلموا في خطئه في العروض والنحو والمعاني، وعاثوا عليه كثيراً من شعره وخطأوه في وجوه من التصرف ، ولا يزال ديوانه يدعو إلى ذلك ، لأنه هو هو اليوم وقبل اليوم ، غير أن أولئك المتأخرين أصبحوا يرون هذا الديوان كدار الآثار : لا يطمع الحي ببعض الإجلال لميت من أمواتها ...

كل ما يتناوله امرؤ القيس في شعره من المعاني ، لا يتجاوز الغزل ، والاستهتار بالنساء ، ووصف الصيد والخمر والطيب والحيل والنوق وحرر الوحش والطلول والجبال والبرق والمطر ؛ أما افتخاره في شعره فقليل جيد ، والحكمة فيه أقل وأكثر جودة ، ومن عيونها قوله :

وإنك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف ، ولم يفلبك مثل مغلب

وهو يخرج بعض ذلك مخارج نادرة ، فلا يتناسب شعره في الجودة ، ولا يطرد في سلامة اللفظ ، ولا يتشابه في صحة المعنى ، بل يجيء بالشريف والسخيف ، والمبتذل والضعيف ؛ حتى كأن شعره صور على اضطراب

أخلاقه ، ولا يعلل ذلك إلا بتفاوت الأحوال التي يقول فيها ، وأنه لم يكن يقصد إلى الشعر قصداً إلا في القليل الذي أجاده وبرع فيه ، أما فيما عدا ذلك فقد منعه الثقة بنفسه أن يتبع عليها ويقابل بين وجوه الكلام ، وذلك بديهي : وإلا فلا معنى لأن يكون مرة نجماً في السحاب ومرة حجراً في التراب ؛ والشاعر الذي يسف إنمّا يسقط في طبقات الهواء لا في طبقات التراب ؛ ولذلك كان جيد امرئ القيس أجود شيء ، ورديثه أردأ شيء

وغزل هذا الشاعر ساقط كله ، لأن استهتاره وتبذله معناه أن يتلطف في المعاني بما يستلزمه الإبداع في التعريض والكتابة ، والاكتفاء بالمحبة الدالة ، فبردت حرارته بذلك التصريح ، وثقل على القلوب إلا قليلاً مما يفتن فيه ، فيجيء حسنه من صنعة المعنى لا من المعنى نفسه ، كقوله :

أغرّك مني أن حبك قاتلي وأنك مهما تأمري القلب يفعل؟

فإنه نزع فيه إلى الحماسة ، وهو بيت لو دار في كل أمة لوجد له في شعرها موضعاً ؛ وكذلك قوله :

سموت إليها بعد ما نام أهلها 'سمو' حجاب الماء حالاً على حال

وهذا البيت من مخترعاته ، فإنه أول من طرق هذا المعنى وابتكره ، وسلم الشعراء إليه ، قال صاحب العمدة : وهو أول الناس اختراعاً وأكثرهم توليداً ( ص ١٧٥ ج ١ : العمدة ) فلا ينبغي من شعره إلا الوصف . ومداره على الاستعارة والتشبيه ، وسأخذ بطرف من الكلام فيها ، ثم تفصل به إلى القول في معانيه ومبلغ انطباق ألفاظه عليها ، لنتبين موقع نظره في مطارح الكلام ، ومذهب فؤاده من أسرار الصناعة ؛ ولا بد لنا هنا من التنبيه على أن الأدباء قد وضعوا أشعاراً من البديع ونحلوها امرأ القيس ، يقصدون من ذلك إلى الغرض من شأن الذين اخترعوا تلك الأنواع ؛ حتى يوهوا أنهم سبقوا إليها ؛ أو إقامة الشاهد على بعض ما يتباغضون فيه من مبتذل الشعر .

ومن النوع الأول ما أورده ابن رشيق ( ص ٥٥ ج ٢ : العمدة ) بعد أن أورد بيتين لأبي نواس فقال : وأول من نطق بهذا المعنى امرؤ القيس :

لَمَنْ طَلَّلَ دَارِسٌ آيَةً      أَضْرَّ بِهِ سَالِفُ الْأَحْرَسِ  
تَنَكَّرَهُ الْعَيْنُ مِنْ جَانِبٍ      وَيَعْرِفُهُ شَغْفُ الْأَنْفَسِ

وليس فيما دونوه لامرئ القيس ؛ والتوليد فيه بيتن .

ومن الثاني ما أورده ابن رشيق أيضاً (ص ٢٥ ج ٢ : العمدة) عند الكلام على التقطيع والتقسيم من باب التصحيح ، كقول المتنبي :

أَقِلْ أَنْزِلْ اقْطَعْ احْمَلْ عَلَّ سَلَّ أَعِدْ  
زِدْ هَشَّ بَشَّ تَفَضَّلْ أَدْنُ سُرَّ صِلْ

فإنه قال : وأصل هذا كله من قول امرئ القيس :

أَفَادَ فَجَادَ ، وَشَادَ فَزَادَ      وَقَادَ فَذَاذَ ، وَعَادَ فَأَفْضَلَ

ومها تهافت امرؤ القيس فلا أراه يسقط على مثل هذا .

#### استعاراته .

قالوا إن الاستعارة إنما هي من اتساعهم في الكلام اقتداراً ودالة ، وليس ضرورة ؛ لأن ألفاظ العرب أكثر من معانيهم ؛ وليس ذلك في لغة أحد من الأمم غيرهم ، فهم إنما استعاروا مجازاً واتساعاً ، ومرجع ذلك إلى شرح المعنى وفضل الإبانة عنه ، أو تأكيده والمبالغة فيه ، أو الإشارة إليه بالقليل من اللفظ ، أو بحسن المعرض الذي يبرز فيه ، تبسطاً في اللفظ ، واسترسالاً في طرق التعبير ، فعلى هذا تكاد تكون الاستعارة البيان كله ، وليس من غرضنا أن نشرح أقسامها ، أو نلم بما قالوه في تحقيقها ، وإنما نتكلم عليها في شعر امرئ القيس خاصة ، فهي التي ميزت شعره ، وقلدت في جيد الزمان درّه ، وأكسبته شهرة أنه أول من أفلح في شق هذه الصدفة حتى زعم ابن وكيع (ص ١٨٦ ج ١ : العمدة) أن أول استعارة وقعت في الكلام قوله :

وليل كموج البحر أرخى سدوله      علي بأنواع الهموم ليبتلي  
فقلت له لما تمطى بصلبه      وأردف أعجازاً وناء بكلكل

وليس يخفى أن العربي الذي يجيء بالاستعارة المتمكنة إنما كان ينظر فيها ويديرها إدارة ، بحيث لا تتفق اتفاقاً ولا تجيء عفواً إلا في النادر ، ولذلك قل الجيد منها في كلامهم حتى نزل القرآن ، فتكون من هذه الجهة اختراعاً يدل على قوة غير قوة الفطرة ، وهي في شعر امرئ القيس أكثر منها في المأثور من شعر غيره من الجاهلية ، وأصفى ماء ، وأعذب رواء ، وحسب ذلك أن يكون دليلاً على تفضيله ، وأشهر الاستعارات التي اتفقت له هذان البيتان .

فاستعار للليل سدولاً يرخيها، وصلباً يتمطى به ، وأعجازاً يردفها وكلكلاً ينوء به . وقد تنازعتها الأدباء ، حتى جرى المثل ، وقلما تجد كتاباً في البيان خالياً منها ، وقد ذكر الأمدى في الموازنة البيت الثاني ، ورد عليه ابن سنان وجعله من الاستعارة المتوسطة ، وفرق بينها صاحب المثل السائر ، ولكنه على كل حال بمنزلة من الحسن .

وسنخط في البيتين كلمة موجزة : أما الأول فإن تشبيه الليل بموج البحر تشبيه لا أحسن منه ، لما يجيش فيه من الظنون ويتقلب من الخواطر ، ثم هو مرمى البصر من سريرة الكون؛ فذلك شبه اتساع البحر وغوره بالنسبة لما يدرك النظر منه ، غير أن قوله : أرخى سدوله ، ذهب بذلك الحسن كله ، إذ أفاد أن الغرض من التشبيه غرض محسوس ، وهو أدنى أنواعه ؛ لأن إرخاء السدول إنما يدل على السكون والحجاب ، لا أكثر من ذلك ، والكلمة استعارة لظلام الليل، فصارت لفظه الموج لا معنى لها إلا إقامة الوزن، وهي التي كانت عمود الحسن في التشبيه .

وأما البيت الثاني فقد أجمعوا على أنه في وصف طول الليل ، ولست أراه كذلك ، وإلا فلو تمطى كلب ما زاد في وصف طوله على هذه الألفاظ ، وإنما أراد الشاعر ثقل الليل وفتوره ، وأنه كلما هم أن ينجلي سقط ، كما يفعل الذي يتمطى ثم يردف أعجازه ثم ينوء بكلكله . فالوصف حقيقة ممثلة وتصوير

ناطق ، وعلى ذلك المعنى تكون الاستعارة أبلغ ما يمكن أن يقع في هذا  
الموضع ، وما أخطأ من عده من التشبيه المضرر الأداة ، لأنه به ألتق .

ومن تصرّفه بالاستعارة في شعره قوله :

وهراً تصيد قلوب الرجال وأقلت منها ابن عمرو حَجْرُ

هراً : هي المعروفة بابنة العامري ، وكان يشبب بها امرؤ القيس ،  
ويفاطمة ، والرباب ، وهند ، وفرتنا ، وليس ؛ وسلمى ، ومعنى البيت أن  
أباه أقلت منها ، ولو رآها لصادته فيما تصيد . قالوا : واستعارة الصيد مع  
الهر مضحكة ، ولو أن أباه من فارات بيته ما أسف على إفلاته منها هذا  
الأسف ... !

فقد ألزموه الاستعارة كما ترى حتى قارنوا بينها وبين استعارة زهير في  
قوله ( ص ١٨٣ ج ١ : العمدة ) :

ليثٌ يَعْتَرَّ بِصِطَادِ الرِّجَالِ إِذَا مَا كَذَّبَ اللَّيْثَ عَنْ أَقْرَانِهِ صَدَقَا

ولكنهم جهلوه فيها هذا الجهل وكيف بمثله من مثله ؟ والذي أرى أنهم  
غفلوا عن المعنى الذي قصد إليه ؛ فإن هرا كانت من كلب ، وكان امرؤ  
القيس في كلب وطيب ، أيام نفاه أبوه ، فهو إنما يتنادر عليه ، وإذا خرج البيت  
على هذا المعنى كانت الاستعارة فيه متوسطة ، ولكنها تكون سبباً لكناية  
من أبلغ الكنايات ...

ومن استعارته البديعة كلمته التي كأنما قيد بها شهرته في هذه الحياة ،  
وذلك قوله في الجواد : قيد الأوابد ؛ ولقد حاول المولّدون أن يحيثوا بمثلها ،  
غير أنها بقيت مفردة ، وذلك كقول ابن الرومي في الحديث : شرك العقول  
وعقلة المستوفز ، وقول المتنبي في صفة الجواد : أجل الظلم وربقة السرحان ،  
ورأيت لدريد بن الصمة كلمة تكاد تساويها في الحسن ، وهي في قوله :

يا فارساً ، ما أبو أوفى إذا اشتغلت

كلتا اليدين كروراً غير وقاف

( 'عبرُ الفوارس ) معروف بشكته

كافٍ إذا لم يكن من كربةٍ كافٍ

فالكلمة هي ( 'عبرُ الفوارس ) يريد بها أن الفوارس ترى منه ما يُبكي أعينهم ويستعبرها ( ص ٢٥٥ : سرح العيون ) .

وهذا وأمثاله مما يدل على فطنة الشاعر وحدة فؤاده ، وأن له من قوة الفطرة ما يقوم مقام الصنعة ؛ وتلك صفات يدل عليها كثير من كلامه ، غير أن امرأ القيس إنما كان مبتدئاً فيما ابتدع ، ولذلك لا يمكن أن يؤخذ البديع كله من شعره ، وليس هذا بضائره ونحن الآن في الكلام عن استعاراته ؛ ومن الاستعارة نوع اتفق علماء البديع أنها المقدمة في هذا الباب وليس فوق رتبته في البلاغة رتبة ، وهي الاستعارة المرشحة ، كقوله تعالى : ( أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم ... ) فإن الاستعارة الأولى وهي لفظ الشراء ، رشحت الثانية وهي لفظ الربح والتجارة ؛ وهذا النوع لا تصيب منه في شعر امرئ القيس مثلاً واحداً ؛ والذي بقي من استعاراته إنما هو في سبيل ما قدمناه ، وهو قليل تدل جملته على قلبٍ يعي وفؤادٍ يصنع ، وشعر في زمنه شاعر ؛ ولا نستطيع أن نوازن بين مذاهبه في الاستعارة ومذاهب المولدين ، فلو سمع هذا الشاعر القرآن وكان أموياً أو عباسياً ، لكان ابن المعتز ثاني اثنين في الاستعارة والتشبيه .

وقد أخرجوا من كلامه كلمات جرت أمثالاً ، ورواها الميداني والضبي وغيرهما ( انظر شعراء النصرانية ج ١ ص ٦٨ ) .

### تشبيهاته .

قد قلنا في استعارات امرئ القيس ، وترسمنا آثاره في ذلك المذهب بما يؤدي الى حكم في الصناعة ، ويكشف عن غاية من غايات الرجل ؛ ونحن وإن لم نكن أفضلنا في ذلك ، إلا أن هذا المنزع قريب ، ربما أغنى في بعضه المثال الواحد ؛ إذ كان امرؤ القيس مبتدئاً في شيء ومبتدعاً في شيء ،

وجهدته في جميع ذلك أن تُخصى له الكلمات المعدودة ، وهي لا تحتل الإفاضة على تقسيم الكلام الى فصول وتمييز بعضها من بعض . ثم هو إنما كان شاعراً من شعراء الفطرة ، يعرضُ لسانه القول كما يعرض لعينه الوحش ؛ فينطلق كلاهما على نفس واحد يصنع القليل ولا ينقح الجملة ؛ فكان ما يجيء في كلامه من بدائع الصنعة هو الدليل على فضل قوته التي تغمر فؤاده وتصرفه إلى مشايعة طبيعة اللغة في النمو ، ولو صرفت تلك القوة الى الصنعة التي [ يعرق ] فيها الكلام من كثرة تقليبه ، لكان للكلام في شعره مذهب آخر ؛ وأنت قد تجد للمتنبي بيتاً واحداً لو جُمع اختلافُ العلماء فيه ل زاد على اختلافهم في جميع شعر امرئ القيس .

أما تشبيهاته فهي يحملتها ترمي الى غرض واحد ، وهو تصوير الحقيقة تصويراً غير ملون ، وله فيها طرائق بديعة هو أول من ابتكرها ، كتشبيه الإضافة في قوله :

له أنبلا ظنبي وساقا نعامة وإرخاء سرحان وتقريب تتفيل

فقد جاء به - كما ترى - حتى جعله تحقيقاً ، وفيه أيضاً تشبيهه أربعة بأربعة ، وقد زعم الفرزدق أنه أكمل بيت قالته العرب ، أو قال : أجمع بيت ( ص ٢١ ج ٢ : العمدة ) وهو أول من فتح هذا الباب ( ص ١٩٩ ج ١ : العمدة ) .

وقد يجيء بعضها مُخندجاً غير تام الأجزاء ، وتبلغ ببعضها المبالغة الى الاعتساف والشطط ، كقوله في صفة الفرس :

وأركب في الرّوع خيفانة كسا وجهها سعفٌ مُنتشِر

الخيفانة : الجرادة التي انسلخت من لونها الأول الأسود أو الأصفر وصارت الى الحمرة ، فشبه فرسه بها لحقتها ، وشبه ناصيتها بسعف النخلة ، قالوا : وهذا الوصف غير مصيب ، لأن الشعر إذا غطي العين كان عيباً ، وهو القم ، والحسن منها أن تكون الناصية كأنها حبشة ، أي قصيرة مجتمعة ( ص ١٣ ديوان امرئ القيس ) وفي هذه القصيدة وهو مما نحن فيه :

لها متنتان خطأ كما أكبّ على ساعديه النمر  
يريد أن لها متنين كساعدي النمر المبارك ، في الغلظ واكتناز اللحم ؛  
والمستحب عندهم تعريق المتن وتعريق الوجه ، كما قال طفيل وهو أحد نعتات  
الخيال المجيدين :

\* معرفة الألقى تلوح متونها \*

أي معرفة الوجوه ويكاد يستبين العصب من قلة اللحم ، وكذلك المتون ؛  
وقد وصف امرؤ القيس الخيل في هذه القصيدة وصف سمسار يزين فرساً في  
السوق لا وصف فارس ، ولولا تصعلكه لجاء من ذلك بما لا يلحق له الشعراء  
غباراً ، وهذا شيء تعرفه بمقارنة معانيه في الخيل بمعاني غيره من فرسانها .  
ومن قبل ما نحن فيه قوله في الغزل :

وإذ هي تمشي كمشي النزي ف يَصْرَعُهُ بالكثيب البهر

يصف تقتر الحسنة في مشيتها بمشية المزوف دمه أو عقده بالسكر إذا  
صعد كثيراً فانقطع نفسه من الإعياء والكلال ، فانظر هذه المبالغة الباردة  
وهذا التشبيه القبيح ، وما عسى أن تكون تلك الحسنة إلا في الدرجة الثالثة  
من السل ...

ولهذا الشاعر طريقة في التشبيه جاء منها بأبيات معدودة ، وهي تناسب  
التببيع الذي سنتكلم عنه ، لأنه كان أول من اخترعه ؛ وهذه الطريقة هي  
أن يريد من الوصف ما يلزم من حقيقته المثلة في الذهن ، وقد اتفق له من  
ذلك ما يُعدُّ غاية في الحسن ، كقوله في وصف سالف الفرس :

وسالف كسحوق الليان أضرَمَ فيها الغويّ السعُرُ

فلقد أراد من وصف عتق الفرس بأنها شجرة متوقدة من شجر الكندر  
ما يستتبعه هذا الوصف من لون النار ، وهي الشُقْرة ، فكأنه أراد أن يقول  
إن فرسه شقراء ، فاحتمال لذلك بهذا التشبيه البديع ، وقد أخذ هذا التشبيه  
أوس بن حجر فقال :

حتى يلفّ نخيلهم وبيوتهم هبّ كناية الحصان الأشقر



وبينه معدود عند أهل البديع من عجيب ما وقع في باب التبييع (ص ٢١٧ ج ١ : العمدة ) ؛ لأنهم يقولون إنه أراد الحرب التي هي المقصود بالصفة .

وبمقدار ما أحسن [ امرؤ القيس ] في هذا القول أساء في قوله :

كَأَنَّ عَلَى لَبَاتِهَا جَمْرَ مُصْطَلٍ  
أَصَابَ غَضًّا جَزْلاً وَكُفًّا بِأَجْزَالِ

وَهَبَّتْ لَهُ رِيحٌ بِمُخْتَلَفِ الصَّوَى

صَبًّا وَشِمَالًا فِي مَنَازِلِ نُفْقَالِ

وهي على طريقته تلك ؛ فإنه أراد أن يصف توقد الحلى وصفاءه على لبات تلك الحساء ، فخلص الى ذلك من طريق الشياطين والزبانية ... إذ لم يكفه أن جعله على صدرها كالجمر ، بل خصه بجمر المصطلي ، لأنه لا يزال يُذْكَبُ ويقلبه فهو يتوقد ويظهر جمره جمره ، ثم كأنه استقل هذا كله على صدرها فجعل الجمر من الغضا ، وهو شجر معروف يقال إن جمره أبقى الجمر وأحسنه ، ثم جعل لهذا الجمر كفافاً من أصول الشجر ، وهي الأجزاء ، حتى تزيد في وهجه وتوقده ، ثم لما كان قد تلتك الحساء لا بد أن يكون ممشوقاً فقد جعل هذه النار من صدرها على مثل اليفاع من الأرض ، لتكون الريح أشد تمكناً منها ، ثم جعلها في منازل راجعين من الأسفار فهي توقد لهم ويحتفل فيها على ما هو معروف من عوائدهم . فليت شعري هل يبقى بعد هذا الحريق من لبات الحساء ما يُنَاطُ به الحلى ، فضلاً عما يظهر 'حُسْنُهُ' وَتَوَقُّدُهُ ... ؟

وأعجب شيء في أوصاف امرئ القيس وهو ابن ملك ، أنه يصف الجميلة بحسن الغذاء ، ويصف سنا البرق بمصابيح راهب أهان في ذبالها السليط ، وهو الزيت ، فلم يعزه لكثرتة عنده ... وهكذا مما لا يؤخذ منه إلا أنه كان صلوكاً يصف للصعاليك ، وهو دليل أيضاً على ما قدمناه من أن شعره صورة غير مرتبة من حياته .

ومن بدائع التشبيه التي اتفقت له قوله :

سموتُ إليها بعد ما نام أهلها  
سُمُوَ حَبَابِ المَاءِ حالاً على حال

المراد بحباب الماء : إما طرائقه ، أو فقائمه ؛ فمن ذهب إن الحباب الطرائق فإنما أراد : أني جئت أتدفع إليها كما يتدفع الماء شيئاً بعد شيء حتى صرت الى ما أريد ، ومن ذهب الى أن الحباب الفقائيع ، فإنه أراد خفة الوطء وإخفاء الحركة ؛ وكلا المعنيين غاية في تصوير تلك الحال ، مع اللطف والرفقة وبراعة التشبيه ؛ وقد تقدم أنه من مخترعاته التي سلمها له الشعراء ، وهو أحد المعاني التي تلمّ بها خواطرم فتختلس منه ما تختلس الألفاظ ، وكثيرون قد ألوا به ، ولكن الغاية في ذلك قول ابن شهيد الأندلسي ( ص ١٤٣ ج ٢ : نفح الطيب ) :

ولما تملأ من سُكْرِهِ      ونام ونامت عيون الحرسِ  
دَتَوْتُ إليه على قربه      دُنُوْتُ رَفِيقِ درى ما التمسِ  
أدبٌ إليه ديبب الكرى      وأسمو إليه سُمُوَ النَّفْسِ

ومن هذه القصيدة قوله يذكر العقاب حين شبه فرسه بها ، وهو من المخترعات أيضاً في معناه ، وأسلوبه طريقة من طرائقه المبتكرة :

كان قلوب الطير رطباً ويابساً  
لدى وكرها العُنَابُ والحشف البالي

العُنَابُ ثمر أحمر ، والحشف ما يبس من الثمر ولم يكن له طعم ولا نوى . وقد أجمع الرواة على أن هذا أحسن بيت جاء في تشبيه شيتين بشيتين في حالتين مختلفتين . وتقديره : كان قلوب الطير رطباً العُنَابُ ويابساً الحشفُ البالي ؛ فشبه الطير من القلوب بالعُنَاب ، والعتيق بالحشف ؛ وخص قلوب الطير ، لأن فرخ العُقَاب فيما يقال يأكل لحم الطائر ما خلا قلبه ، لذلك كثرت قلوب الطير عندها ، وقيل غير ذلك . والتشبيه كما ترى ليس بشيء ، غير أن الطريقة التي جاء بها هي دليل من الأدلة على فضل صاحبها ،

ولم يُحفظ قبل امرئ [ القيس ] بيت على هذا النمط ، فهو أول من جاء بذلك من الشعراء ، وقد رووا أن بشار بن برد قال : ما قرّ بي قرار بعد أن سمعت بيت امرئ القيس حتى صنعتُ :

كان مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا، ليلٌ تهاوى كواكبها

فقد اتبع الطريقة نفسها ؛ وقالوا في بيته إنه لم يقع بعد بيت امرئ القيس في الترتيب أحسن منه ؛ ولكن البيت الأول يفضله بأنه أورد التشبيه في حالتين مختلفتين ، إذ قلوب الطير واحدة ، ولكن التشبيه إنما وقع على حالتها من الطرأة واليبوسة ، وقد غفل عن ذلك بشار ؛ وبالجملة فإن امرأ القيس وسط بين شعراء التشبيه ؛ وإن كان قد أكثر منه واحتذى فيه فعل أبي دؤاد والمهلل وغيرهما ، إلا أن له طرقاً في هذا التشبيه هي من مبتكراته ، وهي كل ما في يدنا من الأدلة على براعته وحسن تصرفه ورجحانه على غيره من متميزي الشعراء . وقد عدل المولدون عن تشبيهات الجاهلية إلى ما هو أليق بأزمانهم وأدنى شهاً منها ، ولكنهم مع ذلك لا يزالون في مجموع أشعارهم موضع لبعض أبيات امرئ القيس ، كقوله : سموت إليها ... وغيره ، على أن أكثر شعراء الجاهلية قد خرجوا من هذا الباب ، ولم يرض المولدون أن يقفوا عليه ولا وقفه الحُجّاب !

#### تتمة الانتقاد .

بقي علينا - بعد أن تكلمنا في استعارات امرئ القيس وتشبيهاته - أن نأتي على بقية هذا الكلام مما يصف معانيه وألفاظه وما يقع عليه الناقد في سائر كلامه ويصبيه من حسناته المتفرقة في كتب البيان ، وقد أشرنا إلى بعض مبتكراته تلك ونحن مُستوفون سائرنا هنا : قالوا : إنه أول من فتح باب الاحتراس ، وذلك في نحو قوله ( ص ٦ : الديوان ) :

إذا ركبوا الخيل واستلأموا تحرقت الأرض واليوم قرّ

أي واليوم بارد ، فاحترس وكان الاحتراس بالقافية التي هي تمام البيت

وهذا من أبداع ما يجيء ، لأنه يزيد في تمكين القافية ويكسبها عزة لا تكون لكلمة غيرها في البيت يحملته .

وقد رأينا هذا الشاعر يبالح في استقصاء جزئيات المعاني مبالغة هي طبع فيه ، وهي عند التي هيأت له مثل هذا الاحتراس ، وقد مر من ذلك ما وصف توقُّد الحلى ، ومثله في كلامه كثير وسيمرّ بك شيء من بديعه ، وكذلك قالوا في التتبع ، وهو من أنواع الإشارة ، وذلك أن يريد الشاعر ذكر الشيء فيتجاوزه ويذكر ما يتبعه في الصفة وينوب عنه في الدلالة عليه . قال ابن رشيق (ص ٢١٥ ج ١ : العمدة) : وأول من أشار الى شيء من ذلك امرؤ القيس يصف امرأة :

ويُضحى فتيتُ المسكِ فوق فراشها

نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضّل

فقوله ( يضحى فتيت المسك ) تتبوع ، وقوله ( نؤوم الضحى ) تتبوع ثان ، وقوله ( لم تنتطق عن تفضل ) تتبوع ثالث ، وإنما أراد أن يصفها بالترف والنعمّة وقلة الامتهان في الخدمة ، وأنها شريفة مكفّية المؤنة ، فجاءها بما يتبع الصفة ويدل عليها أفضل دلالة .

وقال [ ابن رشيق ] أيضاً في باب التمثيل الذي هو من ضروب الاستعارة - وذلك أن تمثل شيئاً بشيء فيه إشارة إليه - إن امرؤ القيس أول من ابتكره ، ولم يأت أملح من قوله فيه :

وما ذرفت عيناك إلا لتضربي بسهميك في أعشار قلب مقتل

فمثل عينها بسهمي الميسر ، يعني المعلّى وله سبعة أنصباء ، والرقيب وله ثلاثة أنصباء ، فصار جميع أعشار قلبه للسهمين اللذين مثلت بهما عينها ، ومثل قلبه بأعشار الجزور ، فتمت له الاستعارة والتمثيل (١) .

---

(١) كانت الجزور تقسم على عشرة أعشار ، والمراد أنها ضربت على قلبه بالسهمين فاخترته كما تختار بها أعشار الجزور .

وقال في الإيغال : وهو ضرب من المبالغة إلا أنه في القوافي خاصة لا يَعُدُّها : وليس بين الناس اختلاف أن امرأ القيس أول من ابتكر هذا المعنى بقوله يصف الفرس :

إذا ما جرى شأوين وابتَلَّ عطفهُ  
تقولُ هزيبُ الريحِ مرّتْ بأثابِ

فبالغ في صفته وجعله على هذه الصفة بعد أن يجري شأوين ويبتَلَّ عطفه بالعرق ، ثم زاد إيغالاً في صفته بذكر الأثاب ، وهو شجر للريح في أضعاف أغصانه حفيف عظيمٌ وشدة صوت ، ومثل ذلك قوله :

كأن عيونَ الطيرِ حولِ خِباننا  
وأرْحَلنا الجَزْعُ الذي لم يُثَقِّبِ

فقوله ( لم يثقب ) إيغال في التشبيه ، واتبعه زهير فقال :

كأن فتاتِ المهنِ في كلِ منزلٍ  
تزلن به ، حبُّ الفنا لم يُحَطِّمِ

فأوغل في التشبيه إيغالاً ، بتشبيهه ما يتناثر من فتات الأرجوان بحب الفنا الذي لم يُحَطِّمِ ، لأنه أحمر الظاهر أبيض الباطن ؛ فإذا لم يحطم لم يظهر فيه بياضٌ ألبتة وكان خالص الحمرة ؛ وتبعها الأعشى فقال يصف امرأة :

غراءُ فرعاءُ مصقولُ عوارِضها  
تمشي الهويننا كما يمشي الوحيُّ الرجلُ

فأوغل بقوله ( الرجل ) بعد أن قال الوحي ؛ وبهذا تستدل على أن الشعراء كانوا يهتدون في الصنعة بامرئ القيس ، فكان شعره لهم أشبه بكتب البلاغة للمتأخرين ؛ وما من نوع من الأنواع التي سلفت إلا وقد اتبعوه فيها وانسحبوا على أثره . وعلى تقليب المولدين لهذه الأنواع حتى لم يغادروا فيها مطمعاً - بقي من شعر هذا الرجل ما هو في بعض نسيج وحده ، والمثال الأول في الدلالة على حده .

أما ما جاء في شعره من أنواع البديع غير ما ذكرناه ، مما مثلوا له في كتبهم بشيء من قوله : كالاتفات ، والتقسيم ، والمقابلة ، والغلو ، ونفسي الشيء بإيجابه في قوله :

\* على لاحبٍ لا يهتدى بناره \*

أي لا منار له فيهتدى به ؛ والاتساع ، والاشتراك ، والإشارة ، والإرداف ، والترصيع ، وجمع المؤنث والمختلف ، وغيرها - فلم ينص أحد من علماء البديع على أنه أول من جاء به ، على أنهم في أكثر ذلك لا يستدلون بشعر شاعر معروف قبله أو معاصره له ، فإن لم يكن وقع من ذلك شيء فهو مبتكره ، ولكن شعره على الجملة في ذلك مثال حسن ؛ وبعضه لا يعدلون به شيئاً ، كما ذكروا في التكرار الذي لا يكون إلا على جهة التشويق والاستعذاب إذا كان في تغزل أو نسيب - أنه لم يتخلص أحد تخلّص امرئ القيس ، ولا سلّم سلامه في هذا الباب إذ يقول :

ديارٌ لسكنى عافياتٌ بذى الخال

ألحَ عليها كلُّ أسحمٍ هَطالٍ

وتحسبُ سلمى لا تزال كعمهدنا

بوادي الخزامى أو على رأس أوعالٍ

وتحسبُ سلمى لا تزال ترى طلاً

من الوحش أو بينضاً بميثاءٍ محلالٍ

ليالي سَلَيْمى إذ تريك منضداً

وجيداً كجيد الرثم ليس بمعطال

ولكن بعض تلك الأنواع اتّبع فيها امرؤ القيس غيره ، كما احتدى في الغلو على قول مهلهل :

فلولا الريح أسمع من بحجر صليل البيض تقرع بالذكور

وهو الذي قالوا فيه إنه أكذب بيت قالته العرب ، لأن بين حجر - وهي قصبة اليامة - وبين مكان الوقعة عشرة أيام ، فقال امرؤ القيس يصف النار :

تَسَوَّرْتُهَا مِنْ أذْرَعَاتِ وَأَهْلِهَا      بِيَثْرِبِ أَدْنَى دَارِهَا نَظَرَ عَالٍ  
وفاضلوا بين البيتين فقالوا إن مهلهلاً أشدُّ غلُوباً من امرئ القيس ، لأن  
حاسة البصر أقوى من حاسة السمع وأشدُّ إدراكاً ، ثم اتبع امرؤ القيس  
النابغة في قوله يصف السيوف :

تَقَدَّ السَّالِقِيّ المِضَاعِفِ نَسْجُهُ      وَتَوَقَّدْنَ بِالصَّفْطَاحِ نَارَ الحِبَابِ  
قالوا : وهو دون بيت امرئ القيس في تنوّر صاحبة النار إفراطاً ،  
ودون بيت النابغة قولُ النمر بن تولى في صفة السيف أيضاً :

تَظَلُّ تَحْفَرُ عَنْهُ إِنْ ضَرَبْتَ بِهِ      بَعْدَ الذَّرَاعِينَ وَالسَّاقِينَ وَالهَادِي  
إذ ليس خارجاً عن طباع السيف أن يقطع الشيء العظيم ثم يغوص بعد  
ذلك في الأرض ؛ فالغلو فيه ضعيف ؛ وقد كدنا نخرج عما نحن بصدد منه ؛  
والآن فقد تبين أن هذا الشاعر بصير بصنعة الكلام ؛ [وأن] فضله إنما هو في  
طريقة إيراد المعنى مما يلتحق بتأليف اللفظ وتصريف الأسلوب ؛ وانظر إلى قوله :

كَأَنِّي لَمْ أُرْكَبْ جَوَاداً لِاللَّذَّةِ  
وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَاعِباً ذَاتَ خَلْخَالٍ  
وَلَمْ أَسْبَأِ الزَّقَّ الرَّوِّيَّ وَلَمْ أَقْلُ  
لِحْيَةَ كُرِّيِّ كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالٍ

فقد اعتُرضَ في هذين البيتين وقيل : خالف وأفسد ولو جَمَعَ الشيءَ  
وشكله ، فذكر الجواد والكر في بيت ، والنساء والخمر في بيت ، لكان أصوب ،  
وإنما غفلوا عما قصد إليه من هذا الترتيب ، وذلك أن اللذة التي ذكرها في  
البيت الأول إنما هي الصيد ، ثم حكى عن شبابهِ وَغَشِيَانِهِ النساء ،  
فجمع المعنيين للتضاييف بينها ، ولو نظم البيت كما قالوا لنقص فائدة تدل  
عندهم على الملك والسلطان ، وكذلك لو فعل في البيت الثاني لكان ذكره  
اللذة زائداً في المعنى ، لأن الزق لا يُسبأ إلا للذة ، وإنما وصف نفسه بالفتوة  
والشجاعة بعد أن وصفها بالتملُّك والرفاهية . وقد أتبعه المتنبي في قوله :

وقفتَ وما في الموت شك لواقف  
كأنك في جفن الردى وهو نائم  
تمرُّ بك الأبطالُ كلِّى هزيمةً  
ووجهك واضحٌ وثغرك باسم

وذكر الواحدى في شرحها اعتراض سيف الدولة عليه وعلى امرىء القيس  
وتخلص المتنبي لنفسه وله ، غير أن ترتيب امرىء القيس أبداع وفيه من  
الفائدة ما ليس في بيتى أبي الطيب .

بقي أن نذكر بعض المآخذ التي أصبناها في شعر هذا الشاعر ، فمن ذلك  
أنه له استعانة ضعيفة بالحروف والكلمات ، كقوله :

\* ألا رُبَّ يومٍ لك منهنَّ صالح \*

وأن له تكراراً قبيحاً في الألفاظ والمعاني يجيء بها على وجه واحد في  
مواضع مختلفة من غير أن يتصرف في ذلك بما يخفي قبح هذا التكرار وينفي  
عنه الظنة .

ومنها دخوله في وجوه المناقضة والإحالة في بعض الكلام ، وذلك مما  
يدل على أنه يرسله إرسالاً كما اتفق ، لا يبتغي به إلا لذه المنطق ، وإلا مواتة  
ما في نفسه من الميل الى القول ؛ وبهذا كان ختام قصائده مقتضياً ، وقلمها  
قطع الشعر على كلمة بديعة إلا في القليل كختم قصيدته السينية :

ألا إن بعد العُدْمِ للمرءِ قنوةٌ      وبعد المشيب طولٌ عُمرٌ ومَلَبِيا

فكان الشعر يُقْتَرَحُ عليه اقتراحاً ففى فرغ من المعنى الذي يريد  
سكت دون أن ينظر الى موضع السكوت وأن الإصابة فيه كأحسن الكلام.

ومنها استعمال الكلام المؤنث في شعره ، كقوله لك الويلاتُ إنك  
'مرجلى' ، ونحوه ، دون أن يوطىء لذلك بما يحسن التضمين ويخرج الكلمة  
المؤنثة مخرجاً لا يكفي فيه أن يكون حلقياً فقط ...



أما ما وقع له غير ذلك من اضطراب بعض القوافي وثقل الألفاظ مما يكبد لسان الناطق المتحفظ ، فذلك متجاوزٌ عنه بعذر البداوة ، والغريب عندنا مألوف عند أهله .

### المنازعة بين امرئ القيس وعلقمة .

لما نزل امرؤ القيس في طيِّء تزوج امرأة منهم تسمى أم جندب ، وكان 'مفرّكاً' وكانت تكرهه ، فنزل به علقمة بن عبدة فتذاكرا الشعر وادّعاها كلُّ واحد منهما على صاحبه ، فقال علقمة : فقل شعراً تمدح فيه فرسك والصيد، وأقول في مثل ذلك ، وهذا الحكم بيني وبينك - يعني تلك المرأة - فبدأ امرؤ القيس يقول :

خليلي 'مرّا' بي على أمّ جندب      'نقّض' لُباناتِ الفؤادِ المذب  
فنعت فرسه والصيد حتى فرغ ، وقال علقمة :

ذهبتِ من الهجران في غير مذّهبِ  
ولم يكُ حقّاً كل هذا التجنّبِ

فنعت فرسه والصيد حتى فرغ ، وكان في قول امرئ القيس :

فلسّاق أهوبٌ وللسّوطِ درّة  
وللزّجر منه وقعُ أهوجٍ منعبِ

وفي قول علقمة :

فأقبل هوي ثانياً من عنانه      يَمُرُّ كَمَرُ الرَّائِحِ الْمُتَحَلِّبِ  
فتحاكماً إليها ، فقالت : هو أشعر منك ، لأنك ضربت فرسك بسوطك وامتريته بساقلك وزجرته بصوتك وأدرك فرس علقمة ثانياً من عنانه .  
( ص ٧٧ : ديوان امرئ القيس ) .

وفي رواية أخرى أنها احتكما الى أم جندب لتحكم بينهما ، فقالت : قولاً شعراً تصفان فيه الخيل على رويّ واحد وقافية واحدة ، فأنشداها جميعاً ،

فلما حكمت لعلمة قال امرؤ القيس : ما هو بأشعر مني ولكنك له وامقة ؛  
فطلقها فخلفه عليها علقمة . ( ابن قتيبة )

وما رأيت أحداً من أهل النقد وازن بين القصيدتين ، بل كلهم متبعون  
كلمة هذه المرأة ، وبعضهم لا يعرف ما كان بينها وبين امرئ القيس فيقول  
إنها تحاكما إليها في المفاضلة بينها لأنها من ذوات العقل والمعرفة . مع أن علقمة  
معدود من الشعراء المفلتئين وامرؤ القيس يقول في قصيدته :

وإنك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف ، ولم يغلبك مثل مغلب

وما أرى أم جندب إلا أرادت ما تريد الفارك من بعلمها ، فقرعت أنفه  
على حمية ونخوة وهي تعلم أنها لا بد مسرحة في زمام هذه الكلمة ، وإلا  
فالبيت الذي توافيا على معناه ليس بموضع تفضيل ، لأن في قصيدة امرئ  
القيس ما هو أبلغ في هذه الصنعة من بيت علقمة ، وهو قوله :

إذا ما جرى شأوين وابتل عطفه

تقول هزيرُ الريحِ مرتَ بأثابِ

وقد مر شرحه وبيان وجه البلاغة فيه ، ولكن من التمس عيباً وجده ،  
ومن تدبر صنعة امرئ القيس للخيل في شعره وجد السوط لا يفارقه ، فلعلها  
كانت عادته .

وقصيدة علقمة يحملتها ليست بشيء ، لأن كل ما فيها من الألفاظ البارعة  
والمعاني الحسنة مأخوذ من قصيدة امرئ القيس ، حتى ليأخذ البيت برمته  
والشطر بحاله ، ومع ذلك فقد أبرّ عليه امرؤ القيس ، في الصنعة ، وما  
أدري كيف هذا ، فلولا أن الرواة مجمعون على أن قصيدة علقمة مما صح له  
لقلت إنها مصنوعة ، ثم إن الذين رووا خبر هذه المنازعة منهم ، وهم عمرو  
ابن العلاء ؛ وأبو عبيدة ، والأصمعي ، لم يزيدوا شيئاً على ما سبق ، وكان  
طبيعياً أن يتكلم امرؤ القيس في ذلك كلمة ، لأن علقمة إنما رد إليه بضاعته ،  
ولن يبلغ التوارد بين الشاعرين هذا المبلغ وأحدهما يسمع من الآخر ، إلا أن  
يكون الاثنان قد اتفقا في الأخذ عن ثالث ، وهو أغرب ؛ وإن صح خبر

هذه المنازعة فيكون ذلك هو السبب في تعفف امرئ القيس على الشعراء وإدلاله بشعره وذهابه الى الظنة فيه ، لأنه رأى من استخذاء علقمة واستجدائه ما ينفخ مثله الى حد الورم ، وما زال على ضلالة حتى لقي التوأم البشكري فقال له : إن كنت شاعراً كما تقول فملّط لي أنصاف ما أقول فأجزها ، قال نعم ، فقال امرؤ القيس :

أحارِ ترى بريقا هبّاً وهنأ

فقال التوأم : كنار مجوس تستعر استعاراً

وهي أبيات ستجيء في بحث الصناعات، فلما رآه امرؤ القيس قد ماتته ، ولم يكن في ذلك العصر من يطاوله ، آلى أن لا ينازع الشعر أحداً آخر الدهر. كذا رواه أبو عبيدة عن أبي عمرو بن العلاء (ص ١٣٥ ج ١ : العمدة) وعلى ذلك يكون علقمة إنما غلب امرأ القيس بكلمة امرأته لا بقصيدته .

وقد رأينا أن نزوي القصيدتين هنا ليكون وجه المقابلة فيها بيتاً ، ولا بد أن ننبه على أن أكثر ما في قصيدة امرئ القيس مفرق بالأفاظه ومعانيه في قصائد أخرى له ، ومنها أبيات لم يغير منها إلا القافية ، وذلك بعض ما أخذناه على شعره ( انظر الوسيلة الأدبية ص ٥٠٤ ، والجزء الأول من شعراء النصرانية ص ٢٣ ، وديوان امرئ القيس ) .

وقد رأينا أن نقف من الكلام على امرئ القيس عند هذا الحد ؛ ففي بعض الكفاية كفاية ؛ وما يكون دون غاية من الغايات فربما كان في نفسه غاية .



## قصيدة امرىء القيس (\*)

لَتُقضى لَباناتُ الفؤادِ المعنوبِ  
 من الدهرِ تنفعني لدى أمِّ جندبِ  
 وجدتُ بها طيباً وإن لم تطيبِ  
 ولا ذاتُ خلقٍ إن تأملتُ بجانبِ  
 وكيف تُراعى وُصلةُ المتغيّبِ  
 أميمةُ أم صارت لقولِ المخيبِ  
 فإنك مما أحدثتُ بالهجرِ  
 سؤاليك نقباً بين حزمي شغبِ  
 كجرمةِ نخلٍ أو كجنته يثربِ  
 أشتتُ وأناى من فراقِ المحصبِ  
 وآخرُ منهم قاطعٌ نَجْدَ كنبِ  
 كمرِّ الخليجِ في صفيحِ المصوبِ  
 ضعيفٍ ولم يغلبك مثلُ مغلبِ  
 مضمَّ جيوشِ غامنينِ وخيبِ  
 يجانبُ منفوحٍ من الحشوشِ رُحْبِ

خليليُّ مرّاً بي على أمِّ جندبِ  
 فإنك إن تُنظراني ساعة  
 ألم تراني كلما جئتُ طارقاً  
 عقيلةُ أترابٍ لها لا دَميمةُ  
 ألا ليت شعري كيف حادثِ وصلها  
 أقامت على ما بيننا من مودّةِ  
 فإن تنأ عنها حِقبةُ لا تلاقها  
 تبصر خليلي هل ترى من طعائنِ  
 علونٍ بأنطاكيةِ فوقِ عِقمَةِ  
 فله عيننا من رأى من تفرّقِ  
 فريقانٍ منهم جازعٌ بطنِ نخلَةٍ  
 فعيناك غرباً جدولٍ في مُفاضةِ  
 وإنك لم يفخرْ عليك كفاخرِ  
 ومَرقبةُ لا يُرفع الصوتَ عندها  
 غزرتُ على أهوالِ أرضٍ أخافها

(\*) قلت : لم تكن هاتان القصيدتان مكتوبتين فيما تحت يده من (الأصل) ولكننا أثبتناهما على ما أشار المؤلف رحمه الله . وتروى هاتان القصيدتان على أوجه أخرى .

ودويّة لا يهتدي لفلاتها  
 تلافيتها والبوم يدعوها الصدى  
 بمجفرة حرف كأن قنودها  
 يفرّد بالأسحار في كل سدفه  
 أقب رابع من حير عماية  
 بمحنة قد آزر الضال نبتها  
 وقد أعتدي قبل الشروع بسابح  
 بذئ مينة كأن أدنى سقاطه  
 عظيم طويل مطمئن كأنه  
 يباري الخنوف المستقل زماعه  
 له أبطا ظي وساقا نعامة  
 كثير سواد اللحم ما دام بادنا  
 له جوجو حشر كأن لجامه  
 وعينان كالمأويتين ومحجير  
 ويخطو على صم صلاب كأنها  
 له كفل كاللدغص لبده الندى  
 ومستفلك الذفرى كأن عنانه  
 وأسحم ريان العسيب كأنه  
 وهو هواء تحت صلب كأنه  
 يدير قطة كالحالة أشرفت  
 إذا ما جرى شأوين وابتل عطفه  
 إذا ما ركبنا قال ولندان أهلنا  
 فيوماً على سرب نقي جلودها  
 ويخضد في الآري حتى كأنما

بعرفان أعلام ولا ضوء كوكب  
 وقد ألست أقراطها نبي غنيب  
 على أبلق الكشحن ليس بمغرب  
 تفرّد مباح الندامى المطرب  
 يمج لعاع البقل في كل مشرب  
 مجرّ جيوش غامنين وخيب  
 أقب كيغفور الفلاة مجنب  
 وتقريبه هوناً دآليل ثعلب  
 بأسفل ذي ماوان سرحة مرّقب  
 ترى شخصه كأنه عود مشجب  
 وصهوة غير قائم فوق مرّقب  
 وفي الضمر ممشوق القوائم شوذب  
 يُعالى به في رأس جذع مشذب  
 إلى سند مثل الصفيح المنصب  
 حجارة غيل وارسات بطحلب  
 إلى حارك مثل الغبيط المذآب  
 ومثناته في رأس جذع مشذب  
 عناقيل قنوي من سميحة مرّطب  
 من الهضبة الخلقاء زحلوق ملعب  
 إلى سند مثل الغبيط المذآب  
 تقول هزير الرياح مرت بأثاب  
 تعالوا إلى أن يأتي الصيد نخطب  
 ويوماً على بيندانة أم تولب  
 به عرة أو طائف غير مُعقب

خرجنا نريغ الوحش حول ثُعالة  
 فأنستُ سرباً من بعيد كأنه  
 فكان تناديننا وعقد عذاره  
 فلأياً بلأبي ما حملنا غلامنا  
 ففقتى على آثارهن بحاصب  
 وولتى كشؤبوب العشي بوابل  
 فللساق أهوبٌ وللوسط درّة  
 فأدرك لم يُجهد ولم يُثن شأوه  
 ترى الفأر في مستنقع القاع لاحقاً  
 خفاهن من أنفاقهن كأنما  
 وظل لصيران الصريم غماغم  
 فكاب على حرّ الجبين ومتمق  
 ففتنا إلى بيت بعلياء مُردح  
 وقلنا لفتيان كرام ألا انزلوا  
 وأوتادُه مازية وعماده  
 وأطنابه أشطان خوص نجائب  
 فلما دخلناه أضفنا ظهورنا  
 فظل لنا يوم لذيذ بنعمة  
 كأن عيون الوحش حول خبائنا  
 ورحنا كأننا من جوائى عشية  
 نمش بأعراف الجياد أكفنا  
 إلى أن تروحنا بلا متعتب  
 وراح كئيس الربل ينغض رأسه  
 حبيب إلى الأصحاب غير ملعن

وبين رحيات إلى فج أحرُب  
 رواهب عيد في ملاء مهذب  
 وقال صحابي قد شأوتك فاطلب  
 على ظهر محبوبك السراة مُحسب  
 وغيبة شؤبوب من الشدّ ملهّب  
 ويخرجن من جعد ثراه مُنصب  
 وللزجر منه وقع أهوج منعب  
 يمرّ كخذروف الوليد المثقب  
 على جدّد الصحراء من شدّ ملهّب  
 خفاهن ودق من عشيّ مجلب  
 يداعسها بالسهمري المعلّب  
 بمدريّة كأنها ذلق مشعب  
 سمواته من أتحميّ مُعصب  
 فعالوا علينا فضل ثوب مطنب  
 ردينيّة فيها أسنة قعضب  
 وصوته من أتحميّ مُشرعب  
 إلى كل حاريّ جديد مشطب  
 فقل في ميل نخسه متغيب  
 وأرحلنا الجزع الذي لم يُثقب  
 نعالى النعاج بين عدلٍ ومُحقب  
 إذا نحن قمنا عن شواء مضهب  
 عليه كسيد الردهة المتأوب  
 أذاة به من صائك متحلب  
 يفدونه بالأمهات وبالآب

فيوماً على بُقِعِ دِقَاقِ صَدُورِهِ      ويوماً على سَفْعِ المِداْفِعِ رَبِربِ  
 كَأَنَّ دِماءَ الهادياتِ بِنَحْرِهِ      عُصارةَ حِناءِ بَشِيبِ مَخْضَبِ  
 وَأَنْتِ إِذا اسْتَدْبَرْتَهُ سَدَ فَرْجِهِ      بِضَافِ فَوَيْتِقِ الأَرْضِ لَيْسَ بِأَصْهَبِ

### قصيدة علقمة بن عبدة

ذهبت من الهجران في كل مذهب      ولم يكُ حقاً كل هذا التجنب  
 ليالي لا تبلى نصيحة بيننا      ليالي حلوا بالستار فعرب  
 مبتلة كأن أنضاء حليها      على شادن من صاحة مترب  
 محال كاجواز الجراد ولؤلؤ      من القلعي والكيس الملوب  
 إذا ألم الواشون بالشر بيننا      تبلى راسي الحب غير المكذب  
 وما أنت أم ما ذكرها ربعية      تحل بإير أو بأكناف شرب  
 أطعت الوشاة والمشاة بصرمها      فقد أنهجت جبالها للتقضب  
 وقد وعدتك موعداً لو وفيت به      كموعود عرقوب أخاه بيثرب  
 وقالت متى يبخل عليك ويعتدل      تشك وإن يكشف غرامك تدرب  
 فقلت لها فيني فما تستفزني      ذوات العيون والبنان الخضب  
 ففأت كما فأت من الأدم مغزل      بيشة ترعى في أراك وحلب  
 فعشنا بها من الشباب ملاوة      فأنجم آيات الرسول المحب  
 فإنك لم تقطع لبانة عاشق      بمثل بكور أو رواج مؤوب  
 بجفرة الجنين حرف شملة      كهملك مرقال على الأين ذعلب  
 إذا ما ضربت الدف أو صلت صولة      ترقب مني غير أدنى ترقب  
 بعين كمرآة الصناعات تديرها      لمحجرها من النصف المثقب  
 كأن مجاذبتها إذا ما تشدرت      عثاكيل قننو من سميحة مرطب

تذب به طوراً وطوراً تُمِرّه  
وقد أعتدي والطيّر في وكناتها  
بمنجرد قيد الأوابد لاحه  
بعوّج لبانه يُتَمّ برينه  
كُميت كلون الأرجوان نشرته  
مُمرّ كعقد الأندريّ يزينه  
له حُرثان تعرف العتق فيها  
وجوف هواء تحت متن كأنه  
قطاة ككردوس المحالة أشرفت  
وغلب كأعناق الضباع مُضيفها  
وسمرّ يُفلقن الطراب كأنها  
إذا ما اقتنصنا لم نخاتل بحنة  
أخا ثقة لا يلعن الحي شخصه  
إذا أنفدوا زاداً فإن عيبانه  
رأينا شياها يرتعين خميّة  
فبيننا تمارينا وعقد عذاره  
فأتبع أديار الشياها بصادق  
ترى الفأر عن مُسترغب القدر لائحاً  
خفا الفأر من أنفاقه فكأنما  
فظل لثيران الصريم غماغم  
فهاو على حرّ الجبين ومتق

كذبُ البشير بالرداء المهذب  
وماء الندى يجري على كل مذنب  
طراد الهوادي كل شأو مُغرّب  
على نفث راق خشيّة العين مجلب  
ليبع الرّواء في الصّوان المكعب  
مع العتق خلق مُفعم غير جانب  
كسامعتي مذعورة وسط ربّ ربّ  
من الهضبة الخلقاء زحلق ملعب  
إلى كاهل مثل الغبيط المذأب  
سلام الشظى يغشى بها كل مركب  
حجارة غيل وارسات بطحلب  
ولكن ننادي من بعيد: ألا اركب  
صبوراً على العلات غير مسبب  
وأكرعه مستعملاً خير مكسب  
كشي العذارى في الملاء المهذب  
خرجن علينا كالجمان المثقب  
حنيث كغيث الرياح المتحلب  
على جدد الصحراء من شدّ ملهب  
تجلله شؤبوب غيث مثقب  
يُداعسهنّ بالنّصيّ الملعب  
بدراته كأنها ذلق مشعب

\* \*



## طرفة بن العبد<sup>(١)</sup>

هو طرفة بن العبد بن سفيان ، نسبة المفضل إلى معد بن عدنان ، ويقولون إنه أشعر الشعراء بعد امرئ القيس ، وإنما نظروا إلى مرتبة قصيدته في الطوال على الترتيب المشهور ؛ وإلا فامرؤ القيس مختلف في تقديمه عندهم ، وقد أورد صاحب المجهرة قصيدة طرفة آخر السبع ، فقدمهم عليه جميعاً ، وهو على رأي المفضل من أن أصحاب السبع هم : امرؤ القيس ، وزهير ، والنابغة ، والأعشى ، وليبيد ، وعمرو ، وطرفة ؛ ولما كانت مثل هذه الأقوال المتضاربة لا تعدو الآراء المرتجلة التي لا ثبت لها ، فقد اخترنا إجمالها ، لأن الرأي لا يزال يعارضه مثله إلى أن ينقطع عند البرهان .

كان طرفة ابن أخت الشاعر المتلمس ، وابن أخي الشاعر المعروف بالمرقش الأصغر ، فالتقى إليه الشعر من طرفيه ؛ وكان في حسب من قومه ، جريئاً على هجائهم وهجاء غيرهم ، ولا يُعرف من تاريخ نشأته إلا القليل مما لا يتبهاً به الحكم على مبلغ تأثير نشأته في شعره ، غير أن جملة ما يؤخذ من ذلك أنه كان ألباً معتداً بنفسه ، مدلاً على قومه ، واثقاً بمنزلته منهم ، جريئاً بمقدار ما تدفع هذه الثقة ، مترفعاً إلا عن الملوك ، يرجوهم ويهجوهم ؛ فهو يذهب إليهم

---

(١) ذكر الآمدي في المؤلف والمختلف : من اسمه طرفة من الشعراء أربعة : أولهم هذا . والثاني طرفة بن ألاء بن نضلة . والثالث طرفة الجذمي أحد بني جذيمة العبسي (\*). والرابع طرفة أخو بني عامر بن ربيعة (ص ١٧٤ ؛ ج ١ : الخزانة) .  
(\* ) قلت : وهذا الثالث ذكره صاحب القاموس في مادة ( طرف ) وسماه طرفة الخزيمي من بني خزيمة بن رواحة ... وأحسبه خطأ والصواب ما نقل الراجزي .

بنفسه ولكنه يمثل لديهم وكأن في برديه حاشيتي قومه . ولا يعلل ذلك  
إلّا بأنه كان غرّاً لم تسلّم به السن بعدُ إلى مذهب عن نزق الحدائثة وسكرة  
الشباب لأنّه مات وله خمس وعشرون سنة بدليل قول أخته الخرنق  
في رثائه :

عددنا له خمساً وعشرين حجةً فلما توفّاها استوى سيّدأ ضحماً  
فُجِعنا به لما استتمّ تمامه على خير حالٍ لا وليداً ولا قحماً

القحم : المتناهي في السن . ويروى : ستّاً وعشرين حجة وقال بعضهم:  
إنما بلغ عمره نيّفاً وعشرين سنة ، فلا يبعد أن تكون ثمّ رواية : إحدى  
وعشرين حجة ، وعلى أي هذه الأقوال فقد خبّ هذا الشاعر وركض بسنيه  
القليلة في مثل الأعمار الطوال ، وكان منصباً على اللهو ، يعاقر الخمر ويتلف  
بها ماله ، فأورثته جنون الكبرياء وقتلته بلسانه الذي انتضى منه سيف الهجاء .  
روى الجاحظ ( البيان : الجزء الأول ) : قيل لامرئ القيس ابن حجر :  
ما أطيب عيش الدنيا ؟ قال : بيضاء رعبوية ، بالطيّب مشبوبة ، بالشحم  
مكروبة ! وسئل الأعشى فقال : صهء صافية تمزجها ساقية ؛ من صوب  
غادية ! وقيل مثل ذلك ذلك لطفرة فقال : مطعم شهبيّ . ومركب وطبيّ ! .  
وفي سبب قتله أقوال متقاربة ؛ أمثلها ما رواه يعقوب بن السكيت في  
شرح ديوانه ؛ قال<sup>(١)</sup> : إن لطفرة لما هجا عمرو بن هند ( ص ٤١٥ ج ١ :  
خزانة الأدب ) بأبياته التي أولها :

فليت لنا مكان الملك عمرو رغوئاً حول قبتنا تخور<sup>(٢)</sup>

لم يسمعا عمرو بن هند ؛ حتى خرج يوماً الى الصيد فأمعن في الطلب ،  
فانقطع في نفر من أصحابه حتى أصاب طريدته ؛ فنزل وقال لأصحابه :  
اجموا حطباً ، وفيهم ابن عم لطفرة ، فقال لهم : أوقدوا ، فأوقدوا ناراً  
وشوى ، فبيدنا عمرو يأكل من شوائه وعبد عمرو يقدم إليه ، إذ نظر الى خصر

(١) ذكر البغدادي في خزانة الأدب أن لديوان لطفرة شرحاً آخر للأعلم الشتمري .

(٢) الرغوئ : النجمة المرضع .

قيصه منخرقاً فأبصر كشحه وكان من أحسن أهل زمانه جسماً ، وقد كان بينه وبين طرفة أمر وقع بينها منه شرٌّ فهجاه طرفة بأبيات فقال له عمرو بن هند ، وكان سمع تلك الأبيات : يا عبد عمرو ، لقد أبصر طرفة حسن كشحك ، ثم تمثل فقال :

ولا خير فيه غير أن له غنى وأن له كشحاً إذا قام أهضاً

فغضب عبد عمرو بما قاله وأنف فقال : لقد قال للملك أقبح من هذا ! قال عمرو : وما الذي قال ؟ فقدم عبد عمرو وأبى أن يُسمعه ، فقال : أسمعيه وطرفة آمن ، فأسمعه القصيدة التي هجاه بها ... فسكت عمرو بن هند على ما قرر في نفسه ، وكره أن يعجل عليه لمكان قومه فأضرب عنه - وبلغ ذلك طرفة - وطلب غرته والاستمکان منه ، حتى أمن طرفة ولم يخفّه على نفسه ، فظن أنه قد رضي عنه ، وقد كان المتلمس - وهو جرير ابن عبد المسيح - هجا عمرو بن هند ، وكان قد غضب عليه ، فقدم المتلمس وطرفة على عمرو بن هند يتعرضان لفضله ، فكتب لهما إلى عامله على البحرين وهجر ... وقال لهما انطلقا إليه فاقبضا جوائزكما ، فخرجا ، فزعموا أنها لما هبطا النجف قال المتلمس : يا طرفة ، إنك غلام غرّ حديث السن ، والملك من قد عرفت حقه وغدره ، وكلانا قد هجاه ، فلست آمناً أن يكون قد أمر فينا بشر ، فهلم ننظر في كتابنا ، فإن يكن أمر لنا بخير مضيئنا فيه ، وإن يكن أمر فينا بغير ذلك لم نهلك أنفسنا ، فأبى طرفة أن يفك خاتم الملك ، وحرص المتلمس على طرفة فأبى [ ثم كان من أمرهما أن قتل طرفة ، قتله عامل عمرو بن هند على البحرين (\*) ] ويقال إنه لما قرأ العامل الصحيفة عرض عليه فقال : اختر قتلة أقتلك بها ، فقال : اسقني خمرأ ، فإذا مثلت فافصد أكحلي ، ففعل حتى مات ، وذكر ذلك البحترى بقوله :

وكذاك طرفة حين أوجس خيفة في الرأس ، هان عليه فصد الأكل

(\*) زيادة على الأصل .

قال المرتضى في أماليه ( ص ١٣١ ج ١ ) : ويقال إن صاحب هذه القصة هو النعمان بن المنذر ، وذلك أشبه بقول طرفة :

أبا منذرٍ كانت غروراً صحيفتي      ولم أعطكم بالطوع مالي ولا عرضي  
أبا منذرٍ أفنيت فاستبقتِ بعضنا      حنانيك، بعضُ الشر أهون من بعض

وأبو المنذر هو النعمان بن المنذر ، وكان النعمان بعد عمرو بن هند ، وقد مدح طرفة المتلمس في النعمان ، فلا يجوز أن يكون عمرو قتله ، فيشبه أن تكون القصة مع النعمان .

وقالوا إن طرفة نطق بهذين البيتين ( أبا منذر... ) لما أيقن بالموت ، وقد عدّوه بها فيمن شعره في رويته وبديته سواءً عند الأمن والخوف ، لقدرته وسكون جأشه وقوة غريزته ، كهديبة بن الحشرم ومرة بن محكان السعدي ( ص ١٢٩ ج ١ : العمدة ) .

ويقال إن ذلك كان سنة ٥٥٢ بعد الميلاد ، وقيل سنة ٥٦٤ .

شعره .

لم ينص أحد على مقدار ما صحت به الرواية عن طرفة ، إلا أن بعضهم ذكر أن ما يصح من ذلك أحد عشر شعراً ؛ فلا يميز من المنحول في شعره إلا القليل ، وإلا ما جاءت بسببه رواية من الروايات ؛ كبعض القصائد التي نسبها له حماد ، وستعرف شيئاً منها في بحث الرواية والرواة (\*) ، غير أن طولته من شعره الذي لا خلاف في نسبه ، وإن كانت لا تخلو من تهذيب الرواة وزيادتهم فيها ، وهي التي [ فضله ] الناس بها وجعلوها واحده وقالوا فيه من أجلها إنه أجودهم طويلة ؛ وتكاد هذه القصيدة تكون ديوانه ؛ لأنها جمعت محاسن صنعته وضمت أطراف معانيه واطردت اطراد الماء ، وهي التي

(\*) قلت : انظر التعليق في ص ١٢٩ .

( ملاحظة : بحث « الرواية والرواة » يشكل الباب الثاني من أبواب الكتاب ، وقد ورد في الجزء الأول ص ٢٦٩ ) .

جعلت صاحبها أضرب شعراء الجاهلية مثلاً عند قتيبة فيما أجاب به الحجاج حين كتب إليه يسأله عن أشعر الجاهلية وأشعر أهل زمنه ، وقد عدّ العلماء أكثر مخزعات طرفة منها . كقوله فيها ( ص ١٧٦ ج ١ : العمدة ) :

ولولا ثلاثٌ هنّ من لذة الفسق  
وجدك ، لم أحفل متى قيام عودِي  
فهنن سبقي العاذلات بشربة  
كفيت متى ما تُعل بالماء تُزبِدِ  
وكري إذا نادى المضاف جنباً  
كسيد الغضا ذي الطخية المتورد  
وتقصير يوم الدجن والدجن مُعجِبٌ  
ببَهْكَنَةٍ تحت الطراف المعمد

ولم يجدوا له مخترعاً في غيرها إلا قليلاً .

وروى بعضهم في سبب قولها ، أنه كان لطرفة أخ اسمه معبد ، وكان لها إبل يربعها يوماً ويوماً ، فلما أغبها طرفة قال أخوه معبد : لم [لا تسرح] في إبلك ؟ تترى أنها إن أخذت تردّها بشمرك هذا ؟ قال : فإني لا أخرج فيها أبداً ، حتى تعلم أن شعري سيردّها إن أخذت ! فتركها وأخذها ناس من مضر .

وقيل : بل إن الإبل التي ضلّت هي إبل معبد فسأل طرفة ابن عمه مالكاً أن يعينه في طلبها فلامه وقال : فرطت فيها ثم أقبلت تتعب في طلبها ! فقال قصيدته ؛ وهي تربي على مائة بيت ، وتختلف بعد المائة باختلاف الروايات ، ذكر فيها الأطلال واستوقف بها ثم شبه قباب النساء بسفين الماء ، ووصف ذات هواه في الحى فبسط من ذلك صورة رائعة من صور الطبيعة ، ثم التفت إلى ناقته فأمضى بها الهم عند احتضاره ، واستأنم بها على وضح الطريق من عثاره ، ووصف من وثيق خلقها وطيب مرعاها وكرم العتق

فيها وتراصف عظامها وتداخل أعضائها؛ فبنى على ذلك بناء يحسن أن يكون أبياً من علم التشريح البيطري في الجاهلية ... ثم ذكر نشاطها وإسراعها وسهولتها ، ونقل من ذلك إلى نفسه فوصف نفاذه ومضيته على الهول وأنه يتقلب على جنبي السيادة واللهو ، ونسج من ذلك حاشيته ، ثم كأنما سكر كلامه فوصف من سفه ما تحامته من أجله العشيرة حتى أفرد أفراد البعير الأجرى المذلل .. وبعد أن انتهى إلى المذلة صحا على لائمه وأخذ يعدّ لذاته مما يصفه بالخيلة والفتوة ونضرة العيش ، ثم خرج من ذلك بالسوداء ، فذكر الموت ووازن بينه وبين الحياة ، ليدل على أن ربح الحياة هو الربح وصار كلامه من ذكر الموت إلى النزاع ، غير أنه هجم بهذا الموت يعاتب ابن عمه مالكاً الذي ضيّع إبله ، فكانه يذكره أن ضياع إبله خطب يسير ، إذ يحمّ القضاء فتضيع روحه في الوادي الذي لا يتقدم فيه يطلبها ولا تنشد فيه عند ربها ، ثم جعل يذكره بالقربى ورعايتها كأنه يستعطف ، ولكنه اتخذ من ذلك وسيلةً تخلص بها إلى عمرو بن مرثد أحد سادات العرب ، فقال :

فلو شاء ربي كنت قيس بن خالد      ولو شاء ربي كنت عمرو بن مرثد

وكان عمرو هذا كثير الولد ، فقالوا إنه لما بلغه قولُ طرفة وجه إليه وقال : أما الولد فالله يرزقك ، وأما المال فسنجعلك فيه أسوتنا ، فأمر سبعةً من ولده فدفع إليه كل واحد عشرًا من الإبل ، وأمر ثلاثة من بني بنيه فدفع إليه كل واحد عشرًا .

ثم عاد طرفة فنفض غبار الذلة ، واستكثر بعد القلة ، وتميَّح في شعره وهدرت هذه الكلماتُ في أشدائه ، حتى قطع القصيدة على حكمة بالغة لا تزال تدور في الناس فهو بها على الفناء يتجدّد ، وكأنها كانت نفساً من أنفاس الخلود فقرنت باسمه من هذه القوافي الدالية قافية « الخلد » .

ومن مختار تلك القصيدة قوله :

إذا القومُ قالوا مَنْ فتسى؟ خِلْتُ أني  
 وإن يَلتقِ القومُ الجميعُ تلاقني  
 أرى قبرَ نَحامٍ بِخيلٍ بِماله  
 أرى الموتَ يعتامُ الكرامَ ويصطفي  
 لعمرك إن الموتَ ما أخطأَ الفقى  
 عنيتُ ، فلم أكسلُ ولم أتبلدِ  
 إلى ذروةِ البيتِ الرفيعِ المصمَدِ  
 كقبرِ غويٍّ في البطالةِ مفسدِ  
 عقيلةِ مالِ الفاحشِ المتشددِ  
 لكالطَّولِ المرخى وثنياه في اليدِ

وقوله مفتخراً فيها :

أنا الرجلُ الضربُ الذي تعرفونه  
 فأليتُ لا ينفكُ كشحي بطانةً  
 إذا ابتدرَ القومُ السلاحَ وجدتي  
 خشاشٌ كراسِ الحيةِ المتوقدِ  
 لمضبٍ رقيقِ الشفرتينِ مُهندِ  
 منيعاً إذا بَلَّتْ بقائمه يدي

وختامها :

ستبدي لك الأيامَ ما كنتَ جاهلاً  
 ويأتيكُ بالأنباءِ من لم تبع له  
 ويأتيكُ بالأخبارِ من لم تُزودِ  
 بتاتاً ولم تضربْ له حين موعدِ

### مذاهبه في الشعر .

ليس فيما وقع إلينا من شعر الجاهلية ما ينطق بأن صاحبه شاعر قبيلةٍ  
 بجموع هذا المعنى ، غير شعر طرفة ؛ فهو إذا فخر رأيته يتكلم بلسان ملك  
 قد ضمن طاعة قومه واستمسك بميثاقهم ؛ وما [ كان ] أحق امرئ القيس  
 بمثل هذا الفخر فيقيم به جهة من شعره قد تركها وهي تريد أن تنقض .

وقد وصف طرفة النوق وصفاً شعرياً ، ولكنه قصر في صفة الخيل  
 وجاءت في كلمه متفرقاتٌ من الحكم والأمثال ، وهي أبدع ما في شعره ، ثم  
 هو قد ضرب في الهجاء بالسهم الصائب ورجم فيه بالشهاب الثاقب ، ولكنه  
 قليل المديح نازل الطبقة فيه ؛ ولم يُؤثر له من ذلك إلا ما يرد على قومه ،  
 وهو مدحه لقتادة بن سلمة الحنفي حين أصاب قومه سنة فأتوه فبذل لهم ؛

وتم أبياتُ قالوا إنه مدح فيها سعد بن مالك حين أُطرد فصار في غير قومه  
وقد ذكروهم فيها بقوله :

وليس امرؤُ أفنى الشباب مجاوراً سوى حيه إلا كآخر هالك  
ولعل مديحها منحول إذ يقول فيه :

رأيت (سعوداً) من شعوب كثيرة فلم تر عيني مثل سعد بن مالك  
وليس مثل هذا بما يقوله طرفة .

ويمتاز هذا الرجل بالمبالغة والإغراق ، فكأنه ينظر الى دقائق الوصف  
بعين من البلور ... وذلك كقوله في وصف الناقة :

كأن جناحي مضرحيّ تكنفاً حفافيه سُكا في العسيب بمِسرد<sup>(١)</sup>  
فطوراً به خلف الزميل ، وتارة على حشف كالشنّ ذاو مُجدد<sup>(٢)</sup>  
لها فخذان عوليّ النحض فيها كأنها باباً منيف مُمرد<sup>(٣)</sup>  
كأن كناسي ضالة يكتفانها وأطر قسيّ تحت صلب مؤيد<sup>(٤)</sup>  
لها مرفقان أفتلان كأنما أمرا بسلمى دالج متشدد<sup>(٥)</sup>  
كقنطرة الرومي أقسم ربهما لتُكتنفن حتى تُشاد بقرمد<sup>(٦)</sup>

(١) المضرحي : النسر . وتكنفا : أحاطا . وحفاياه : جانباه . والعسيب : عظم  
الذئب . والمسرد : [ المحصف ] الإشفى .

(٢) الزميل : الرديف ، والحشف : الضرع الذي لا لبن فيه . والشن : القرية الخلقة .  
والذاوي : اليابس . ومجدد : أي لا لبن فيه ولا لبن .

(٣) عولي : رفع بعضه على بعض . والنحض : اللحم . والمنيف : الشرف . والمرد :  
الملس .

(٤) الكناس بيت الظباء . والضال : السدر البري . وأطر القسي : عطفها وانحناؤها .  
والمؤيد : الموتق ، من الأيد ، أي القوة .

(٥) أمرا : أي فتلا . والسلم : الدلو لها عروة . والدالج : الذي يمسى بالدلو من البئر  
الى الحوض . والمتشدد : التكلف للشدة .

(٦) القنطرة : الجسر . وتشاد بقرمد : أي ترفع بقرمد ... ( ص ٨٥ : الجمهرة ) .



فقد أراد أن يصف ذنب الناقة بكثرة الُهلب ، وهو الشعر الكثير ، فشبهه يحناحي النسر ، وجعل فخذها كباي الصرح المرء ، وشبه تباعد ما بين مرفقيها وزورها بكناس الطبي حول الشجر ، ثم شبه الناقة في ارتفاعها بقنطرة الرومي الذي جعله يقسم على قنطرقه لتُحاطنّ بالبناء ولتُشادنّ بالقرمد ؛ ولعمري ليس هذا القسم بأكثر من اللغو . وقد مر في مثل هذه التشبيهات حتى وصل إلى عيني الناقة فجعلها من حجاجيها في مثل غارين من الجبل ، ولو أنه مد في عنق هذه الناقة فشبهه بأطول من خراطيم السحاب ...

وإنما تحسن المبالغة إذا لم يكن التشبيه منكشفاً هذا الانكشاف فيكون في إحدى جهاته سبب الأسباب التي يصح أن تتعلق عليه المبالغة ؛ وسيأتيك هذا في موضعه مفضلاً .

ومن نوع قسم الرومي في شعر طرفه قوله متغزلاً يصف الأفعوان :

وتبسم عن ألمي كأن منوراً  
تَحَلَّلَ حُرَّ الرملِ دِعْصٌ له نَدِي<sup>(١)</sup>  
سَقَتَهُ إِياءَ الشمسِ إلا لثاته  
أَسْفَ ولم تَكْدِمِ عليه بِإِئْمِدِ<sup>(٢)</sup>

فخاصل البيتين أنه يشبه ثعر التي يتغزل فيها بالأفعوان الندي ، ويقول إنها قد ذرّت الإئمد على لثاتها ( وسائر العرب يفعلن ذلك في الشفاه واللثات ليكون أشد للمعان الأسنان ) غير أن تحلل الدعص الندي من الأفعوان

(١) للمي : سواد في الشفة، والنور : الأفعوان ، وحر الرمل : النقي منه ، والدعص : الكثيب الصغير من الرمل .

(٢) الإيأة : ضوء الشمس . واللثة : مغرز الأسنان . يقول : أسنانها بيض ، ولثاتها زرق . وأسف : أي ذر عليه . ولم تكدم : أي لم تمض فتختلف نبتته وأصوله ؛ والإئمد : الكحل .

المنور لحرّ الرمل ، والوصول من ذلك كله الى تشبيه الثغر بالرفيف والمعان  
لا يُعدّ فلاحاً في الغزل وأولى به أن يكون فلاحاً ...

والصنعة في شعر طرفة قليلة إلا أنها جيدة ، وأرى شعر هذا الرجل  
كالشباب : حقيقة جماله في القوة والمتانة ؛ فإن اتفق معه شيء من ظواهر  
الجمال كان ذلك بمجموعه كلاً ، فمن مشهور استعاراته قوله :

فإذا ما شربوها وانتشوا وهبوا كل أمون وطير  
ثم راحوا عبثُ المسك بهم يلحفون الأرض هُدَابَ الأزُر

وهي غاية من غايات هذا الجواد : فإن البيت يصور الجمال والقوة  
والكبرياء ، ويكاد يريك الناس مطرقين قد تعلقت أعينهم بهُدَابِ تلك  
الأزُر . ومن هذه القصيدة بيت دائر في كتب اللغة والأدب ، وهو قوله :

نحن في المشتاة ندعو الجفَلَى لا نرى الآدِبَ فينا ينتقر

غير أن حياة هذا البيت تاريخية لا شعرية ، لأنه إنما سار وبقي للاستشهاد  
بألفاظه ؛ ومن كلماته الجميلة قوله : ( وعامت بضبعيها ) . إذ يصف الناقه  
بأنها تمد يديها كهيئة السابح ، وقوله : ( طراد الغرام ) في صفة قومه بالبذل  
والسفه ، وقوله في صفة الحرب يذكر قومه :

لا ترى إلا أخا رجل آخذاً قرناً فلتزمه

فهذه الكلمة ( أخا رجل ) في موضعها من أبلغ الكلم ، بل هي من  
جوامعها ، لأنها تدل على كثرة قومه وإقدامهم ، وتوزعهم في الحرب  
توزع الأجال واستفراقهم أعداءهم ، إلى نحو ذلك ؛ ومن هذه القصيدة  
الحكمة السائرة :

للفق عقل يعيش به حيث تهدي ساقه قدمه

ومما أختاره له في الحماسة قوله :

وأعلم علماً ليس بالظنّ أنه إذا ذلّ مولى المرء فهو ذليلٌ  
وأن لسان المرء ما لم يكن له حصةٌ على عوراته لدليل

ولا يزال الكتاب لهدنا يكتبون « علم ليس بالظن » وهم يظنون أنها  
معرّبة ... وقد جاءت في شعر إسلامي من شعر المائة الأولى : وأعلم غير  
الظن ، وهي أبلغ وأوجز .



## زهير بن أبي سلمي

هو زهير بن أبي سلمي - قال فيه الصحاح : ليس في العرب سلمي ( بالضم ) غيره - ابن رباح ، يرتفع نسبه الى نزار ، كان ورعاً حكيماً يعدونه من مترهبة العرب ، قالوا : وهو أحد الثلاثة المتقدمين على سائر الشعراء ، وإنما اختلف في تقديم أحدهم على صاحبه ، فأما الثلاثة فلا اختلاف فيهم ، وهم : امرؤ القيس ، وزهير ، والنابغة الذبياني ، وما أرى ذلك عن جماعة ، فإن الأقوال مختلفة في التفضيل بين الشعراء ، وقد جاءت روايات بتقديم أوس بن حجر ، وعلقمة بن عبدة ، وغيرهما ، ولكن أصل ذلك الخبر فيما أراه ما أتت به الرواية عن يونس بن حبيب النحوي أن علماء البصرة كانوا يقدمون امرأ القيس ، وأن أهل الكوفة كانوا يقدمون الأعشى ، وأن أهل الحجاز والبادية كانوا يقدمون زهيراً والنابغة ، وكان أهل العالية لا يعدلون بالنابغة أحداً ، كما أن أهل الحجاز لا يعدلون بزهير أحداً (ص ٦٢ ج ١ : العمدة ) .

وإلى هذه الرواية يرجع كل ما ورد عن ابن عباس وعمر بن الخطاب وغيرهما من الحجازيين في تقديم زهير وأنه أشعر الشعراء .

وقد ورث زهير الشعر عن أبيه وخاله ، وورثه ولده ، قال ابن الأعرابي : كان لزهير في الشعر ما لم يكن لغيره ؛ كان أبوه شاعراً ، وخاله شاعراً ، وأخته سلمى شاعرة ، وأبنائه كعب ويحير شاعرين ، وأخته الحنساء شاعرة ، وابن ابنه المضرب بن كعب شاعراً .

وفي رواية حماد وابن الكلبي عن أبيه قال : كان بسامة بن الغدير خال أبي سلمى ، وكان زهير منقطعاً إليه ممجّباً بشعره .. وكان بسامة أحزم الناس رأياً ، فكانت غطفان إذا أرادوا أن يغزوا أتوه فاستشاروه وصدروا عن رأيه ، فإذا رجعوا قسموا له مثل ما يقسمون لأفضلهم ، فمن أجل ذلك كثر ماله ، فلما حضره الموت جعل يقسم ماله في أهل بيته وبين بني إخوته فأتاه زهير فقال: يا خاله ، لو قسمت لي من مالك ! فقال: والله يا ابن أخي لقد قسمت لك أفضل ذلك وأجزله . قال : وما هو ؟ قال : شعري ورتنتيه ؛ وقد كان زهير قبل ذلك قال الشعر . وكان أول ما قاله ، فقال له زهير : الشعر شيء ما قلتَه فكيف تعتدّ به علي ؟ فقال له بسامة : ومن أين جئت بهذا الشعر ؟ لعلك ترى أنك جئت به من مزينة ؟ - هي قبيلة من مضر ينسبون إليها ، قال ابن قتيبة : وإنما نسبه في غطفان ، وردّه ابن عبد البر في الاستيعاب - وقد علمت العرب أن حصاتها وعين ماؤها في الشعر لهذا الحلي من غطفان ، ثم لي منهم ، وقد رويته عنّي .

غير أن الثابت الذي يُدفع ، أن زهيراً كان راوية أوس بن حجر ، وطفيل الغنوي جميعاً ( ص ١٣٢ ج ١ : العمدة ) وكان أوس زوج أم زهير ( ص ٥٥ ج ١ : العمدة ) فإذا صح أنه روى شعر بسامة أيضاً ، وأن بسامة كان بالمنزلة التي وصفوا من أصالة الرأي ، فيكون زهير قد احتذاه في حكمة وأمثاله ؛ لأنه لا يُعرّف لشاعر جاهلي ما عُرّف من ذلك لزهير .

وكان زهير يمدح هرم بن سنان سيد غطفان وأحد أجواد العرب المشهورين ، وهو الذي وقع به الى صميم المديح وأراه من جوده موضع الاختراع ، حتى قالوا إنه حلف أن لا يمدحه زهير إلا أعطاه ، ولا يسأله إلا أعطاه ، ولا يسلم عليه إلا أعطاه - عبداً أو ليدة أو فرساً ، فاستحيا زهير مما كان يقبل منه ، فكان إذا رآه في ملا قال : عموا صباحاً غير هرم وخيركم استنيت ؛ وقد سلف لنا الكلام في الارتجال والبدئية عن حوليات هذا الشاعر والأسباب التي بعثته على الصنعة والتنقيح حتى صار مثلاً في ذلك للمتأخرين ، وخرج شعره مُصقّى مستويّاً ؛ إذ كان لا يعاظر بين الكلام ،

ولا يتتبع الوحشي منه<sup>(١)</sup> .

حتى قال أبو عبيدة : إن لشعره ديباجة إن شئت قلت شهد إن مسسته ذاب ، وإن شئت قلت صخر لو رذيت به الجبال لأزالها .

وعمر زهير طويلاً ، وتوفي قبل البعثة بسنة ، وديوان شعره معروف وعليه شروح طبع منها في « ليدن » شرحه للأعلم الشنمري سنة ١٨٨٩ للميلاد .

### مختاراتها وسببها .

كان ورد بن حابس العبسي قتل هرم بن ضمضم المري الذي يقول فيه عنزة وفي أخيه :

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدرُ للحرب دائرةٌ على ابنسي ضمضم

فتشاجر عبس وذبيان قبل الصلح ، وحلف حصين بن ضمضم أن لا يغسل رأسه حتى يقتل ورد بن حابس أو رجلاً من بني عبس ؛ ثم من بني غالب [ ولم يطلع على ذلك أحد ؛ وقد حمل الحمالة الحارث بن عوف بن أبي حارثة ، فأقبل ... حتى نزل بحصين بن ضمضم ، فقال له حصين : من أنت أيها الرجل؟ قال : عبسي ، قال : من أي عبس ؟ فلم يزل ينتسب حتى انتسب الى بني غالب ، فقتله حصين ، وبلغ ذلك الحارث بن عوف وهرم بن سنان فاشتد عليها ؛ وبلغ بني عبس فركبوا نحو الحارث ، فلما بلغه ركوبهم إليه وما قد اشتد عليهم من قتل صاحبهم وأنهم يريدون قتل الحارث ، بعث إليهم بمائة من الإبل معها ابنه ، وقال للرسول : آلايل أحب إليكم أم أنفسكم ؟ فأقبل الرسول حتى قال لهم ذلك ، فقال لهم الربيع بن زياد : يا قوم إن أخاكم قد أرسل إليكم : آلايل أحب إليكم أم ابني تقتلونه مكان قبيلكم ؟ فقالوا : نأخذ

(١) قالوا : المعاظة ترديد الكلام في قافية بمعنى واحد ، وقال صاحب المثل السائر : هي مأخوذة من قولهم تعاطلت الجرادتان ، إذا ركبت إحداهما الأخرى ، فسمي الكلام المتراكب في ألفاظه وفي معانيه بالمعاظة ، وله في تقسيمها كلام حسن فالتمه هناك .

الإبل ونصالح قومنا ونتم الصلح (\*) ] .

فقال زهير هذه القصيدة يمدح الحارث وهرما ، وتلك منقبة ليس لها إلا المديح من شاعر ورع حكيم كزهير ، وقد ذكرهما بها في قصيدته الأخرى التي مطلعها :

\* صحا القلب عن سلمى وقد كاد لا يسلو \*

وكانت تلك أول قصيدة مدح بها هرما ، ثم تابع بعد ذلك . والرواة يختلفون في عدد أبياتها ؛ ولكنهم لا يزيدون [منها] على أربعة وستين بيتاً ، ولا ينقصون عن تسعة وخمسين ؛ وقد استهلها بكلام عن الديار والآثار كان شائعاً في العرب ، ولم يحسن فيه إحسان غيره ، ثم وصف الطعائن في الهوادج وما طرحن عليها من الأنماط العتاق والكلل التي تشبه حواشيتها لون الدم ، وذكر بكورهن وأنهن لا يخطئن الوادي كما لا تخطيء اليد القم ... واستمر يصف رحيلهن ، ثم اقتضب المديح في الحارث وهرم ، فذكر مساعيها ومداركنها عبساً وذبيان ، وما احتملا من غرامة لم يجرما لها ، ثم أقبل على الأحلاف: أسد وغطفان وطبيء ، يندرم أن يحنثوا فيما تحالفوا عليه من السلم أو يكتموا الله ما في صدورهم ويذكرهم بالحرب ما علموا وذاقوا ، ويصفها لهم وقد لقمحت وأنتجت كل غلام أشأم ، وأغلّت ما لا تغلّ قري العراق من قفيز ودرم ، ثم ذكر ما جره عليهم حصين ؛ وتخلص من ذلك الى الذين تحملوا الديات ووطأوا أكناف المكارم لهذه المغارم ، فوصف كرمهم وعزمهم ، ثم خرج الى ما يشبه كلام الأنبياء؛ فاستخلص مما قصه حكماً يصف بها الحياة السياسية والاجتماعية ؛ ولقد أبرزها في موضعها سياسةً في الشعر وفلسفةً في السياسة ؛ وهي جملة المختار من هذه القصيدة ؛ ومنها :

ومن لا يصانع في أمور كثيرة يُضَرَّسْ بأنيابٍ ويُوطأً بمنسِمِ  
ومن يجعل المعروف من دون عِرْضِهِ يَفِرُّهُ ومن لا يتقَى الشتم يُشتم  
ومن يك ذا فضلٍ فيبخلُ بفضله على قومه يُستغْنَى عنه ويذمم

(\*) ما بين العلامتين [ ] زيادة على الأصل .

الى أن يقول :

ومها تكن عند امرئ من خليفة  
وكائن ترى من صامت لك مُعْجِبِ  
وإن خالها تخفى على الناس تُعَلِّمِ  
زيادته أو نقصه في التكلم  
لسان الفق نصفٌ ونصف فؤاده  
ولم يبق إلا صورة اللحم والدم  
وهذان البيتان من الروحانيات التي لا تزال تطير بين السماء والأرض .

شعره .

قد تقدم أن زهيراً أشهر من عُرف من العرب باستثبات اللفظ وتخيثر  
الكلمة وتنقيح العبارة ؛ فلا جرم كان أحصفهم شعراً ، وأفصحهم لفظاً ؛ ولا  
يزال قد رمي في شعره بالحكمة الرائعة ، والمثل السائر ، والمعنى اللطيف ،  
واللفظ الفخم الجليل ، والقول المنسق النبيل ، وقد سلس له النظام ، وأطاعه  
عصيُّ الكلام ، فلا تتبين في ألفاظه ذلة الاستكراه ، ولا هوان الاعتساف ،  
بل تراها من الروعة والفخامة وحسن الاستواء كأنما كانت تهدر في قلبه لا في  
شده ، ولكأني أرى أبياته موازين ، فلا تكاد اللفظة تميل في الكفة حتى  
تقع أختها في الكفة الأخرى فتساويا ، ومن أجل ذلك قل المنحول في شعره  
لأنه ديباجة غير ممزقة ، ونسيج غير مخزق ، ولا يأخذه نظر الناقد حتى  
ينفيه ، وقد نحلوه أبياتاً يقال إنها لصرمة الأنصاري يقول في أولها :

ألا ليت شعري هل يرى الناس ما أرى

من الأمر أو يبدو لهم ما بدا ليا

( ص ٥٨٢ : شعراء النصرانية )

فنفاها الأصمعي لأنها لا تشبه كلامه ؛ إذ كانت ألفاظ زهير طريقة بينة ،  
وكان شعره نفساً لا فتور فيه ولا تلبث ، وحسبه يمثل هذا الدليل : إذا  
كان الدخيل في القوم لا يُستدك بغير انقطاع نسبة على أنه دخيل .

ويظهر لمن تدبر شعر زهير أنه ضعيف الابتكار والاختراع ، لا يعارض



في ذلك الفحول المعدودين كأمريء القيس وغيره ، ولكن ألفاظه وصنعته غطت على هذا النقص ؛ فقلنا ينكشف إلا لمن عارض وتلتبع ؛ وقد تراه يأخذ في صفة من الصفات كنعمة الناقة أو حمر الوحش أو طراد الصيد ، فلا يزال ينحتها من ألفاظه حتى تتمثل كأنها دمية مصور [ إن لم تكن فيها حياة فإن الحسن في تماها حي ] .

وترى الرأبي يقلب شعر هذا الرجل ، فكأنه شعر سيد لا شعر شاعر ، وأكثر ما يظهر ذلك في أبياته الهمزية التي يقال إنه هجا بها آل بيت من كلب من بني 'عليم بن حبان وذلك حيث يقول فيها (ص ٥٥٢: شعراء النصرانية):

وما أدري وسوف إخال أدري	أقوم آل حِصْن أم نساء ؟
فإن قالوا النساء مخبات	فحق لكل عصنة هداء
وإما أن يقول بنو مصاد	إليكم ، إننا قوم برآء
وإما أن يقولوا قد وينا	بذمتنا فمادتنا الوفاء
وإما أن يقولوا قد أبينا	فشر مواطن الحسب الإباء
وإن الحق مقطعه ثلاث:	عين ، أو نفار ، أو جلاء

وبهذا البيت الأخير سمي زهير قاضي الشعر . أما قوله وما أري .. الخ فهو الذي اختاره علماء البلاغة مثلاً في باب التشكك ، وهو من ملح الشعر و طرف الكلام ، وله في النفس حلاوة وحسن موقع ، بخلاف ما للقلو والإغراق ؛ لأنه يدل على قرب الشبهين حتى لا يفرق بينهما ؛ فقد أظهر زهير أنه لم يعلم أم رجال أم نساء ؛ وهذا أملح من أن يقول هم نساء ؛ وأقرب إلى التصديق ، وأبلغ في التهكم والازدراء والتقصص ( ص ٥٣ ج ٢ : العمدة ) ومن هذه القصيدة :

ولولا أن ينال أبا طريف	إساراً من ملك أو لحاء <sup>(١)</sup>
لقد زارت بيوت بني 'عليم	من الكلمات آنية ملاء

(١) أبو طريف : كان مأسوراً عندهم ، والإسار : سوء الأسر وشدة ، والمليك : الأمير لأنه يملكهم ، واللحاء : الملاحاة واللوم .

ولعمري إن هذه الآنية الملاء لطرفه من طرف الاستعارة ، وإن حسنها  
إنما تم بذكر البيوت في صدر الشعر . وفيها أيضاً :

وإني لو لقيتك فاجتمعنا لكان لكل مُنْديّة لقاء

ويروى : لكل منكورة كفاء ، وهي لحة دالة أشار بها لقبح ما كان  
يصنع به لو لقيه ، وهذا البيت عند قدامة أفضل بيت في الإشارة التي لا يأتي  
بها إلا الشاعر المبرز والحاذق الماهر .

ولا بأس أن ننسحب على هذا الأثر من البديع ، فإن ذلك من متمات  
زهير ، ولولاه لما كان لصنعتة شأن ، وقد كان يتوكأ في هذه الطريقة على من  
تقدمه من الفحول ويلوذ بهم ، كامرئ القيس وأوس بن حجر وأبي دؤاد  
الأيادي ، كما أتبع في صفته امرأ القيس قوله :

كان فتات العهن في كل منزل نزلن به حب الفنا لم يحطم

فإنه أوغل في التشبيه إيفالاً ؛ بتشبيهه ما يتناثر من فتات الأرجوان  
بحب الفنا الذي لم يحطم لأنه أحمر الظاهر أبيض الباطن ، فإذا لم يحطم لم يظهر  
فيه بياض ألبتة ، وكان خالص الحمرة ، وقد أتبع بيت امرئ القيس :

كان عيون الطير حول خبائنا وأرْحُلْنَا الجزع الذي لم يشقّب

وكذلك أتبع في نفي الشيء بإيجابه حيث يقول :

بأرض خلاء لا يسدّ وصيدُها عليّ ومعروفي بها غير مُنْكَرٍ

فأثبت لها في اللفظ وصيداً ، وإنما أراد ليس لها وصيدٌ فيسدّ ، وله  
في المبالغة والتتعميم العجيب قوله :

من يَلْتَقَ يوماً على علاته هراً يلقى السامحة منه والندی خَلِقًا

فإنه يريد بقوله ( على علاته ) ما يكون من قلة المال والعُدْم ، أي فكيف  
به وهو على خير تلك الحال ، وقد جاء له في هذه القصيدة :

يطعنهم ما ارتقوا حتى إذا أطعنوا ضارب ، حتى إذا ما ضاربوا اعتنقا

قالوا إنه أتى بجميع ما استعمل في وقت الهياج وزاد بمدوحه رتبة وتقدم

به خطوة على أقرانه ، وهو نوع من التقسيم تأتي فيه الزيادة تدريجياً وترتيباً ،  
ولذلك يصعب على متعاطيه ويقل جداً حتى إنهم لم يجدوا من الشعر عدل  
هذا البيت ( ص ٢٠ ج ٢ : العمدة ) .

ذلك بعض صنعة ، أما معانيه فإن أكثر ما 'قدم به زهير المديح ،  
وهو الذي ألقى عن المادحين فضول الكلام ، وله في ذلك أبيات لم يسبق  
إليها ، كأبياته القافية التي يقول فيها :

\* من يلق يوماً على علاقته هرماً \*

ونحو قوله :

مَنْ ضَرِيبَتُهُ التَّقْوَى ، وَيَعْمَصُهُ      مِنْ سَيِّئِ العَثَرَاتِ اللهُ وَالرَّحِيمُ<sup>(١)</sup>  
مورث المجد لا يفتال همته      عن الرياسة لا عجز ولا سأم  
وقصيدته اللامية التي مطلعها :

\* صحا القلب عن سلى وقد كاد لا يسلو \*

وفيها يقول :

على مكثريهم رزق من يعترهم      وعند المقلين الساحة' والبذل'  
وما يك' من خير أتوه فإنما      توارثه آباء' آباءهم قبل'  
وهل ينبت الخطي' إلا وشيجة      وقفرس إلا في منابتها النخل'؟

كذلك أبياته التي استجمع فيها ضروب المديح من العقل والعفة والعدل  
والشجاعة ، وهي التي يقول فيها ، وهي من المديح المنصوص عليه ، وقد  
عدّها شرفاً لمن قيلت فيهم :

أخي ثقة لا تلتف' الحمر' ماله      ولكنه قد 'هلك المال' نائله'  
تراه إذا ما جئته متهللاً      كأنك تعطيه الذي أنت سائله'

وقد اختارها قدامة في نقد الشعر وشرحها على ذلك التقسيم .

(١) الضريبة : الخليفة .

ونحن لسنا في سبيل الاختيار ، وإنما نسوق ما لا يزيلنا عن طريق البحث ؛ ولزهير طريقة في تقريب المبالغة والبلوغ إلى الإفراط والإغراق من طريق الحقيقة ، كراهية للكذب الثقيل ، وبغضة لسوء التأليف الذي يجيء من ناحية الإغراب ، فتراه يداور المعاني حتى يبصر لها طريقاً إلى الحقيقة ، ويجد لها مخلصاً إلى الواقع كقوله :

لو كنت من شيءٍ سوى بشر كنت المنور ليلة البدر  
وقوله أيضاً :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا  
وعلى هذه الطريقة يُحمل قول عمر : إنه لا يمدح الرجل إلا بما فيه ، ولا ترى زهيراً يشدّ عنها في شيء ، حتى لقد بلغ من معرفتهم ذلك له أنهم حملوا عليه الجواب المرويّ عن أوس بن حجر حين سأله رجل وقد سمعه يقول :

ولأنت أشجع من أسامة إذ دُعيتَ نزالٍ ولج في الذعر  
فقال له : أنت لا تكذب في شعرك ، فكيف جعلته أشجع من الأسد ؟  
فقال أوس : إني رأيته فتح مدينة وحده ، وما رأيت أسداً فتحها قط -  
وذلك لتخصّص زهير بتلك الطريقة والتزامه إياها .

على أن سبب هذا الالتزام قد يكون من ضعف الخيال ، لأنه لم تستقل له طريقة فيه ، ولا هو كان من المتبسطين في فنون المجاز ، كما قد يكون أنفة ونزوعاً إلى مذاهب السيادة ، وتورّعاً عن أمثال تلك التكاذيب ، وهو الأرجح عندنا لما قدمنا من أن هذا الرجل خلّق سيّداً قبل أن يُخلّق شاعراً ؛ ولذلك قصر مديحه ولم يجعله تجارة كما جعله الأعشى ، ولا انحط فيه إلى تساقط الهمة كما فعل النابغة ، ولا زين باطلاً ، ولا اختلق موضوعاً ، بل كان مديحه تاريخاً صحيحاً .

ومن أجل هذا كان لا يمتثال إلى التخلص في قصائده ، بل يقتضب المديح ، أو يتخلص بمثل قوله :

\* دع ذا وعدّ القول في هرم \*

ولو شاء ذلك تفتقت له الحيلة ؛ ثم كان يتناول البسيط من معاني المديح  
وما لا يُمدح به عادة ، فتدفعه سلامة النية الى إقحامه في شعر كقوله :  
لعمر أبيك ما هرم بن سلم ، بملححيّ إذا اللثماء ليموا  
فهذا البيت لا يرضى أحقّ العرب أن يُمدح به ، ولكن زهيراً يعرف أن  
هرما يرضاه ، بل يعرف كيف يرضيه به ، ومثله قوله في معناه :  
إن البخيل ملومٌ حيث كان ولكنّ الجواد على علاته هرم  
وكلمة « على علاته » هذه لا تزال تدور في الناس إلى اليوم ، وكذلك  
كلمته في قوله .

\* لدى حيث ألفت رحلها أم قشعم \*

يعني المنية ، فقد أجزاها الظرفاء على الحذف ، فيقولون إلى حيث ألفت...  
لمن يودّعون وجهه ويستقبلون قفاه ...



## خشونة الشعر الجاهلي

ليس الذي نجده نحن في شعر الجاهلية من جفاء المعنى وخشونة اللفظ و [وعثرة] بعض الأساليب - بما كانوا يجدونه هم أو يأخذونه على أنفسهم ، فإن الألفاظ صورة معنوية من الاجتماع ، وإن الزمن يفعل في إحالة هذه الألفاظ عن مدلولاتها ما تفعل أطوار العمر في معاني النشأة فالشباب فالكهولة ؛ إذ لا يكون ما يسرك وأنت طفل مثلاً بالذي يسرك وأنت شاب نفس ذلك السرور الأول في معناه وموقعه .

ولما كانت ألفاظ اللغة لا تؤدي أكثر من الصور ، ومعانٍ منتزعة من حياة أهل تلك اللغة المبنية على مصطلحات ومواصفات مألوفة بينهم ، كان تبدل هذه الحياة بما يصور الاجتماع من الأسباب الكثيرة ذاهباً بمحقات تلك الألفاظ ، إذ يعطيها صوراً ومعاني معدومة أو معلومة علمياً تاريخياً لا سبيل معه الى تحقيق الوصف بالمشاهدة أو بالعادة والألفة ونحو ذلك ؛ فمن ثم تنزل الألفاظ منزلة الغريب ، ويفرق بعضها في الغرابة اذا انعدمت صورته الذهنية من الاجتماع ، فيجري مجرى الألفاظ المماتة .

والعرب يذكرون في أشعارهم أسماء كثير من الحشرات ومن صفات الدواب وأشهرها الخيل والإبل على جهتي المدح والذم ، وكثير مما يعدّ من مألوف اجتماعهم ، وكل ذلك عندنا منكر قد لا يعرفه منا علماء الحيوان وأهل البيطرة ، ثم هم لا يرون فيه ما نراه نحن وما رآه أهل الدول من بعدهم ، وذلك شأن كل الأمم على السواء فيما يختلفون فيه جميعاً وما تختلف فيه أطوار

الأمّة الواحدة من الاجتماع ، فتلك الحشونة في شعر الجاهلية بأسبابها هي  
جماع خصائصه المميزة له عن سائر أطوار الشعر العربي ، وقد مرّ شيء من  
تفصيل ذلك في تأريخ الأنواع التي بوّنا لها .

وقد يتعاطى الشعراء من البلديّين وأهل الحضارة تقليد أهل البادية في  
بعض خصائص شعرهم فيخطئون ، قال العجاج في الكميّ والطرماح . . . . .  
..... ( ج ٤ ص ١٨ : الأغاني ) .

وضحك أبو كلدة الأعرابي حين أنشد شعر ابن النطاح الذي يقول فيه :

\* والذئب يلعب بالنعام الشارد \*

قال : وكيف يلعب بالنعام ... الخ ( ج ٢ ص ١٠٩ : الحيوان ) ؛  
وكذلك عابوا على أبي نواس وهو المقدم في المحدثين صفته لعين الأسد  
بالجحوظ في قوله :

كان عينه إذا التهبت بارزة الجفن عينٌ مخنوق

ولعله لم يكن رآه فقام عنده أن هذا أشنع وأشبه [بشناعة] وجه الأسد  
وهم يصفون عينه بالفئور كقول أبي زهير :

وعينان كالقوبين في ملء صخرة ترى فيها كالجمرتين تسعمر

وكان الأصمعي يخطيء قوماً من المخضرمين والمحدثين في تعسفهم مثل هذه  
الطرقات المجهولة بما لا يعرفونه عياناً ولا يخالطون صفته بالحقيقة التي تعرفها  
المشاهدة . وقد أسلفنا أن العرب كانوا علماء في أشعارهم ، فسبيل هذه  
الأشعار عندنا سبيل كل علم يحتاج إلى درس وتلقين ، وإلى الأخذ عن أهله أو  
القوام عليه . قال الجاحظ : قلّ معنى سمعناه في باب معرفة الحيوان من  
الفلاسفة وقرآناه في كتب الأطباء والمتكلمين إلا ونحن قد وجدنا قريباً منه  
في أشعار العرب والأعراب .

وعلى ما رواه من تلك الأشعار بنى أكثر ما في كتابه الحيوان ، وإن كان  
قد ترك فيه تفسير شواهد كثيرة بما لا يعرفه إلا الرواة ، للتحرز من خوف

التطويل كما قال (١) :

وحق ذكر في الجزء السادس من هذا الكتاب أنه لم يجعل لما تسكن الملح والعدوية والأنهار والأودية والمناقع من السمك وما يعيش معه - باباً مجرداً ؛ لأنه لم يجد في أكثره شعراً يجمع الشاهد ويوثق منه بحسن الوصف ( ص ٦ ج ٦ ) . ومما نبه عليه في ذلك الكتاب مما يعد فيما نحن بسبيله ، أن شعراء العرب قد تواضعوا في صفتهم قتال الكلاب وبقر الوحش على أنه إذا كان الشعر مرثية وموعظة ، جعلوا الكلاب هي التي تقتل البقر ، وإذا كان الشعر مديحاً وقال كأن ناقتي بقرة من صفتها كذا ، أن تكون الكلاب هي المقتولة ، ليس على أن ذلك حكاية عن قصته بعينها ، ولكن الثيران ربما جرحت الكلاب وربما قتلتها ؛ وأما في أكثر من ذلك فإنها تكون هي المصابة والكلاب هي السالمة والظافرة . نبه على ذلك الجاحظ ( ص ٨ ج ٢ : الحيوان ) .

ثم إن شعر العرب إنما بقي من بعدهم للحاجة إلى ألفاظه لا إلى معانيه ، إذ هو مادة الشاهد والمثل في العلوم الدينية واللسانية ، وكان الرواة لا يطلبون منه أكثر من ذلك ، كما لا يطلبون من الخبر إلا الأيام والمقامات ، فهم من أجل هذا يروونه على ما هو لا يبالون وافقت ألفاظه المعاني المألوفة في عصورهم أو خالفت ، فتلك في جانب بعيد من الغرض الذي يستهدفونه ؛ وهذا معنى قول ابن فارس : قد يكون شاعر أشعر وشعر أحلى وأظرف ، فأما أن تتفاوت الأشعار القديمة حتى يتباعد ما بينها في الجودة فلا ، وبكل محتج وإلى كل محتاج ( ص ٢٣٥ ج ٢ : الزهر ) .

---

(١) قرأنا في شرح بغية الوعاة للسيوطي في ترجمة أبي بكر الخطيب الأصبهاني النحوي أرحم أهل زمانه في النحو ورواية الشعر : أن أبا الفضل بن العميد قدم له يوماً نعله فاستشرف منه ذلك فقال أبو الفضل : ألام على تعظم رجل ما قرأت عليه شيئاً من الطبايع للجاحظ إلا عرف ديوان قائله وقرأ القصيدة من أولها إلى آخرها حتى ينتهي إليه ( ص ٣٢١ : بغية الوعاة ) .



هذا سبب ما تجده من خشونة الشعر الجاهلي .

أما السبب في أن العرب لم ينظروا في تصفية معانيهم ونحت ألفاظهم الشعرية حتى تخرج رقيقة تتهالك ونحيفة لا تتألك ، فذلك راجع الى فطرة الاستقلال وحالة البداوة ، فإن شئت قلت إن ألفاظهم إنما تقطر من سيوفهم أو تسيل من رماحهم أو تجذب في رمالهم أو تخصب في أوديتهم أو تدب في حشراتهم أو تسمى مع دوايهم أو تعذب في أمطارهم أو تأسن في غدرانهم ، ولكنك لا تستطيع أن تقول إنها تتردد أليفاً مدعورة أو تتمثل وهي معبودة ، أو تتهالك رقة دينية ونحو ذلك مما لا يلائم نشاط البداوة ولا يكون إلا وهناً من هرم الحضارة وتماوت الحياة الاستقلالية بما يفسو في أطرافها من جرائم الانقراض ، وأظهر ما تجد ذلك في الشعر العبراني ؛ فإن الذلة والمسكنة والرعدة الدينية أخص مميزات .





الباب السابع

أدب الأندلس

إلى سقوطها ومصراع العربية فيها



## الأدب الأندلسي

هنا مشرعُ القلم ومصرعُه ، والمورد الذي يُرويه ماؤه تُنظّمه أدمغه ، فلو كان القلم سحاباً لاحترق من أسى البكاء بما فيه من البرق ، ولو كانت الصحيفة صحيفة الشمس وهي تندب مجد المغرب لأظلم بها الشرق . أيام أدب مرّت كنور النهار أصبح به حيناً وبات ، بل كانت خفقات قلب الزمان عاش بها دهرأ ومات ؛ فتَضَرَّ الله سعداً لا عيب له إلا أنه من الزمن وآخر الزمنِ شقيي ، ورحمه الله عهداً لا نقص فيه إلا قول المؤرخ بعده : لو بقي !

### الأدب وتأثره بالتاريخ السياسي .

لما قرأنا تاريخ الأندلس وأخذنا في درس أدبها واستخلاصه من جملة التاريخ ، رأينا ما أذهلنا من إغفال المؤلفين في الأدب والعلوم وتراجم رجالها لهذا الفرعِ الفينان من الحضارة العربية ، فإنك إن جهدت أن تتمثل صورة جملة لأدب الأندلسيين ، فكأنما تجهد أن ترجع الى خيالك شباباً أُخْلِقْتَ عَهْدَهُ ، وكأنك أُخْلِقْتَ بعده ؛ فهما تأتٍ من ذلك لا تزيد على الذكرى التي يبلغ من ضعفها أن لا يكون فيها إلا بعض أنقاض التاريخ ، وأنت تريد الأنقاض كلها ، بل صورة البناء قبل أن ينقض .

لذلك رأينا أن نضع هذه الصفحة جديدة في تاريخ الأدب العربي ؛ ولما شرعنا في ذلك رأينا أن لا بد من أن يأخذ الكلام في طريقه : فالأول في ظاهر الأدب وتأثره بالتاريخ السياسي ، والثاني في حقيقته وتأثر التاريخ السياسي به ؛ وهذا مما انفرد به الأدب الأندلسي ، لأنه بدأ عربياً وانتهى أعجبياً - كما سترى - ومن أجل ذلك قسمنا الكلام الى قسمين .

## القسم الأول : الأندلس من العراق .

إن الأدب الأندلسي لا يبرزه في التاريخ إلا الأدب العراقي ، ولقد يكون في الأندلس ما ليس في العراق من بعض فروع الحضارة والصناعة ، غير الفرق ما بين المواطنين في زينة الطبيعة ونضارة الإقليم ، إلا أن الأدب العراقي ممتاز بمتانة اللغة ، لقربه من البادية ، ولاستفحال الرواية هناك ، وبكونه أصلاً ؛ حتى إن الأندلسيين أنفسهم كانوا يلقبون تابغيهم بأسماء المشاركة ، فيقولون في الرصافي : إنه ابن روميّ الأندلس ، ومروان بن عبد الرحمن : ابن معتر الأندلس ، وابن خفاجة : صنوبريّ الأندلس ، وابن زيدون : مجتريّ الأندلس ، وابن دراج : متنيّ الأندلس ، ومحمد بن سعيد الزجاليّ الأديب الحافظ : أصمعيّ الأندلس ، لحفظه وذكائه ؛ وأبي بكر الزبيديّ الشاعر اللغوي : ابن دريد الأندلس ؛ كما يقولون في الفيلسوف ابن باجه الشاعر الموسيقي : إنه فارابيّ المغرب<sup>(١)</sup> ، وحمدة بنت زياد الشاعرة الأديبة : خنساء المغرب ؛ وكان منشأ ذلك أن العلماء والأدباء من أهل ذلك الصقع كانوا يرحلون إلى المشرق فيلقون الأئمة ويأخذون عنهم ، ثم ينقلون إلى الأندلس برواية ما أخذوه فيثبثونه في أهلها مسنداً إلى أدباء العراق ، كسوار بن طارق القرطبيّ مولى عبد الرحمن بن معاوية ، فإنه حج ودخل البصرة ولقي الأصمعيّ ونظر أمره ، ثم انقلب إلى الأندلس وأدب الحكم ؛ ومن ولده محمد بن عبد الله ابن سوار ، حج أيضاً ولقي أبا حاتم بالبصرة والرياشي وغيرهما ، وأدخل الأندلس علماً كثيراً ، وقام بن أصبغ البياني ( نسبة إلى بيانة من أعمال قرطبة ) فقد سمع بالأندلس ممن كان بها ، ثم رحل إلى المشرق سنة ٢٧٤ فسمع بمكة والكوفة وبغداد من أئمة الفقه والحديث ، وكتب عن ابن أبي خيثمة تاريخه ، وسمع من ابن قتيبة كثيراً من كتبه ، ومن المبرد وثلث ابن الجهم ، في آخرين ، وسمع بمصر من محمد بن عبد الله العمري ، ومطلب بن شعيب ،

---

(١) هو أبو بكر بن الصائغ يعرف ابن باجه ، وإليه تنسب الألحان المطربة التي كانت عليها الاعتماد في الأندلس ، توفي سنة ٥٣٣ .

وبالقيروان من أحمد بن يزيد المعلم وبكر بن حماد التاهرتي الشاعر ، وانصرف الى الأندلس بعلم كثير ، فقال الناس إليه في تاريخ أحمد بن زهير وكتب ابن قتبية وأخذوا ذلك عنه ( ص ٣٤٥ ج ١ : نفع الطيب ) ، ومحمد بن عبد الله ابن يحيى من قضاة الناصر ( توفي سنة ٣٣٧ ) وكان شاعراً مطبوعاً ، فقد رحل الى المشرق وسمع من ابن الأعرابي وغيره ، ثم حدث عنه بالأندلس ؛ وسيأتي ذكر آخرين في الكلام على علماء الأندلس .

وكانت امهات كتب الأدب التي تؤلف بالعراق تُروى في الأندلس بالسند الى مؤلفيها ، على تفاوت بين الأسانيد قوة وضعفاً ، ومن ذلك قول الأمير الحكم المستنصر : لم يصح كتاب الكامل عندنا من رواية إلا من قبل ابن أبي قلاعة<sup>(١)</sup> ، وكان ابن جابر الأشبيلي قد رواه قبل بصر ، وما علمتُ أحداً رواه غيرها ، وكان ابن الأحمر القرشي يذكر أنه رواه ، وكان صدوقاً ، ولكن كتابه ضاع ، ولو حضر ضاهى الرجلين المتقدمين اه ( ص ٣٩٢ ج ١ : نفع الطيب ) .

وقد يكون دخول العراق عند بعض العلماء من قبيل قولهم « من حفظ حجة على من لم يحفظ » لأنه عندهم زيادة في الاطلاع وتحققٌ بالثقة في الرواية ، ولما قدم عليهم أبو علي القالي سنة ٣٣٠ في زمن الناصر ، أمر ابنه الحكم وكان يتصرف عن أمر أبيه ، أن يحيى مع أبي علي الى قرطبة ، ويتلقاه في وفد من وجوه رعيته ، ينتخبهم من بياض أهل الكورة تكرمةً له ، وباسم الحكم طرز أبو علي كتاب الأمالي المشهور ، وكان قبل ولاية الأمر وبعدما ينشطه ويعينه على التأليف بوسع العطاء ويشرح صدره بالإفراط في الإكرام ، وقد اعتنى الأندلسيون بكتاب [ الأمالي ] فشرحوه وألفوا على منزعه ، كما فعل الشَّقُورِيّ رئيس كتاب الأندلس في كتابه سراج الأدب ،

---

(١) هو محمد بن أبي قلاعة البواب ، سمع من أبي الحسن علي بن سبلات الأخفش عن المبرد كتابه الكامل المشهور ، وأخذ أيضاً عن أبي إسحاق الزجاجي ، وأبي بكر الأنباري ، ونقطويه وغيرهم .

وحفظه كثير منهم حتى في النساء - كما سيمر بك - ومن أجله جعلوا أبا علي أندلسياً بالموطن دون المنشأ ، ليصح لهم الاختصاص به ، مع أن القالي لم يكن في قرطبة أعرابياً في أعاجم ، ولا كان وحده فيهم كالذهب في تراب المناجم ، بل كان في قرطبة كثير منهم ، وحسبك بمحمد بن القوطية ، وهو الذي كان يببالغ القالي في تعظيمه ، وشهد له بأنه أنبل أهل الأندلس في اللغة ، وكان إمام الأدب في ذلك الزمن أبا بكر الزبيدي .

غير أن التاريخ قد فسر هذا التفاوت ؛ فإنه عدّ أبا علي حسنة من حسنات الدولة الأموية في الأندلس ، حتى وقع ذلك موقع المنافسة من المنصور ابن أبي عامر المتوفى سنة ٣٩٣ ، فإنه لما قدم عليه أبو العلاء صاعد بن الحسين البغدادي اللغوي عزم على أن يعفّي به آثار أبي علي الوافد على بني أمية ، ليفوز بإحدى الحسينيين ، ولكنه لم يجد عنده ما يرتضيه ، وكان الرجل يتنق بالكذب - وقد مرّ - من ذلك شيء في بحث الرواية - فأعرض عنه أهل العلم ، وقدحوا في روايته وحفظه ، ولم يأخذوا عنه شيئاً لقلة الثقة .

ولم يكن الشغف بالأسماء والألقاب العراقية مقصوراً على العلماء والأدباء وحدهم ، بل تجاوزهم إلى الخلفاء ، فإن ألقاب الأول منهم كانت : الأمراء أبناء الخلائف ، ثم الخلفاء وأمراء المؤمنين ، إلى أن وقعت الفتنة بحسد بعضهم لبعض ، وابتغاء الخلافة من غير وجهها الذي ترتبت عليه ، فتوثّب ملوك الطوائف على الألقاب العباسية ، وترفعوا إلى طبقات السلطنة العظمى ، بما في جزيرتهم من أسباب الترفه والفخامة التي تتوزع على ملوك شق فتكفيهم وتنهض بهم للباهاة ، وفي هذه الألقاب يقول ابن رشيق :

\* كاهراً يحكي انتفاخاً صورة الأسد \*

وكان بنو حمود الذين توثبوا على الخلافة في أثناء الدولة مارونية بالأندلس يتعاضمون ويأخذون أنفسهم بما يأخذها خلفاء بني العباس ، فكانوا إذا حضروهم منشد يمدح أو من يحتاج إلى الكلام بين أيديهم ، تكلم من وراء



حجاب والحاجب<sup>(١)</sup> واقف عند الستر يجابوب بما يقول له الخليفة ؛ ولما حضر أبو يزيد عبد الرحمن بن مقانا الأشبوني الشاعر أمام حاجب إدريس بن يحيى الحمودي الذي خطب له بالخلافة في مالقة وأنشده قصيدته النونية المشهورة التي مطلعها :

ألبرقي لائح من أندون<sup>١</sup> ذرفت عيناك بالماء المعين<sup>٢</sup>

ويبلغ فيها الى قوله :

انظرونا نقتبس من نوركم إنه من نور رب العالمين

فرفع الخليفة الستر بنفسه وقال : انظر كيف شئت ؛ وكذلك انتحل وزراء الأندلس لقب ذي الوزارتين امتثالاً لاسم صاعد بن مخلد وزير بني العباس ببغداد ، وأول من تسمى به منهم وزير الناصر ، أبو عامر ابن شهيد الكاتب الشاعر الكبير ، أول وزير في الإسلام ( ص ١١٩ ج : ١ التمدن الإسلامي ) .

ولما احتفل المأمون بن ذي النون ، من أعظم ملوك الطوائف في إعداره المشهور الذي عمله بطليطة وبالغ في ذلك بما يناسب ما بلغت إليه دولتهم من البذخ والترف ، وهو الإعدار الذئبونيّ - ضرب أهل المغرب به المثل وفاخروا به المشاركة في عرس بوران بنت الحسن بن سهل التي بنى بها المأمون العباسي . وهو من أكبر الاحتفالات التي حفظها التاريخ .

ذلك طرف من تهافت الأندلسيين في تقليد مشاهير العراقيين ، وقد بلغوا من ذلك انهم لما وفد زرياب المغني تلميذ إسحاق الموصلي على عبد الرحمن بن الحكم ورأوا من ظرفه وفنون أدبه ما رأوا ، اتخذوه خواصهم قدوة فيما سانه لهم من آدابه في اللباس والفرش والطيب والطعام ، ثم امتثلهم عامة الناس .

---

(١) لم يكن الحاجب على المعنى المصطلح عليه اليوم ، بل كان هذا اللقب خاصاً بكبار الوزراء ، فإن قاعدة الوزارة بالأندلس كانت في مدة بني أمية مشتركة في جماعة يمينهم صاحب الدولة للإعانة والمشاورة ، ويخصهم بالمجالسة ، ويختار منهم شخصاً ينوب عنه فيسميه بالحاجب ، وقد عظمت هذه السمة حتى كانت أعظم ما تنوفس فيه .

وقد ذكر من ذلك صاحب نفع الطيب أشياء قال إنها صارت الى آخر أيام أهل الأندلس منسوبةً إليه معلومة به، فكان عربية الأندلسيين كانت صغيرة في أنفسهم لنزولها عن العربية العراقية بالمنشأ فهم يحققونها دائماً بالتقليد؛ ويتثبتون من بقاء قدمها بهذا الجديد، ولا جرم فقد كان أصل حضارتهم أموياً لأن أول من سنّ سنن الآداب وأقام حالة الملك بالأندلس هو عبدالرحمن الداخل المتوفى سنة ١٧٢ فلـ بني أمية بالشام، وكان يسميه عدوّه أبو جعفر المنصور العباسي: صقر قريش، لرقى همته وبعده مطمحه، وقد طرز ثوب ملكه حفيده الحكم بن هشام فحلّ بني أمية المتوفى سنة ٢٠٦، فكان أول من جند الأجناد واتخذ العدة، وأول من جعل للملك بأرض الأندلس أهبه واستعد بالماليك حتى بلغوا خمسة آلاف، منهم ثلاثة آلاف فارس وألفاً راجل.

#### عربية الأندلس.

كان أول احتلال طارق بن زياد لأرض أندلسية في سنة ٩٢، وبعد أن ضرب فيها قليلاً رحل إليها مولاة موسى بن نصير فدخلها في سنة ٩٣ وافتتح جانباً منها ثم قفل عنها سنة ٩٥، وتتابعت الولاة والفتوح بعد ذلك بما ليس في هذا الكتاب موضع بسطه؛ غير أنه لما استتم الفتح وعصفت ريح الإسلام، صرف أهل الشام وغيرهم من العرب همّهم الى الحلول بها، فنزل بها من جرائم العرب وساداتهم جماعة أورثوها أعقابهم، وهم بدء تاريخ الأدب فيها، فكان منهم القبائل المختلفة من العدنانية والقحطانية<sup>(١)</sup> ولم يتركوا في الأندلس عاداتهم المشرقية من الغزو والحروب، فطرات بذلك الفتن بين الشاميين والبلديين والبربر والعرب من المصرية والبيانية، حتى كان زمن الداخل في سنة ١٣٨، ولم يزل أولئك العرب يتميزون بالمناثر والقبائل والبطون والأفخاذ إلى أن قطع ذلك المنصور بن أبي عامر الداھية الذي ملك سلطنة الأندلس سنة ٣٦٦ وقصد بذلك تشبثهم وقطع التحامهم وتعصّبهم في الاعتزاء، وقدم القواد

(١) قد مر الكلام عن معنى هذين اللفظين وما يرادفها في الجزء الأول.

على الأجناد ، فيكون في جند القائد الواحد فرّق من كل قبيل ، فانحسرت  
بما فعل مادة الفتن بالأندلس التي كانت تثيرها تلك الجاهلية الرقيقة ...

وقلما تجد في الأندلسيين شاعراً مفلحاً أو كاتباً بليغاً أو عالماً ضليعاً إلا  
ونسبه في قبيلة من تلك القبائل العربية ، فكان يحيى الغزال أول شعراء  
الأندلس الفلاسفة من بني بكر بن وائل ، وكان يوسف بن هارون الرمادي  
معاصر المتنبي من كندة ، وأبو بكر الخزومي هجاء الأندلس من بني مخزوم ،  
وكذلك أبو بكر بن زيدون ، وابنه أبو الوليد بن زيدون الشهير ، وكان أبو بكر  
ابن عمار ينتسب الى مهرة من قضاة ، وغير هؤلاء كثيرون ، فضلاً عن من لم  
يُعرف سبيل اعتزائهم من الأدباء لأن الانتساب الى العرب كان محفوظاً  
بالأكثر في العلماء والفقهاء والأعيان ، متميزاً فيهم ، كبني سراج الأعيان من  
أهل قرطبة ، ينسبون الى مذحج ، وبنو المنتصر العلماء من أهل غرناطة ،  
الى مرة بن أود بن زيد بن كهلان ، وبنو أسماك القضاة من أهل غرناطة أيضاً ،  
الى عاملة ، وقيل هم من قضاة ، وبنو عباد أصحاب أشيلية ، الى لحم بن  
عدي ، وهم من ولد النعمان بن المنذر صاحب الحيرة ؛ الى غير هؤلاء ممن  
أفردت لهم كتب الأنساب الأندلسية ؛ وكان يقال لنساء غرناطة المشهورات  
بالحسب والجلالة : العربيات ، لحافظتهن على المعاني العربية ( ص ٤٩٢ ج ٢ :  
نفح الطيب ) فكان الطبيعة بتلك الوراثة العربية قد تعاون باطنها وظاهرها  
على إيجاد الأدب الأندلسي وإجاده .

## أولية الأدب والعلوم .

فمن لدن فتح الأندلس الى زمن الداخل - أي نحو ٤٦ سنة - لم يكن في  
الأندلس ضرورة شعراء ولا كتّاب من أهلها ، بل كانوا من الطارئين ، وهم  
مع ذلك لم يتميزوا ولم يبلغوا مبلغ أدباء العراق والشام ، ومن هؤلاء أبو الحظار  
صاحب اليانية ، والصميل بن حاتم شيخ المضرية ، وهما كبشا الفتنة العمياء ؛  
غير أنه كان في تلك المدة أبو الأجر جعونة بن الصمة الكلبي ، وكان معاصراً  
لجرير والفرزدق وشعره على مذهب الأوائل من جاهلية العرب لا على طريقة

المحدثين ، وكذلك بكر الكناني ، وهذان وحدهما هما اللذان عرفا بالشعر في ذلك الزمن ؛ ولما توجه عباس بن ناصح الشاعر من قرطبة الى بغداد ولقي أبا نواس استنشدته من شعرها (ص ١٥٦ ج ٢ : نفع الطيب) وهذا يدل على أن شهرتها ترامت الى العراق . واستمرت تلك الحال الى منتصف القرن الثاني ، فعرف بالشعر حبيب بن الوليد الذي ينتهي نسبه الى عبد الملك بن مروان ، وقد توفي بعد المائتين (ص ٥٧٤ ج ١ : نفع الطيب) وحوالي ذلك الزمن كان من قضاة الداخل معاوية بن صالح الحضرمي الحمصي ، وكان له أدب وشعر ، وكان عباس بن ناصح الثقفي قاضي الجزيرة الخضراء في أواخر هذا القرن يفد على قرطبة فيأخذ عنه أدباؤها ، ومنهم يحيى الغزال أول المشاهير من شعراء الأندلس المفلحين ، وكان يومئذ حدثا (ص ٤٤٥ ج ١) وفي تلك الأيام عرف شاعر اسمه بكر بن عيسى .

هذه أولية الشعر في الأندلس ؛ أما الكتابة فلعل أول من اشتهر بها أمية بن يزيد مولى معاوية بن مروان ، وذلك لأنه لزم الكتابة لعبد الرحمن الداخل ، وكان يكتب قبله ليوسف الفهري ، وقد جعله الأمير عبد الرحمن في عديد من يشاوره ويفضل آراءه (ص ٧٢ ج ٢ : نفع الطيب) ولم يكتب أحد قبله لهذا الأمير إلا أبو عثمان النقيب وصاحبه عبد الله بن خالد ، إلا أن فضل الخصوصية والمشاورة كان لأمية دونها .

أما أولية العلوم فإن أقدم ما اشتغلوا بمدارسته من العلوم إنما هو الفقه ، حتى كان الأمراء الذين ولوا الحكم في القرن الثاني ، وهم : الداخل ، وهشام ابنه ، والحكم بن هشام - لا يعنون إلا بالقضاة ، ويقرّبونهم ، ولا يألوت الناس جهداً في إقامتهم على الحق وحملهم بالسنة الواضحة ، ولهم في ذلك الأخبار العريضة .

وقد كانت حركة الحياة الأندلسية حركة غزو وحرب واضطراب فتن سياسية عليها صفة الدين الى آخر تاريخها العربي - كما ستعرفه - فكان طبيعياً أن يكون من مقتضيات فطرة ذلك الشعب ، الحماسة الدينية ، ولا يدل عليها إلا إحساس الشديد باحترام الفقهاء ، ولذلك كانت سمّة الفقيه عندهم جليّة ،

حقى إن المسلمين كانوا يسمون الأمير المعظم منهم الذي يريدون التنويه به :  
 فقيهاً ، وقد يقولون للكاتب والنحوي واللغوي : فقيه ، لأنها عندهم أرفع  
 السمات (ص ١٠٣ ج ١ : نفع الطيب) وفي تاريخ وزرائهم وشعرائهم وأدبائهم  
 ما يدل على ذلك ، وسأخذ في هذا المعنى في موضع آخر . وقد كان  
 الأندلسيون يتفقون على مذهب الأوزاعي حتى رحل زياد بن عبد الرحمن بن  
 زياد اللخمي المعروف بشيطون المتوفى سنة ٢٠٤ الى الحجاز فسمع من الإمام  
 مالك بن أنس كتاب الموطأ ، وهو أول من أدخل مذهبه الأندلس ، وكان  
 ذلك زمن الأمير هشام بن عبدالرحمن المتوفى سنة ١٨٠ في فجر تلك الحضارة ،  
 وذلك طبيعي ؛ لأن الناس في أدوار التاريخ الإسلامي لم يتفرغوا لعلم الأدب  
 إلا اذا استكملوا علوم الدين أو أهلها والعياذ بالله ؛ وقد أجمع الأندلسيون  
 قاطبة على مذهب مالك ، ولا يزال ذلك في أهل المغرب لهدنا ؛ قال الحافظ  
 ابن حزم : « مذهبنا انتشرا في بدء أمرهما بالرياسة والسلطان : مذهب  
 أبي حنيفة ، فإنه لما ولّي القضاء أبو يوسف كانت القضاة من قبله من أقصى  
 المشرق الى أقصى عمل إفريقية ، فكان لا يولي إلا أصحابه والمنتسبين لمذهبه ،  
 ومذهب مالك عندنا بالأندلس ، فإن يحيى بن يحيى - يعني يحيى بن يحيى  
 الليثي ، وقد روى الموطأ عن زياد المذكور آنفاً قبل أن يدرك مالكا ،  
 ثم أدركه فروى عنه - كان مكيناً عند السلطان مقبول القول في القضاة ،  
 وكان لا يلي قاض في أقطار الأندلس إلا بمشورته واختياره ، ولا يشير إلا  
 بأصحابه ومن كان على مذهبه ، والناس سراع الى الدنيا ، فأقبلوا على ما  
 يرجون أغراضهم به ، على أن يحيى لم يل قضاء قط ، ولا أجاب إليه ،  
 وكان ذلك زائداً في جلالته عندهم ، وداعياً الى قبول رأيه لديهم » .

وابن حزم هذا هو أول من خالف مذهب مالك بالمغرب واستبدّ بعلم  
 الظاهر ، ولم يشتهر به مثله أحد (ص ٣٢ : المعجب) .

وليس اشتغال الأندلسيين بالفقه ورسائله بمانعهم أن يتدارسوا علوم اللغة  
 والإعراب ؛ إلا أنهم لم يستقصوا هذه العلوم ولم يستفرقوها ، لأن ذلك إنما  
 كان في الطارئين على الجزيرة وفي قليل من أهل البلايا كما مرّ بك بعضه ؛

وقد كان الأمير عبد الرحمن الداخل شاعراً محسناً ولِسناً فصيحاً ، وكان ابنه الأمير هشام إذا حضر في مجلسه امتلاً أدباً وتاريخاً ؛ وفي زمن هشام هذا وقد تقدمت سنة [ وِدنتْ ] وفاته ؛ كان بالجزيرة الخضراء منجّم يُعرف بالضبّي ؛ قال صاحب نفع الطيب عندما ذكر أن هشاماً أشخصه من وطنه الى قرطبة : « وكان في علم النجوم والمعرفة بالحركات العلوية بطليموس زمانه حذقاً وإصابة » ( ص ١٥٧ ج ١ ) .

وكان في زمن الحكم بن هشام ، الذي ولى سنة ١٨٠ ، شاعر اسمه العباس معروف بالشعر ؛ أورد له صاحب نفع الطيب بعض أبيات غير جيدة ( ص ١٦٠ ج ١ ) .

فتلك جملة تاريخ الأدب الأندلسي في القرن الثاني وما أدركه الفتح من بقية القرن الأول ، وهي لا تعدّ شيئاً في جنب ما كان يومئذ بالشام والعراق في الدولتين الأموية والعباسية ؛ حيث انتهى القرن الثاني بقيام المأمون العباسي الذي بويع سنة ١٩٨ ؛ ولكنها كالجاهلية للأدب الإسلامي ؛ ولم تزل سنّةً أن لا يتمّ آخرُ شيءٍ إلا اذا كان النقص في أوله !



## الأدبُ في القرن الثالث

استهل القرن الثالث وحضارة العباسيين في أوجها، وقد نفع الأدب العربي بأنفاس الخلود الباقية من عصر المأمون الى ما شاء الله أن تبقى ، ولكن هذا القرن كان في الأندلس نطاحاً ومغالبة في أكثر سنه ، وليس فيه من أمراء الأدب المعدودين إلا الأمير عبد الرحمن بن الحكم المعروف بالأوسط معاصر المأمون العباسي : وكان أندى الناس كفاً ، وأكرمهم عطفاً ، وأوسعهم فضلاً ، ملك من سنة ٢٠٦ الى سنة ٢٣٨ ، وكانت أيامه أيام هدوء وسكون ، واتخذ القصور والمتنزهات ، ولكن سواد الناس لم يهتموا إلا ببناء الجوامع بكور الأندلس ولم تبن إلا في أيامه ، وقد جاراهم هو في ذلك فزاد في جامع قرطبة رواقين ، ويقول بعضهم إنه فعل ذلك لما اتهم ببيله الى الفلسفة . ولما كان هذا الأمير مع علمه بعلوم الشريعة عالماً بالفلسفة ( ص ١٦٢ ج ١ : نفع الطيب ) وكان محباً للسمع ، كثير الميل للنساء ، احتجب عن العامة ، وهو أول من فعل ذلك من أمراء الأندلس ليتنفس في الهواء الرقيق ... ولولا هذا الأمير لرقد العصر الثالث من الأندلس في كفن الثاني ؛ إذ نبغ في أيامه يحيى بن حكم المعروف بالغزال الشاعر المفلق الفيلسوف ، وكان شاعره ، وهو من شعراء الأندلس كامرئ القيس من شعراء الجاهلية ، وبشارٍ من شعراء المحدثين ، وله الأرجوزة المطوّلة التي نظمها في فتح الأندلس وذكر فيها السبب في غزوها وفصل الوقائع بين المسلمين وأهلها وعداد الامراء عليها ، وأسماءهم ، فأجاد

وتقصى ، وكان للأندلسيين بها شغف الى آخر عصورهم ، وقد قلده في ذلك أبو طالب المتنبي الشاعر من أهالي جزيرة شقر فنظم كتاباً في تاريخ الأندلس وأورد منه ابن بسام في كتابه الذخيرة .

وكان الغزال من كبار أهل الدولة حتى أرسله عبد الرحمن سفيراً الى ملك القسطنطينية - حين بعث إليه هدية في سنة ٢٢٥ يطلب مواصلته ويرغبه في ملك سلفه بالشرق من أجل ما ضيق به المأمون والمعتم - فأحكم الغزال بينها الواصلة ، وتوفي هذا الشاعر سنة ٢٥٠ .

وكان من شعراء الأمير عبد الرحمن وندمائه عبد الله بن الشعر ( ص ٣٤٥ ج ٢ : نفع الطيب ) ، وكان يكتب له محمد بن سعيد الزجالي ، أصمعي الأندلس ، وقد استوزره لشطرة من الشعر ، وذلك انه صنع في بعض غزواته قسيماً ، وهو :

\* نرى الشيء مما يُتقى فنهاه \*

ثم أرتج عليه وكان عبد الله بن الشعر نديمه وشاعره غائباً عن حضرته . فأراد من يميزه ، فأحضر له بعض قواده محمد بن سعيد هذا ، فأنشده القسم ، فقال :

\* وما لا نرى بما بقي الله أكثر \*

فاستحسنه وأجازه ، وحمله استحسانه على أن استوزره .

وامتاز عصر هذا الأمير بشيوع الغناء في الأندلس ، بعد أن قدم عليه زرياب المغني تلميذ إسحاق الموصلي سنة ٢٠٦ ، وهو الذي أورث هذه الصناعة الأندلس - وسنذكر أمره في تاريخ هذا الفن - وكان عبد الرحمن مولعاً بالسمع ، مؤثراً له على جميع لذاته ، حتى انه كان يبتاع المحسنات من الآفاق ، فاشترت له من المدينة فضل المدينة التي كانت لإحدى بنات هارون الرشيد ، مع صاحبها علم ؛ وصواحب غيرهما ، فأنشأ لهن داراً بقصره سماها دار المدنيات ، وكان يؤثرهن لجودة غنائهن ونصاعة ظرفهن ورقة أدهن ، وكان



من جواريه أيضاً قلم ، وهي ثالثة فضل وعلم في الحظوة عنده ، وكانت أديبة ذاكرة حسنة الخط راوية للشعر حافظة للأخبار عالمة بضروب الآداب ، وهي أندلسية الأصل 'حملت صبية' الى المشرق وتعلت بالمدينة ( ص ١١٨ ج ٢ : نفح الطيب ) ومن الجوارى اللاتي كن يتصرفن بين يديه منفعة ، جارية زرياب التي علمها أحسن أغانيه ثم أهداها له ؛ وكان في زمنه أيضاً من الحاذقات بالغناء حمدونة وعلية ابنتا زرياب ، ومصابيح جارية الكاتب أبي حفص عمر ابن فلهيل ( ص ١١٤ ج ٢ : نفح الطيب ) وغيرهن ؛ حتى ليكاد يكون زمن هذا الأمير نسائياً . ومن استهتر بهن من جواريه : مدثرة ، والشفاء ، وطروب ، وقد بنى الباب على هذه الأخيرة مرة ببدر الأموال ، وكانت غاضبة ثم استرضاها على أن لها جميع ما سد به الباب ( ص ١٦٣ ج ١ : نفح الطيب ) .

وتولى بعد الأمير عبد الرحمن محمد ابنه من سنة ٢٣٨ الى سنة ٢٧٣ ، وكان كثير الغزوات فلم يُعرف في عهده تاريخ الأدب على حقيقة بيّنة ، بل استمر أهل الأندلس على ما اعتادوا زمن أبيه ، ولكن كان من أخص شعرائه مؤمن بن سعيد ؛ وكان من أعظم الفلاسفة لعهد عباس بن فرنانس الحكيم - وسنذكره في موضع آخر - وله فيه شعر أوردته صاحب العقد الفريد ؛ ثم اهتز جبل الفتن بعده في ولاية ابنه المنذر ، وكانت سنتين إلا نصف شهر سنة ٢٧٥ ؛ وفي زمن عبد الله أخي المنذر اضطربت نواحي الأندلس بالثوار والمتغلبين في تلك السنين ، وكان عبد الله شاعراً محسناً إلا أنه زاهد تقي صحيح الإيمان ، وفي زمنه نشأ الفقيه الأديب ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد ، وهو ويحيى الغزال طرفا الأدب في القرن الثالث ، وتوفي عبد الله سنة ٣٠٠ ، وكان وزيره النضر بن سلمة الكاتب الحسن .

ومما امتاز به هذا القرن دخول رسائل المحدثين وأشعارهم في أواخره إلى إفريقية ثم الأندلس على يد أبي اليسر إبراهيم بن أحمد الشيباني المعروف بالرياضي من أهل بغداد وسكن القيروان وكتب لأمير افريقية إبراهيم بن أحمد الأغلب ، ثم لابنه أبي العباس عبد الله ، وقد لقي الجاحظ والمبرد وثعلب

وابن قتيبة الأديب ، وأبا تمام والبحثري ودعبلا وابن الجهم الشعراء ، وسعيد  
ابن حميد وسليمان بن وهب ، وأحمد بن أبي طاهر الكتاب ، وغيرهم . وتوفي  
بالقيروان سنة ٢٩٨ .

وكذلك دخول كثير من كتب اللغة ودواوين شعر الجاهلية على يد محمد  
ابن عبدالسلام بن ثعلبة المتوفى سنة ٢٨٦ فقد دخل البصرة ولقي بها أبا حاتم  
السجستاني والعباس بن الفرغ والرياشي وأبا اسحاق الزيادي ، فأخذ عنهم  
رواية عن الأصمعي وغيره ، ودخل بغداد وسمع من أئمتها ، ثم انقلب الى  
قرطبة . ( ص ٦٧ : بغية الوعاة ) .

ثم اختراع التوشيح - وقد استوفينا الكلام عنه في موضعه .



## الحضارة الأندلسية

الأندلس إقليم في جنوب إسبانيا ، وقد أطلق اسمه على البلاد كلها مجازاً ، وهذه البلاد (إسبانيا) في تاريخ الحضارة أربعة أعصر: الأول عصر الفينيقيين الذين اكتشفوها ، والثاني عصر الرومانيين ، والثالث عصر القوطيين ... والرابع العصر الإسلامي . وكانت إسبانيا قبل أن يكتشفها الفينيقيون ما بين القرن الرابع عشر والخامس عشر قبل الميلاد ، مغمورة بقبائل يسمونهم « الأيبيريين » وقد وقع الخلاف في أصلهم ، قالوا : ومن هذا الاسم اشتق اسم « هباريا » الذي كان الاسم الأول لتلك البلاد ، ثم صار إسبانيا بعد ذلك .

فلم تكن حضارة العرب في الأندلس ابتداءً ، وإنما كانت تتيماً ، ولولا ذلك لتبين النقص الطبيعي في أدب تلك البلاد ، وبلغ الكبر قبل أن يشبّه شبابه الذي بهر التاريخ ، لأن الأدب لا يتبع الحضارة لنفسها ، ولكن لفلسفتها وحواشيتها الرقيقة ، فليس الشأن في بناء يُقام وبلد يعمر ونهر يبتق وأرض تفلح ، ولكن الشأن في فلسفة ذلك جميعه ، من جمال الشكل وإحكام الهندسة وجلاء الطبيعة وحسن التنسيق ؛ وأنت مع استفحال الحضارة الإسلامية واستبحار عمرانها وسموق مبانيها ودقة فنونها ، خصوصاً في الأندلس ، لا تكاد تجد لأفراد الشعراء المدودين في وصف المباني إلا ما كان للبحثري في وصف قصور المتوكل كالجعفري وغيره ، وللشريف الرضي في وصف ما كان في الحيرة من منازل النعمان ، والصابي في وصف قصر روح بالبصرة ، وشعراء الدّاريات ، وهم الذين نظموا في وصف دار الصاحب ابن عباد كأبي سعيد الرستمي والخوارزمي وغيرهما ، وقد ذكرهم صاحب

اليثيمة وأورد قصائدهم ، وابن حمديس في مباني المعتمد على الله وما شاده المنصور بن أعلى الناس وهو أشهر الشعراء في ذلك ، وأبي الصلت أمية الأندلسي في مباني علي بن تميم بن المعز العبيدي بمصر ، وأبي محمد المصري في وصف قصر المأمون بن ذي النون بطليطلة ، وقطع متفرقة لغير هؤلاء ، وهم مع ذلك لا يذكرون مادة البناء ولا يصورون هندسته ، لأن الشعر ليس مادة جامدة يأتلف مع الجوامد ، وإنما هو يتبع زخرف الحضارة وفلسفتها .

وقد وجد العرب في الأندلس حضارة مهيبة وسيلا مطروقة الى الفنون الدقيقة والجمال الطبيعي ، وجاءهم بعد ذلك من بني أمية أمراء الحضارة المشرقية ومنافسو العباسيين فيها . فجلوا شباباً كاد يوفي على الهرم ؛ وكان رأسهم في ذلك عبد الرحمن الداخل الذي بدأ في بناء جامع قرطبة الأعظم والقصر الكبير الذي كان في الأبنية كأنه قصيدة في الشعر ، إذ كان من قصوره التي يحتويها : الكامل ، والمجدد ، والحائر ، والروضة ، والزهرة ، والمعشوق ، والمبارك ، والرستق ، وقصر السرور ، والتجاج ، والبديع ، وغيرها ، وهي المعاهد التي كانت مذكورة في ألسن الشعراء وفرسان الأدب ؛ وكان عبد الرحمن بن معاوية صاحب قصر الرصافة ينقل لجنانه غرائب الفروس وأكلام الشجر من كل ناحية ، وأرسل الى الشام رسوله : يزيد وسفر ، في جلب النوى المختارة والحبوب الغريبة ، ولنا الآن في شرح مواد هذه الحضارة من أنواع النقش والحيل الصناعية ووصف القصور والمنتزهات وسرد أسمائها ، ومجالس الخلفاء وأنواع زينتهم ولهوم وما سفهوا فيه من السرف والبذخ ونحوها ، فليس في كتابنا موضع يسع مثل هذا ، وقد تكفل بذلك الشرح جميعه كتاب 'نفع الطيب للمقري' ، فضلاً عن أن فيه أشياء أمسكتها لبحث الصناعة العربية تجيء في موضعها من هذا الكتاب ؛ وإنما غرضنا هنا أن نضع أساس البحث في الحضارة الأدبية لأنها تابعة للحضارة الفنية ، قفندي بابتها وتشرق يجالها ؛ وإنما الأدباء أقلام التاريخ التي تتخذ حضارة الدول وقصف زينة الملك وتواصل عن الملوك بالثناء وحسن الذكر وطيب

الأحدوثة ؛ فيد الدولة التي لا تكون لها هذه الأرقام يد سلاء يبتزها التاريخ ولا يصفها إلا بالعجز وسوء التعلق والمغالبة على الوجود بغير حق .

وأساس الحضارة الأدبية في الأندلس تلك الطبيعة التي كانت ترسل النسبات أنفاساً موسيقية تؤخذ شعراً وتلفظ ألحاناً ، وبذلك حَبَّبَ الى أهلها الأدب وطبعوا على هذه الشيمة ، حتى كان ذلك ظاهراً في مثل وادي الأثات من أعمال غرناطة ، وهي مدينة خص الله أهلها بالأدب وحب الشعر ، لما أحدق بها من المواضع الفرجة والبساتين الفناء ؛ وما زالوا يضربون المثل بأهل أشبيلية بلد المُنزَهات في الخلاعة والمجون والتهاكك على الشعر والفناء ، وإنما كان يعينهم على ذلك وادها البهيج ؛ وبنت أشبيلية هذه مدينة شريش ، ووادها ابن وادها ، وقد قالوا فيها : ما أشبه سعدى بسعيد ! وهي مدينة وصفوها بأنه لا يكاد يُرى فيها إلا عاشق أو معشوق ...

ومما 'ُخصت' به غرناطة التي تسمى دمشق الأندلس ، نبوغ النساء الشواعر منها، كزهون القلمية و [حفصة] الركونية وغيرها، وناهيك [بها] من شاعرتين ظرفاً وأدباً ، فإذا كانت أنوثة تلك الطبيعة قد أنطقت النساء فكيف بالرجال ؟

#### أدباء ملوك الأندلس .

قال الجاحظ في موضع من كتابه البيان : زعم رجال من مشيختنا أنه لم يقم أحد من بني العباس بالملك - أي الى زمنه - إلا وهو جامع لأسباب الفروسية . فلو زعم أحد أنه لم يقم أحد من أمراء الأندلس وخلفائها إلى آخر القرن الخامس إلا وهو جامع أسباب الأدب لكان حقيقاً في زعمه بالتصديق ، ولولا أديهم لما نفق الأدب عندهم ولا بلغ مبلغه ذلك ، فإن نفاق السوق جَلَّابٌ ، ولم يعرف فيهم من أهل الركاكة والسخف الى ذلك إلا القليل ، كمحمد بن عبد الرحمن المستكفي بالله الذي وزر له حائك يعرف بأحمد بن خالد ، وكان صاحب رأيه وتدبيره ، وقد رأينا أن نذكر أسماء الشعراء وأهل الأدب من أولئك الأمراء والخلفاء ؛ فمنهم : عبد الرحمن الداخل ،

وابنه هشام ، وعبد الرحمن بن هشام ، وعبد الله بن محمد المتوفى سنة ٣٠٠ ؛ وله شعر جيد ، والمنصور ، والمستعين ، وعبد الرحمن بن هشام من خلفاء دولة بني أمية الثانية ، والمستظهر الشاعر الشاب المجيد ، وأولاد الأمير عبد الرحمن الأوسط ، وهم المنذر ، والمطرف ، وهشام ، ويعقوب ، ومحمد ، وأبان ، كلهم شعراء ، ولمحمد هذا ثلاثة أولاد شعراء أيضاً ، وهم : القاسم ، والمطرف - المعروف بابن غزلان ، وهي أمه ، كانت قينة مغنية عوادة أديبة - ومسلم ، ومن أولاد الناصر عبد الله بن الناصر ، وأخوه أبو الأصبح عبد العزيز ، ومحمد بن الناصر ، ومحمد بن عبد الملك بن الناصر ، أما أخوهم الحكم المستنصر فهو للعلم والأدب ، ولم يكن في ولد الناصر أشعر من محمد بن عبد الملك ومن ابن أخيه مروان بن عبد الرحمن بن عبد الملك بن الناصر ، وهو في بني أمية شبيه عبد الله بن المعتز في بني العباس ، لنفاسة شعره وحسن تشبيهه ، وقد خرج منهم بعد القرن الرابع شعراء كثيرون يتفاوتون في الإحسان ، وهي ذرية بعضها من بعض ؛ ومن حسناتهم عبيد الله بن محمد المهدي المعروف بالأقرع ، والأصم المرواني الذي مدح أمير المؤمنين عبد المؤمن ؛ وقد ألف القاضي يونس بن عبد الله بن مغيب بطلب الحكم المستنصر كتاباً في أشعار خلفاء بني مروان بالشرق والأندلس ، معارضاً للصولي في تأليفه كتاب أشعار بني العباس بالعراق . وكتاب الصولي محفوظ بالمكتبة الحديوية .

أما ملوك الطوائف فحسبك بالمتصم بن صمادح ملك المرية وأولاده الواصل عز الدولة ، ورفيع الدولة أبو زكريا يحيى بن المتصم ، وأبو جعفر ، وأم الكرام ، وكذلك المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية ملك الشعراء ، وأولاده : الرشيد ، والراضي ، وبثينة ؛ ثم ملوك بني الأفطس أصحاب بطليوس وما إليها ، ومنهم المظفر صاحب الكتاب المظفري في التاريخ والأدب ، - وسيأتي ذكره - وبنو هود أصحاب سرقسطة ، وكان منهم القائمون على الرياضيات والفلسفة ، وأشهرهم المقتدر بن هود الذي كان آية في علم النجوم والهندسة والفلسفة ؛ فقل في زمن كان يقوم بأمره أمثال هؤلاء : وإنما الأمر بالأمير .

## مبلغ عنايتهم بالعلم والأدب .

يخلص مما استوفيناه الى الآن أن أمراء الأندلس وخلفاءها كانوا فيها كعواطف القلب التي تتحرك الى المنافسة ، فهم من جهة بإزاء العباسيين وأمراءهم في المشرق ، ومن جهة اخرى بإزاء الطبيعة التي أنشأت الأندلسيين نشأة عقلية غير النشأة الأولى التي يساهم فيها كل أفراد النوع ، وهي النشأة القلبية ، فلم يكن بد لأولئك الأمراء من أن يكونوا على الحقيقة رؤوس هذا الشعب الطروب ، وهي لا توفق بين اندفاعه وكبحه إلا اذا كان منها حيز للسياسة الحكيمة والعزيمة الرحيمة ، وهذا لا يتأتى مع جهل ولا جاهلية ، وكذلك ، ليس العلم المحض بنافع فيه على الإطلاق ، وإنما لا بد من علم متنوع وافتتان يوافق به الأمير أو الخليفة معظم السواد من حاشيته وقومه ، فالأمير الفيلسوف لا يصلح للرعية الفقهاء ، وحينئذ لا بد أن يكون الفقه في الكفة الراجحة من ميزان سياسته ، فتكون له الفلسفة في خاصة نفسه ؛ والفقه وما يستعان به على تجميل الملك وسياسته كالكتابة والشعر وغيرهما - فيا ظهر منه للناس .

ولما كانت السيادة لعلم الفقه في أول أمر الأندلس كان الأمراء من بني امية يعنون بشأن الفقهاء والتودد إليهم والانصياع لمشورتهم ، ليتألفوا الناس بذلك ويديروا بهم الرضى الطاحنة التي هي الحرب ؛ حتى إن الحكم بن هشام بات يتمل على فراشه وبعده عنه نومه حين مرض قاضيه وسمع النائحة عليه ؛ لأن هذا القاضي كان يكفيه امور رعيته بعدله وورعه وزهده .

ثم أقبل الأمراء على أهل الأدب واشتغلوا بالفلسفة ، ولكنهم لم يظهروا في ذلك إلا في القرن الرابع ، بعد زمن عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) وهو الذي تجرأ على لقب الخلافة فكان أول من انتحله بالأندلس ، وذلك عندما التاث أمر الخلافة بالمشرق ، واستبدت موالي الترك على بني العباس . وقد تعاور الدولة العباسية في زمن هذا الخليفة المقتدر والقاهر بالله والراضي بالله ، وهو الخليفة الشاعر ، والمتقي لله والمستكفي والمطيع الذي غلب على أمره معز الدولة بن بويه ولم يكن له أمر ولا نهي ولا خلافة تعرف ، فكان

هذا الاضطراب في المشرق علة في تحريك المدينة والحضارة الى المغرب ، حتى استفحل أمرها هناك ، لأن الخلافة التي تقوم بعد أن بلغت الحضارة العباسية الى منقطعها لا تكون خلافة بلا شيء ، بل لا يكفي فيها أن تضاهي الحضارة العباسية ، وقد كان اندفاع هذا التيار سبباً في ظهور الفلسفة من مغاصتها وجريانها على أعين الناس ، وقد أرسل الخليفة عبد الرحمن الى القسطنطينية ، وكان عاقلها القيصر رومانوس ؛ وإلى العراق والحجاز والشام ومصر وإفريقية - من يشترى له الكتب ويحصل له من ذخائرها وأصولها المهمة ، حتى قيل ان عاقل القسطنطينية وجد من أسباب الخطوة لدى هذا الخليفة أن يهدي إليه نسخة بديعة من كتاب الحشائش الذي ألفه ديسفوريدس العالم النباقي المشهور ، وقد كانت مكتوبة بالخط الإغريقي مصورة فيها الحشائش كلها بالذهب ، وأهداه كتاباً آخر لهرشيوس صاحب القصص ، وهو تاريخ الروم في أخبار الدهور وقصص الملوك وطبقات الأطباء في كتب أخرى ، وكان ذلك سنة ٣٣٧ .

ولكتاب ديسفوريدس هذا شأن عند العرب ، وقد نقله عن اليونانية اصطفان بن باسيل أيام المتوكل العباسي وترك أسماء كثير من العقاقير على لفظها اليوناني ، إذ لم يحسن تعريبها ، ووقعت هذه النسخة العربية الى الأندلس ، فلما أهدى الكتاب الى الناصر أرسل الى ملك القسطنطينية في أن يبعث إليه براهب يعرف اليونانية واللاتينية ، وكان في الأندلس من يحسن هذه اللغة ، فبعث إليه راهباً اسمه نقولا وصل الى قرطجة سنة ٣٤٠ فتعاونوا على استخراج ما فات ابن باسيل ، ثم جاء ابن جلجل الطبيب الأندلسي في آخر القرن الرابع فألف كتاباً فيما فات ديسفوريدس من أسماء العقاقير والأدوية ، جمعه ذبلاً على ذلك الكتاب .

وبذلك صار من مفاخر الأندلسيين يومئذ اتخاذ المكاتب للمنفعة والزينة معاً ، حتى إن الكتاب ربما عُغليَ فيه لجلده ونقشه وحُسن خطه ، لأنها مظاهر الزينة ، وقد كان الناصر أندى الناس كفاً على الشعراء والكتّاب وأهل الموسيقى وغيرهم ، وتولى حماية من يشتغل بعلوم الفلسفة ، حتى طارت



شهرة قرطبة في أوروبا فأمرها الناس أفواجاً في زمنه وزمن ابنة الحكم ،  
واختلطوا بالأندلسيين في حلقات العلم ، ولا يتم ذلك إلا في عصر تكون  
شجرة الفلسفة قد مدت عليه ظلها الوارف ، ومن أشهر أولئك الراهب  
جوبرت ( ٩٣٠ - ١٠٠٤ م ) الذي ارتقى بعد ذلك الى العرش البابوي باسم  
البابا سيلفسترس الثاني وقد وفد في زمن الحكم ( ص ٩٨ ج ١ : تاريخ الأدب  
عند الإفرنج والعرب ) .

ولسنا نفيض في وصف زمن الناصر وإقبال الوفود عليه من ملوك أوروبا  
والملوك المتأخرين له ومخاطبته في أمر الهدنة والسلم والتماس رضاه وتقبيل يده ،  
ولا في وصف المجلس التاريخي العظيم الذي أعدّه لاستقبال تلك الوفود ،  
فإن حواشي التاريخ ليست من شرطنا في هذا الكتاب ، وإنما نقول إن زمن  
هذا الخليفة كان شباب الأدب، ولغلبة العلوم عليه من اللغة والنحو والحديث  
والفلسفة لم يكثر شعراؤه كثرتهم في أواخر هذا القرن وفي القرنين الخامس  
والسادس . وقد كان من تأثير ذلك أن صار أكثر الفقهاء وسائر أصناف  
العلماء رواة للشعر والأخبار ، واستفاض ذلك الى آخر عصور الأندلس ،  
فنشأ من مشاهيرهم مثل أبي مروان عبد الملك الطيبي ، وأبي الوليد الباجي ،  
وأبي أمية إبراهيم بن عصام ، وأبي حزم الظاهري ، وأبي بكر الطرطوشي ،  
والحافظ الحميدي ، وابن الفرضي ، وغيرهم ؛ حتى إن من لم يكن فيه هذا  
الأدب من العلماء كانوا يعدونه غفلاً مستثقلاً . ولم يكن يشتهر بذلك قبلهم  
إلا القليل من الفقهاء ، كعبد الملك بن حبيب المتوفى سنة ٢٣٨ ، والقاضي  
منذر بن سعيد المتوفى سنة ٣٣٥ وكانوا يقولون في عبد الملك إنه عالم الأندلس  
وإن عيسى بن دينار فقيها ؛ وأشهر شعراء الناصر : ابن عبد ربه صاحب  
العقد الفريد المتوفى سنة ٣٢٨ ، وهو الذي نظم بعض غزواته في أرجوزته  
المشهورة ، وحاجبه أحمد بن عبد الملك بن عمر بن أشهب ، ووزيره عبد الملك  
ابن جهور ، وآخرون .

ولما ولي بعد الناصر ابنه الحكم المستنصر ( ٣٥٠ - ٣٦٦ ) جرى في

طريق أبيه وأرسي على الغاية، فكان جماعاً للكتب في أنواعها ما لم يجمعه أحد قبله من الملوك، حتى بلغ عدد الفهارس التي فيها تسعئة الكتب أربعة وأربعين، في كل واحدة عشرون ورقة، ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين، وكان يبعث إلى الأقطار في شراء الكتب أناساً من التجار، وبعث في كتاب الأغاني إلى مصنفه أبي الفرج، وكان نسبه في بني أمية، وأرسل إليه فيه بألف دينار ذهباً، فبعث إليه بنسخة منه قبل أن يخرج إلى العراق، وله من أمثاله أشياء؛ وجمع بداره الحذائق في صناعة النسخ والمهرة في الضبط والإجادة في التجليد، فأوعى من ذلك كله، واجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده، وقد حققوا أنها بلغت سبعين مكتبة إلا ما يذكر عن الناصر العباسي بن المستضيء. قال ابن خلدون: ولم تزل هذه الكتب بقصر قرطبة إلى أن بيع أكثرها في حصار البربر، وأمر بإخراجها وبيعها الحاجب واضح من موالي المنصور بن أبي عامر، ونهب ما بقي منها عند دخول البربر قرطبة واقتحامهم إياها عنوة، وقد آثر ذلك الحكم على لذات الملوك، فاستوسع علمه، ودق نظره، وجمت استفادته، وكان في المعرفة بالرجال والأخبار والأنساب أحودياً نسيج وحده؛ وكان ثقة فيما ينقله، وقلما يوجد كتاب من خزائنه إلا وله فيه قراءة أو نظر في أي فن كان، ويكتب فيه نسب المؤلف ومولده ووفاته وغرائب أخرى لا تكاد توجد إلا عنده لعنايته بهذا الشأن. وإذا كان الحكم قد امتاز بشدة النظر في علم الحدائق - التنجيم (ص ٩٣ ج ٢: نفع الطيب) وهو من اللهو الشبيه بالباطل، فما ظنك به في غيره من علوم القوم؟ وإن مبلغ العلم لا يكون دائماً إلا مبدأ العناية بالعلم، فعلى قدر ما يستوفي العالم يكون شره إلى الزيادة، وعلى مقدار هذا الشره تكون العناية بمن عنده شيء مما يوفّي حق الرغبة ويغني من حاجة الطلب؛ فإذا كانت خزائن الحكم تحفل بأربعمائة ألف مجلد، كما قيل، (ص ١٨٤ ج ١: نفع الطيب) حتى إنهم لما نقلوها أقاموا في ذلك ستة أشهر؛ فهل يكون عصره إلا عصر العلماء والأدباء الذين هم مصانع الكتب على الحقيقة؟

أما الشعر في زمنه فإننا إذا ذهبنا نقلب كتب التاريخ التي بين أيدينا لم نكد نعرف من مشاهير عصره [غير] حاجبه جعفر بن محمد المصحفي رب القلم والبيان ؛ وهو في الطبقة الثانية من شعراء الأندلس ، وغير الرمادي الشاعر المتوفى سنة ٤٠٣ ، ويمدونه في الطبقة الثالثة ( ص ١٦ : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ) .

وإذا كان التاريخ قد ذهب بكثير من أسمائهم ، فقد رأينا في بعض أنبائه أن من الكتب التي ألفت للحكم المستنصر كتباً في شعراء الأندلس ، منها أخبار شعراء البيرة في عشرة أجزاء ؛ وقد وقف عليه الوزير أبو محمد ابن حزم ؛ وهو الذي ذكره في بعض رسائله ولم يذكر اسم مؤلفه ( ص ١٢٣ ج ٢ ) ، ولكننا وقفنا في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي على اسم هذا الكتاب في ترجمة مظرف بن عيسى الألبيري المتوفى سنة ٣٥٧ ؛ وقال إن له كتاباً آخر في فقهاءها ؛ وكتاباً في أنساب العرب النازلين بها وأخبارهم ( ص ٣٩٢ ) .

ورأينا أيضاً في هذه الطبقات في ترجمة محمد بن عبد الرؤوف القرطبي المعروف بابن خنيس المتوفى ٣٤٣ أنه ألّف كتاباً في شعراء الأندلس بلغ فيه الغاية ؛ فيكون من ذكرهم فيه الى ما قبل انتهاء زمن الناصر ؛ وألبيرة لم تكن إلا مدينة من مدن الأندلس فكيف بسائرهما ؟ إلا أن الشعر كان كثيراً في علماء اللغة والنحو وغيرهما - كما سيحيء في موضعه - وفي أيام هذا الأمير نبغ محمد بن هاني الشاعر الشهير بأشبيلية ، ولكنه انفصل عنها الى إفريقية ومدح المعز صاحب مصر وغيره ، وتوفي سنة ٣٦٨ ؛ وقد توفي الحكم سنة ٣٦٦ وولي بعده ابنه هشام فغلب على أمره ابن أبي عامر المنصور وتولى حجابته ، ووجرت أحوال علت قدمه فيها حتى صار صاحب التدبير ، فدانت له الأندلس كلها ولم يضطرب عليه شيء من نواحيها ، وكان محباً للعلوم مؤثراً للأدب ، مفرطاً في إسكرام من ينسب الى شيء من ذلك ويفد عليه متوسلاً به بحسب حظه منه وطلبه له ومشاركته فيه ، وقد أفرط في الإحسان على أبي العلاء صاعد اللغوي البغدادي حين قدم عليه سنة ٣٨٠ حتى اتخذ له

مرة قيصاً من رقاع الخرائط التي كانت تصل إليه فيها الأموال منه ، وجعل ذلك حيلة الى بلوغ الغاية من كرمه ، وقد ألف له كتباً غريبة ، منها كتاب الهجفجف بن غيدقان بن يثري مع الخنوت بنت مخزومة ، وكتاباً آخر في معناه سمّاه كتاب الجواس بن قطعل المذحجي مع ابنة عمه عفراء . قال صاحب المعجب : وهو كتاب مليح جداً انخرم أيام الفتن بالأندلس فنقصت منه أوراق لم توجد بعد، وكان المنصور كثير الشغف بهذا الكتاب - أعني الجواس - حتى رتب له من يخرج به أمامه كل ليلة ( ص ٢٠ : المعجب ) .

ولعل هذه الكتب مما يساق فيه القصص الموضوع على غرض من أغراض السياسة والأدب ؛ ويقول صاحب المعجب : إن كتاب الهجفجف وضعه على نحو كتاب أبي السري سهل بن أبي غالب ، فيا أسفا على كتب أصبحت أسماءها تحتاج الى تفسير ... وقد ذكر الفتح بن خاقان في المطمح في ترجمة الوزير حسان بن مالك بن أبي عبدة أنه دخل على المنصور وبين يديه كتاب ابن السري وهو به كلف وعليه معتكف ، فخرج وعمل على مثاله كتاباً سماه ربية وعقيل ، وأتى به منتسخاً مصوراً في ذلك اليوم من الجمعة الأخرى ( ص ٣١٤ ج ٢ ) فهذا يفيد ان هذه الكتب جميعها على مثال كليلة ودمنة المشهور .

وكان للمنصور مجلس في كل اسبوع يجتمع فيه أهل العلم والمناظرة بمحضرتة ما كان مقيماً بقرطبة ، لأنه كان مواصلاً لغزو الروم مفرطاً في ذلك لا يشغله عنه شيء ، حتى إنه ربما خرج للمصلى يوم العيد فحدثت له نية في ذلك فلا يرجع الى قصره ، بل يخرج بعد انصرافه من المصلى كما هو من فوره الى الجهاد ، فقتبعه عساكره وتلحق به أولاً فأولاً ؛ وقد غزا في أيام ملكه التي دامت الى سنة ٣٩٣ نيماً وخمسين غزوة .

ورأس الشعراء في أيامه عبادة بن ماء السماء المتوفى سنة ٤٢٢ وقيل سنة ٤١٩ ، وهو أول من أتقن الموشحات بالأندلس حتى كأنها لم تسمع إلا منه ، وللرمادي في ذلك يدٌ أيضاً .

ومن مشاهيرهم الرمادي وابن دراج والقسطلبي ومحمد بن مسعود الفسائي  
 البجالي (ص ٢٣٨ ج ٢ : نفح الطيب) وكان يكتب له هو ومحمد بن إسماعيل  
 . . . . .  
 . . . . . وله لطائف في الشعر فكان يخاطب  
 المنصور بلسان النبات الذي يوافق أسماء عقائله ومحاطيه ، كاسم بهار ونرجس  
 وغيرهما ، والوزير محمد بن حفص بن جابر، وأبو بكر محمد بن نهور، وغيرهم .  
 وكان المنصور معروفاً بالحاماة عن أهل الشعر والأدب حتى لا يتنقصهم في  
 مجلسه أحد إلا رد عليه وسفته ؛ وقد وقع بعضهم في الرمادي عنده فكلمه  
 كلاماً كان يغوص دونه في الأرض لو وجد لشدة ما حل به منه ؛ غير أنه لما  
 كان المنصور غزاه أموالياً للجهاد ، فقد كان غبار حروبه يثور بين العلماء  
 تشدداً في الدين ، حتى فشا في العامة اتهام كل من يشتغل بالفلسفة أو يعرف  
 بمذهب من مذاهبها حتى في الشعراء أنفسهم ، وكان قليل من ذلك في زمن  
 الحكم وأبيه ، فاتهموا ابن هانئ في اشبيلية ، وأسأوا المقالة فيه حتى  
 انفصل عنها ، ولما وفد الشاعر المشهور أبو عبد الله محمد بن مسعود الفسائي  
 البجالي على المنصور ، اتهم كذلك برهق في دينه ، فسجنه المنصور في المطبق  
 زمناً . وقد بقيت الفلسفة مضطهدة في الأندلس بعد ذلك من عامتها ، حتى  
 ظهرت في بر العدة - كما سيجيء - وفشا الأدب في زمن المنصور حتى صار  
 حلية الشباب وزينة النشأة الأندلسية ، ومثل ذلك يكون مبدأ عصر عظيم ،  
 وقيل إن المخانيث بقرطبة يومئذ كانوا يشتغلون به ، فكان منهم فتيان أخذوا  
 بنصيب وافر منه ، ومن هؤلاء غلام للمنصور اسمه فاتن توفي سنة ٤٠٢ ،  
 قالوا : كان لا نظير له في علم كلام العرب ( ص ٩٠ ج ٢ : نفح الطيب ) .

وبعد المنصور بزمن قليل ابتدأت الفتن في الأندلس واستجار بعضهم  
 الإفرنج ، ولبثوا على ذلك الى أن انقرضت دولة بني أمية سنة ٤٢٨ ، فكانت  
 دولة المنصور آخر دول العلم والأدب في القرن الرابع ، وقد وضع ابن الفرضي  
 المحافظ المشهور المتوفى سنة ٤٠٣ كتاباً في أخبار شعراء الأندلس الى ذلك  
 الزمن ( ص ٣٨٣ ج ١ : نفح الطيب ) .

وسار الأدب في وجهته غير مبال بقيام الملوك وسقوطهم؛ لأنه لا يقوم بهم ولا يسقط معهم إلا في أوائل نشأته ، إذ يحوطونه ويكفلون نموه ؛ وإلى أن انفرطت دولة بني أمية وانتثر سلك الخلافة في المغرب كان الامراء لا ينفكون يتعاهدونه ؛ فكان الناصر علي بن حمود من البربر - وهو الذي ملك مثلك قرطبة بعد الأربعمائة وقيل سنة ٤٠٨ - على عجمته وبُعدِه من فضائل اللسان ، يُصغي الى الأمداح ويثيب عليها ، مظهراً في ذلك آثار النسب العربي والكرم الهاشمي ؛ ومن مشاهير الذين امتدحوه ابن الخياط القرطبي ، وعبادة بن ماء السماء ( ص ٢٢٥ ج ١ : نفع الطيب ) . ولما ولي المستظهر سنة ٤١٤ ( من خلفاء الدولة الأموية الثانية ) عكف على الأدب ، وكان شاعراً مصنّعاً بديع الشعر ، فاشتغل عن تدبير المملكة بالمباحثة مع أبي عامر ابن شهيد الشاعر الكبير ؛ وأبي محمد بن حزم العالم الشهير ؛ وعبد الوهاب ابن حزم الغزل المترف ؛ فكانوا يتباحثون في الآداب ويتجادبون أهداب الشعر ؛ حتى أحقد بذلك مشايخ الوزراء والكبراء ؛ فأثاروا عليه العامة وهم يومئذ أجهل ما يكون ؛ فقتلوه لأدبه وشعره ؛ وهذا وحده دليل على أن العامة لا يكرهون الفلسفة ولا يضطهدون القائمين عليها لذاتها ؛ ولكنهم مع كل ربيع ؛ وأتباع كل ناعق ؛ وكما تابعوا في إحراق كتب الفلسفة ، تابعوا كذلك في إحراق كتب المذهب المالكي في المغرب - كما سنشير إليه فيما يأتي - .



## القرن الخامس وملوك الطوائف

بعد أن انقطعت خلافة بني أمية ولم يبق من عقبهم من يصلح للملك ، استبد بالأندلس أفراد غلب كل واحد منهم على ما يليه ، وهم المسمون بملوك الطوائف ، فضبطوا نواحيها ، وجعلوها عواصم الحضارة ، وتنافسوا في أبهة الملك وفخامة الشأن ، فكان منهم بنو ذي النون ملوك طليطلة ، وبنو هود ملوك طرطوشة وسرقسطة وغيرهما ، وملوك بني الأفضس أصحاب بطليوس وجبالتها ، وبنو صمادخ أصحاب المرية ، والفتيان العامرية : مجاهد ومنذر وخيران ملوك دانية ( ص ١٣٩ ج ٢ : نفع الطيب ) وما منهم إلا أديب أو عالم ، فننقت بهم سوق الأدب ، وصار الأديب أينما دار استند إلى ركن وتوجه إلى قبلة ، حتى صارت الأندلس كعبة ، لهذه العادة ، لا للعبادة ؛ لا جرم كان هذا العهد حافلا بالشعراء والأدباء والقائمين على أنواع العلوم من كل من أغلّت قيمته المنافسة ، وقد وجدوا الزمن رخاء والعصر حضارة والنفوس متهيئة ، فلم يبق لهم وراء ذلك مقترح لقريحة ، ثم إن أولئك الملوك لم يخوضوا في أول أمرهم [ الفتن ] ، ولم تعصف بهم ريح السياسة ، فانصرفوا جهدهم إلى استجماع لذة الملك ، وأخذوا بأحلام المباهاة التي يهذي بها مرضى الترف اللين وضعفاء العصب السياسي ، إلا قليلا منهم ، فصار المدح لغذاء أرواحهم كالملح لطعام أجسامهم ؛ وثبتت العادة بذلك ، حتى إن يوسف بن تاشفين لما دخل الأندلس توسط له المعتمد بن عباد عند الشعراء ليمدحوه حتى لا يصغر شأنه مع أنه دخل في نجدة لهم على الإفرنج وكان على يده النصر المبين .

وتبع ذلك من فنون الآداب ما يخلق لهم اللذة في كل صورة ويبدلها في كل مخلقة ، حتى يتداووا بهذه الجدة من سأم القديم وضجر التكرار ، فكانت لهم المجالس العجيبة ، والأوصاف البارعة ، والفنون المستظرفة من صور التشبيهات ، إلا أن ذلك جميعه قد كان أعوَدَ على الأدب بالفائدة وأردَّ عليه بالمنفعة ، فنبغ في أيامهم من لو خلا الأدب الأندلسي إلا منهم لكانوا زينتته ورواه ، وقد كاد يكون بهم القرن الخامس تاريخاً على حدة .

كان من أعظم مباهاة ملوك الطوائف أن فلاناً العالم عند فلان الملك ، وفلاناً الشاعر مختص بفلان الملك (ص ١٣٩ ج ٢ : نفع الطيب) ؛ وقد بذل مجاهد العامري ملك دانية لأبي غالب اللغوي ألف دينار ومركوباً وكساء على أن يضع اسمه في صدر [ كتاب ألفه ] فأبى ذلك أبو غالب وقال : كتاب ألفته لينتفع به الناس وأخلد فيه همتي ، أجعل في صدره اسم غيري ؟ فلما بلغ هذا مجاهداً استحسناً أنفته وأضعف له العطاء . وكان من ملوك بني هود : المقندر بن هود ، وهو آية في علم النجوم والهندسة والفلسفة ، وكان يباهي بالفقيه الأديب العالم الشاعر أبي الوليد الباجي وانجياشه الى سلطانه ؛ ومن ملوك بني الأقطس : المظفر ، وكان أحرص الناس على جمع علوم الأدب خاصة من النحو واللغة والشعر ونوادير الأخبار وعيون التاريخ ؛ وقد [ انتخب ] مما جمع من ذلك كتابه المشهور بالمظفري في خمسين جزءاً على نحو كتاب الاختيارات للروحي وعيون الأخبار لابن قتيبة ( ص ٤٩ : المعجب ) . توفي سنة ٤٦٠ ، وكان أديب ملوك عصره ؛ أما ملوك بني عباد فقد كانوا هم وبنوهم ووزراؤهم صدوراً في بلاغتي النظم والنثر ، مشاركين في فنون العلم ؛ وكانت دولتهم العبادية بالمغرب كالدولة العباسية بالشرق ، وكان المعتمد منهم لا يستوزر وزيراً إلا أن يكون أديباً شاعراً حسن الأدوات ؛ وكان من شعراء أبيه المعتضد ، أبو جعفر بن الأبار . . . وأبو الوليد وابنه الوزير ابن زيديون والياني ، وابن جاح البطلبوسي الذي يعد من أعاجيب الدنيا لأنه كان أمياً ، وقد بلغ من حسن شعره أن ولاه المعتضد رياسة الشعراء ؛ إذ كانت له دار مخصوصة بهم وديوان تقيّد فيه أسماؤهم ، وقد جعل لهم يوماً



يفرغ لهم فيه فلا يدخل فيه على الملك غيرهم ، وربما كان يوم الاثنين .  
( ص ٤٦٨ ج ٢ : نفع الطيب ) .

فتأمل ما عسى أن يبلغ عدد قوم يُفردُ لأسمائهم ديوان وتخصص بهم دار ؟ وكان المعتضد داهية يشبه أبا جعفر المنصور ، وقد اتخذُ خشباً في ساحة قصره جللها بزموس الملوك والرؤساء عوضاً عن الأشجار التي تكون في القصور ، وكان يقول : في مثل هذا البستان فليتنزه ! ( ص ٥٩ : المعجب ) .

وهذا الخبر ينقله كتبة الاوربيين الى الشعر الحض فيقولون إنه كان يزرع الورد في جماجم أعدائه ، ولابنه المعتمد شيء من مثل هذا ، فقد اتخذ في بعض وقائمه ... من جماجم أعدائه مثذنة ثوب عليها المؤذنون ؛ ولم يجتمع من فحول الشعراء وأمرء الكلام بباب أحد من ملوك الإسلام ما اجتمع بباب الرشيد والصاحب بن عباد والمعتمد هذا ، فكان بباب الرشيد مثل أبي نواس وأبي العتاهية والعتابي والنمري وأشجع السلمي ومسلم بن الوليد وأبي الشيص ومروان بن أبي حفصة ومحمد بن منذر وغيرهم ؛ وكان بباب الصاحب بأصبهان وجرجان والري مثل أبي الحسين السلامي وأبي بكر الخوارزمي وأبي طالب المأمون وأبي الحسن البديهي وأبي سعيد الرستمي وأبي القاسم الزعفراني وأبي العباس الضبي وأبي محمد الخازن وأبي الحسن ابن عبد العزيز الجرجاني وبني المنجم وابن بابك وابن القاشاني وبديع الزمان والشاشي وكثيرين غيرهم ( ص ٣٢ ج ٣ : يتيمة الدهر ) . وكان بحضرة المعتمد مثل ابن زيدون وابن اللبافة وابن عمار وعبد الجليل بن وهبون وأبي تمام غالب بن رباح الحجام وابن جامع الصباغ ، وغيرهم ؛ ولا أحدث بالمعتمد وأولاده وأمه العبادية ، فكلهم شعراء ، وكان يناظر المعتمد المتوكل ابن الأفتس ، وكان في حضرة بطليوس كالمعتمد بإشبيلية ، يتردد أهل الفضائل بينها كتردد النواصم بين جنتين ، وينظر الأدب منها عن مقلتين ، والمعتمد أشعر والمتوكل أكتب ( ص ٥٨٣ ج ٢ : نفع الطيب ) وكان وزيره

وزير أبيه ابن عبدون الكاتب الشاعر الشهير، وهو الذي سیر فيهم القصيدة الخالدة التي أولها :

\* الدهر يفجع بعد العين بالآثر \*

وذكر فيها مصارع الملوك الى زمنهم ، وتوفي سنة ٥٢٠ .

وكذلك كان بالمرية يومئذ المعتصم بن صمادح ، ومن شعرائه ابن الحداد شاعر الأندلس وعمر بن الشهيد وأبو جعفر الخراز البطرني وأبو الوليد النحلي ومحمد بن عبادة الوشاح والأسعد بن بليطة والحكيم الفيلسوف أبو الفضل بن شرف القائل في دولته :

لم يبق للجور في أيامهم أثر إلا الذي في عيون الغيد من حور

وقد قصر امداحه عليه بعد أن مدح المتوكل بن المظفر وأقطعه المعتصم قرية بأحوازها لهذا البيت - وستكلم عن الشعراء الفلاسفة في موضع آخر - .

وبما امتاز [ به ] القرن الخامس شيوع الأدب في النساء ، حتى كانت مريم بنت أبي يعقوب الأنصاري التي اشتهرت بأشبيلية بعد الأربعمئة تدارس النساء الأدب ( ص ٤٩٣ ج ٢ : نفح الطيب ) .

وامتاز أيضاً باختراع الزجل كما امتاز القرن الرابع باختراع التوشيح ، والذي اخترع الزجل هو الوزير أبو بكر بن قزمان ، وكان ممن اشتمل عليهم المتوكل بن المظفر .

وفي آخر هذا القرن نكب ملوك الطوائف وانقرض ملكهم على يد يوسف ابن تاشفين الملقب أمير المسلمين ولم يكن على شيء من الأدب العربي ؛ ولذلك كان أكثر الشعراء في بر العدو أيام نكبة ملوك الطوائف من الزعانفة وملحفي أهل الكدية ، حتى إنه لما أخذ المعتد الى طنجة تعرض له أولئك الصعاليك وألحفوا في استجدائه ، وكان هو أولى منهم بالكدية لولا انه المعتد الذي يقول في ذلك :

لولا الحياء وعزة الخنمية طي الحشا ساوهم في المطلب

ومن مشاهيرهم الحصري الأعمى ، وكانت له عادة سيئة من قبح الكدية وإفراط الإلخاف ( ص ٩٠ : المعجب ) .

### عصر الوزراء

غير أن ملوك الطوائف قد تركوا له إرثاً من الأدب اتصل به بعضه بعد أن استوسق له الأمر ، إذ خلفوا من الشعراء والكتاب كالوزراء بني القبطرنة من أهل بطليوس أبي بكر وأبي محمد وأبي الحسن ، وذوي الوزارتين أبي بكر محمد بن رحيم الشاعر ، وأخيه الوزير أبي الحسين بن رحيم ، والوزراء أبي بكر الطائي ، وأبي الحسن جعفر بن الحاج ، وأبي محمد بن القاسم ، وأبي عامر ابن أرقم ، وأبي جعفر بن مسمدة ، وأبي محمد بن [ ... ] ، وأبي القاسم ابن السقاط ، وأبي عبد الله بن أبي الخصال ، وأبي الحسين بن سراج ، وأبي القاسم بن الجد ، وأبي محمد بن مالك ، وعبد الله بن سماك ، وعبد الحق ابن عطية ، وعبد الحسن بن أضحي ، والكتاب أبي عبد الله اللوشي ؛ [ ... ] وأبي الحسن بن زنباع ، وأبي محمد بن سارة ، ويحيى بن تقي ، وأبي الحسن غلام البكري ، وأبي القاسم المتني ، وأبي الحسن بن [ ... ] وأبي عبد الله محمد بن عائشة ، وأبي عامر بن عقال ، وعبد المعطي بن مجد ، وغيرهم ، وما منهم إلا علّم في دولة القلم .

وهذا القرن الخامس يصح أن [ يلقّب ] بزمان الوزراء ، لأنهم كثروا فيه كثرة لم تكن فيما قبله ولم تعهد فيما بعده ، وإنما كانوا يستوزرون لأديبهم من الكتابة والشعر - وبذلك عرفوا - فكان الوزارة كانت كالشعر منافسة ، ثم كانوا يوزعون عليهم الخطط كالمظالم والأحكام [ والإنشاء ] وغيرها .

وربما يتهادى الوزير الواحد ملوك عدة ؛ ولذهاب هؤلاء الوزراء يجيد الشعر قلّ في زمنهم من عرف بالشعر وحده ، لأنه لا يتميز به إلا من ميّزته مواهبه وتخطّت به جلالة الوزارة ، وقد مر بك أسماء بعضهم ، أما الوزراء ممن لم نذكرهم فمنهم أحد بن عباس وزير زهير الصقلي ملك المرية ، وكانت له عناية خاصة يجمع الكتب حتى بلغت دفاتره ٤٠٠ ألف مجلد غير الدفاتر

المخرومة ، وأبو مروان بن سراج جاحظ الأندلس ، وأبو محمد ابن عبد البر ،  
وأحمد بن عبد الملك بن شهيد ، وأبو مغيرة بن حزم ، ومحمد بن عبد الله بن  
مسلم ، وأبو المطرف بن الدباغ ، وأبو حفص بن برد ، وأبو عبد الله البكري ،  
وأبو بكر بن عبد العزيز ، وأبو عبد الملك بن عبد العزيز ، وأبو جعفر البقي ،  
وأبو جعفر بن سعدون ، والحاجب أبو مروان عبد الملك بن رزين ، و...  
محمد بن طاهر ، وأبو عامر بن سنون ، وأبو بكر بن القصيرة ، وأبو الحسن  
بن اليسع ، وأبو الفضل بن حداي ، وذو الوزارتين أبو عيسى بن لبون ،  
وأبو محمد بن سفيان ، وأبو محمد بن القاسم ، وأبو الحسن بن الحاج ، وأبو الأصبح  
ابن الأرقم ، وابن الحضرمي ، وأبو طالب بن غانم ، وأبو بكر بن قزمان ؛  
وربما كان لكل واحد جمع من هؤلاء ، كتاب وشعراء ، يتجمل بهم موكب  
الوزارة ، وينطق بهم لسان المجلس ؛ فتأمل عظمة هذا العصر ، وتدبر مقدار  
ما فيه مع ذلك من الأدب وفنونه .

ونحن نستوفي هذه الكلمة بذكر من اشتهروا قبل من ذكرناهم من وزراء  
الأندلس ، ومنهم حاجب الناصر أحمد بن عبد الملك بن عمر بن أشهب ،  
ووزيره عبد الملك بن جهور ، ثم حاجب ابنه الحكم جعفر بن محمد المصحفي ؛  
وكان في زمنه وزمن أبيه من بيوت الوزراء آل أبي عبيدة وينتهي بيتهم في  
الوزارة الى زمن الداخل ، وآل شهيد ، وآل فطيس ؛ وفي زمن المنصور بن  
أبي عامر : محمد بن حفص بن جابر ، وأبو بكر محمد بن نهور ، وأبو عبيدة  
حسن بن مالك صاحب كتاب ربيعة وعقيل الذي سلفت الإشارة إليه .



## القرن السادس ومابعدَه

بعد أن انقضى ملك الطوائف واستوسق أمرها لابن تاشفين بما أظهر من النكاية في العدو والدفاع عن المسلمين وحماية ثغورهم ، بلفّ الجيوش الى الجيوش ، وصدّم الخيل بالخيّل ، 'عدّ' من يومئذ في جملة الملوك وسُمّي هو وأصحابه بالمرابطين . ولم يختلف عليه شيء من الأندلس ، فانقطع إليه من أهل كل علمٍ فحولهُ حتى ماجت [ بهم ] حضرتَه ، ولم يجد بداً من أن يتبع سنن من قبله في تجميل الملك بهم ؛ وبذلك اجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من عصور الأندلس ، فكان من كتابه كاتب المعتمد على الله الوزير أبو بكر بن القصير ، وكان على طريقة القدماء ، من إيثار جزل الألفاظ وصحيح المعاني من غير التفات الى السجع ، إلا ما جاء من ذلك عفواً ، وكتب له أيضاً الوزير عبد المجيد بن عبدون ، وهو من أبلغ الكتاب قاطبة إلى غيرها من الفحول الذين لم يجدوا لهم ركنًا بالأندلس ، وقد ذكرنا بعضهم ، فإنه لم يشتهر بها بعد نكبة ملوك الطوائف ممن تفضل على أهل الأدب ، غير الوزير أبي محمد عبد الرحمن بن مالك المعافري ، وكان شاعراً بليغاً - فإنه جرى على سنن عظماء الملوك في ذلك حتى لم يُرَ بعده مثله ، وتوفى سنة ٥١٨ - وكان إبراهيم ابن الأمير يوسف المذكور قد عقد في هذه الدرة سماءً ، ولما قام بالأمر علي بن يوسف ابن تاشفين سنة ٤٩٣ - وكان إلى أن يعد في الزهاد والمتبتلين أقرب منه إلى أن يُعدّ في الملوك والمتغلبين - اشتد إيثاره لأهل الفقه ، فكان لا يقطع

أمراً في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء ، وإذا ولى أحداً من قضاة كان فيما يعهد إليه ألا يقطع أمراً ولا يبت حكومة في صغير من الأمور ولا كبير إلا بمحضر أربعة من الفقهاء ( ص ١١٠ : المعجب ) فبلغوا في أيامه ما لم يبلغوه في الصدر الأول من فتح الأندلس ، ولم يكن يقرب منه ويحظى عنده إلا من أتقن علم الفروع ، أي فروع مذهب مالك ، فنفتت في ذلك الزمان كتب المذهب ونبت ما سواها ، وكثر ذلك حتى نسي النظر في الكتاب والسنة ، ودان أهل ذلك الزمان بتكفير كل من ظهر منه الخوض في شيء من علوم الكلام ، وقرر الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيح هذا العلم وكرهه السلف له وأنه بدعة في الدين ، في أشباه هذه الأقوال حتى استحکم في نفسه بغض الفلسفة وأهلها ، فكان يكتب في كل وقت الى البلاد بالتشديد في نبت الخوض في شيء من علم الكلام وتوعد من وجد عنده شيء من كتبه ؛ ولما دخلت كتب الغزالي الى المغرب أمر هذا الأمير بإحراقها ، وتقدم بالوعيد الشديد ، من سفك الدم واستئصال المال ، إلى من وجد عنده شيء منها ؛ واشتد الأمر في ذلك ؛ فهذه أعظم نكبات الفلسفة ، وهذا هو سببها : مغالبة على الرزق وتهالك على السلطة ؛ وإذا كانوا قد نسوا النظر في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، فلقد هان بعد ذلك أن تحرق كتب الفلسفة وأن يُمثّل بها كل تمثيل ؛ ولما دخل محمد بن تومرت الى مراکش ؛ وهو أصل دولة الموحدين ، أحضر بين يدي هذا الأمير وجمع له الفقهاء للمناظرة ، فلم يكن فيهم من يعرف ما يقول ، إلا رجلاً أندلسياً اسمه مالك بن وهيب ، وكان متحققاً بأجزاء الفلسفة ؛ وقد شارك في جميع العلوم ، غير أنه لم يكن يظهر إلا ما ينفق في ذلك الزمان .

وقد كان من وراء ذلك وتشعب هذه الفروع [ واستبحار ] هذا العلم أن الأمير يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن المتوفى سنة ٥٩٥ من أمراء الموحدين - لما نظر في هذه الآراء المتشعبة التي أحدثت في دين الله ووجد في المسئلة الواحدة أربعة أقوال وأكثر لا يُعرف في أيها يكون الحق - حمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث [ وأراد ] نحو مذهب

مالك وإزالته من المغرب مرة واحدة ، فأمر بإحراق كتبه بعد أن يجرد ما فيها من الحديث والقرآن؛ حتى لقد كان يؤتى منها بالأحمال فتوضع وتطلق فيها النار ، وتقدم كذلك الى الناس بترك الاشتغال في علم الرأي والخوض في شيء منه ، وتوعّد على ذلك بالعقوبة الشديدة ؛ وأمر من عنده من المحدثين باستخراج مجموع من مصنفات الحديث العشرة ، كالصحيحين والترمذي والموطأ وغيرها ، فكان يلبه بنفسه على الناس ويأخذهم بحفظه ، وجعل لمن حفظه الجمل السني من الكساء والمال ؛ فحفظه الخواص والعوام ( ص : ١٨٤ : المعجب ) وكان ذلك في سنة ٥٨٤ .

غير أن الأمير علي بن يوسف لم يكن منصرفاً عن الأدب ، إذ لا عداوة بينه وبين الفقه ، فكان يستدعي أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس ، وكان عنده من مشاهيرهم أبو القاسم المعروف بالأحدب ، وأبو بكر محمد المعروف بابن القبطرنة ، وأبو عبد الله محمد بن أبي الحضال وكان صاحب المكانة لديه ، لمشاركته في علوم الفقه ، وأخوه أبو مروان ، وعبد المجيد بن عبدون وغيرهم .

وكذلك كان أخوه إبراهيم بن يوسف بن تاشفين قد عقد للأدب في ذلك الجو سماءً أدار فلکها واستوى على عرشها فكان ملكها ، وهو الذي ألف له الفتح بن خاقان كتابه الشهير الموسوم بقلائد العقيان ، وكان يتودد في أوائل القرن السادس من خلفتهم ملوك الطوائف ومن تركهم أبوه من العلماء والشعراء والكتاب ، وقد ذكر كثير منهم .

ولم يزل [ أمر ] الأدب [ يتردد ] بين الأندلس وبر العدوة ، حتى أعاد أمراء الموحدين مجده وعزه ، وكان أولهم عبد المؤمن الذي ولي سنة ٥٣٤ ؛ وكان من أشهر شعراء الأندلس في هذا الزمن : ابن حمديس ، وابن الزقاق ، وابن خفاجة ، وابن بقي ، والفيلسوف أبو بكر بن الصائغ ، وأبو الحسن جعفر بن الحاج الميورقي الشاعر الشهير ، وابن الصفار القرطبي ، وغيرهم .

## الأدب ودولة الموحدين .

لما تفرّق أهل الأندلس بعد الفنّ التي [ كانت ] في أواخر القرن الخامس ، كان منهم الكتاب الوزراء والشعراء الأدياء ، فكان لا يُستعمل في بر العدو بلديّ ما وُجِد أندلسي ( ص ١٢٤ ج ٢ : نفح الطيب ) ؛ ومن أجل ذلك كان الأمراء يبعثون في طلبهم ويرغبون فيهم أشد الرغبة ، إن لم يكن إحياء ملك الأدب ، فزينة لأدب الملك ، وقد مر شيء من ذلك في دولة المرابطين ، ولما ولي عبد المؤمن - من الموحدين - جرى على هذه السنة ، فبعث يستدعي أهل العلم من البلاد إلى السكون عنده والجوار بحضرته ؛ وأجرى عليهم الأرزاق الواسعة ، وأظهر التنويه بهم والإعظام لهم إلا أنه لم يكن من شعرائه الخواصّ به من تلقى له أزمة القول ، حتى إنه لما تغير على وزيره الكاتب البليغ أبي جعفر بن عطية ، امتحن من عنده من الشعراء بهجوه ، فلما أسمعوه ما قالوا أعرض عنهم وقال : ذهب ابن عطية وذهب الأدب معه ! ( ص ١٠١ ج ٣ : نفح الطيب ) .

ولما خرج يجموعه يقصد الأندلس ، وكانت قد اختلّت أحوالها ، نزل مدينة سبنة ، فعبر البحر ونزل الجبل المعروف بجبل طارق ، وسمّاه هو جبل الفتح - وقد عليه في هذا الموضع وجوه الأندلس للبيعة ، فكان له هناك يوم عظيم ، استدعى فيه الشعراء ابتداءً ولم يكن يستدعيهم قبل ذلك ؛ إنما كانوا يستأذنون فيؤذّن لهم ، وعلى على أبيه منهم طائفة أكثرهم مجيدون ( ص ١٣٧ : المعجب ) فأنشده أبو عبد الله محمد بن جبوس من مدينة فاس ، وهو الذي كان في دولة لمتونة مقدّمًا في الشعراء ، والظليقُ المرواني ؛ وابن سيد اللّص ؛ وهو نحوي كان يُغير على أشعار الناس فنُبِز بهذا اللقب ( انظر بغية الوعاة : ص ١٥٠ ) ، والرصافي ، وكان يومئذ حدثًا ، وغيرهم ؛ وقد ولي عبد المؤمن بعض أولاده على جهات الأندلس ، فولى غرناطة وأعمالها ابنه عثمان ؛ ويكنى أبا سعيد ، وكان محبًا للأدب مؤثرًا لأهلها ، يهتز للشعر ويثيب عليه ، فاجتمع له من وجوه الشعراء وأعيان الكتاب عصابة كانت



البقية الباقية من ضوء ذلك النهار ؛ ثم صارت الدولة الى يوسف بن عبد المؤمن في سنة ٥٥٨ وكان في حياة أبيه قد ولي اشبيلية وأعمالها ، نزل منها مجل المعتمد ووقف على آثار دولته ، فاختلط هناك بعلماؤها ، كالأستاذ اللغوي ابن ملكون وغيره ، وجعل يأخذ عنهم ، وصرف عنايته الى كلام العرب وحفظ أيامهم ومآثرهم وأخبارهم في الجاهلية والإسلام ، حتى صار أسرع الناس نفوذاً خاطر في غوامض النحو ومسائل العربية ، مع مشاركة في علم الأدب واتساع في حفظ اللغة ، ثم طمح به شرف نفسه وعلو همته الى تعلم الفلسفة ؛ فجمع كثيراً من أجزاءها ، وبدأ من ذلك بعلم الطب ، ثم تخطاه الى ما هو أشرف منه من أنواع الفلسفة ، وأمر بجمع كتبها فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر ، وما كان ينتهي إليه خير كتاب منها عند أحد إلا أخذه وعودّ عليه ما هو خير له ؛ ولم يزل يجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب ، ويبحث عن العلماء وخاصة أهل العلوم النظرية ، الى أن صارت حضرته بذلك أشبه بمحاضرة خلافة علمية ؛ وكان ممن صحبه من فلاسفة الإسلام ، أبو بكر محمد بن طفيل ، تلميذ أبي بكر بن الصائغ ، وقد كان أمير المؤمنين أبو يعقوب هذا شديد الشغف به والحب له حتى كان يقيم عنده في القصر أياماً ليلاً ونهاراً لا يظهر ، وهو الذي تولى جلب العلماء إليه من جميع الأقطار ، ونبه على أقدارهم ، ولولاه ما كان ابن رشد أعظم فلاسفة الأندلس شيئاً مذكوراً ؛ إذ هو الذي نوّه به حتى عظم قدره ، وتقدّم إليه في تلخيص كتب أرسطوطاليس وتقريب أغراضها . وكان من كتاب أبي يعقوب أبو [ عبد الله ] محمد [ بن ] عياش بن عبد الملك ، وهو الذي جرى على طريقة خاصة في الإنشاء توافق طريقة هؤلاء الأمراء وتصيب ما في أنفسهم ، ثم جرى الكتاب من أهل ذلك المِصر بعده على أسلوبه وسلوكوا مسلكه ، لما رأوا من استحسانهم لتلك الطريقة ( ص ١٧٤ : المعجب ) وكان أشهر شعرائه وشاعر المغرب في وقته أبو بكر بن مجير الأندلسي

المتوفى سنة ٥٨٧ ؛ ومن شعراء زمنه وزمن أبيه الرصافي ، والكندي ،  
وأبو جعفر بن سعيد ، وابن الصابوني شاعر اشيلية ووشاحها ، وابن  
إدريس الرندي .

وتوفي أبو يعقوب سنة ٥٨٠ فقام بعده يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ،  
وكان قد وزر لأبيه [ فبلغ غاية ] بعيدة من مطالعة الأمور وتقدير الرجال ،  
فكأنما استوفى حظه من إكرام الفلسفة ووفاتها قسطها في ذلك الزمن ،  
لأنه ما كاد يتصل به الأمر حتى أراد أن يرجعها بدوية ساذجة يجري فيها  
على سنن الخلفاء الراشدين ، فكان يتولى الإمامة بنفسه في الصلوات الخمس ثم  
كان يقعد للناس عامة لا يجيب عنه أحد ، حتى اختصم إليه رجلان في نصف  
درهم ! ( ص ١٨٩ : المعجب ) ، وقد سلف ما كان من نظره في كتب الرأي  
وتقدمه بإحراقها ، وحكوا عنه أنه لما أزمع الخروج الى بعض غزواته سنة  
٥٩٢ كتب إلى جميع البلاد بالبحث عن الصالحين والمنتمين الى الخير وحملهم  
إليه ، فحصل على جماعة كبيرة منهم كان يجعلهم كلما سار بين يديه ، فإذا  
نظر إليهم قال لمن عنده : هؤلاء الجند لا هؤلاء ! مشيراً الى العسكر ؛  
ولعله يحكي في ذلك قتيبة بن مسلم الفاتح الشهير ، فإنه حين لقي الترك وكان  
في جيشه أبو عبدالله محمد بن واسع ، جعل يكثر السؤال عنه ، فأخبر أنه في  
ناحية من الجيش متكئاً على سية قوسه رافعاً إصبعه الى السماء ينضنض بها ،  
فقال قتيبة : لتلك الإصبع ... أحب إليّ من عشرة آلاف سيف .

### نكبة الفيلسوف ابن رشد

وفي أيام يعقوب هذا نالت أبا الوليد بن رشد فيلسوف الأندلس المحنة  
الشديدة التي أظلمت أسبابها على الأعلام ظلمة المداد ، وأقام لها الكتاب من  
كلامهم مناحة وألبسوها من صحفهم ثياب الحداد ؛ وقد تكلم عنها [ الكتبة ]  
من العرب ، كالذهبي والأنصاري وابن أبي أصيبعة وعبدالواحد بن علي التميمي  
صاحب كتاب المعجب ، وكان يومئذ حياً ، ثم تناوها كذلك المؤرخون من

الإفرنج وبسطوا فيها العبارة ، كالفيلسوف رينان وغيره ، وهم إنما حاروا في أسبابها ، لأن ابن رشد كان قاضي القضاة ، وكان مقرباً عند يعقوب وأبيه حتى [إن يعقوب] جاوز به مجلس أخصائه وأدناه فوق ما يؤمل ، ولكن أكثر أولئك لم يرجعوا في سبب هذه المحنة الى سيرة يعقوب هذا ، لأنها لا تخرج عن أن تكون خلقاً من أخلاقه أو نزوة لبعض هذه الأخلاق ، وإنما أعمال المرء بخيرها وشرها ميزان ، وسيرته موضع اللسان منه ، فهي تنطق بصواب التمييز بين الكفتين وتدل [على] حقيقة الترجيح ، وقد أسلفنا من أمر هذه السيرة ما يتعين معه الحكم بأن الأمير يعقوب لا يبغض الفلسفة مستقيمة في كتبها ، ولكنه يبغضها معوجة في الألسنة ، إذ تزيغ بها القلوب الخفيفة ، وتضلّ العقول الطائشة ؛ فلما نتأ رأس الفتنة ، وأصبح الكلام على أن يشيع في العامة ويتقلب على الألسن ويختلط بالأهواء ووجوه التأويل ، لم يكن بدءاً من أن يحسم الأمير مادة الفتنة ويتقي الله في عامته ، وهو الرجل الذي يحكمهم بالقلب المطمئن ويحوظهم بالنظرات المحكمة ، فلا يزال يتحرى العدل بحسب طاقته وما يقتضيه إقليمه والأمة التي هو فيها ، ولذلك نستبعد نحن أن يكون سبب هذه المحنة غضباً من المنصور لمن يناوئ الفيلسوف ، أو موجدة عليه لأنه ذكر في شرح كتاب الحيوان لأرسطاطاليس أنه رأى الزرافة عند ملك البربر - يعني المنصور - ففعل عما يتعاطاه خدّمة الملوك ومتحيلو الكتاب من الإطراء والتقريظ ، ولا أن ابن رشد كان يؤثر أبا يحيى على أخيه يعقوب ولا ما أشبه ذلك مما لا يلتئم مع سيرة المنصور بتة ؛ إذ هو لا يخرج من جلده ويترك فضلات روحه ويخلق رجلاً جديداً يجب التمليق والمداهنة ويؤثر الكبرياء ويفسح من صدره للغبية والنميمة من أجل ابن رشد ولكي يشدّ عليه هذه الشدة ؛ ولولا ذلك ما جمع فقهاء قرطبة وأخذهم بأن ينظروا في كتب الفيلسوف فيما التحريم وإما التحليل .

وقد كان الأمير أتقى الله من [ أن يهين شيبة مسلم ] ويلعن رجلاً يقول ربي الله ، أو يغمض في رأي من يشير بذلك ؛ ولكنه أراد أن يبرأ من هذه التبعة ، ويتحلل من عهدة ما عسى أن يكون خطأ ، فجمع الفقهاء لتكون

كلمتهم الحكم على العامة بالسكوت ، فإنهم إذا خاضوا في ذلك وترك الأمر على ما هو ، فشت لهم فاشية من الضلال ووَجَدَ الناسُ السبيلَ الى خذلان هذا الأمير في غزواته ، وهو الذي كان يذكر البلاد المصرية وما فيها من المناكر والبِدَع ويقول : نحن إن شاء الله مطهروها ! ولم يزل هذا عزمه الى أن مات (ص ١٨٨ : المعجب) .

هذا ما نراه من سبب الحنة ، وهو الحق لا ريب فيه ، أما تفصيلها فهو قار في موضعه من كتب من ذكرناهم في صدر هذا الفصل فلا يفوت من يلتسمه ؛ وقد أبعد الفيلسوف بعد ذلك الى [...] بلدة قريبة من قرطبة يسكنها اليهود ، وأبعد من يقول بقوله أو يتكلم في علوم الفلسفة ، ومنهم القاضي أبو عبدالله بن إبراهيم الأصولي الذي يقال إنه خرّج كلمة (ملك البربر) ونبه على أنها محرقة عن (ملك البرين) ، وأبو جعفر الذهبي ، ومحمد بن إبراهيم قاضي بجاية ، وأبو الربيع الكفيف ، وأبو العباس الشاعر ؛ ثم 'كُتبت الكتب عن المنصور الى البلاد بالتقدم الى الناس في ترك هذه العلوم جملة واحدة ، وبإحراق كتب الفلسفة كلها إلا ما كان من الطب والحساب وما يُتَوَصَّل به من علم النجوم الى معرفة أوقات الليل والنهار وأخذ سمت القبلة . فأشبع الناس من كتب الفلسفة هذه النارَ التي بقيت في الأندلس إلى زمن ديوان التفتيش تقول : هل من مزيد ؟ ولكن المنصور لما رجع الى مراکش نزع عن ذلك كله وجنح الى تعلّم الفلسفة ، وأرسل يستدعي أبا الوليد من الأندلس الى مراکش للإحسان إليه والعفو عنه ، فحضر ولكنه مرض بها مرضه الذي مات فيه سنة ٥٩٤ ، وتوفي بعده يعقوب صدر سنة ٥٩٥ .

وكان في زمنه من أمراء الكتاب والشعر : أبو عبد الله بن وزير الشلي المشهور من أمراء كتّاب أشبيلية ، وشعره يشبه شعر أبي فراس الحمداني ، وكان أحد فرسان الأندلس ، وابنه أبو محمد غير مقصر عنه فروسيةً وأدباً وشعراً (ص ٥٨٢ ج ٢ : نفح الطيب) ، وقد كثر الشعر في زمنه وجَمَّ أهله ولكنه شعر اتّباع لا شعر ابتداء ؛ إذ لم ينشأ في الأندلس بعد القرن الخامس

من يعدّ في أوائل شعرائها ؛ ومن كثرة الشعر يومئذ أن المنصور لما قفل من غزوة الأراكة الشهيرة سنة ٥٩١ وَرَدَ عليه الشعراء من كل قطر يهنئونه فلم يمكن لكثرتهم أن ينشد كل إنسان قصيدته ، بل كان يختص منها بالإنشاد البيتين والثلاثة المختارة ، فدخل أحد الشعراء فأنشده :

ما أنت في أمراء الناس كلهم إلا كصاحب هذا الدين في الرسل  
أحييت بالسيف دين الهاشمي كما أحياء جدك عبد المؤمن بن علي

فأمر له بألفي دينار ولم يصل أحداً غيره ، لكثرة الشعراء ، وأخذاً بالمثل : « منع الجميع إرضاءً للجميع » وقد انتهت رقع القصائد الى أن حالت بينه وبين من كان أمامه ( ص ٤٣٠ ج ٢ : نفع الطيب ) وهذا وحده ينهض دليلاً على أن الشعر يومئذ كان متجراً حقيقياً لا يُتأدّبُ به ، فلا يخرج من روح الشاعر الى قلبه حتى يبقى أدباً ، ولكنه يخرج من لسانه الى يده فينقلب مادة . وقد كان ذلك قبل زمن عبدالمؤمن ، لأنه لما مدحه الحسيب أبوالقاسم ابن سعدة الأوسي ، وكان جده ملك وادي الحجارة ، كتب اسمه وزيرُ عبد المؤمن في جملة الشعراء ، فلما وقف الأمير على ذلك ضرب على اسمه وقال : إنما يُكتَبُ اسمُ هذا في جملة الحساب ( أصحاب الحسب ) لا تدنسوه بهذه النسبة ؛ فلما ممن يتفاضى على غمط حسبه ( ص ٢٥٣ ج ٢ : نفع الطيب ) إلا ان ذلك لم يمنع أن يكون بينهم نفر قليلون يقومون على الأدب .

ومن ختم بهم القرن السادس من أولئك : محمد بن سفر الشاعر الكبير ، وأبو بجر صفوان بن إدريس المتوفى سنة ٥٩٨ ، وأبو جعفر الحميري الحافظ أديب الأندلس المتوفى سنة ٦١٠ ، وغيرهم وإن كانوا قليلين .

### بعد القرن السادس

ابتدأت الفتن بعد هذا القرن تتقلب حتى ذل الأندلسيون سنة ٧٤١ حين اتحد ملوك الاسبانيول وملك البرتغال على العرب فهزموهم ، ثم عادوا ثانية

مع ملوك إيطاليا واستولوا على الجزيرة الخضراء سنة ٧٤٣ ولم يبق في حوره الأندلسيين إلا غرناطة ؛ وكان بعد ذلك الزمن الذي انتهى بجلاء الأندلسيين في أوائل القرن العاشر ؛ وفي كل هذه المدة كان ينبغ الشعراء والكتّاب وأهل العلوم ، إلا أن المشاهير منهم كانوا يعدون بالنسبة الى ضعف الزمن وسفاهة التصرف في إرث تلك الحضارة القديمة - على قاعدة المثل السائر : واحد بالمائة ، ورجل يفي بالفئة ؛ وكانوا مع ذلك في الأغلب إنما يقلدون المعاصرين من أدباء المشرق ، كالصفيدي وغيره ، فيتبعونهم في الصناعات اللفظية ونحوها ، وكان لأكثرهم رحلة الى هؤلاء ، يحتمون بهم ويأخذون عنهم ، كما فعل ابن جابر صاحب بديعية العميان ، ورفيقه الأليبري ؛ وابن سعيد المغربي ، وغيرهم ، خصوصاً وقد كانت دولة الشعر قائمة يومئذ - في القرن السابع - بحضرة الناصر ملك الشام الذي ألبسها من عزه تاجاً ، وأحلتها من سمائه أبراجاً .

ومن نبغ في القرن السابع أبو جعفر أحمد بن طلحة الوزير الكاتب الذي كتب عن ولاية من بني عبد المؤمن ، ثم استكتبه السلطان بن هود وقتل سنة ٦٣١ وهو مبدع في نثره وشعره معاً، وكان يرى نفسه فوق أبي تمام والبحثري والمتنبي ؛ لأن أكثر مدارس الشعر يومئذ كانت منصرفة الى دواوين هؤلاء الثلاثة كما هي إلى اليوم ، وكما تكون بعد اليوم الى ما شاء الله ؛ وابن سهل الإسرائيلي الشاعر الشهير المتوفى سنة ٦٤٩ ، وأبو المطرف بن عميرة الإمام الكاتب المتوفى سنة ٦٥٨ ، وابن مرج الكحل الشاعر المتوفى سنة ٦٣٤ .

وكان من نابغي القرن الثامن ابن الجياب المتوفى ٧٤٩ . وأبو يحيى بن هذيل المتوفى سنة ٧٥٣ - وسيأتي ذكره في فلاسفة الشعراء ، [وأبو القاسم] ابن جزى المتوفى سنة ٧٥٠ وكلهم من أشياخ لسان الدين بن الخطيب وزير بني الأحمر ، وهو أشهر أدباء هذا القرن شعراً وكتابةً وتقناً في العلوم ، وقد وضع في شعراء هذا القرن كتاباً سماه الكتبة الكامنة في شعراء المائة الثامنة ، إلا أنه على ما أرجح عد فيه طبقات العلماء ، إذ كان لا يخلو

أحدهم من أن يكون على شيء من الأدب يحمله [ على شيء ] من الشعر ، وكذلك فعل في الإحاطة ، ثم كان شاعرٌ ما بقي من الأندلس بعد لسان الدين ، هو العربي العقيلي الشاعر الوشاح ، واشتهر بعده أيضاً تلميذه ابن زمرك وزير الغني بالله .

أما القرن التاسع وهو الذي مرّ على أطلال الأندلس ، فكان في نصفه الأول الوزير الكاتب القاضي أبو يحيى بن عاصم الذي يقول عنه الأندلسيون إنه ابن الخطيب الثاني ، وكان في نصفه الأخير قاضي الجماعة بن الأزرق الشاعر المنشئ الفقيه المتوفى سنة ٨٩٥ ، وصارت الأندلس بعد ذلك أرضاً صماء لا ترجع الصدى ، واستعجم تاريخها فكأنما بدأ غريباً وعاد كما بدأ .



## الشعر الأندلسي والندجين

لقد يخطيء من يزعم أن شعر الأندلسيين يغيب في سواد غيره من شعر الأقاليم الأخرى كالعراق والشام والحجاز ، بحيث يشبه النسيج وتلتحم الديباجة ، وذلك زعم من لا يعرف الشعر إلا بأوزانه ولا يميز غير ظاهره ؛ ولكن للشعور روحاً كروح الإنسان : تستوي مع الجنس كله في جملة الأخلاق وتختلف في مفرداتها ، حتى لقد يجد اللبيب الحاذق من التفاوت بين أنواع الأشعار إذا هو استقرأها وتقصص تواريخ أصحابها ما يصح أن يخرج منه علم يسمى علم الفراسة الشعرية .

ومن هذا القبيل يمتاز شعر فحول الأندلس بتجسيم الخيال النحيف وإحاطته بالمعاني المبتكرة التي توحى بها الحضارة ، والتصرف في أرق فنون القول واختيار الألفاظ التي تكون مادة لتصوير الطبيعة وإبداعها في جمل وعبارات تخرج بطبيعتها كأنها التوقيع الموسيقي ، بل هي تحمل على التلحين بما فيها من الرقة والرنين ، ولا يشاركهم في ذلك إلا من ينزع هذا المنزع ويتكلف ذلك الأسلوب ؛ لأن جزالة اللفظ في شعرهم إنما هي روعة موقعه وحلاوة ارتباطه بسائر أجزاء الجملة ؛ وتلك فلسفة الجزالة ، ومن أجل ذلك أحكموا التشبيه ، وبرعوا في الوصف ، لأنها عنصران لازمان في تركيب هذه الفلسفة الروحية التي هي الشعر الطبيعي .

وقد يشاركهم في كثير من ذلك شعراء الشام ، ولكن رقة هؤلاء عربية مصفّاة ؛ وبذلك امتازوا على عرب الحجاز والعراق ؛ فهم لا يهلون بالألفاظ



المقعقة ؛ ولا يغالون في فخامة التركيب ؛ ولكن لا يستقبلك في شعرهم ما يستقبلك في شعر الأندلسيين من الشعور الروحي الذي لا سبيل إلى [ تصويره ] بالألفاظ ؛ والذي تبين معه أن الفرق بين الخياليين كأنه الفرق بين البلادين في التبعية والاستقلال . وليس يدل ما قدمناه على أن شعر فحول الأندلسيين ممتاز على إطلاقه وأن غيره لا يمتاز عليه ؛ بل الأمر في ذلك كالجملال : كل أنواعه حسن رائع ؛ ولكن النحافة اللينة منه تستدعي مع الإعجاب رقةً هي بعينها التي يجدها من يتدبر ذلك الشعر .

وقد كان التلحين ضرورياً عند شعراء الأندلس ؛ وما اخترعوا الموشحات إلا لأن أوزانها أحفل به من أوزان الشعر ؛ ولذلك لا يقع التوشيح موقعه من السمع إلا إذا خرج ألقاناً ؛ وقد كان منهم من ينظم ويفغي ويلحن ؛ وأكثر ما يكون ذلك في فلاسفتهم ؛ كأبي الصلت أمية بن عبد العزيز الأشبيلي المتوفى سنة ٥٢٣ ، وكانوا يكتونونه بالأديب الحكيم ، وهو الذي لحن الأغاني الأفريقية ( ص ٣٧٢ ج ١ : نفع الطيب ) ، وكالفيلسوف أبي بكر بن باجة الغرناطي ؛ وله عندهم الألحان المطربة التي عليها الاعتماد ، وهو صاحب كتاب الموسيقى الذي يعدونه الكفاية من هذا العلم ، وأعجب شيء في ذلك أن لأبي عبد الله بن الحداد الذي مر ذكره في شعراء المعتصم بن صمادح ، مؤلفاً في العروض مزج فيه بين الموسيقى وآراء الخليل ، وقد أشرنا إلى ذلك في الكلام على التوشيح ( ص ٢٩٣ ج ٢ : نفع الطيب ) فهذه كانت عنايتهم بالألحان ، وهي التي جعلت شعرهم كأنه نفوس تقطر أو تسيل .



## الشعراء الفلاسفة

ولم ينشأ من الفلاسفة شعراء مجيدون قدر من نشأ منهم بالأندلس وحدها ، ولم يكن للفلسفة تأثير على شعرهم إلا من جهة معانيه الشعرية ، فإنها صارت من سموّ الخيال وقوة التصور وبراعة الابتكار بحيث تدل على عقل صاحبها دلالة المطابقة ، وبذلك زادوا في محاسن الشعر ، ولكن غيرهم يخلط بين معاني الفلسفة الفنية وبين معاني الشعر ، فيجيء به فلسفة ركيكة ساقطة ، أو يجعل فلسفته التزام نوع واحد من مذاهب الشعر ، كالحكمة مثلاً ، وبذلك يبرد شعره ويثقل ، ولا تكاد تجدد في غير الأندلسيين من يتحقق بأجزاء الفلسفة فيكون فيلسوفاً ، ويبرز في الشعر فيكون شاعراً ، ويجمع في شعره الجمال الروحي في المعنيين فيكون شاعراً وفيلسوفاً معاً ، ومن هؤلاء يحيى الغزال ، وأبو الأفضل بن شرف - وكان عند المعتصم وابنه - وابن باجة ، ومالك بن وهب ، وكان عند يوسف بن تاشفين ، وأبو الحسن الأنصاري الجياني المتوفى سنة ٥٩٣ المعدود من مفاخر الأندلسيين ، ويلقبونه بشاعر الحكماء وحكيم الشعراء ، وله كتاب شذور الذهب ، منظوم في الكيمياء ، وقيل في بلاغته التي خضعت لها مادة الفن : إن لم يعلمك صناعة الذهب علمك الأدب (ص ٣٤٢ ج ٢ : نفح الطيب) وأبو الصلت أمية بن عبدالعزيز الأشبيلي المتوفى سنة ٥٢٣ وجته صاحب المهديّة الى ملك مصر فحبس بها عشرين سنة في خزانة الكتب ، فخرج إماماً في العلوم وأتقن علوم الفلسفة والطب والتلحين وقد مرّ آنفاً؛ وأبو الحكم العربي المتبحر في الفلسفة والأدب ، وهو الشاعر الهزلي ، سنة ٥٤٩ ، وأبو بكر بن زهير المتوفى سنة ٥٩٦ صاحب الموشحات التي امتاز بها ، وأبو زكريا يحيى بن هذيل المتوفى سنة

٧٥٣ ، وكان أعجوبة في الاطلاع على علوم الأوائل ، وأبى الحسين علي بن  
الحمارة الغرناطي ، وقد برع خاصة في التلحين ويقولون فيه إنه آخر فلاسفة  
الأندلس ( ص ٤١٤ ج ٢ : نفع الطيب ) .

ولكل واحد من هؤلاء وأمثالهم النظم المُرْقِصِ المُطْرِبِ الذي يقلب  
النفس على جانبي الطرب من الفلسفة والشعر ، ولو اتسع لنا المقام لجننا  
بالكثير منه ، ولكن الاختيار ليس من شرطنا في هذا الكتاب ، وقد  
اختار الأندلسيون أنفسهم من شعر شعرائهم كتباً ممتعة ، منها كتاب الحدائق  
لأبي عمر أحمد بن فرج ، عارض به كتاب الزهرة لأبي بكر بن داود ، إلا  
أن أبا بكر إنما أدخل مائة باب في كل باب مائة بيت ، وأبو عمر أورد  
مائتي باب في كل باب مائة بيت ليس منها باب تكرر اسمه لأبي بكر ، ولم  
يورد فيه لغير أندلسي شيئاً ، وأحسن الاختيار ما شاء ، وأجاد فبلغ الغاية  
وأتمى الكتاب فرداً في معناه ، وهذه الأبواب جميعها إنما هي في الرقائق  
 وأنواع الوصف ، كما يدل على ذلك كتاب الزهرة الموجود قسم منه في المكتبة  
الحدوية بمصر .

ولأبي الحسن علي بن محمد الكاتب من أهل القرن الخامس كتاب التشبيهات  
من أشعار أهل الأندلس ، ولم تسمُ همة أحد إلى جمع مثله من شعر قومٍ  
بعينهم وإنما يجمعون من كل شعر وقع إليهم ، كما فعل أبو سعيد نصر بن  
يعقوب في كتابه روائع التوجيهات في بدائع التشبيهات ( ص ١٢٣ ج ٣ :  
يتيمة الدهر ) فقد ضمنه ما اتفق من ذلك لشعراء الشام والعراق والري  
وأصبهان وغيرها .

وقد جاء كتاب الذخيرة لابن بسّام كالذيل على كتاب الحدائق لابن فرج ،  
وهي موجودة ؛ وفي عصرها صنف الفتح بن خاقان كتاب القلائد ، ذكر فيه  
المعاصرين من الوزراء والكتّاب والشعراء ، ثم أُلّف المطمح ، وهو نسختان :  
كبير وصغير ، وهذا الأخير هو المطبوع في الآستانة ومصر ، وقلما تنبه قارئوه  
إلى ذلك فلا يزالون يرمونه بالتقصير عن القلائد . ولم يلتزم الفتح في المطمح

ما التزم في القلائد ، بل أورد فيه مشاهير الأندلس من كل طبقة في كل عصر؛ ثم جاء أبو عمر بن الإمام من أهل المائة السادسة ، فوضع كتابه سمط الجمان وسقط المرجان ، ذكر فيه من أخلت القلائد والذخيرة بتوفية حقه من الفضلاء ، واستدرك من أدركه بعصره في بقية المائة السادسة ، ثم ذيل عليه أبو بحر بن صفوان البرسي بكتاب زاد المسافر ، ذكر فيه جماعة ممن أدرك المائة السابعة ؛ ولابن هانئ اللخمي المتوفى سنة ٧٣٣ كتاب الغرة الطالعة في شعراء المائة السابعة ، وقد مرّ بنا ذكر كتاب ابن خنيس ، وكتاب شعراء البيرة الذي ألّف للحكم المستنصر ، وكتاب الكتيبة الكامنة في أهل المائة الثامنة للسان الدين بن الخطيب ؛ وقد رأينا في طبقات الغويين والنحاة للسيوطي في ترجمة ابن خنيس القرطبي المتوفى سنة ٣٤٣ ، أنه ألّف كتاباً في شعراء الأندلس - الى عهده - بلغ فيه الغاية (ص ٦٧) ؛ هذا الى كتب أخرى لم تقيد بالتراجم ولا بالاختيار، وإنما استوعبت فنوناً كثيرة مما يحاضر به من الأدب والتاريخ ككتاب المسهب<sup>(١)</sup> في فضائل المغرب ، ألّفه ستة أشخاص في ١١٥ سنة ، آخرها سنة ٦٤٥ ، وكتاب فلك الأدب لابن سعيد ، من شعراء القرن السابع ، وكان رحالة الى المشرق ، وهو صاحب كتاب عنوان المرقصات المطبوع في مصر؛ وقد ألّف يحيى الخدج المرسي ، وقد أدرك المائة السابعة ، كتاب الأغاني الأندلسية ، على منزع كتاب أغاني أبي الفرج الأصبهاني ؛ فلا بد أن يكون قد ألمّ فيه بتراجم طائفة كبيرة من مشهوري أدبائهم ؛ ولمحمد بن عاصم النحوي ، من علماء القرن الرابع ، كتاب في طبقات الكتاب بالأندلس . ولو بقيت هذه الكتب جميعها لأمكن استخراج تاريخ واسع للأدب الأندلسي يشرق على الدنيا بذلك النور الذي أسدلت عليه حجب الغيب وترك مكانه في التاريخ فراغاً مظلماً .

والأندلسيون يختارون من شعرائهم من يقابلون بهم طبقة بشار وحبیب

(١) قالوا في صحة هذا الضبط إنه خاص بحالة الإكثار في صواب، وأما المسهب (بالفتح) على ما يقتضيه نصهم فهو على الكثير إطلاقه في لغو أو صواب .

والمتني ، أي الطبقة العالية من شعر الشام والعراق ، ويعدون من هؤلاء  
الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي ، وأحمد بن عبد الملك بن مروان ،  
وابن دراج القسطلي ، وأغلب بن شعيب ، ومحمد بن شخيص ، وأحمد بن فرج ،  
وعبد الملك بن سعيد المرادي (ص ١٣٥ ج ٢ : نفح الطيب) فهذه هي الطبقة  
الثانية عندهم ، والطبقة الأولى يقابلون بها جريراً والفرزدق والأخطل ومن  
معهم ، ويعدون منها أبا الأجر جعونة بن الصمة ، ويحيى الغزال وغيرها ؛  
والطبقة الثالثة يقابلون بها سائر المولدين ممن لم يبلغ مبلغ أولئك في الاشتهار  
وبعد الصيت ، وقد ذكرنا أسماء الكثيرين من فحولهم .



## أدبيات الأندلس

سبقت لنا كلمات خفيفة عن الأدب النسائي في الأندلس ، وعددنا أسماء بعض جواري عبد الرحمن الأوسط . وسنعد الآن المشهورات من سائر أولئك الأدبيات ، فأولاهن وأولاهن بالتقديم ، لبنى كاتبة الخليفة الحكم المستنصر بالله - أي ناسخة - كانت تكتب الخط الجيد ، نحوية شاعرة عروضية بصيرة بالحساب مشاركة في العلم لم يكن في [ مصرم ] أنبل منها ، وتوفيت سنة ٣٧٤ ، وقد عدها السيوطي في طبقات اللغويين والنحاة ، وكانت تعاصرها حسانة التميمية بنت أبي الحسين الشاعر ، والشاعرة الفسائية ، وحفصة بنت حمدون ، واشتهرت بعدهن عائشة القرطبية المتوفاة سنة ٤٠٠ ، لم يكن في زمانها من [ حرائر ] الأندلس من يعدلها علماً وفهماً وأدباً وشعراً وفصاحة ، تمدح ملوك الأندلس وتخطبهم بما يعرض لها من حاجة ، ثم اشتهرت في آخر القرن الخامس مريم بنت أبي يعقوب الأنصاري الشاعرة المشهورة ، وهي التي كانت تعلم النساء الأدب ، وقد كثر ... الأدبيات في هذه المائة فكان فيها أم العلاء بنت يوسف الحجازية ، والعروضية مولاة أبي المطرف بن غلبون اللغوي ، وقد أخذت عن مولاها النحو واللغة وفاقته في ذلك وبرعت في العروض ، وكانت تحفظ الكامل للمبرد والنوادر للقيالي وشرحها ( ص ٤٣٠ ج ٢ : نفع الطيب ) ويؤخذ عنها الأدب ، وتوفيت سنة ٤٥٠ ، وولادة الأديبة الشهيرة المتوفاة سنة ٤٨٤ ، ومهجة القرطبية صاحبها وتلميذتها ، ونزهون الفرناطية البارعة ، وحمدونة بنت زياد المؤدب التي يلقبونها بجنساء المغرب لقوة شعرها وسمو إبداعها ، ولها شعر مطرب

( ص ٤٩١ ج ٢ : نفع الطيب ) . والعبادية والذمة المعتمد ، واعتماد حظيته ،  
وبثينة بنته ، وأم الكرام بنت المعتصم بن صمادح ، وغاية المنى جاريتة ،  
وغيرهن ؛ ثم اشتهر في أوائل القرن السادس الأدبية الشلبية ، وأسماء العامرية ،  
وحفصة الركونية وهي أديبة الأندلس في هذه المائة .

وانقطاع النساء عن آداب اللغة بعد القرن السادس على ما نرجح يكفي  
وحده دليلاً على أنهن إنما يشتهرن بذلك ويظهرون به حيث يكون الزمن  
ترفاً ونعمة ، لأنهن بعض الترف والنعمة ، فحق خشنت الأيام واضطرب جبل  
الفتن كان الأدب أول ما ينصرف عن تلك الخدور ، كما أن أول ما يحف من  
أنواع الشجر الزهر !



## علوم الأندلسيين

ليس من الممكن أن يقلب العلم الواحد على أنواع متغايرة إلا ما يكون متسعاً بطبيعته لمسابقة الخواطر واستئنان القرائح ، وهذا شأن أكثر العلوم قبل أن تقرر قواعدها وتمهد طرقها ؛ إذ ليس العلم بخصوصه إلا نوعاً من التاريخ يضبط أعمال القرائح ويرتب نتائجها ؛ فإذا بلغ أن يكون في حكم المفروغ منه لبعض الاعتبارات ، كمفردات اللغة مثلاً متى ذهب أهلها المأخوذة عنهم ، فذلك هو العلم الذي لا فضل فيه لأحد إلا بإتقانه وحسن القيام عليه والاستنباط منه إذا قبل الاشتقاق والتفريع ؛ ولكن من أنواع العلوم ما يتصل بأجزاء الطبيعة ؛ فهو أبداً مادة الاكتشاف ، وقد يكون هذا الاتصال عاماً كالشعر ونحوه مما لا يقيّد بموضوع محدود ، وقد يكون خاصاً كعلم النبات مثلاً ، وهذه الأنواع هي التي يتفاضل فيها الأقسام وتمتاز القرائح والأفهام ؛ فالعلم منها أشبه بالتاريخ السنوي لأمة لا تزال باقية ممدوداً لها في أجل العمران والحضارة .

وقد برز الأندلسيون في جميع الأنواع التي تناولوها وأحسنوا القيام عليها واضطلعوا بها ؛ غير أن أكثر تلك العلوم إنما وقع إليهم تاماً أو هو في حكم الذي تم ، لأن العراقيين سبقوهم إلى الاشتغال به ، كعلوم اللغة والفلسفة بأنواعها ، فلم يتركوا لهم إلا فضل التحقيق وما كانت تساعد عليه أحوال تلك الأزمنة من الاكتشافات وما اقتضته طبيعة أرضهم من الاختراعات الهندسية . وكان هذا الشعب كان من فطرته وحكم الطبيعة له أن يكون



متفضلاً ، فعوضه التاريخ من الفضل على المشرق فَضَّلَه على أوروبا ، وعلى ذلك فلا يكون بحثنا في علوم الأندلسيين علمياً، إذ هم لم يبتدئوها ولم يتمموها، ولكنه تاريخي يبسط حقيقة التاريخ لا حقيقة العلم ذاته . ولقد يصح أن يكون للأندلس بحث في يذهب برأسه في تاريخ الفنون والصناعات عامة - وسنلم بشيء منه في موضع آخر من هذا الكتاب -

اشتغل الأندلسيون بعلوم الفلسفة جميعها المعروفة في التمدن العربي ، وهو علم النجوم والأفلاك ، والمقادير - الهندسة - والرياضيات ، وآثار الطبيعة ، والطب ، والموسيقى ، والمنطق ، والفلسفة الإلهية ، والسياسات المنزلية والمدنية ، وعلوم اللغة والأدب ، من النحو والتصريف والتاريخ والرواية والمحاضرة ، وبسائر العلوم الدينية ؛ وسنقسم الكلام في ذلك الى قسمين : العلوم الفلسفية ، والأدبية :

### العلوم الفلسفية

سبق لنا فيما أسلفناه من هذا البحث كلام متفرق عن التنجيم وبعض من عرّفوا به وعناية الملوك بعلوم الفلسفة وذكر الفلاسفة والشعراء ؛ فلا نعيد شيئاً من ذلك هنا ، وإنما نستوفي ما يتم به هذا الموضوع ، تفادياً من الملل والسآمة .

نقل صاحب نفع الطيب عن ابن سعيد المغربي ، أن كل العلوم لها حظ عند الأندلسيين واعتناء ، إلا الفلسفة والتنجيم ، فإن لهما حظاً عظيماً عند خواصهم ولا يُتظاهر [بها] خوف العامة ، فإنه كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم ، أطلقت عليه العامة اسم زنديق وقيدت عليه أنفاسه ، فإن زلّ في شبهة رجوه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره الى السلطان ، أو يقتله السلطان تقريباً لقلوب العامة ؛ وكثيراً ما يأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأن إذا وُجدت ؛ وبذلك تقرب المنصور بن أبي عامر لقلوبهم أولَ نهوضه ، وإن كان غير خالٍ من الاشتغال بذلك في الباطن على ما ذكره الحجاري ( ص ١٠٢ ج ١ : نفع الطيب ) .

قلنا : وهذا هو السبب في أن أولية الفلسفة تكاد تكون مجهولة في الأندلس لا يُعرف منها إلا القليل ، وقد ذكر صاحب نفح الطيب في موضع آخر أن أول من اشتهر في الأندلس بعلم الأوائل والحساب والنجوم، أبو عبيدة مسلم بن أحمد المعروف بصاحب القبلة - توفى في آخر القرن الثالث - لأنه كان يشرق في صلاته ، وكان عالماً بمحركات الكواكب وأحكامها وكان صاحب فقه وحديث - زمن المزني - ( ص ٢٣٢ ج ٢ : نفح الطيب ) .

وقال في ترجمة يحيى الغزال الشاعر المتوفى سنة ٢٥٠ : إنه حكيم المغرب وشاعرها وعرفها ، لحق أعصار خمسة من الخلفاء ( ص ٤٤١ ج ١ : نفح الطيب ) . وفي موضع آخر أن أبا القاسم عباس بن فرناس حكيم الأندلس أول من استنبط بالأندلس صناعة الزجاج من الحجارة ، وأول من فك بها كتاب العروض للخليل ، وأول من فك الموسيقى ؛ وصنع الآلة المعروفة بالمثقال ليعرف الأوقات على غير رسم ومثال ، واحتال في تطيير جثمائه وكسا نفسه الريش ومدّ له جناحين وطار في الجو مسافة بعيدة ؛ ولكنه لم يحسن الاحتيال في وقوعه فتأذى في مؤخره ولم يدر أن الطائر إنما يقع على زمكه ولم يعمل له ذنباً ... وصنع في بيته هيئة السماء وخيّل للناظر فيها النجوم والقيوم والبروق والرعود ( ص ٢٣١ ج ٢ : نفح الطيب ) وكان عباس هذا زمن الأمير محمد المتوفى سنة ٢٧٣ .

غير أن كل أولئك على ما نرجح لم يشتغلوا بالفلسفة الإلهية ولم ينتحلوا مذهباً من المذاهب اليونانية ، ولعلّ أول من عرف بذلك في الأندلس محمد بن عبد الله بن مسرة الباطني من أهل قرطبة ( ٢٦٩ - ٣١٩ ) فإنه أكثر من النظر في فلسفة انبذقليس الذي يعده العرب أحد حكماء اليونان الخمسة الذين هم أساطين الحكمة ( ص ١٢ : القفطي ) .

وشاع مذهب ابن مسرة بعده بالأندلس واشتهر به محمد بن أحمد الخولاني المعروف بابن الإمام ، توفى سنة ٣٨٠ ، وهو أديب بليغ ، والظاهر أنه كان يُلاحى به ويعمل على نشره ، حتى حل ذلك أبا بكر الزبيدي واحد

عصره في النحو المتوفى سنة ٣٧٩ على وضع كتاب في الرد عليه ( ص ٣٤ :  
بغية الوعاة ) .

وذكر ابن القفطي في ترجمة يحيى بن إسحاق الطبيب الأندلسي ، أن أباه  
إسحاق كان طبيباً صانعاً بيده مشهوراً في أيام الأمير عبد الله ، وكان يحيى  
هذا بصيراً ذكياً في العلاج صانعاً بيده ، واستوزره عبد الرحمن الناصر وولاه  
الولاية الجليلة بعد إسلامه ، ونال عنده حظوة ؛ وألّف في الطب كتاباً في  
خمسة أسفار ذهب فيه مذهب الروم بحكم أن هذا النوع لم يكن استقرار  
بالأندلس ولا اشتهر شهرته الآن - أي في القرن السابع - ( ص ٢٣٦ :  
القفطي ) فإذا كان ذلك شأن الطب في أوائل القرن الرابع وما هو بموضع  
الظنة ولا بالذي يستغنى عنه ، فغيره من أنواع الفلسفة أولى بأن لا يكون  
مستقراً ولا مشتهراً .

وقبل هذين الطبيبين رحل من المشرق إلى الأندلس يونس الحراني الطبيب  
في أيام الأمير محمد ، واشتهر هناك ؛ ثم انقلب ولداه أحمد وعمر الأندلسيان  
إلى المشرق وأخذوا عن ثابت بن سنان وأمثاله ، وابن وصيف الكحال  
( ص ٢٥٩ : القفطي ) .

ولكن الأندلس كانت مشهورة في زمن الحكم المستنصر ، أي في أواخر  
القرن الرابع ، بالرياضيات ، حتى كان يتقاطر إليها طالبو هذا العلم من  
أوروبا ، وفي ذلك العهد نبغ مسلمة بن أحمد المجريطي المتوفى سنة ٣٩٨ وهو  
إمام الرياضيين بتلك البلاد ، وأعلم من كان قبله بعلم الأفلاك وحركات النجوم ،  
وكانت له عناية بأرصاد الكواكب وشغف بتفهم كتاب المجسطي ، وهو الذي  
عني بزيغ محمد بن موسى الخوارزمي ونقل تاريخه الفارسي إلى التاريخ العربي ،  
ووضع أوساط الكواكب لأول تاريخ الهجرة وزاد فيه جداول حسنة  
( ص ٢١٤ : القفطي ) وقد تخرّج عليه أجلة من علماء هذا الشأن ، أشهرهم  
أصبغ بن السمح البارح في النجوم والهندسة ، وأبو القاسم ابن الصفار استاذ  
الرياضيات في قرطبة ، وأبو الحسن الزهراوي ؛ وكان للحكم نفسه منجم

مختص به ، وهو ابن زيد الأسقف القرطبي ، وألّف في ذلك كتاب تفضيل الأزمان ومصالح الأبدان ( ص ١٣٨ ج ٢ : نفح الطيب ) .

ومن أشهر أئمة الفلك بالأندلس إبراهيم بن يحيى النفاش المعروف بولد الزرقبال . قال ابن القفطي إنه أبصر أهل زمانه بأرصاد الكواكب وهيئة الأفلاك واستنباط الآلات النجومية ، وله صحيفة الزرقبال المشهورة في أيدي أهل هذا الفرع التي جمعت من علم الحركات الفلكية كل بديع مع اختصارها ، ولما وردت على علماء هذا الشأن بأرض المشرق حاروا لها وعجزوا عن فهمها إلا بعد التوقيف ، وله أرصاد قد رصدها ونقلت عنه .

واشتهرت علوم الحكمة بعد زمن الحكم ، وكان من أشهر الأطباء في زمنه محمد بن عبدون العذري القرطبي الذي اتصل به وبابنه المؤيد ، وهو من علماء العدد والهندسة ، ولم يكن بقربة من يلحقه في صناعة الطب ولا يجاربه في ضبطها وحسن دربته فيها وإحكامه لغوامضها ( ص ٤٣٧ ج ١ : نفح الطيب ) وكثر نبوغ الأندلسيين في القرن الخامس ؛ وفي هذا القرن نبغ الكرمانى القرطبي المتوفى سنة ٤٥٨ وكان فرداً في الهندسة وللعهد ، وهو الذي أدخل رسائل إخوان الصفا الى تلك البلاد ، ولم يعلم أن أحداً أدخلها الأندلس قبله ( ص ١٦٣ : القفطي ) وكان لها شأن مهم في تنويع الفلسفة الأندلسية .

وكما كان القرن الخامس أشهر عصور الأدب في الأندلس ، كان القرن السادس أشهر عصور الفلسفة فيها ، ظهر فيه الحكيم أبو بكر بن الصائغ الذي كان يحدث عن نفسه أنه يحسن اثني عشر علماً أيسرها النحو الذي هو أشهر علوم الأندلسيين ؛ وابن طفيل ، وابن رشد ، وأبو العلاء بن زهر فيلسوف عصره وحكيمه المتوفى سنة ٥٣٥ وأمىة بن عبد العزيز بن أبي الصلت ، وقد مرّ ذكره ، وأبو بكر بن زهر الطبيب المتوفى سنة ٥٩٥ ، وقد كاد هذا الرجل يكون تاريخ القرن السادس كله ، لأنه ولد سنة ٥٠٧ ؛ وهو مع طبّه اللغوي الأديب الذي امتاز بالموشحات الطائفة بين المغرب والمشرق ، وله أخت كانت هي وبناتها نابغتين في الطب . وأبو الحكم المغربي المتبحر في الفلسفة

والأدب ، وقد مرّ ذكره في الشعراء الفلاسفة ، وتوفي سنة ٥٤٩ ، وإن الواحد من هؤلاء ليكفي أن يكون فخر أمة ، فكيف بهم مجتمعين في قرن من الزمن ؟

وقد كان لكل منهم تلامذة جلة ، ولم تنجب الأندلس بعدهم من يضاھيمهم إلا أفراداً قليلاً ، كمحمد بن الحسن المدحجي ، وابن عياش الزهراوي ومطرف الأشبيلي في القرن السابع .

على أن من الأندلسيين أفراداً آخرين اشتهروا بفنون أخرى كالنبات والفلاحة وخواص العقاقير والسموم وعلم الحيوان وغيرها فضلاً عن نبغوا من أصحاب المنطق والموسيقى ، ومن كانوا هناك من أئمة الفنون ومهرة الصناعات ، فلم نر أن نصلهم بهذا الفصل ؛ إذ استقصاء ذلك كله بما [ يقتضي كتاباً ] برأسه ، وهو فرع إن كان مهماً في بسط تاريخ الحضارة فليس كذلك في تاريخ الأدب .

### مقاومة الفلسفة العربية الطبيعية في أوروبا وانتشارها

وهنا موضع هذه الكلمة ، لأن الأوربيين لم يعرفوا الفلسفة العربية إلا من طريق الأندلس أولاً ، وسنأتي على أمر النقل والترجمة إليهم في فصل آخر من هذا البحث .

أول ما دخل الى أوروبا من الفلسفة العربية كتب ابن سينا وبعض كتب الفارابي والكندي ثم دخلت كتب الغزالي وابن رشد ، وكانت فلسفة أوروبا يومئذ بعض تعاليم لاهوتية مستخرجة من كتب مختلفة لأصحاب المذاهب اللاتينية ؛ فلما دخلت إليها فلسفة العرب في القرن الثاني عشر للميلاد وما بعده لم تلبث أن انتشرت في المدارس والمجتمعات وأقبل عليها الناس ، فرأى المجمع الاكليزيكي الذي عقد في باريس سنة ١٢٠٩ م أنها ستذهب بالتقاليد الدينية المعروفة التي لا قرار لها على مذاهب العلم الطبيعي فحكّم على المشتغلين بها يومئذ من الأوربيين وهم أموري وديفدوي دينان وتلامذتهما ، وفي سنة ١٢١٥ حرّم الاكليروس تعاليم أرسطو وخصوصاً تلاخيص ابن سينا ،

وفي سنة ١٢٣١ م حرم البابا غريغوريوس التاسع كل من يشتغل بفلسفة العرب .

كانوا يرمون بذلك الى نحو هذه الفلسفة ولكنهم لفتوا إليها الغافلين ونهبوا الى هذه الشكوك من يسمونهم أهل اليقين ، فاضطر علماء اللاهوت بعد ذلك الى درسها ، ليتخذوا من الداء دواءً وليضربوا العلم في أرق مقاتله ؛ فقام منهم غيليوم دوفرن وحمل على فلسفة ابن سينا ثم خفف من حملته قليلاً وانعطف برفق ظننه قاتلاً الى فلسفة ابن رشد ، وقد كان يثني عليه بعض الثناء ؛ وبعده قام اللاهوتي البير الكبير، وهو من المعجبين بابن سينا والمزدرين لابن رشد ، وله ردود كثيرة على الفلسفة العربية ، ثم قام بعدها ألدت أولئك الأعداء ، وهو القديس توما الشهير أعظم حكماء الكنيسة الغربية وأكبر فلاسفة اللاهوت في العصور المتوسطة . ولكن كل أولئك لم يقووا على نقض الفلسفة العربية ، فإنهم إنما كانوا يروون بالألسنة على القلوب، والحجج اللسانية قد تخرج القلب في مبادئه التي يصبو إليها ولكنها لا تصرفه عن هذه المبادئ ما دامت قوتها لفظية ؛ ومن أجل ذلك حاول بعد هؤلاء ريمون مارتيني أن يضرب اليقين بالشك ويدخل الى تلك القلوب من بعض جوانبها ، فجعل ينشر كتب الغزالي للرد على فلسفة ابن سينا وابن رشد ، ثم تتابع جيل دي ليسين وبرناردي تريليا وهرفه نديليك ودانت الشاعر الإيطالي المشهور صاحب رواية الجحيم وجيل دي روم ، وهو الذي بلغ في ذلك قريباً من القديس توما ، وجاء بعدهم الأرعن الأخرق ريمون لول الذي صرف عمره خصوصاً من سنة ١٣١٠ الى سنة ١٣١٢م في التجوال بين باريز وفيينا ومونبليه وجنوى ونابولي وبيزه ، محرّضاً الناس على ازدراء العرب ونبد فلسفتهم ، حتى إنه لما اجتمع مجمع فيينا سنة ١٣١١ م رفع الى البابا الكليمنضس الخامس كتابة يقترح فيها إنشاء مجتمع يخول من السلطة ما يساعد على إسقاط الإسلام وإقامة كليات لدرس اللغة العربية وحرّم المسيحيين الذين ينتصرون لفلسفة ابن رشد وطرح كتبه من المدارس الأوروبية !

وفي هذا القرن الرابع عشر كانت كتب ابن رشد قد انتشرت في أوروبا ،

خصوصاً في فرنسا وإيطاليا وإسبانيا، حتى غطت عندهم على ابن سينا وأخلت من شهرته بعد أن كان هو المتميز في القرن الثالث عشر ، ثم أصبحت تلك الفلسفة في القرن الخامس عشر وهي روح العلم الطبيعي في أوروبا ، وذلك بعد أن صارت من الدروس الحافلة في كلية بادو المشهورة بإيطاليا التي استتبع حركتها الفلسفة الأوروبية بومئذ ؛ وأول ناشري تعاليم ابن رشد فيها بطرس دانو الذي لم يجد ديوان التفتيش سبيلاً إلى عقابه إلا بحرق عظامه من بعده ...

وقد شرح أساتذة هذه الكلية فلسفة الحكيم القرطبي ، ونبغ فيها منهم كثيرون أكسبوها الاحترام وعلو الرأي ؛ ولا جرم أنهم بذلك قد رفعوا أنفسهم أيضاً .

ولما أراد لويس الحادي عشر ملك فرنسا ، إصلاح التعليم الفلسفي في سنة ١٤٧٣م ، طلب من أساتذة المدارس تعليم فلسفة أرسطو وشرح ابن رشد عليها لأنه استتبع فائدة هذا الشرح وأيقن بصحته .

### آخرة الفلسفة العربية

ثم حدثت مسألة خلود النفس في أواخر القرن الخامس عشر وخاض فيها علماء إيطاليا ، وكانوا يجدون في شروح ابن رشد لفلسفة أرسطو أن النفس خالدة بعد الموت ، ولكن « بومبوتا » العالم المشهور أثبت من كتب « اسكندر دفروريزياس » الفيلسوف اليوناني الذي شرح أرسطو قبل ابن رشد ، أنه لا خلود غير الخلود الإنساني النوعي في الأرض ؛ فانشق العلماء وطار الجدل في هذه النازلة حتى انعقد مجمع لاتران في سنة ١٥١٢ وحرّم كل من يقول بأن النفس غير خالدة ، وبعد هذا الانتصار للفلسفة العربية طبعت كتب ابن رشد وطارت إلى أيدي طلابها والمجيبين بها من كل جهة ؛ غير أن ذلك كان مبدأ للرجوع إلى النص اليوناني في فلسفة أرسطو ، ثم انتبه العلماء إلى فائدة ذلك ، ففي إبريل من سنة ١٤٩٧ م صعد الأستاذ « نقولا ليونيكوس توموس » منبر التعليم في كلية بادو ، وألقى أول مرة فلسفة أرسطو باللغة

اليونانية ؛ وما كاد أمره يذيع حتى أخذوا ينهضون في ذلك ، ثم عادت بادو والبندقية وشمال إيطاليا الى نص أرسطو ، وعادت فلورنسا الى نص أفلاطون ؛ واستمر ذلك الى أن ظهرت الفلسفة الطبيعية الحديثة في أواخر القرن السادس عشر ، فأنت على الفلسفة العربية ، حتى لم تجيء سنة ١٦٣١ م حتى انقلبت تاريخاً يذكر بعد أن كانت علماً يُنشر ، وذلك بوفاة آخر القائمين عليها في أوروبا وهو « قيصر كريمونيتي » المتوفى في تلك السنة .





## العلوم الأدبيّة

رأس هذه العلوم عند الأندلسيين النحو والشعر ، ولا بد في كليهما من الحظ الصالح من اللغة والرواية ؛ قال ابن سعيد المغربي ، وقد نقل كلامه صاحب نفح الطيب : النحو عندهم في نهاية من علو الطبقة ؛ حتى إنهم في هذا العصر ( القرن السابع ) فيه كأصحاب عصر الخليل وسيبويه ، لا يزداد مع هرم الزمان إلا جدّة ، وهم كثيرو البحث فيه وحفظ مذاهبه كذاهب الفقه ، وكل عالم في أي علم لا يكون متمكناً من علم النحو بحيث لا تخفى عليه الدقائق فليس عندهم بمستحق للتميز ولا سالم من الازدراء ... وعلم الأدب المنشور - من حفظ التاريخ والنظم والنثر ومستظرفات الحكايات - أنبل علم عندهم ، وبه يُتقرّب من مجالس ملوكهم وأعلامهم ، ومن لا يكون فيه أدب من علمائهم فهو غفل مستثقل ... وإذا كان الشخص بالأندلس نحويّاً أو شاعراً فإنه يعظم في نفسه لا محالة ويسخف ويظهر العُجْب ، عادة قد جبلوا عليها ( ص ١٠٣ ج ١ : نفح الطيب ) .

وقد سلف لنا كلام [في] أسباب براعتهم في الشعر ، أما سبب ما ذكره ابن سعيد من حالهم في النحو وتميزهم به مع انحرافهم في اللغة العامة عن الأوضاع العربية ، فهو على ما نرى أن أولئك القوم كانت لهم فطرة عجيبة في قوة الذاكرة والحفظ ، ولو كانت الأندلس مكان العراق وفي جهة من البادية ما ضاع حرف من اللغة ولحقت الكتب بفنون الأدب العربي ، وذلك دأبهم قديماً وحديثاً ، مما يرجح معه أن تلك الذاكرة أثر من جمال الطبيعة

في أنفسهم ، ومن أجل ذلك قلَّ أن تجد في علماءهم صاحب علم واحد أو علمين ، بل فيهم من يعد في الفقهاء والمحدثين والفلاسفة والشعراء والكتّاب والمؤرخين واللغويين والنحاة والأدباء ، وقد يميّز في ذلك كله على اختلاف الفنون أو في أكثره ، وقد ذكرنا بعضهم فيما سلف ، وسنشير إلى آخرين . وإذا كان من مفاخر العراقيين أن الأصمعي يحفظ أربعة آلاف أرجوزة ، وهم يعدونه أذكى العرب وأجمعهم ، فقد كان من الأندلسيين في المائة الثالثة سعيد بن الفرّج مولى بني أمية المعروف بالرشاشي يحفظ مثل هذا العدد للعرب خاصة ، وكان يُضرب به المثل في الفصاحة على كثرة ما يتقمّر في كلامه ( ص ٢٥٦ : بغية الرعاة ) ، وأعجب من إنشاد حماد الراوية بين يدي الوليد ليلة كاملة ( وقد مر ذلك في بحث الرواية والرواية ) ما ذكروا من أن أبا المتوكل الهيثم الأشبيلي حافظ الأندلس في عصره ، وكان في المائة السادسة ، حضر ليلة عند أحد رؤساء أشبيلية فجرى ذكر حفظه ، وكان ذلك في أول الليل ، فقال لهم : إن شئتم أن تختبروني أجبتكم ، فقالوا له :

بسم الله ، إنا نريد أن نحدث عن تحقيق . فقال : اختاروا أي قافية شئتم لا أخرج عنها حتى تعجبوا ، فاختاروا القاف ، فابتدأ من أول الليل إلى أن طلع الفجر وهو ينشد وزن « أرقّ على أرقّ ومثلي يارقُ » وسَمَّاهُ قد نام بعض وضجّ بعض وهو ما خرج عن قافية القاف ( ص ٢٣٣ ج ٢ : نفح الطيب ) .

وكان من حفاظهم أبو الخطاب بن دحية المتوفى سنة ٦٣٣ ، بلغ من حفظه اللغة أن صار حوشياً مستعملاً عنده غالباً ، ولا يحفظ الإنسان حوشيّ اللغة إلا وذلك زكاةً محفوظٍ من مستعملها ؛ ولأبي الخطاب هذا رسائل ومخاطبات كلها مغلفات مقفلات ، على أنه يرسلها عفو الساعة وفيض البديهة ، ولما ارتحل إلى المشرق في دولة بني أيوب ، جمعوا له علماء الحديث فذكروا أحاديث بأسانيد حوّلوا متونها ، فأعاد المتون المهوّلة وعرف عن تغييرها ، ثم ذكر الأحاديث على ما هي عليه من متونها الأصلية ( ص ٣٦٩ ج ١ : نفح الطيب ) .

ولو شئنا أن نطيل في حفظ الأندلسيين لأنبنا بالكثير من الأدباء واللغويين والنحاة ، ولكننا نذكر من ذلك شيئاً مما نحن بسبيله ولا نظير له في غير الأندلس ، وذلك عنايتهم بكتاب سيويه في النحو البصري ، وهو أحد الكتب الثلاثة التي يقال إنه لا يُعرَفُ كتابٌ أُلِّفَ في علم من العلوم قديمها وحديثها فاشتمل على جميع ذلك العلم وأحاط بأجزاء ذلك الفن غيرها ، وهي : كتاب سيويه في علم النحو العربي ، وكتاب المجسطي في علم هيئة الفلك وحركات النجوم ، وكتاب أرسطوطاليس في علم صناعة المنطق . ( ص ٦٩ : القفطي ) .

### كتاب سيويه عندهم

لا نعرف أول من أدخل هذا الكتاب الأندلس ، وقد عرفت أول من أدخل كتاب الكسائي ، وهو جودي بن عثمان العبسي الذي كان يؤدب أولاد الخلفاء بالعربية ، وقد رحل الى المشرق وأخذ عن الرياشي والفراء والكسائي وأدخل كتابه الى الأندلس ( توفي سنة ١٩٨ ) ؛ ولكن أقدم من وقفنا عليه من حفظوا كتاب سيويه ، هو حمدون النحوي المتوفى بعد المائتين ، ولعله أول من عرف به ثم كان من أشهر حفاظه في القرن الثالث الألفين القرطبي المتوفى سنة ٣٠٩ ، وقد أخذه بمصر عن أبي جعفر الدينوري رواية ، ولكن الهمم لم تنصرف الى استظهاره إلا في القرن الخامس كأنهم جعلوا ذلك منافسة ، وقد ذكروا أن عبد الملك بن سراج إمام أهل قرطبة المتوفى سنة ٤٨٩ عكف عليه ثمانية عشر عاماً لا يعرف سواه ( ص ٣١٢ : بغية الوعاة ) ومن ذلك العهد ابتدأوا يقررونه ويشرحونه ويملون عليه التعاليق ، ومن شرّاحه أبو بكر الحشني الجبائي المتوفى سنة ٥٤٤ ، وكان الناس يرحلون إليه لتقدمه في الكتاب ، وهو من مفاخر الأندلسيين ( ص ١٠٥ : البغية ) ؛ ولابن الطراوة النحوي الذي سيأتي ذكره في علماء القرن السادس كتاب سماه المقدمات على كتاب سيويه ، وشرحه ابن خروف المتوفى سنة ٦٠٩ وقد أملى إبراهيم بن عيسى المعروف بابن المناصف المتوفى سنة ٦٢٧ على قول

سيبويه هذا باب علم الكلم من العربية، وهو في بضعة أسطر - عشرين كراساً ( ص ١٨٤ : البغية ) وكذلك كان لابن الحاج إملاء عليه ، وكان يقول : إذا متّ يفعل ابن عصفور في كتاب سيبويه ما شاء ، وابن عصفور توفي سنة ٦٦٩ ، وكثر حفاظ هذا الكتاب في القرن السادس ، فكان فيه غير من ذكرناهم : محمد بن عبد المنعم ، يسرده بلفظه ، وهو أحفظ أهل زمانه ؛ وجابر بن محمد الحضرمي الذي كان زعيم وقته بإقرائه والتقدم فيه ؛ وخلف ابن يوسف الذي كان يحفظ مع هذا الكتاب كتباً أخرى كأدب الكاتب والمقتضب والكامل للمبرد وغيرها ؛ وأبو عامل بن عبد الله الأشبيلي المعروف بابن الجد الذي قال فيه ابن ملكون : من قرأ كتاب سيبويه على ابن الجد فما عليه أن لا يقرأه على سيبويه ؛ وفي هذا العصر كان أحمد بن عبد النور النحوي المتوفى سنة ٧٠٢ لا يقرأ الكتاب فكانوا يقولون لا يعرف شيئاً ! ( ص ١٤٢ : البغية ) وزادوا على ذلك في القرن السابع حتى انتهت الرياسة الى أبي الحسن الأشبيلي المعروف بابن الصائغ المتوفى سنة ٦٨٠ وقد شرحه وكان له في مشكلاته عجائب . قال في بغية الوعاة : وأما فهمه وتصرفه في كتاب سيبويه فما أراه سبقه الى ذلك أحد . وكان يعاصره إمام الأدب الأصححي المتوفى سنة ٧٧٦ ، وله شرح على هذا الكتاب ؛ ثم كان في القرن الثامن جماعة أشهرهم أبو حيان ، - وسيأتي ذكره - وله تعاليتي مهمة على هذا الكتاب وتجريد لأحكامه واختصار فيه للطلبة المبتدئين .

### علماء العربية والأدب

بقي أن نذكر أسماء المشاهير من علماء العربية بالأندلس غير من ذكرناهم وقد أبقينا لهذا الموضوع أسماء الشعراء وأئمة الأدب ، لأننا إنما نتفادى من الإطالة بسرد الطائفة الواحدة ، ولا نعتد إلا أن يكون وفاء البحث في جملة أجزائه لا في بعضها ، وهي طريقتنا التي نجري عليها في هذا الكتاب :

كان في القرن الثاني حمدون النحوي بعد المائتين - وقد سبق ذكره - وكان هو والمهدي متعاصرين ولهما زعامة النحو واللغة ، إلا أن المهدي امتاز

باللغة وامتاز حمدون بالنحو ... فكان [فيه] الغاية التي لا بعدها ، وقد أخذ عن علماء ذلك العصر ابن وضاح والحشني ومطرف بن قيس .

واشتهر في القرن الثالث الحشني القرطبي ، وهو نحوي لغوي شاعر لقي بالمشرق السجستاني والرياشي والزيادي ، وأدخل الأندلس كثيراً من اللغة والشعر الجاهلي ، وتوفي سنة ٢٨٦ عن ثمانين سنة .

وكان يعاصره محمد بن عبد الله القرطبي وهو الذي أخذ عنه أهل الأندلس الأشعار المشروحة .

ومحمد بن عبد السلام بن ثعلبة ؛ وقد أدخل الأندلس أيضاً كثيراً من كتب اللغة والشعر الجاهلي .

وجابر بن غيث اللبلي النحوي الشاعر الأديب المتوفى سنة ٢٩٩ .

ومحمد بن أصبغ المتوفى سنة ٣٠٦ وهو مولى الوليد بن عبد الملك .

وهشام بن الوليد النحوي العروضي الأديب ، وهو مؤدب أولاد الناصر توفي سنة ٣١٧ .

ومحمد بن يحيى المعروف بالرياحي مؤدب المغيرة بن الناصر ، وهو إمام في العربية والأدب ، فقيه شاعر .

وأحمد بن إبراهيم بن أبي عاصم ، حافظ للعربية والغريب ، متقدم في النقد ، شاعر منفرد ، شرح أكثر دواوين العرب ، توفي سنة ٣١٨ .

وقاسم بن أصبغ ( ٢٤٧ - ٣٤٠ ) وهو فرد في النحو والغريب والشعر ، وكانت إليه الرحلة بالأندلس كما كانت بالمشرق يومئذ لأبي سعيد بن الأعرابي .

[ ثم ] أبو عبد الله المعروف بابن خنيس ، وكان كاتباً بليغاً عالماً باللغة والغريب والأخبار والتاريخ توفي سنة ٣٤٣ .

ومحمد بن أصبغ المتفنن في العلوم من النحو واللغة والحساب والفرائض والشعر وغيرها ، وتوفي سنة ٣٤٤ .

[ومن] نبغ في القرن الرابع محمد بن أبان المتوفى سنة ٣٥٤، وكان فرداً في اللغة والعربية والأخبار والتواريخ؛ فكان مكيناً عند المستنصر .

وابن القوطية القرطبي إمام اللغة والعربية في زمنه، [توفي] سنة ٣٦٧ .

وأبو بكر القرطبي المعروف بابن العريف النحوي، قيل إنه صنع لولد المنصور بن أبي عامر مسألة فيها من العربية ٢٧٢٠٩ أوجه، وتوفي سنة ٣٦٧ .

والحسين بن الوليد من مؤدبي أولاد المنصور أيضاً، وهو شاعر أستاذ في الأدب إمام في العربية .

وأبو بكر الزبيدي الأشبيلي واحد عصره في النحو واللغة، وقد أدب ولد المستنصر، توفي سنة ٣٧٩ .

وأحمد بن أبان بن سعيد صاحب شرطة قرطبة، الإمام في العربية واللغة صنف كتاب السماء والعالم في اللغة، مائة مجلد، وقد رأينا هذا الاسم في كتب أرسطاطاليس التي ذكرها ابن القفطي، وقال: هو أربع مقالات في الطبيعة نقله ابن البطريق (ص ٣٠) وتوفي ابن أبان سنة ٣٨٢ .

ومحمد بن عاصم النحوي من كبار الأدباء، توفي سنة ٣٨٢ .

وقد أوردنا فيما سبق أسماء أكثر علماء القرن الخامس، ولكننا نذكر منهم هنا محمد بن سليمان المعروف بابن أخت غانم، وهو من أحفظ أهل زمانه للنحو واللغة، لا سيما كتب أبي زيد والأصمعي وتمام بن غالب بقية شيوخ اللغة الضابطين لحروفها الحاذقين بمقاييسها، وكان إماماً فيها ثقة في إيرادها توفي سنة ٤٣٣ .

وابن سيده صاحب كتاب المخصص وغيره، وهو فرد في اللغة والنحو متوفر على علوم الحكمة، توفي سنة ٤٥٩ .

وغانم بن وليد المالقي المتوفى سنة ٤٧٠، وكان أهل الأندلس يعدون أئمة الأدب في ذلك الوقت ثلاثة: أبو مروان بن سراج بقرطبة، والأعلم

الشتمري بإشيلية ، وغانم هذا بالقة ، لكن زاد غانم عليها بالفقه والحديث والطب والكلام ، أما أبو مروان فهو الشاعر النحوي الإمام في الأدب ، توفي سنة ٤٨٩ ، وكان الأعم عالم اللغة والعربية والشعر ، وقد توفي سنة ٤٧٦ .

ومن ختمت بهم هذه المائة سراج بن عبد الملك بن سراج النحوي ، كان يجتمع إليه أربعون وخمسون من مهرة النحاة ، كابن أبي فرس ، وابن الأبرش ، وكلهم إليه مفتقرون ، لوقوفه على مواد النحو وأشعار العرب ولغاتها وأخبارها ، وقد توفي سنة ٥٠٨ .

#### المائة السادسة .

ثم كان [ من ] مشاهير القرن السادس محمد بن عبد المنعم أبو عبد الله السبتي من صدور الحفاظ لم يستظهر أحد في زمانه من اللغة ما استظهره ، آية تلى ومثلاً يضرب ، وقد امتاز عن سائرهم بأنه كان يعرب أبدأً كلامه . وأبو محمد اللوثي البارع في الأدب والنحو واللغة والكتابة والشعر والخطابة ، وقد أخذ أدباء عصرهم عن الثلاثة الذين مرّ ذكرهم ، وتوفي سنة ٥١٨ .

وأبو محمد البطليموسي المتبحر في اللغات والآداب، وله يد في العلوم القديمة، وهو شارح أدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتابه الاقتضاب مشهور ، توفي سنة ٥٣١ ، وقد رأينا في بنية الوعاة للسيوطي في ترجمة أبي العباس ابن بلال اللغوي المتوفى سنة ٤٦٠ أن ابن خلصة النحوي نسب إليه شرح أدب الكاتب المسمى بالاقتضاب ، وذكر أن ابن السيد البطليموسي أغار عليه وانتحل ( ص ١٧٥ ) وهذا عجيب ، والله أعلم بحقيقته .

وجعفر بن محمد بن مكي ، وكان عالماً باللغات والآداب ، ذاكراً لها ، معنياً بما قبّله منها ، ضابطاً لذلك ، وعني بها الضاية التامة ، وجمع من ذلك كتباً كثيرة كان له بها اليد الطولى الباسطة في علم اللسان .

وأبو الحسين بن الطراوة ، نحوي ماهر وأديب بارع ، يقرض الشعر وينشئ الرسائل البليغة ، وله آراء في النحو تفرّد بها وخالف فيها جمهور النحاة ، وعلى الجملة كان مبرزاً في علوم اللسان كلها ، وتوفي سنة ٥٢٨ عن سن عالية .

ومحمد بن يوسف المعروف بابن الاشتراكوني ، المتوفى سنة ٥٣٨ ، كان لغوياً أديباً شاعراً معتمداً في الأدب فرداً في وقته ، وهو صاحب المقامات اللزومية الشهيرة - وسيأتي ذكرها في موضعها - وقد اعتمد عليه أبو العباس ابن مضاء في تفسير كامل المبرد لرسوخه في اللغة العربية .

والوزير ابن أبي الخصال ( سنة ٤٦٥ - ٥٤٠ ) وكان على براعته في الفقه وصناعة الحديث والمعرفة برجاله والتقييد لغريبه ، فرداً في اللغة والأدب والنسب والتاريخ ، إماماً متفقاً عليه ، متحاكماً إليه في الكتابة والشعر ، لم يكن في عصره مثله ، حتى قال بعضهم إنه كان آخر رجال الأندلس علماً وفهماً وذكاءً وتفنباً في العلوم .

ومحمد بن أحمد أبو عامر الوزير الكاتب ، كان لغوياً أديباً شاعراً عارفاً بالتاريخ والأخبار ، وهو من المؤلفين في ذلك كله ، وكان موجوداً بعد سنة ٥٥٠ .

وأبو العباس الجراوي الملقب المتوفى سنة ٥٦١ ، وكان على بلاغته في الشعر والكتابة من كبار النحاة والأدباء بالأندلس ، درس هذين الفنين كثيراً وأدّب في آخر أيامه بني عبد المؤمن بمراكش .

وأبو بكر بن قبال الأديب اللغوي الكاتب الشاعر النحوي الطبيب توفي سنة ٥٧٣ .

وأبو بكر الأشبيلي المعروف بالحديبّ أستاذ ابن خروف قريباً من سنة ٥٨٠ ، وكان من حدّاق النحويين وأئمة المتأخرين ، يُرحل إليه في العربية ، واشتهر بكتاب سيويه وطرره المدونة عليه . والحديبّ : الرجل الطويل .



ومحمد بن جعفر المرسي الأديب الكاتب النحوي الذي كان إليه المرجع في إيضاح مبهم الكتب وفتح أقفالها ، توفي سنة ٥٨٧ .

وداود بن يزيد الغرناطي المتوفى سنة ٥٧٣ ، كان يقرئ العربية واللغة والأدب ، وهو عالي المرتبة في ذلك رفيع الطبقة ، قيل فيه إنه كان آخر النحاة بقرناطة .

وعبد الرحمن بن محمد المعروف بالكناسي ، المتفنن في ضروب الآداب واللغات ، الحافظ لأيام العرب وقرساتها ، الكاتب البارع الشاعر البليغ ، واشتهر بعمل المقامات خصوصاً اللزومية منها - وسيأتي ذكره في بحث الصناعات اللفظية - توفي سنة ٥٩١ .

وقاضي الجماعة أبو العباس الجياني القرطبي ، كان من أصحاب الآراء في العربية وخالف فيها جمهور أهلها ، وكان رحلة في الرواية وعقلاً في الدراية ، عارفاً بالأصول والكلام والطب والحساب والهندسة ، شاعر بارع كاتب بليغ ، وتوفي سنة ٥٩٢ .

وأحمد القرطبي المشهور بالوزغي ، المبرز في العربية والأدب ، شاعر راوية مكثرة ، وتوفي سنة ٦١٠ .

وأبو الحسن بن خروف ، إمام العربية في زمنه ، وهو أحد [ الذين ] ملئت كتب العربية بأسمائهم ، وتوفي سنة ٦٠٩ ، وهو على التحقيق خاتمة هذا العصر .

#### المائة السابعة .

كان في أوّل هذه المائة ، أبو بكر الأشبيلي المعروف بابن طلحة ، وهو شاعر أديب إمام في العربية والكلام ، توفي سنة ٦١٨ .

وأبو العباس الشريشي صاحب الشروح الثلاثة على مقامات الحريري ، وقد طبع منها الشرح الكبير ، وهو أديب مبرز في العربية ذاكر للآداب ، كاتب بليغ فاضل ثقة ، توفي سنة ٦١٩ .

وأبو العباس الأشبيلي المعروف بابن الحاج ، وكان متحققاً بالعربية حافظاً للغات مقدماً في العروض ، وقد برع في لسان العرب حتى لم يبق فيه من يفوقه أو يدانيه ، وهو الذي كان يقول : إذا مت يفعل ابن عصفور في كتاب سيويوه ما شاء ! كأنه يرى نفسه خلفاً من سيويوه ، وقد مات سنة ٦٤٧ .

وأبو يحيى محمد بن رضوان الوادي آشي ، وكان مضطلعاً بالعربية والفقه والنسب ، إماماً في ذلك ، مشاركاً في علوم أخرى من الحساب والهيئة والهندسة وغيرها ، وتوفي سنة ٦٥٧ .

وأبو علي الأشبيلي المعروف بالشلّوبين - ويخطيء النحاة المتأخرون كثيراً في ضبط هذا اللقب - إذ يلفظونه بضم اللام - وقد ضبطه السيوطي وقال إن معناه ( بلغة الأندلس : الأبيض الأشقر ) وإلى أبي علي هذا انتهت إمامة العربية بالشرق والمغرب ، فكان آخر أئمة هذا الشأن ، وكان مع ذلك نقاداً للشعر بصيراً بمعانيه ، وقد أقرأ نحو ستين سنة ، حتى لم يتأدب بالأندلس أحد في وقته إلا وأسند إليه مباشرة أو بواسطة ، وتوفي سنة ٦٤٥ وكان مولده سنة ٥٦٢ .

وأبو المطرف الخزومي البلنسي وهو خزانة من خزائن العلوم ، كان إماماً في الفقه عالماً بالمعقولات والنحو واللغة والأدب والطب ، متبحراً في التاريخ والأخبار ، بصيراً بالحديث ، راوية مكثراً حجة ، فاضلاً ناثراً ، يعدّونه ثاني بديع الزمان في الكتابة ، وتوفي سنة ٦٥٩ .

وعبد الله بن أبي عامر الكاتب الشاعر الأديب النحوي اللغوي الفقيه المشارك في العلوم ، وقد توفي سنة ٦٦٦ .

وابن الدباغ الأشبيلي ؛ وهو على انفرادة في ذلك العصر يحفظ مذهب مالك ؛ كان عالماً بالنحو واللغة كاتباً شاعراً مؤرخاً ، توفي سنة ٦٦٨ .

وأبو الحسن بن عصفور ، وهو وإن كان لم يكن عنده ما يؤخذ عنه غير النحو إلا أنه كان فيه كوكب سمائه وحامل لوائه ، ولا يزال اسمه خالداً في كتب هذا الفن ، توفي سنة ٦٦٩ .

وكان خاتمة أدباء هذا العصر حازم بن محمد القرطبي ، شيخ البلاغة والأدب ، وأوحد زمانه في النظم والنثر والنحو واللغة والعروض والبيان ، لم يجمع أحد من علم اللسان ما جمع ، ولا أحكم من معاهد البيان ما أحكم ، وكانت له يد في العقليات ؛ وذكروا أنه روى عن جماعة يقاربون ألفاً ، بين أديب وعالم وحكيم ، وقد حوى جملة التاريخ في هذه المائة ، لأنه ولد سنة ٦٠٨ وتوفي سنة ٦٨٤ .

### نكت الأندلسيين .

وكان في هذه المائة الفقيه أبو الحجاج يوسف بن محمد البيهقي المؤرخ الشاعر الأديب ، ولم نقف على سنة وفاته . وقد عني أتم العناية بفرع لطيف من العلم هو أدب التاريخ ؛ فكان يحفظ نكت الأندلسيين قديماً وحديثاً إلى زمنه ، ذاكراً لفكاهاتهم ؛ وهم أكثر الناس دعابة وأملحهم نادرة ، خرجوا في ذلك صنائع إقليمهم فكأنهم أزهار طبيعتها الحساسة ، تقابل أزهار الطبيعة الساكنة .

### المائة الثامنة .

وهي بقية مجد الأندلس ، لأن القرن التاسع كان حشجة ونزعاً ، وهذه المائة شحيحة بالأئمة عقيمة بالأفراد ، وقد أخذنا من فحولها ثلاثة غير من ذكرناهم من قبل في أدبائها ، وهم :

محمد بن علي بن هانيء اللخمي ، كان أديباً إماماً في العربية لا يشق غباره في استحضار الحجج ، وهو صاحب كتاب « الغرة الطالعة في شعراء المائة السابعة » ، وتوفي سنة ٧٣٣ .

وأثير الدين أبو حيان الأندلسي الغرناطي نحوي عصره ، ولغويته ومفسره  
ومحدثه ومقرئه ومؤرخه وأديبه ، وكان الإمام المطلق في النحو والتصريف ،  
خدم هذا الفن أكثر عمره حتى صار لا يدركه أحد في أقطار الأرض ،  
وتوفي سنة ٧٤٥ .

ومحمد بن علي المعروف بابن الفخار كان سيبويه عصره ، وعدّه لسان الدين  
في الإحاطة آخر الطبقة من أهل هذا الفن ، وقال فيه : إنه متبحر الحفظ  
يتفجّر بالعربية تفجّر البحر ، قد خالطت لحمه ودمه ، لا يشكل عليه منها  
مشكل ، ولا يعوزه توجيه ، ولا تشذ عنه حجة ... وقلّ في الأندلس من  
لم يأخذ عنه من الطلبة ، وتوفي سنة ٧٥٤ .

كلمة في تراجم هذا البحث .

وبعد ؛ فإننا لم نورد هذه الأسماء لأنها أسماء فقط ؛ إذ ليس كتابنا هذا من  
سجلات الإحصاء ، وإنما أوردناها على أنها معاني ذلك التاريخ ، يظهر منها  
سير الفنون والعلوم الى كمالها ، فإن قيمة العصر بمن يمتازون من أهله ، وعلى  
حسب كثرتهم وقلتهم يكون وزن اعتباره ومنزلته من المقارنة بينه وبين  
سائر العصور ، وإنما الدولة أمة ، والأمة على مقدار الرؤوس التي تعمل لها ،  
وهذه الرؤوس على مقدار العقول التي تضبطها ، وتلك العقول على مقدار  
الأرواح التي تتميز بالاستثناء والزعامة في أصول الحضارة وفروعها ، وما هذه  
الأرواح الكبيرة إلا أرواح النابغين .

من أجل ذلك أسقطنا من هذه الترجمة التي سقناها في هذا البحث كثيرين  
من لم يتحققوا بالفنون ، واقتصروا على الأئمة والأقطاب ، وما منهم إلا من  
تكتب في ترجمته الأسطر الكثيرة على تحريبي الإيجاز ومعاناة الاختصار ،  
هذا إذا لم تبسط تلك الترجمة بسطاً يتناول حالة النشأة العلمية وكهولتها في  
كل مترجم ، وذلك بدرس المذاهب والآراء ، وإيراد الشواهد عليها من مواد  
العلوم المختلفة ، وهو منزوع بعيد الشقة يحتاج الى مصابرة ومطاوله ، ويخرج  
الى أن يكون كتاباً برأسه .

ونحن إنما عُيننا بما جئنا به في هذا البحث خاصة ، لأن أكثر العلماء والأدباء أهملوا الأندلسيين وخلطوا مشاهيرهم بغيرهم ، غير مميزين بين عصر وعصر ، ولا مفرقين بين طبقة وطبقة ؛ واقتصروا مع ذلك على أفراد منهم لا تكافىء جملتهم حضارة تلك الأمة ، ولا يستدل بها على شيء من ذلك المجد فأردنا أن نثير تلك الدفائن ؛ ونفتح من كنوز التاريخ تلك الخزائن ؛ وجملة من ذكرناهم تكشف أشعثهم عن ذلك النور الذي غطته ظلمات التاريخ من الجو العربي فألقت عليه سحابة من النسيان ، وتركته قطعة مظلمة كأنه من مهملات الزمان .



## مصراع العربية في الأندلس

من قواعد الاجتماع أن الأفراد يموتون ولكن الأمة تبقى ، فكأنهم يموتهم  
يفسحون مكاناً للسموّ الذي يكون مظهره تجدد الحوادث وتبدل العقول ،  
ولكن ذلك شأن الأمة حين تكون أمة بالمعنى الاجتماعي أيضاً ، فتكون  
بنجاة من أسباب الانقراض ، بعيدة عن عفونة التاريخ القديم وجرائمه التي  
تهب بها الفتن والنكبات ؛ وما أصيبت أمة بها إلا اضطربت أحوالها الاجتماعية  
وعم أجزاءها الخلل والفساد ، فلا تزال تتقلب حتى تصيب مصراع الحجب ،  
وتعرف العقوبة من قبل أن تعرف الذنب !

وكذلك كان شأن الأندلسيين : أخذتهم الفتن الأخيرة حتى كاد الفرد منهم  
يموت فيموت به جزء من الأمة ، حتى صاروا في آخرة أمرهم نسلًا شاذًا  
وحثالة رديئة ، فلفظتهم تلك الأرض كما يُلْفِظُ القويء ، وذهبوا بعد ذلك  
كما يذهب كل شيء .

ونحن نريد الآن أن نبين كيف صرعت العربية بعد أن صارعت طويلًا ،  
فنأتي على تاريخها في تلك البلاد في الطفولة والكهولة ، لأننا لم نذكر في كل  
ما سبق إلا ظاهراً من حياتها ، وبقي تشريح باطنها لتعرف الأسباب والعلل  
في الحياة والموت :

دخلت العربية الأندلس ، وكانت هذه البلاد يومئذ زاهرة بأداب اللغة  
اللاتينية التي كان يقوم عليها رجال الدين ، حتى كانت أشبيلية يومئذ مركزاً  
علمياً ثابت الدعائم بعناية أسقفها القديس إيزيدورس ، فصدمتها العربية

صدمة فزع لها أولئك الأساقفة ؛ فكانوا يعملون على تقوية مادتها والاحتفاظ بها ، فصارت بغيرتهم كأنها من الدين ، حتى أصبحت البيع والأديار مدارس تلك الآداب ، ولا سيما طليطلة وقرطبة وأشبيلية ؛ فكانت تدرس فيها الآداب اللاتينية مع علم اللاهوت .

غير أن ذلك كله إنما كان عمل أفراد لا عمل أمة ؛ وقد غفل أولئك المنتظمون عن هذه الحقيقة ، وتناسوا ما كانت تغلي به قلوب الشعب الإسباني من النعمة على حكومته والخروج عليها ؛ وقد كان اليهود يومئذ - وهم خزائن الذهب وأقطاب التجارة - في أشد الظلم إلى بريق سيوف العرب ، حيث كان الملك ورجال الدين الكاثوليك يسمونهم سوء العذاب ويبلونهم بالعنت الشديد ؛ إذ خشوا امتداد سلطانهم وشوكة أموالهم ، خصوصاً بعد أن دبر الإسرائيليون مكيده ظاهراً عليها قبائل البربر واليهود من أهل أفريقية ، فكادوا بها يضبطون زمام المملكة الإسبانية ، وذلك قبل فتح طارق بسبع عشرة سنة ( ٦٩٤ للميلاد ) . غير أن أمرهم انكشف وانكشفت معه رقايبهم للسيوف ، حتى كادوا ينقرضون ، لو لم يستخلصوا أرواح بقيتهم بسيوف العرب ؛ ولذلك مالؤهم واطمأنوا إليهم ونصبوا أنفسهم لحماية المدن التي يفتحها الغزاة ؛ وكذلك شأن العبيد في النعمة على الإسبانين ، حتى إن قرطبة سلمها للعرب راهب منهم ، وقد غمسوا أيديهم في دماء وفتن كثيرة ، فكان كل ذلك مما حملهم على تلقف العربية وبثها في سواد الأمة وتهيئتهم للاستعراب .

ولما رأى المسيحيون الأحرار أناة العرب وتسامح الإسلام ، وأن أعناقهم لا تحملها الأكتاف إلا بفضل هؤلاء القوم ، دخل أكثرهم فيما دخل فيه العبيد واليهود استسلاماً وإسلاماً ، وحببت إليهم الأخلاق العربية حتى صار أشرفهم من أمسكوا عليهم دينهم يحجبون النساء ويقلدون المسلمين في الزي وكثير من العادات ؛ ثم اندفعوا في ذلك بعد أن صارت الدولة للعرب ، فلم تمض على الفتح ثلاثون سنة حتى أصبح الناس يخطون الكتب اللاتينية بأحرف عربية ، كما كان يفعل اليهود بكتبهم العبرية ، وما انقضى عمر رجل

واحد حتى أُلجأتهم الحاجة الى ترجمة التوراة وقوانين الكنيسة الى العربية ،  
ليتمكن رجال الدين أنفسهم من فهمها .

وبعد أن ظهرت أمة الملك في زمن الأمويين وسما فرع الحضارة العربية  
في تلك البلاد ؛ تحول أهلها فيما تحول من طبيعتها ، حتى كانت الغيرة يومئذ  
على الآداب اللاتينية أسخف ما يُرمى به أهل السخف ؛ وقد نقل روزي في  
كتابه تاريخ المسلمين في إسبانيا أن بعض رؤساء الدين المسيحي كان يضطرم  
سخطاً على أدباء المسيحيين أنفسهم لأنهم بالغوا في تعصبهم للعربية حتى تناولوا  
الشعر والآداب والفلسفة تقويماً لألسنتهم وتهذيباً للمكاتبهم بدلاً من أن يتذرعوا  
بذلك الى تسفيه الأدب العربي ونقض المدينة الإسلامية ، قال : « وكيف  
السبيل الى إيجاد رجل من العامة يقرأ التفاسير اللاتينية على الكتب المقدسة ،  
ومما يؤسف له أن نشء المسيحيين الذين نبغت قرائنهم لا يعرفون غير العربية  
وآدابها فهم يتداولون الكتب العربية ويجمعونها بالأثمان الغالية يؤلفون بها  
الخزائن الممتعة ، وإذا حدثتهم بكتب دينهم وآداب لغتهم أعرضوا عنك  
ازوراراً وأنفضوا رؤوسهم استهزاء ؛ وهي أشد وأعظم من أن ينسى  
المسيحيون لغتهم وهي بقية الجنسية حتى لا تجد في الألف منهم واحداً يحسن  
أن يكتب كتاباً الى صديق له بأبسط عبارات اللغة اللاتينية ؟ »

وما جاء القرن الخامس حتى كان المهاجرون للعرب من أهالي فرنسا وشمال  
إسبانيا يَنكَبُون عن تناول الشعر اللاتيني ويكَبُون على التأديب بالشعر  
العربي ، حتى صار فقراؤهم بعد ذلك وأهل الكدية منهم يمدحون بالقصائد  
والموشحات العربية على الأبواب ويستعطون بها في الطرق ، فاعتبر كيف  
يكون وسط الأندلس اذا كانت هذه حال أقاليمها الأعجمية ؟ ومنذ سقطت  
طليطلة سنة ٤٧٨ وكانت في يد يحيى بن ذي النون ودخلها ألفونس السادس  
الذي كانوا يلقبونه بملك الدينيين ، أراد أن يستبقي ذماء الحياة العربية في  
روح مملكته ، وساعده الفتن والنكبات فقذفت إليه من مضطهدي الفلاسفة  
وغيرهم ، وبهم نبغ رجاله ، كالسيد كامبدور الذي كان يجيد المنطق العربي



كانه عريق فيه ؛ وكان يومئذ في طليطلة مدرسة عربية كانت من أساتذتها محمد بن عيسى المقامي وأحمد بن عبدالرحمن الأنصاري وغيرهما، وبهذه المدرسة تأسست العربية حتى أنشأ ريمون رئيس الأساقفة مدرسة الترجمة بطليطلة ، وبها رجعت العربية الى الحياة .

### اليهود بالأندلس وترجمة كتب الفلسفة .

ليهود الأندلس شأن مهم في تاريخ الفلسفة لأنهم حفظوها لأوروبا - كما ستعرف - وقد كان منهم في القرن السادس موسى بن ميمون الإسرائيلي الحكيم ، وهو رجل يتحقق بالفلسفة والرياضيات والهيئة والطب ، ويسميه اليهود ، موسى الثاني ، لأنه من كبار أحبارهم ؛ وقد نزح عن الأندلس بأهله فراراً من الاضطهاد بعد أن أظهر فيها الإسلام زمناً ، والتجأ الى مصر ، فاشتمل عليه القاضي الفاضل المتوفى سنة ٥٩٠ ونظر إليه وقرر له رزقاً ؛ فتناول هذا الحكيم فلسفة ابن رشد وقابلها بلغة أرسطو اليونانية ، ثم استخلص من مزيجها فلسفة صنع بها الشريعة لقومه ، ولذلك أنكرها عليه مقدمو اليهود ، وأشار المقرئ الى ذلك بأنه يعلم قومه الكفر والتعطيل .

ولا محل هنا لبسط هذه الآراء ، ولكننا نقول إن هذا الرجل هو أول من أذاع فلسفة ابن رشد بين اليهود بما بثته منها في كتبه . وأخذ عنه في قراءته ، ولما بالغوا في اضطهاد اليهود التجأ أكثرهم الى طليطلة وما وراءها ، ومنهم تلامذة الفلاسفة ، ومن بقي منهم كان يظهر الإسلام ويصلي في المساجد ويقرأ أولاده القرآن ، وما كان ذلك كله لينفعهم ، فأمر أبو يوسف المتوفى سنة ٥٩٥ من ملوك الموحدين أن يتميزوا بلباس يختصون به . فظهروا فيه بأشنع صورة إذ كانوا يتخذون بدلاً من العمامات كلوات كأنها البراديع تبلغ الى تحت آذانهم ( ص ٢٠٣ : المعجب ) ، وذلك لأن أبا يوسف كان يشك في إسلامهم ، ولو صح عنده لتركهم . ثم تناسى أكثرهم العربية فشحروا بالحاجة الى نقل كتب الفلسفة الى لغتهم العبرانية ، وقد أخذوا في ذلك ، وأول من شرع منهم فيه أسرة تدعى أسرة طيبون ، كان أصلها من الأندلس

ثم هاجرت الى لوند في فرنسا، فترجم اثنان من رجالها وهما موسى بن طيبون وصموئيل بن طيبون بعض تلاخيص ابن رشد من فلسفة أرسطو ، وهما أول من نقل فلسفة حكيم قرطبة الى غير العربية .

ووافق ذلك عهد الإمبراطور فردريك الثاني عاهل ألمانيا ؛ وكان يعرف العربية ، تلقاها من بعض أهلها في صقلية ، والعرب يومئذ منتشرون فيها وفي نابولي .

وقد احتذى فردريك هذا مثال الإمبراطور شارلمان الذي كان معاصراً لهارون الرشيد في بث المعارف وإنشاء المدارس ومحبة العلم وحماية أهله فكانت حضرته غاصة بالمترجمين والعلماء الوافدين حتى من بغداد . وهو الذي عهد الى اليهود في ترجمة الفلسفة العربية الى العبرانية واللاتينية ، وقد ألف له يهوذا بن سليمان الطليطلي في سنة ١٢٤٧م كتاب طلب الحكمة واعتمد فيه على فلسفة ابن رشد ، وأخرج له يعقوب بن أبي مريم حوالي سنة ١٢٣٢م عدة كتب من تأليف حكيم قرطبة ، وتقدم الى ميخائيل سكوت بترجمة فلسفة أرسطو عن العرب ، فنقلها عن ابن رشد ، ولذلك اعتبروه أول من أدخل فلسفته الى أوروبا ، وكذلك فعل هرمان الألماني في عهد هذا الإمبراطور ، إلا أنه على ما يقال ، اعتمد في ترجمة كتبه على بعض عرب الأندلس ممن يعرفون مصطلحات تلك الفنون .

ثم أخذ اليهود في إخراج هذه الكتب وغيرها الى العبرانية واللاتينية ، كما فعل كالوتيم في أوائل القرن الرابع عشر للميلاد ، فقد ترجم كتباً لابن رشد الى العبرانية ، وترجم كتابه تهافت التهافت الى اللاتينية سنة ١٣٢٨م ، وفي هذا القرن ظهر الفيلسوف اليهودي لاوي بن جرسون المعروف عند الإفرنج بلاون الإفريقي ، وقد صنع بفلسفة ابن رشد ما صنعه ابن رشد بفلسفة أرسطو ، فأخرجها شرحاً وتلخيصاً ثم كان آخر فلاسفتهم في القرن الخامس عشر إلياس دل مديجو الذي كان أستاذاً في كلية بادو - التي أوامناً إليها في بعض ما سلف - وضعت بعد ذلك فلسفة اليهود المستخرجة من فلسفة

ابن رشد العربية ، إذ قام أعداؤها في أوائل القرن السادس عشر بزيفونها ،  
ومن أجل ذلك نشر موسى المتسينو كتاب تهافت الفلاسفة للغزالي سنة  
١٥٣٨ م .

### ترجمة الفلسفة العربية في أوروبا .

كان مبدأ ذلك في طليطلة في القرن الثاني عشر للميلاد، حين أنشأ دريموند  
رئيس الأساقفة مدرسة للترجمة ، وهي المدرسة الأولى من نوعها ، وذلك من  
سنة ١١٣٠ الى ١١٥٠ م ، وقد جعل رئيس الترجمة فيها الأرشيدوق باكر  
دومينيك لتحقيق الألفاظ اللاتينية المترجم بها .

وكان أشهر ترجمة اليهود في هذه المدرسة يوحنا الأشبيلي ، فأخرجوا الى  
اللاتينية كتباً كثيرة من مؤلفات ابن سينا ، ثم نقلوا بعض كتب أبي نصر  
الفارابي والكندي ؛ وقبل هذه المدرسة كان بعض الأفراد قد نقلوا كتباً من  
الرياضيات والطب والفلك ، مثل قسطنطين الإفريقي وجربرت وأفلاطون  
دي تريفولي وغيرهم .

وفي القرن الثالث عشر للميلاد كان اليهود في الأندلس أقدر الترجمة وذلك  
في عهد ألفونس العاشر ١٢٥٢م - ١٢٨٤م خليفة القديس فرديناند الثالث،  
إذ كان هذا ألفونس من أوفر الملوك عقلاً ، فأراد أن يصنع بأسبانيا  
مثل ما صنعه العرب ، فأسس بأشبيلية مدرسة عربية لاتينية ، وترك  
مدينة مرسية على ما كانت عليه من الرونق العربي ، واستدعى الى عاصمته  
العلماء والأدباء من العرب واليهود وغيرهم ، وأسس بهم مدرسة طليطلة الثانية  
التي كانت تجمع الى التقاليد اللاتينية فنون الحضارة العربية والعلم العبراني ؛  
وظل اليهود يترجمون كتب الفلسفة والتاريخ والفلك العربية بما عليها من  
الشروح ، وكان زان بن زاك ، ويهوذا هاكون والربان زاك ، هم الذين  
نقلوا لألفونس جهرة تلك الكتب العربية .

وقد نشأ من علماء المسلمين من يعلم بتلك الألسن المختلفة ؛ كمحمد بن أحمد

القرموطي المرسي وكان من أعرف أهل الأندلس بالعلوم القديمة : المنطق والهندسة والعدد والموسيقى والطب وغيرها ، آية الله في المعرفة بالأندلس ، يقرىء الأمم بألسنتهم فنونهم التي يرغبون فيها وفي تعلّمها ، وقد بنى له ألفونس في مرسية مدرسة يقرىء فيها المسلمين والنصارى واليهود . ( ص ٤٠٩ ج ٢ : نفح الطيب ) ولم نذكره في الفلاسفة لأن هذا الموضوع أليق به .

وقد نشأ من اليهود بالأندلس شعراء وأدباء ، من أشهرهم نسيم الإسرائيلي ، وابن سري ، وابن الفخاري اليهودي ( ص ٣٠٤ ج ٢ : نفح الطيب ) ، وإلياس بن المدور الطبيب الرندي ( ص ٣٠٥ ج ٢ ) ، وإسماعيل اليهودي وابنته قسمنة ( ص ٣٠٥ ج ٢ ) وغيرهم ، وكانوا يكتبون ، ولكن لم ينبغ منهم أحد في الكتابة على ما نعلم ، إلا أن يكون ممن ذكرناهم ، وما كانت براعتهم في الترجمة إلا من معرفتهم للسانين اللاتيني والعبراني ، وهو أمر انصرف عنه المسلمون حتى لم نكد نقف على اسم واحد منهم غير القرموطي .



## تَنْصِرُ الْعَرَبِيَّةَ

ليس يتم الغلب على أمة من الأمم بتسخير أفرادها واسترقاقهم، ولا بقلب حكومتها من جنس الى جنس؛ فإن الأشخاص لا يتغيرون وهم هم بما فيهم من الطبائع والأخلاق الوراثية، ولكن الغلب إنما يكون باندماج المغلوب في جنسية الغالب أو مذهبه استدراجاً لجنسيته، ومن أجل ذلك تجهد الأمم الفاتحة والمستعمرة في نشر لغتها وآدابها، فإن لم يكن لها من ذلك ما يوازن آداب المغلوبين عملت على تحويل قلوبهم بالدين، وذلك ما فعله الأسبانيون في أواخر القرن السابع، حيث عملوا على تنصير المسلمين، ولكن بقيتهم يومئذ كانت الى التماسك والشدة، لأن الإسلام والملك لم يزل في جانب من الأندلس وعلى أبوابها، فعمدوا الى أخذهم بالإقناع والمجادلة، ووكلوا هذا الأمر الى رهبانهم، فأكب هؤلاء على العربية، ووضع رامون مارتى أحد الرهبان الدومانيكيين أول معجم عربي باللغة الاسبانية سنة ١٢٣٠ م، وفي أواخر القرن الثامن كان في سلامنكة مدرسة تضم خمساً وعشرين حلقة للدروس، منها واحدة لليونانية، وأخرى للعبرانية، وثالثة للعربية؛ أقاموها لتلك الغاية؛ ولم ينجل المسلمون عن أرض إسبانيا في القرن الحادي عشر حتى كان في هذه المدرسة سبعون حلقة للدرس، وطارت شهرتها في أوروبا، وكانت شهرة عربية، لأنها بفضل علوم العرب استطاعت أن تقرر العلوم الطبيعية والطبية على القاعدة العملية التي كان العرب أول من جرى عليها، وبينما كانت تلك العلوم في أوروبا لذلك العهد مبنية على التجارب البسيطة مستندة الى أنواع من الشعوذة والحيل المضحكة. ثم تتابع إنشاء المدارس في القرن الثامن

لتعليم الرهبان من الدومينيكيين والفرنسيسكيين في جهات من إسبانيا للغاية  
عينها ، ولكن هذه اللغة العربية التي تشبه السحر أخذت أولئك الرهبان  
بآدابها حتى كانوا هم أنفسهم سبب حياتها والقائمين بالدعوة إليها الى القرن  
الثاني عشر للهجرة .

وفي أوائل القرن العاشر ( سنة ٩٠٤ ) بعد أن سقط ما بقي من الملك  
الإسلامي في الأندلس ووهنت تلك الجامعة بين المسلمين ، أخذ الأسبانيون  
يحملونهم على التنصر كرهاً ، فمن خافهم عمدوه ومن خالفهم طردوه ، ثم تكفل  
ديوان التفتيش بالمراقبة على عقائد المتنصرين وتطهير مسيحياتهم الحديثة ...  
وبذلك بطلت حاجة الرهبان الى البرهان فسقطت الغاية الأولى الباعثة على  
تعلّم العربية وبقيت العربية بلا غاية عند بعضهم إلا نفسها ، وبذلك انصرف  
عنها الطلبة ، حتى إن الكرديال اكسيمنس عندما أسس كلية ( الكالادي  
هنار سنة ١٤٩٩ ) استنكف أن يضيف الى دروسها حلقة لتعليم العربية ،  
مع أنه احتذى في تأسيسها مثال مدرسة سالمنكة ، وجعل فيها حلقتين  
للعبرية واليونانية ، وبعد ذلك كان الأستاذ الأعظم في سالمنكة في القرن  
السادس عشر للميلاد ، وهو فري لويس دي ليون شاعراً لاهوتياً وفيلسوفاً  
يحسن اللغة العبرانية كل الإحسان ولكنه يجهل العربية كل الجهل .

#### ديوان التفتيش .

أنشئ هذا الديوان سنة ١٤٨١ م بطلب الراهب توركاندا ، للتفتيش بين  
الناس عن أهل العلم والفلسفة ، فإن لم يعثر على أحد منهم فالتفتيش بين  
الظنون والأوهام ، لأنهم اتقوا صولة العلوم العربية على المذهب الكاثوليكي .

وقد اتخذوا فيه من أنواع التعذيب والاتهام المريب ما ترك في الكتب من  
بعدهم صفحة من تاريخ جهنم ... وليس من حق كتابنا تفصيل ولا إجمال  
لتلك الفظائع والمنكرات التي اقترفها رجال محكمة التفتيش وملوك الكتلكة  
لذلك العهد ، مثل شارلكان وفيليب الثاني وفيليب الثالث ، ونالوا بها

المسلمين واليهود والمستأمنين ؛ فذلك مما خلد لهم الخزي في تاريخ قومهم أنفسهم ؛ ولكننا نجتزئء بذكر ما نال العربية من أولئك المتنطعين ، فإنهم بعد أن طردوا اليهود من الموت الى الجوع والفقر سنة ١٤٩٢ وأباحوا أموالهم ، وطردوا المسلمين من الموت الى الموت سنة ١٥٠٢ ؛ إذ حرم عليهم أن يأخذوا في طريق تفضي إلى بلد إسلامي - قرر مجمع لاتران في هذه السنة ( ١٥٠٢ ) أن يلعن كل من ينظر في فلسفة ابن رشد - وهم يريدون بهذه التسمية كل ما لديهم من علوم الفلسفة العربية - وطقق الدومينكان يتخذون من ابن رشد ولعنه ولعن من ينظر في كلامه صفةً من صفات الزلفى والعبادة ؛ وبعد ذلك أحرق الكردينال إكسيملس في غرناطة ثمانية آلاف كتاب [خطي] ، ثم صدر أمره سنة ١٥١١ أن تباد كتب العرب من عامة البلاد الأسبانية ؛ فقم ذلك في زهاء نصف قرن ، وكأنما كانت حرارة تلك القلوب هي التي تحرق الكتب ... ولولا المنقولات منها الى العبرية واللاتينية لما بقي من أثر العلوم العربية مشيد ولا طلل .

وبقيت بعد ذلك كتب عربية في خزانة دير الأسكوريال فأراد ديوان التفتيش أن يزيد بها شعلة من شعل نغمته ، لولا أن تلتطف الماركيز فيلادا فعال دون إحراقها ، ولا يزال أكثرها باقياً الى اليوم .

وكان المتنصرون من المغاربة في ذلك العهد يكتبون العربية بأحرف إسبانية ، وهم أذلاء محتقرون من أنفسهم ومن المسيحيين ، فحظر عليهم فيليب الثاني سنة ١٥٥٦ استعمال العربية ، وأرادهم على أن ينزعوا من أسمائهم اللتراكيب العربية وأن يقلدوا المسيحيين في زيهم حتى لا يعلم بهم إلا أنفسهم ؛ ولبثوا يسومون المغاربة عذاب الهون حتى طردت آخر فئمة منهم سنة ١٥١٧ هـ وقد فصل ذلك المقرري في نفح الطيب ص ٦١٧ ج ٢ .

### أخرة العربية .

وبعد ذلك زهاء قرن من الزمن صار فيه تعلم العربية مظنة الإلحاد ولم تبق مدرسة فريلنك لطغمة الفرنسيسكان في أشبيلية من أساليب تعلمها

إلا أثراً ضئيلاً وكثُر أن يكون قليلاً؛ فكان حسيب الطالب منها أن يُحسن لفظَ بعضِ الأسماء العربية حتى يخرج بذلك الى أفريقية داعية للنصرانية ، وإن كان قد بقي من الإسبانيين من يشتغل من ذلك بشيء فهو يضيفه الى الأعمال التي بينه وبين الله ولا يأخذ في ذلك إلا سراً .

جاء عصر شارل الثالث ( ١٧٥٩ - ١٧٨٨ ) ويلقبونه ملك الفلاسفة ؛ فأراد أن يصل آخرة العربية بأولها ويعيد زمناً رآه مريضاً لم يمّت ، فاستدعى لذلك رهباناً موارنة من سورية وبسط لهم يده في البذل والعطاء ، وتقدم إليهم في تعليم الإسبانيين لغتهم الدارسة ، ولكن ما عسى أن تكون تسع وعشرون سنة في تغيير الأفكار وتبديل الألسنة ؟ ولذلك لم يكد شارل يمضي لسبيله حتى انقطع ذلك العمل ، غير أنه بثّ حياةً وخصباً في تلك الأرض الميتة فلم يمض عمرُ كهل حتى كان في إسبانيا من يجيدون العربية ، أمثال القصير وكامبومان والأب بلانكري وغيرهم من الأساتذة المعدودين ، ثم انقطع جبل العربية الى أن اتصل بالمدارس القديمة منتكناً على عهد إيزابيلا الثانية ، فكان على ضعفه ذلك حتى سنة ١٨٤٥ ، إذ شرعوا في إصلاح التعليم على يد المسيو جيل دي زارات ، وبإخلاص هذا الرجل عادت العربية تدرس في الكليات درساً مقررأ .

ثم تسلمت الحكومة الإسبانية سنة ١٨٥٧ زمام التعليم وقولت إصلاحه فزهت العربية وكثرت طلبتها والمقبلون عليها ، خصوصاً بعد أن فقدت إسبانيا مستعمراتها في أمريكا وآسيا وعلقت أمالها بمراكش في عصرنا هذا ، فنبغ فيها المستشرقون واحتفظوا بما خلفه التاريخ من كتب العرب ، ولا يزال ذلك في مكتبة الإسكوريال ، ومكتبة الأمة ، ومكتبة الجمع العلمي التاريخي ، غير المكاتب الخاصة التي جمعها أهل العلم منهم ، وقد برز من متأخريهم أفراد مشهورون في فرع اللغة العربية ، وامتاز بعضهم بالبراعة في قراءة الخطوط وتأريخها ، ونبغوا كذلك في درس الحضارة الإسلامية والنظر في أصول الآداب العربية ، واعتنت فئة منهم بدرس اللغات العامية التي



تفرعت من العربية الفصحى ، وهم بعد في حدّ التزايد الى يومنا هذا ، وقد  
صار كثير من البلاد الإسبانية كمجريط (العاصمة) وغرناطة وبرشلونة وبلنسية  
وغيرها زاهياً [فيهم] بهذه الآداب ، مذكراً لهم بالجد العربي القديم .  
وإنما يتذكر أولو الألباب (\*) !



---

(\*) قلت : قرأت بخط المؤلف العبارة الآتية ولم أعرف أين موضعها من هذا الفصل ،  
فرأيت إثباتها في هذا المكان ، وهي :

« ... ولكن ذهبت آثارهم فلا تُعرَف أقدارهم ، وخلفنا سماؤهم ولم تبق إلا أسماءهم ؛  
ومن الأدباء من ينكر مزية الشعر الأندلسي لأنه لا يرى إلا أسماء لا آثار لها ... »



## البابُ العاشرُ (\*)

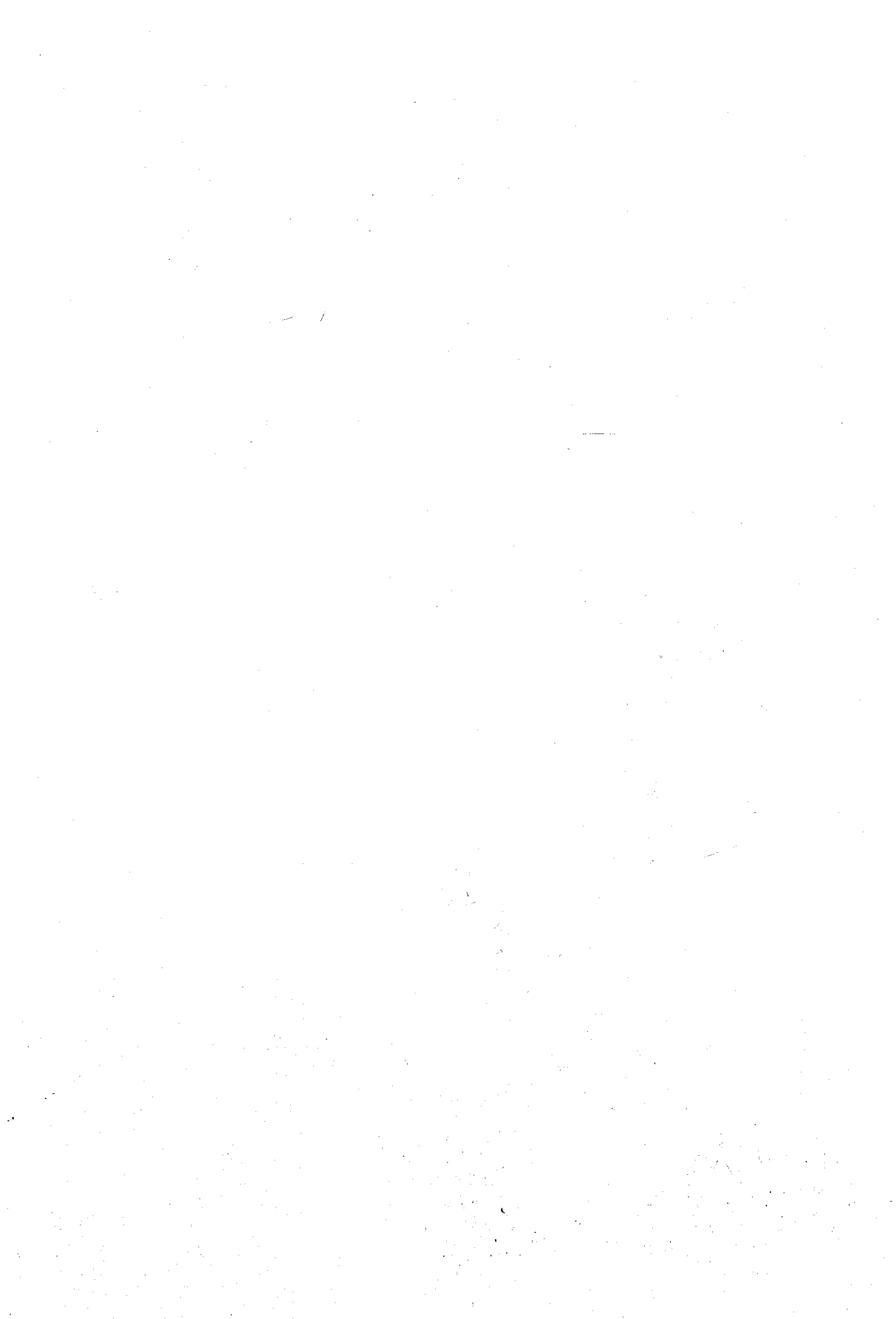
# التَّالِيفُ قَرَارٌ يَجْرُعُ عِنْدَ الْعَرَبِ

ونوادِرُ الكُتُبِ العَرَبِيَّةِ

---

(\*) قلت : كنت أحسب هذا الفصل والذي يليه بعض الباب العاشر من الكتاب ،  
( موضوعه التأليف ، وقارنجه عند العرب ، ونوادِر الكُتُبِ العَرَبِيَّةِ ) .

وعل هذا الظن تأخرت بنشر هذين الفصلين الى هذا الموضع ، ثم بدا لي من بعد أن  
المؤلف لم يستوف البحث في شيء من موضوعات هذا الباب ، وأنه أعد هذين الفصلين ليكونا  
تماماً لباب الشعر - تنبهت لذلك من عبارة وردت في بعض حديثه عن « كتب الشعر » ،  
ولم أستطع أن أتدرك ما فات بنشر هذين الفصلين في موضعها حيث أراد ، فرأيت  
إثباتها هنا .



## كتب الشعر

من هذه الكتب ما يحرصون فيه الكلام بالشعر نفسه ؛ فيبينون عن وجه المعنى ويكشفون عن طريقة الصنعة ؛ ككتاب نقد الشعر لقدامة بن جعفر الكاتب المتوفى سنة ٣٣٧ ، وكتاب العمدة لابن رشيق القيرواني ، المتوفى سنة ٤٦٣ ، وهو أحسن ما وضع في صناعة الشعر ونقده وعيوبه ؛ وقد ذكر صاحب نفع الطيب أن للأعلم الشنتمري المتوفى سنة ٥٤٩ كتاباً في مختصر العمدة والتنبيه على أغلاطه (ص ٤٣٥ ج ١ : نفع الطيب) .

ومن هذا القبيل كتب البلاغة : كالصناعتين للمسكري وما كان قبله وما وضع من بعده - كما سنذكره عند الكلام على البديع - ومن كتب الشعر ما هو مخصوص بالطبقات والتراجم ، ومنها كتب المختارات والدواوين .

### الطبقات والتراجم .

وهذه هي الكتب التي يخبرون فيها عن الشعراء وأزمانهم وأقدارهم وأحوالهم في أشعارهم وقبائلهم وأسماء آبائهم ومن كان يعرف باللقب أو الكنية منهم ، ويذكرون فيها ما يستحسن من أخبار الشاعر وما يستجد من شعره ، وما [ أخذ عليه ] من الغلط والخطأ [ في ألفاظه ] وما سبق إليه المتقدمون فأخذوا عنهم المتأخرون .

وعلى أن هذه هي أركان النقد فهم لا يفيضون فيها ولا يبسطون الكلام عنها ، وقليل ما يؤمنون إلى المهم منها وخصوصاً المتأخرين ، لأنهم لا يريدون

إلا جهة التاريخ فلا ينظرون الى الموازنة والترجيح ، لأن هذا تاريخ عملي لا يكون إلا بين النظراء من طبقة واحدة في العصر ، أو استقراء الإجابة الغالبة على شعرهم ، وهم إنما يريدون مجموع العصور المختلفة ، وكل ما جاء من أقوالهم وكتبهم في الموازنة والتنظير لم يعد أفراداً معدودين ، هم جرير والفرزدق وبشار ومروان بن أبي حفصة ومسلم بن الوليد وأبو نواس وأبو تمام والبحري ثم المتنبي .

ومما نذبه عليه أن الرواة لم يكونوا يتكلمون في الشعراء إلا بعد موتهم ، اتقاء لمعة اللسان والوقوع فيه ؛ وقد جهدوا بأبي عبيدة أن يفضل بين مسلم والنواصي فكان يقول : أنا لا أحكم بين الأحياء . وهذا الأخفش قد طمن على بشار في كلمة [ لم يسمع وزنها ] عن العرب ، فهجاه [ بشار ] حتى استوهبوا منه عرضه ، فكان الأخفش بعد ذلك يحتج بشعره في كتبه ليلغفه ( ص ٥٤ ج ٣ : الأغاني ) ، وكذلك فعل بسبويه حتى تَوَقَّاه واستكفَّ شره .

ولم يدون من ذلك شيء مقصود بالتأليف إلا كتاب الموازنة بين الطائيين للأمدي المتوفى سنة ٦٠٨ ، وما كتبت عن المتنبي كالرسالة الحاتمية للحاتمي ، وذكر مقدمتها ابن خلكان في تاريخه ؛ ورسالة الصاحب بن عباد في إظهار مساوىء المتنبي ، وقد عمل بعدها القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه في شعره ، قال الثعالبي : إنه استولى بها على الأمد في فصل الخطاب ( ص ٢٣٩ ج ٢ : يتيمة الدهر ) وسنستوفي ذلك في ترجمة المتنبي .

أما كتب الطبقات فأشهرها طبقات أبي عبيدة الراوية المتوفى سنة ٢٠٩ ، ومحمد بن سلام الجمحي المتوفى سنة ٢٣١ ، ومحمد بن حبيب النحوي المتوفى سنة ٢٤٥ ، وطبقات ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٩٦ ( أو ٢٧٦ ) وهي المعتمد عليها في هذا الباب ، قصد فيها الى المشهورين من الشعراء الذين يعرفهم جلُّ أهل الأدب والذين يقع الاحتجاج بأشعارهم في الغريب والنحو ، وعدت من

هؤلاء ١٨٠ شاعراً ، وقد جرى في ناحيته السيوطي المتوفى سنة ٩١١ ،  
فوضع كتاباً جمع فيه الذين يحتج بكلامهم من شعراء العرب .

وأما كتب الأخبار فكتاب الباهر لابن المنجم نديم المكتفي بالله المتوفى  
سنة ٣٠٠ ، وهو في أخبار شعراء مخضرمي الدولتين ، ابتداءً فيه ببشار بن  
برد ؛ وآخر من أثبت فيه مروان بن أبي حفصة ؛ ولم يتمه ، وتمه ولده  
أبو الحسن أحمد بن يحيى ، وعزم على أن يضيف الى كتاب أبيه سائر الشعراء  
المحدثين ، فذكر منهم أبا دلالة ووالبة بن الحباب ويحيى بن زياد ومطيع  
ابن إياس وأبا علي البصير (ص ٣١١ ج ٢ : فوات الوفيات) . وكتاب الأغاني  
الشهير لأبي الفرج الأصبهاني المتوفى سنة ٣٥٦ ، وهو نادرة الكتب جمع فيه  
أخبار ٣٩٥ شاعراً بين جاهلي ومخضرم وإسلامي ومحدث ؛ وهو منقول عن  
كتب كثيرة وضعت قبله .

وأما كتب التراجم التي تجمع من التاريخ والخبر وبعض المختارات ، فهي  
ما زالت متصل مع الزمان ، لم تنقطع إلا في القرن الثالث عشر ، وأول ما  
وضع منها كتاب البارع في أخبار الشعراء المولدين ، لهرون بن علي المنجم  
البغدادي المتوفى سنة ٢٨٨ جمع فيه ١٦١ شاعراً ، وافتتحه بذكر بشار بن  
برد وختمه بمحمد بن عبد الملك بن صالح ، وسنشير اليه في كتب المختارات ؛  
وهذا الكتاب هو الأصل الذي احتذاه من جاء بعده ، فذيل عليه أبو منصور  
الثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩ بكتابه يتيمة الدهر الشهير ، وترجم فيه شعراء  
عصره من بلاد كثيرة وأورد من محاسنهم ؛ ثم ذيل على اليتيمة أبو الحسن  
الباخري المتوفى سنة ٤٦٧ بكتابه دمية القصر وعصرة أهل العصر .  
ووضع عليه أبو الحسن بن زيد البهي كتابه وشاح الدمية ، ثم ذيل عليه أيضاً  
الوراق الحضيري المتوفى سنة ٥٦٨ بكتابه زينة الدهر في لطائف شعراء  
العصر ، قال ابن خلكان جمع فيه كثيراً من أهل عصره ومن تقدمهم ،  
وأورد لكل واحد طرفاً من أحواله وشيئاً من شعره (ص ٤٥٢) ووضع معه  
أيضاً عماد الدين الكاتب الأصفهاني المتوفى سنة ٥٩٧ كتاب خريدة القصر

وجريدة العصر ؛ وترجم فيه الشعراء من سنة ٥٠٠ الى سنة ٥٧٢ ؛ ثم صنع بعده كتاب السيل على الذيل ، جعله ذيلًا للخريدة . ثم جاء ياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦ ؛ فوضع كتابه معجم الشعراء ، وله أيضاً كتاب آخر هو إرشاد الألباء في معرفة الأدباء ، وهو المعروف بمعجم الأدباء ، وقد طبعت منه بعض أجزاء ، ثم وضع ابن خلكان كتابه وفيات الأعيان الشهير ، وعد فيه طائفة من الشعراء في كل عصر ، وذيل عليه أقوام ، حتى وضع الكتبي فوات الوفيات ؛ ثم وضع صلاح الدين الصفدي كتابه الوافي بالوفيات ، انتهى فيه الى آخر سنة ٧٦٠ وذكره صاحب كشف الظنون وقال إنه جمع فيه أعيان كل فن . ولا نعرف للمائة التاسعة كتباً مفردة الى أن وضع كتاب سلافة العصر ؛ ووضع الخفاجي كتابه ريحانة الألباء ؛ ووضع المحي نفضة الريحانة وخلاصة الأثر ، وكلها تترجم أدباء القرنين العاشر والحادي عشر ؛ ثم وضع المرادي سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر ، وهو ذيل على الخلاصة : وقد وضعت كتب أخرى مقصورة على بعض الأمصار ، ككتاب الأنموذج لابن رشيقي جمع فيه شعراء القيروان والكتب التي صنفها الأندلسيون وهي أبلغ ما كتب من نوعها ، وسنذكرها في بحث الأدب الأندلسي إن شاء الله ، لأنها مقصورة عليهم لم تتناول غيرهم ؛ وكذلك صنفوا كتباً على الأسماء ككتاب من نسب الى أمه من الشعراء لأبي هاشم السجستاني ؛ وكتاب الموشح في أسماء الشعراء لفلام ثعلب المتوفى سنة ٣٤٥ ؛ وكتاب المختلف والمؤتلف في أسماء الشعراء لحسن بن بشر الآمدي المتوفى سنة ٧٣١ .

ومما يذكر في هذا الموضع ما يستوفيه المؤرخون في الكتب الخاصة ببعض البلاد ، إذ يستوعبون شعراء البلد الذي يؤرخونه بما لا يوجد في غير تلك الكتب ، ككتاب بغداد لابن أبي طاهر ، وقد وجد منه جزء واحد ، وهو غير تاريخ بغداد للخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣ ، وكتاب أصبهان لأبي عبدالله حمزة بن الحسين الأصبهاني ، فقد ذكر فيه شعراء أصبهان والكرخ وساق عيون أشعارهم وملح أخبارهم (ص ١٢٥ ج ٣ : يتيمة الدهر) .



وغير ذلك مما يكون في المعجمات المطولة، وهي كثيرة، أعجب ما وقفنا عليه من أسماؤها كتاب مجمع الآداب في معجم الأسماء والألقاب لابن القوطي البغدادي المتوفى سنة ٧٢٣ ذكروا أنه في خمسين مجلداً ( ص ٣٨١ ج ٢ : كشف الظنون ) .

### كتب المختارات .

وهي الكتب التي وضعت لانتقاء عيون الشعر أولاً ، ثم دخلتها صناعة التبويب بعد ذلك ، وقد أطنبوا في صعوبة الاختيار [المرضي] الذي يؤاتي الأذواق على رغائبها ، ويتابع النفوس بمطالبها ، حتى قالوا : دل على عاقل اختياره ، واختيار الرجل من وفور عقله . وقالوا : شعر الرجل قطعة من كلامه ، وظنه قطعة من علمه ، واختياره قطعة من عقله ؛ وحتى أنكروا فيه معارضة المختارات المجمع عليها والأخذ في سبيلها ، كما أنكر محمد بن سعيد الكاتب في القرن الرابع على محمد بن علي المعجلي تأليفه كتاباً في الحماسة وأعظم ذلك حتى رد عليه أبو الحسين بن فارس علامة همدان وأستاذ بديع الزمان برسالة أورد الثعالي منها فصلاً (ص ٢١٥ ج ٣ : يتيمة الدهر).

ليس ذلك على أن الاختيار في نفسه محذور على أكثر الناس ، ولا هو صناعة من الصناعات القائمة بنفسها فيكون للعقل فيه عمل يلزمه التبعة ويأخذه بالهدد ، ولكن الشعر من عمل القرائح ، وهي متفاوتة ، فالاختيار منه لا يحسن إلا من ذي قريحة تشعر ، ثم يكون له من البصر بالنقد ما يكشف له مواضع هذا التفاوت ، حتى تكون قريحته التي تختار كأنها مجموع القرائح التي نظمت ؛ وليس من شاعر سميت به طبيعته إلا وهو يتوهم في نفسه أنواعاً من القول قد لا يسمح بها الطبع إلا الفينة بعد الفينة ، فهو إذا أصاب صفتها في أقوال الشعراء استدل عليها بطبعه وأمضى فيها اختياره ومن ها هنا كان الاختيار على التحقيق من وفور العقل .

وأول اختيار مدون عند العرب القصائد المعروفة « بالمعلقات » اختارها

حماد الراوية المتوفى سنة ١٥٥ ، ثم جهرة أشعار العرب لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي المتوفى سنة ١٧٠ .

ثم المفضليات للمفضل الضبي وهي مشهورة ، قال أبو علي القالي في أماليه إن المفضل أخرج منها ثمانين قصيدة للمهدي ، ثم قرئت على الأصمعي فصارت مائة وعشرين ؛ وقال في أصحاب الأصمعي إنهم قرءوا عليه المفضليات ثم استقرءوا الشعر فأخذوا من كل شاعر خيار شعره وضموه الى المفضليات وسألوه عما فيه مما أشكل عليه من معاني الشعر وغيره ، فكثرت جداً . ( ص ١٣١ ج ٣ : الأمالي ) وكان المفضل يؤدي المهدي فتقدم إليه أبو جعفر المنصور أن يعمد الى أشعار الشعراء المقلين ويختار لفتاه لكل شاعر أجود ما قال ، فاختار هذه القصائد ، وهي مشهورة ، وقد طبع منها [كذا] قصيدة .

ثم اختار الأصمعي القصائد المعروفة بالأصمعيات ، وكل هؤلاء لم يختاروا في كتبهم شيئاً للمولدين ، حتى جاء هارون بن علي المنجم الذي أوامناً إليه في الفصل السابق ووضع كتاب البارع في أخبار الشعراء المولدين ، وهو الذي ينقل عنه صاحب الأغاني كثيراً ويشير الى ذلك بقوله نقلت من كتاب هارون ابن علي ، ونحو هذا اللفظ ؛ قال ابن خلكان : وذكروا في أوله أن هذا الكتاب مختصر من كتاب ألفه قبله في هذا الفن ، وأنه كان طويلاً فحذف منه أشياء فاقصر على هذا القدر ، ثم قال : إنه يغني عن دواوين الجماعة الذين ذكرهم ، فإنه اختصر أشعارهم وأثبت منها زبدتها وترك زبدها . اهـ . وقد تابعه على ذلك من جاء بعده ممن صنفوا في الأخبار والمختارات كما مر في موضعه .

ومما ننبه عليه أن الرواة اذا توافى اثنان منهم على اختيار قصيدة واحدة ، ذهبت مثلاً في الجودة كقصيدة ...

\* بكرت سمية غدوة فتمنعي \*

فإن أبا عبيدة لم يجد في وصفها أبلغ من قوله : إنها من مختار الشعر :  
أصمعية مفضلية ( ص ٨٢ ج ٣ : الأغاني ) .

## الحماسة

ولكن الذي رزق حظ الشهرة في اختياره وجاء بما غطى على من سبقه ، أبو تمام الطائي المتوفى سنة ٢٣١ فيا جمعه من كتاب الحماسة الشهير الذي قالوا إنه في اختياره أشعر منه في شعره ، وتأويل ذلك ما قدمناه من معنى إصابة الاختيار ؛ قالوا : وسبب جمعه أنه قصد عبد الله بن طاهر وهو بخراسان فمدحه فأجازه ، وعاد يريد العراق ، فلما دخل همدان اغتم أبو الوفاء ابن سلم فأنزله وأكرمه ، وأصبح ذات يوم وقد وقع ثلج عظيم قطع الطريق ، فغم ذلك أبا تمام وسرّ أبا الوفاء ، فأحضره خزانة كتيبه فطالها واشتغل بها ، وصنف خمسة كتب في الشعر ، منها كتاب الحماسة ، والوحشيات ، وفحول الشعراء ، ومختار شعراء القبائل ( الخزانة ) فبقي الحماسة في خزائن آل سلم يضمنون به ، حتى تغيرت أحوالهم وورد أبو العوادل همدان من دینور فظفر به وحمله الى أصبهان ، فأقبل أديباؤها عليه ورفضوا ما عداه مما هو في معناه من الكتب ، ثم شاع حتى ملأ الدنيا .

وقد رتبه أبو تمام في عشرة أبواب هي فنون الشعر التي عدتهاها ، واقتصر فيه على شعر العظماء مما يخلص على السبك ، واحتال في تحليده بما جود فيه من اختيار القطع والأبيات القليلة التي لا تكدر المتحفظ ولا يداخلها سقط ، على غير ما ذهب إليه الذين سبقوه ، فإنهم لم يختاروا إلا القصائد الطويلة ، ولم يقصروا اختيارهم على المأنوس دون الغريب ؛ ولهذا السبب عينه سقط الوحشيات ولم يكتب له البقاء مع الحماسة ، وإن كان كلامها اختياراً واحداً ، ولكن الوحشيات مبنية على اختيار القصائد والقطع الطويلة ، وهي باقية الى يومنا هذا ، وقد وجد منها بعض الفضلاء نسخة في إحدى مكاتب الآستانة ورأى عليها أنها الحماسة الصغرى ، وهو اسم موضوع لم يذكره أحد ممن دلوا عليه ، كالتبريزي في شرح الحماسة وغيره .

وقد انتقد كتاب الحماسة حمزة بن الحسين ، فزعم أن فيه تكريراً وتصحيفاً وإبطاءً وإقواءً ونقلًا لأبيات عن أبوابها الى أبواب لا تليق بها ولا تصلح لها ،

الى ما سوى ذلك من رايات مدخولة وأمور عليّة ( ص ٤١٦ ج ٣ : يتيمة الدهر) ولكن هذا ومثله لم يغض من الكتاب ولم يصرف المتأدبين عنه ، فقد ذهبت حسناته بما دونها حتى اتخذوه أصلاً يحتذون عليه ، وجعلوا من شهرة اسمه وسيلة لشهرة كتبهم ، فلما اختار الخالديان كتابها المعروف بالأشباه والنظائر ، سمياه حماسه الخالديين ، وألف البحري قبلها الحماسة الثانية ( وقد مر ذكر حماسه العجلي) وفي تاريخ ابن خلكان أن ابن الشجري اللغوي المتوفى سنة ٥٤٢ هـ ضاهى الحماسة بكتاب غريب أحسن فيه .

ولعلي بن الحسن المعروف بشميم الحلي المتوفى سنة ٦٠١ هـ حماسه رتبها على أربعة عشر باباً ؛ وللبياسي الأندلسي المتوفى سنة ٦٥٣ هـ حماسه عارض بها أبا تمام ولكنه اختار فيها لكل الطبقات الى زمنه ورتب كترتيب أبي تمام ، وهي عند المغاربة في شهرة الحماسة عند المشاركة ؛ وألف قبله من الأندلسيين الأعلام الشنتمري وذكر حماسته البغدادي في خزانة الأدب ؛ وآخر ما عُرف من هذه الكتب ، الحماسة البصرية التي ألفها علي بن أبي الفرج سنة ٦٤٧ برسم الملك الناصر صلاح الدين ، وفي المكتبة الخديوية الجزء الأول منها .

ولكن كل هذه الحماسات لم تنازع حماسة أبي تمام قليلاً ولا كثيراً ، فلا يعرف لإحداها شرح واحد وقد وضع لتلك عشرون كتاباً سمى أصحابها مُلاً جلي في كشف الظنون ، فبعضهم عني بذكر إعرابها ، ومنهم من عني بالمعاني وشرح المغلقات ، وبعضهم تناول ذلك وأضاف إليه تراجم شعرائها وأخبارهم في أشعارهم ، وأشهر هذه الكتب شرح الخطيب التبريزي ، وهو متداول مشهور .

وكان الكتاب يتصنعون في نثر أبياتها ، وربما جعلوا ذلك مراناً على الكتابة ، ولكن علي بن محمد الكاتب المتوفى سنة ٤١٤ هـ نثرها في كتاب سماه منشور البهائي ، لأنه نثره لبهاء الدولة بن بويه ، وذلك لم يتهياً لكتاب في الشعر غير الحماسة .

## مختارات أخرى .

ولا سبيل الى حصر المختارات ، لأن التاريخ العربي ترك الى اليوم شعراً كثيراً جداً ، لا يقل المأثور عنه في الدواوين وغيرها عن بضعة ملايين من الأبيات ، وقد أتت روايات كثيرة بما لا يصدق عن استطالة الشعر الجاهلي وحده ، فكيف بغيره مما نظم ليدون واستغرق نظمه ثلاثة عشر قرناً ؟ ولكننا نعتن أشهر كتب المختارات ، ثم لا نعدو في ذلك كتب المتقدمين من أئمة الأدب ، لأن المتأخرين قد ابتدلوا هذا النوع وقصروه على حظ أنفسهم من الحفظ ، ويسمون ما يجمعونه من ذلك بالذاكرة أو المجموع ، ومن أشهرها تذكرة الصفدي ؛ وهي في عدة مجلدات لا يزال بعضها في مكاتب الآستانة ، ويقال إن فيها دواوين برمتها .

فمن أشهر تلك الكتب، منتهى الطلب من أشعار العرب، لمحمد بن المبارك ابن الميمون البغدادي . وهو كتاب يشتمل على أكثر من ألف قصيدة خلا المقاطيع ، قال صاحب كشف الظنون : وعدة ما فيه أربعون ألف بيت . وديوان المعاني للمسكري ، وهو ديوان ضخم رتبه على اثني عشر باباً وجمعه من شعر الشعراء الى زمنه ، وقد أحسن الاختيار في كثير منه ، ولا يقل فيه عن عشرة آلاف بيت . وكتاب مختارات شعراء العرب لابن الشجري المتوفى سنة ٥٤٢ جمع فيه خمسين قصيدة وقسمه ثلاثة أقسام : جمل في القسم الأول ١٢ قصيدة لشعراء مختلفين ، وفي الثاني ٢٥ ، منها ٧ لزهير ، و ٦ لبشر بن أبي خازم ، و ١٢ لمبيد بن الأبرص ، قال : وهي مختار شعره ومعظمه .... ولا يذهبن عنك ما ذكرناه عن شعر عبيد في الكلام عن المقلتين ؛ والقسم الثالث مختار أشعار الخطيئة وأخباره ، وهو ١٣ قصيدة غير المقاطيع . وكل هذه الكتب موجودة في المكتبة الخديوية ، ولابن الشجري هذا كتاب الأماي على نحو الأماي المعروفة ذكر ابن خلكان أنه في ٨٤ مجلداً .

وكان للصاحب بن عباد كتاب سماه سفينة الملح ، فكلما أنشد شعراً جيداً وقرأ أبياتاً رائعة أثبتتها فيه ، على كثرة ما يتهاى له من ذلك (ص ٢٠٧ ج ٣ : يتيمة الدهر ) وأعجب من هذا الكتاب المرزومة لابن سعيد المغربي في القرن السابع ؛ قال صاحب نفع الطيب : إنه وقر بعير من الرزم والكراريس وفيه شعر وأدب كثير . ومن هذا النوع كتاب زاملة النتف لأحمد بن محمد البغوي الكاتب ، من رجال اليتيمة ؛ قال الثعالبي : إنه يشتمل على محاسن الأخبار والأشعار ، ولطائف الآداب ، ويقع في ثلاثين مجلدة بخطه (ص ٦٩ ج ٣ : اليتيمة) ؛ هذا الى كثير من أمثاله مما لا فائدة في استقصائه لأن أكثره عندنا كأسماء الأموات لا حقيقة لها ، وإنما ذكرنا بعضه دلالة على سائره ، وتوفية لفائدة هذا البحث .



## الباب الحادي عشر

الصَّنَائِعُ وَاللَّفْظِيَّةُ الَّتِي قُلِعَ بِهَا الْمِتْلَخُورَاتُ  
في النظم والنشرو تاريخ أنواعها





## الصناعات

مر بك من أمر الصناعتين في النظم والنثر ما تستخرج منه تاريخ الارتقاء في الكلام وتعرف به مدلوله ؛ إذ يعطيك من حوادثه الأدبية ما تعطيك الحوادث المادية من القياس الذي تضبط به النتائج وتجتمع الحدود ؛ ولا بد لمن أراد أن يستقرىء حوادث الانحطاط من معرفة تاريخ الارتقاء ، لأنه ضد معلق على ضده ، فلا تنحط الأمة حتى تكون قد ارتقت .

والارتقاء في كل شيء إنما هو تغير في مادته على مقادير تعطيه من القوة بنسبة الزيادة في ذلك التغير في مجموعه ؛ فالطفل يرتقي بتغير مادة جسمه الى مقادير القوة حتى يصير رجلاً ، ولكن اذا أخذ جسمه في النماء والزيادة وأخذت حاسة من حواسه في النقص والانحطاط ، لم يكن ذلك النماء في مجموعه ارتقاءً مطلقاً ، بل احتاج أن يفصل فيه .

وكذلك الشأن في هذه الصناعات الأدبية ؛ فإنها ليست في مجموع اللغة ارتقاءً ولا انحطاطاً ، وإنما يوصف كل جنس منها بأثره ؛ فإنك إذا نظرت الى أن من أنواع البديع ما يورث اللغة حسناً في الألفاظ ، وحلاوة في مخارج الكلام ، حتى تحول في العيون عن مقادير صورها ، وتربى على حقائق أقدارها بمقدار ما زينت وعلى حسب ما زخرفت ، وحتى تكون هذه الزيادة بعينها فيما لها من قوة الهوى والتعشق ، وأن تلك الأنواع تقتضي الكاتب أو الشاعر لطافة الحيلة وحسن التأني وتمكين الأسباب ونحو ذلك مما هو أدخل في باب التكلف - لم ييجز لك أن تعدّها في اللغة إلا من أسباب الارتقاء ؛ لأن

اللغة لم تقع لأهلها على الكفاية في كل شيء ، وإنما سبيلها تحوّل المادة وتغيّر القوة في كل عصر .

وإذا نظرت إلى أن من أنواع البديع أيضاً ما يكسب اللغة هجنة ويلحقها بضروب الصناعات والحرف ، ويصير بها إلى حال مضیعة وکلال ، وهو على ما يقتضيه من الكد والاستكراه وكثرة التكلف زينة عاطلة وفتنة باطلة ، وأن هذه الأنواع مصادد للأقلام وحصائد للألسنة - لم يجز لك أن تحتسبها في اللغة إلا من أسباب الانحطاط ؛ لأنها وإن كانت زيادة في المادة إلا أنها نقص في القوة ؛ فمثلها مثل ما يزيد في الجسم من الأمراض كالسرطان وغيره .

ومن تدبّر تاريخ العلوم رأى أن لكل علم ثلاثة أدوار : فهو يبدأ بدرس حقائقه التي أفردته فاعتبر بها علما ، ثم يؤدي هذا الدرس إلى الاكتساب والاستنباط وما يتبعهما من تمحيص الحقائق الأولى ، ثم ينتهي الاكتساب إلى الدور الذي يبلغ فيه العلم أن يكون جزءاً من أجزاء الوحدة العلمية ؛ فإن العلوم كلها دعامة للعمران يشد بعضها بعضاً ، وليس ينزل فيها إلا ما يشترك في هذه الغاية ، وعلى هذا لا تكون الصناعات قد نشأت في علم الأدب إلا في الدور الثاني ، وهو دور الاكتساب والتزيّد ، غير أنها نشأت على قدر الحاجة إليها ، وكان يتولاها النقد ويحاسب عليها البيان ، فخرج أكثرها مهذباً غير ملتبس ولا معقد ؛ حتى جاء القرن الرابع فأخذوا يتوسعون في ذلك لا يعدون مقدار التملح والظرف وما يجري مجراها ؛ لأن معدة اللغة يومئذ كانت تسيغ ذلك وتمثله ، حتى إن أبا الفتح البستي لما شغف قريبا من ذلك العهد بالتجنيس ، قالوا إنها الطريقة الأنيقة والتجنيس الأنيس ، واستظرفوها ولم ينكروا عليه ما ننكر نحن على أهل هذه الطريقة في المتأخرين ؛ فلما أخذت اللغة تضعف بعد ذلك فشت الصناعات فيها وضربت لها عروق الحياة ، ووجد الأدباء من جهل الخاصة وانصرفهم عن الأدب الصحيح ما صرفهم إلى أنفسهم وجعل بأسهم بينهم ، فتنافسوا في

الاكتساب والإغراب ، وصارت الصناعات مقصودة لذاتها ، فتبعتها اللغة بعد أن كانت متبوعة ، وصار أول ما يجيد الشاعر أن يطرح 'معمى' أو ينظم لغزاً أو يبرع. في بعض أنواع الجناسات وغيرها مما يسمونه بالمعجز والعويص ؛ وكذلك كان شأن الكاتب ؛ وصار ذلك من حظ الأدباء وأهل البلاغة عند الخاصة والأمراء ، وقد ذكر ابن الطقطقي في كتاب الغزي ( ص ١٥ ) أن عز الدين بن عبد العزيز بن جعفر النيسابوري - مجالسة أهل الفضل ولكثرة معاشرتهم له - صار يتنبه على معان حسنة « ويحل الألغاز المشكلة » أسرع منهم ، ولم يكن له حظ من علم . وكذلك قال في صدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل إنه لمثل ذلك كان يستنبط المعاني الحسنة ويتنبه على النكت اللطيفة مع أنه كان أمياً لا يكتب ولا يقرأ .

وكان انتشار الصناعات من ابتداء القرن السادس ، وظلت إلى أواخر القرن التاسع - وهو زمن سقوط الأندلس - لا تستبد بالأدب وإن كان لها عليه في بعض ذلك سلطان ؛ لأن أفراد الكتاب والشعراء الذين نبغوا في تلك الأيام لم يكونوا يتناولون منها إلا على سنة التملح والظرف ، كأهل القرن الرابع ، فكانت فضلاً من القوة ، ولا حساب على الفضل ، حتى إن صفيّ الدين الحلي لما دخل إلى مصر في سنة ٧٢٦ أنشده صاحب شمس الدين ابن السندي أبيات سليم الهوى المصغرة ألقاها التي أولها :

\* بُرِّيقٌ بِالْأَبْرِيقِ فِي الْفُجَيْرِ \*

وذكر له أن ناظمها نظمها لصاحب الديوان علاء الدين الجوشي ولم يمكنه نظم بيت واحد مديحاً ؛ إذ شأن المديح التعظيم ، فنظم الصفي قصيدته (١) التي أولها :

(١) وقد تابعه عليها وسموا هذه القصائد بالمصغرة ، ومنها قصيدة لابن حجة ص ١٩٧ : الحزاة .

نُقَيْطٌ مِنْ مُسِيكٍ فِي وَرِيدٍ خَوْيْلِكَ أَوْ وَسِيمٌ فِي خُدَيْدٍ

واحتال للمدح احتيالا لطيفاً ، فلم يذكر صفات المدوح ولكنه ذكر عطفه عليه وصغر نفسه ووصف حساده وصغرهم ، فكان هذا التصغير مضمناً معنى التعظيم ، وخلص بذلك إلى ما أراد ؛ والقصيدة على عقدها لا تغض من قدر الصفي ، لأنها في سبيل ما وصفنا ، والرجل مع ذلك أنبغ المتأخرين في جملة الصناعات بعد الحريري .

ولكنهم ورثوها للخلف العاق فتجاوزوا إليها حقائق المعاني وتعبدوا للألفاظ ؛ وساعدتهم أحوال الزمان ، فكان الواحد منهم إذا نظم قصيدة أو كتب رسالة فتح بقلمه قبراً من قبور اللغة ، ولم تزل تلك حالهم حتى انتصف القرن الثالث عشر ، فأخذت تلك الجرائم تضعف ثم تقل ثم تتلاشى ، إلى النهضة الحديثة ، فماتت إلا في بعض زوايا المساجد وبقيت في الزوايا خبايا .

[ وإنما حملنا على الاهتمام بهذا البحث والصبر على مطاولة التعب في جمعه والتفتيش عنه ، أن هذه الصناعات قد طوي زمنها ومات شأنها أو دنف بعد هذه الآونة الأخيرة التي نهضت بها اللغة وآدابها ، وانصرف أهلها إلى غير هذا التسخير في القرائح ، فلا تكاد تجد في أدب اليوم من يعرف تأريخ نوع واحد منها ؛ وإذا ابتعد الزمن بعصرنا هذا أصبحت في الأدب كالأثار المستعجمة ، إلا قليلاً مما استوعبت الكتب بعض تأريخه \* ] .

وقد برع أدباء اللسانين [ الفارسي والتركي ] في هذه الأنواع وفاقوا العرب في أشياء منها ؛ ومن أعجب ما قرأته أن علاء الدين بن شمس الدين الفقازي من علماء الروم المتوفى سنة ٩٠٣ كان يقرئ تلامذته شرح المطول في علوم البلاغة ، فلما انتهوا إلى فن البديع صار يورد لكل صنعة عدة أبيات

---

(\*) قلت : هذه العبارة التي بين العلامتين [ ] لم تكن في هذا الموضع مما تحت يدي من الأصل ، ولكنها كانت كالحاشية في ورقة منفصلة فرأيت إثباتها هنا .

من الفارسية ، قالوا : وكانوا يقرءون كل يوم من الضحوة إلى العصر سطرأ  
أو سطرين ، فلما طال عليهم ذلك قال لهم : هذه قراءة الكتاب فاقراءوا  
الفن ، وصار يُقرئهم كل يوم ورقتين . وذلك علم كثير .

وسنأتي على شرح ما عثرنا عليه من الصناعات وتأريخه على مقدار ما وسعه  
الجهد وبلغ إليه الاطلاع ومكنت منه الفرصة ؛ وإن هذا المبحث لحقيق أن  
يكون كتاباً برأسه ، ولكنه فضلاً عن ذلك لم يجتمع إلى الآن في كتاب .

وقد كان يقع في هذا الفصل كلام في مقارنة هذه الصناعات بعضها ببعض  
ونسبة أثرها في اللغة وأشياء نحو ذلك ، ولكننا سنفرقه على مواضعه ونجيء  
به عند مقاطعه .



## لزوم ما لا يلزم

هذا نوع في الصناعة يعدونه من البديع ، وقد سمي الالتزام والإعانت والتضييق والتشديد ، وبهذه الأسماء يدور في كتبهم ، والمراد بذلك عندهم أن يعنت الناظم أو الناثر نفسه في التزام حرف أو أكثر قبل حرف الروي ، وهو إنما يفعله صاحب الكلام لقوته ولو تركه لم يدخل عليه ضعف ؛ غير أنني أرى أن الحروف تتساقق وأن اللسان ميزان ، فربما كان موضع لا يجد فيه البليغ المطبوع بدءاً من الالتزام فيفعل ذلك طبعاً لا صناعة لأنه يرى اللسان يثبت في الكلمات ، فإذا لم يقع من كل كلمة على الحرف الملتزم أخلى فلم يصب الرتبة ، وكان ذلك في الكلام شبيهاً بالعوائير التي تكون في الطرق ، ومن أجل ذلك لا يتم حسن هذا النوع إلا في الكلمات المتوازنة بالألفاظ ، كقوله تعالى : ( فلا أُقسِمُ بِالخُنُفِ ، الجَوَارِ الكُنُفِ ) وهو أكثر ما يتفق ، أو بالمقاطع ، لأن كلتا الكلمتين التي يلتزم فيها قد لا تكون وزان الأخرى بنفسها ولكنها توازنها مع بعض مقاطع الكلمة التي قبلها ، أو هما يتوازنان في بعض مقاطعها لا في جملتها ، كقوله تعالى : ( والليل وما وَسَقَ ، والقمرِ إذا اتَّسَقَ ) فإن وَسَقَ لا توازن اتَّسَقَ ، ولكنها يتوازنان إذا قلت « ما وسق » و « إذا اتسق » أو قلت « وسق وتسق » ؛ فإذا لم يتفق هذا التوازن ، كما ترى في مجنون ومفتونون مثلاً ، فهو حينئذ الإعانت والتضييق والتشديد إذا كان يحتسب التزاماً ، لأنه غير طبيعي في الكلام ، بل لو اطرده لكان ثقيلاً وخماتشبه له السليقة وثبة أحشاء المتقيس ، ولذلك السبب عينه كان الالتزام طبيعياً في الشعر ، لأنه أعايرض متوازنة ،

وكان من كماله ذلك النوع الدقيق منه ، وهو التزام الحركة قبل الروي ، إلا أن هذه الحركة قد ينكر السمع تغيرها . وذلك فيما يقع بعد ألفات التأسيس ، كسالم وظالم ، فإذا جاء فيها عالم ( بالفتح ) فذلك هو السناد ، وهو معيب لما بيناه ، وقد لا ينكر السمع تغير الحركة ، كما تقول : يرعدُ وأرعدُ ، وهو كثير في الشعر ؛ ولا يلتزم هذه الحركة إلا الفحول المبرزون ، كابن الرومي ، وهو أولع الناس بها ، حتى إن قصيدته التي يقول فيها :

لِما تُؤذِنُ الدنيا به منُ صروفها      يكون بكاء الطفل ساعة يولدُ

قد التزمه فيها ففتحها ما قبل الروي ، على طولها وامتداد النفس فيها ، وشبيه بذلك ما فضّلوا به العجاج ؛ إذ زعم بعضهم أنه أشعر أهل الرجز والقصيد . وذكر أنه صنع أرجوزته :

\* قد جَبر الدينَ الإلهُ فجُبرِ \*

فيها نحو مائتي بيت وهي موقوفة مقيدة ، ولو أطلقت قوافيها وساعد فيها الوزن لكانت منصوبة كلها ( ص ٥٦ ج ١ : العمدة ) .

ولا نعرف أول من نبه على الالتزام ، ولكن قدامة وابن المعتز والمسكري - وهذا توفي سنة ٣٩٥ - لم يشيروا إليه في كتبهم ولا ورد ذلك في كلام من نبه على البديع من قبلهم من الرواة ؛ لأن الالتزام في أكثر مواضعه المستحسنة طبيعي - كما قدمنا - ولكن أبا العلاء المعري المتوفى سنة ٤٤٩ نظم على هذا النوع ديوانه المشهور باللزوميات ، وقال في مقدمته : « وجمعت ذلك كله في كتاب لقبته لزوم ما لا يلزم ، ومعنى هذا اللقب أن القافية تلتزم لها لوازم لا يفتقر إليها حشو البيت ، ولها أسماء تعرف ، وسأذكر منها شيئاً مخافة أن يقع هذا الكتاب إلى قليل المعرفة بتلك الأسماء ... ا هـ » ففي كلامه رائحة ضعيفة من الاختراع ؛ ولعله أول من نبه عليه ، فإن كان ذلك فهو لم يدعه ؛ لأنه نهج مطروق وشرعة مورودة ، والاختراع لا يكون فيما هذه سبيله بين أهله ؛ غير أنه لا مرأى في أن المعري أول من اتخذ هذا النوع

صناعة احترفها شطراً من عمره ، فتكلف قي تأليفه ( كما قال ) ثلاث كلف : الأولى أن ينتظم حروف المعجم عن آخرها ، والثانية أن يجيء رويته بالحركات الثلاث وبالسكون بعد ذلك ، والثالثة أنه لزم مع كل رويٍ فيه شيء لا يلزم من باء أو تاء أو غير ذلك من الحروف .

ولم نعرف بعد المعري من تكلف تأليفاً مستقلاً في لزوم ما لا يلزم ، إلا ما وقفنا عليه في ترجمة عبد العزيز بن قاضي حماة ، من فوات الوفيات ، وقد توفي سنة ٦٦٢ ، فقد قال فيه الشيخ صلاح الدين الصفدي :

« لا أعرف في شعراء الشام بعد الخمسة من نظم أحسن منه ولا أجزل ولا أفصح ولا «أصنع» ولا أكثر » فإن له في لزوم ما لا يلزم مجلداً كبيراً .

وقبل عبد العزيز هذا تكلف الوزير جمال الدين أبو الطاهر محمد بن يوسف التميمي السرقسطي المعروف بابن الاشركوافي المتوفى سنة ٥٣٨ - في مقاماته التي عارض بها الحريري - أن يلتزم في نظمها ونثرها هذا النوع ؛ ولذلك تعرف بالمقامات اللزومية ، وقد اشتهر بأسلوبه هذا في الأندلس حتى احتذاه من مشاهيرهم عبدالرحمن بن محمد المعروف بالمكناسي المتوفى سنة ٥٩١ ، فقد كان رأساً في الكتابة ، وكان ينشئ الرسائل اللزومية ، وبلغ في اللزوم مبلغاً أعجز فيه غيره ( ص ٣٠٣ : بغية الوعاة ) .

### السينية والسينية

أما الحريري فقد طبع أحض أصناف الإعانات والتضييق في رسالتين له ، وهما المعروفتان بالسينية والسينية ، كتب بالأولى منها إلى الشيخ الإمام شمس الشعراء طلحة بن أحمد بن طلحة النماني ، والثانية وهي السينية على لسان الأمير أمين الملك أبي الحسن بن فطير المرادي ، وكان يتولى ديوان الاستيفاء بالبصرة ، إلى الأمير الأجل الحسام ، وكان قد دعاه الأسفسالار<sup>(١)</sup> الأجل

(١) الأسفسالار : لفظ فارسي معناه رئيس الجيش . والنفيس : اسمه .



النفيس سيد الرؤساء سيف السلاطين ، وشرباً جميعاً في دار بالبصرة في  
المحلة المعروفة ببني حرام ، وهي محلة الشيخ الحريري ، وكان أمين الملك جاره  
وصديق الأسفهلار النفيس ، فلم يدعه ، فكتبها إليه يداعبه على لسانه .

وقد التزم أن لا يخلي كلمة من الشين في الأولى ومن السين في الثانية ؛  
وأشار صاحب المثل السائر إلى هاتين الرسالتين في باب المعاظلة من كتابه  
ووصفها ؛ ثم قال : فجاءت كأنها رُقي العقارب ! وهو من تحامله على  
الحريري ؛ لأن الصناعات كانت مشهورة لذلك المهتم مرغوباً فيها ، ولأن  
مقام الرسالتين استدعى هذا الالتزام ، وليس ما ترسل فيه السجية ويستجم  
له الطبع كالذي يكون من الشاذ والنادر ، ولم يأخذ الحريري في ذلك النمط  
إلا قصداً وهو لا يجهل ما فيه ، وإنما نبهه إلى ذلك مراعاة النظير ؛ فإن  
الشيئية مكتوبة بها « للشيخ الإمام شمس الشعراء » والأخرى « للأسفهلار  
الأجل النفيس سيد الرؤساء الخ » فكان أولى بذلك أن يُعجب به لا أن  
يعجب منه ، لأن الكتابة لم تكن إلا على جهة التظرف والتلمح ؛ ومثل  
هذا لا يعاب إلا إذا بولغ في استكراهه والإلحاح بالكثير منه ( انظر المجلد  
السابع من مجلة الضياء ص ٤٩٦ ، ٥٢٧ ) .



## القوافي المشتركة

من الكلام ألفاظ تشترك في معان كثيرة ، وهي هي في الدلالة على كل تلك المعاني المختلفة ، وقد اختلف أهل اللغة في سبب ذلك ، ولكنهم اتفقوا على أنه . « لا خلاف أن الاشتراك على خلاف الأصل » وهذا الموضوع مما لا سبيل إلى تحقيقه وبيان وجه الصواب فيه ؛ لأن الألفاظ المشتركة سماعية إلا ما استخرج منها بالقياس ، كالحال مصدر خال مثلا ، وقليل ما هو ، فلا يمكن ردّها إلى لغة واحدة ولا إلى لغات مختلفة من لغات العرب ، لذهاب أصولها .

وقد تناول المتأخرون تلك الألفاظ واستعملوها قوافي للشعر على طريقه الجنس التام ، وأشهرها الذي تخرج منه القصائد ، ألفاظ معدودة ، وهي العين ، والحال ، والغرب ، والهلل ، والمعجوز ؛ ولم يرد للمتأخرين قصائد على غيرها ، وقد زاد بعضهم في معانيها ما لم يسمع ولم يجيء به نص في اللغة ليلبغ من ذلك مبلغ الكثرة ، ولكن الشأن إنما هو في سهولة انقياد القافية وتمكينها على غير تكلف .

وأول ما جاء من الشعر في ذلك ثلاثة أبيات للخليل ، وهي :

يا ويح قلبي من دواعي الهوى      إن رحلَ الجيران عند الغروب  
أنبعتهم طرقي وقد أزمعوا      ودمعُ عيني كفيضِ الغروب  
بانوا وفيهم طفلةٌ حرةٌ      تفتّرُ عن مثل أقاحي الغروب

فلفظ « الغروب » الأولى غروب الشمس ، والثاني جمع غرب ، وهو الدلو العظيمة المملوءة ، والثاني جمع غرب ، وهو الوهاد المنخفضة .

ثم نظم الحريري في إحدى مقاماته خمسة أبيات أولها :

سَلِّ الزمان عليّ عَضْبَهُ  
لِيَرُوعني وأحدَ غَرْبَهُ

ولكن النظم على هذا النوع لم يشتهر إلا في القرن الحادي عشر ؛ قال الزبيدي في تاج العروس وقد أورد أبيات الخليل : ثم إني وجدت في شرح البديعية لبديع زمانه علي بن تاج الدين القلمي المكي ما نصه: في سائحات دمي القصر للعلامة درويش أفندي الطالوي رحمه الله : كتب إليّ الأخ الفاضل داود بن عبيد خليفة نزيل دمشق عن بعض المدارس في لفظ مشترك الغرب طالباً مني أن أنسج على منوالها وأحدو على مثالها ، وهي « أربعة أبيات » قال :

فكتبت إليه هذه الأبيات التي هي لا شرقية ولا غربية ... ونقل الزبيدي ٢٧ بيتاً أولها :

أَمِنْ رَسْمِ دارٍ كاد يشجيك غَرْبُهُ  
نزحت ركيّ الدمع إذ فاض غَرْبُهُ

ولكن الشهاب الخفاجي أورد هذه القصيدة في آخر ريجانته - وهي هناك ٢٩ بيتاً - وقال هناك : إن الطالوي عارض بها أبيات الحريري ، والतालوي هذا من أدباء القرن الحادي عشر ؛ وكذلك نقل الزبيدي أيضاً في شرح مادة « عجز » عن شيخه أن الأدباء أكثروا في جمع معاني المعجوز في قصائد كثيرة لم يحضره منها وقت تقييد كلماته إلا قصيدة واحدة للشيخ يوسف بن عمران الحلبي وساقها هناك ، ومطلعها :

لحاظ دونها غول المعجوز وشكّت ضعف أضعاف المعجوز

[ المعجوز في الأولى ] : المنية ، [ وفي الثانية ] : الإبرة . وهي ستون بيتاً فيها تكلف كثير ، والشيخ يوسف هذا من المترجمين في الريحانة ، ولكن

الشهاب لم يشر في ترجمته لهذه القصيدة . ثم قال الزبيدي بعد أن أورد هذه القصيدة : قال شيخنا : وكنت رأيت أولاً قصيدة أخرى كهذه للعلامة جمال الدين محمد بن عيسى بن أصبغ الأزدي اللغوي ... وهي طويلة وأعظم انسجاماً وأكثر فوائد من هذه . . . . وهناك قصائد غيرها لم تبلغ مبلغها . ٥١ .

وقال الشهاب الخفاجي في ترجمته السيد عبد الله الوفائي المصري :  
وقصيدته التي التزم فيها تجنيس قوافي الخال ، مشهورة . وأولها :

يا سلسلة الصدغ من لواءك على الخال ( كذا )

ولم يذكر منها غير هذا الشطر ؛ فلعله أول من نظم في الخاليات .

ثم نظم نفر من أدباء القرن الثالث عشر في العينيّات والهلاليّات وتابعوا من قبلهم في الخاليّات والغربيّات وأهملوا العجوزيات ، ولعل العجوز ماتت قبل أن تلد قرائحهم ...

ومهما يكن فالنظم في هذه الأنواع مما يجوز أن يحاضر به في اللغة على وجه المعاياة ؛ وكان هذا من فائدته قبل أن يشيع ، أما بعد ذلك فهو لغو يحسبونه لهواً ، وعناء يظنونونه غناء ؛ وصناعة من الباطل يرون فيها صياغة لتحلية العاطل ؛ وإنما الفرق بين ذلك فرق بين الأضداد .



## القصاص المعرّة

يراد بهذا النوع من المنظوم أن تكون القصيدة يحملتها خالية من أحد حروف الهجاء ، فحيث التمسته كنت كطالب ما لا يوجد ، أو كملتسم حرف أجنبي في الحروف العربية .

والأصل في هذا على ما أعلم ما يروى من خبر واصل بن عطاء المتوفى سنة ١٨١ قال الجاحظ : إنه لما علم أنه ألتغ فاحش اللثغ ، وأن مخرج ذلك منه شنيع ، وأنه كان داعية مقالة ورئيس نحلة ، وأنه يريد الاحتجاج على أرباب النحل وزعماء الملل ، وأنه لا بد له من مقارعة الأبطال ومن الخطب الطوال ، وأن البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة ، وإلى ترتيب ورياضة ، وإلى تمام الآلة وإحكام الصنعة ، وإلى سهولة المخرج وجهارة المنطق وتكميل الحروف وإقامة الوزن ؛ وأن حاجة المنطق إلى الطلاوة والحلاوة كحاجته إلى الجلالة والفضامة ، وأن ذلك من أكبر ما تستمال به القلوب وتنثني إليه الأعناق وتزين به المعاني ، وعلم واصل أنه ليس معه ما ينوب عن البيان التام واللسان المتمكن والقوة المتصرفة . . . رام أبو حذيفة إسقاط الراء من كلامه وإخراجها من حروف منطقته ، فلم يزل يكابد ذلك ويغالبه ، ويناضله ويساجله ، ويتأتى لسره والراحة من هجنته ، حتى انتظم له ما حاول ، واتسق له ما أمل ، حتى صار لغرابته مثلاً ، ولظرافته معلماً . قال : ولولا استفاضة هذا الخبر وظهور هذه الحال ، لما استجزنا الإقرار به والتأكيد له . . . إلى آخر ما يتعلق بخبر واصل مما ليس هذا موضعه .

وكان هذا الأمر مقصوراً على المنشور ولا يتعدى مع ذلك ما ينسب إلى أبي حذيفة، حتى جاء الصحاب بن عباد المتوفى سنة ٣٣٥ فجعله في المنظوم. قال الثعالبي في ترجمة أبي الحسين علي بن الحسين الحسني الهمداني : وكان الصحاب صاهره بكريمته التي هي واحده . . . ولما قال الصحاب قصيدته المَعْرَاة من الألف التي هي أكثر الحروف دخولاً في المنظوم والمنشور، وأولها :

قد ظلَّ يجرح صدري من ليس يعدوه فكري

وهي في مدح أهل البيت « لأن الصحاب كان علويًا » تبلغ سبعين بيتاً - تعجب الناس منها وتداولتها الرواة :

فسارت مسير الشمس في كل بلدة وهبت هبوب الريح في البر والبحر

فاستمر الصحاب على تلك المطية ، وعمل قصائد كل واحدة خالية من حرف من حروف الهجاء ، وبقيت عليه واحدة تكون مَعْرَاة من الواو ، فانبرى أبو الحسين لعلها ، وقال قصيدة فريدة ليس فيها واو ، مدح الصحاب في عرضها ، وأولها :

برق ذكرت به الجبائب ما بدا فالدمع ساكب

أمدامعي منهـلّة هاتيك أم غزُرُ السحائب

نثرت لآلئ أدمع لم تفتّرِعها كفّ ثاقب

وكلها من هذا النمط يتحامل بعضها على بعض ، ولعل قصائد الصحاب لا تعدوه في التقدير ، لأنه لم يقع لنا منها شيء ، حتى إن الثعالبي نفسه لم يذكرها في ترجمته .

ولم نعلم أن أحداً بعد الصحاب تعاطى هذا الشأو، مع غلبة هذه الصناعات على شعر المتأخرين وتكلفتهم لما هو أكثر استغلاقاً وأصعب مراساً من النظم المَعْرَوي ، ولعل شيئاً من ذلك اتفق لبعضهم ثم درست به آثاره ، أو لعل الاطلاع قصر بنا : ومهما يكن فقد بحثنا في الأصل ، وما بقي فهو مما يرد إليه ، والأمر في ذلك سهل إن شاء الله .



## محبوك الطرفين

ويريدون أيضاً بهذا النوع من المنظوم أن تكون كل أبيات القصيدة أو القطعة مبتدأة ومختتمة بحرف واحد من حروف المعجم ؛ وأول من جاء بشيء من ذلك أبو بكر محمد بن دريد المتوفى سنة ٣٢١، وقد ذكر المسعودي أنه كان شاعراً كثيراً الشعر يذهب في كل مذهب ، غير أنه لم يشتهر من شعره إلا مقصورته التي مدح بها ابن ميكال ، وهي مشهورة ، وقد نظم ابن دريد المذكور قطعاً مربعة على عدد الحروف لم يلتزم فيها بجزاً واحداً بل جعل كل قطعة منها مستقلة عن سائرهما في الوزن كما هي مستقلة في الرومي ، وأولها قوله في حرف الألف :

أبقيت لي سقما يمازج عبرتي من ذا يلذ مع السقام بقاء  
أشمت بي الأعداء حين هجرتني حاشاك مما يُشمتُ الأعداء  
أبكيته حتى ظننت بأنني سيصير عمري ما حيتُ بكاء  
أخفي وأعلن باضطرار إنني لا أستطيع لما أجنُّ خفاء

وفيهما أبيات جيدة لأن الشعر مع هذا القيد ولا جرم قريب من الانطلاق ، إلا حيث تكون الألفاظ المستكرهة في بعض الأحرف المعدودة كالحاء والظاء .

ثم جاء بعد ابن دريد وأبو الحسن علي بن محمد الأندلسي البرزي فانسحب على آثاره ونسج على منواله ، ولكنه أبلغ أبيات كل قطعة إلى العشرة ، ولذلك تعرف منظومته بالقصائد المعشرة .

وتلاهما صفي الدين الحلي الشاعر الشهير المتوفى سنة ٧٥٠ فنظم من هذا النوع تسعاً وعشرين قصيدة على عدد الأحرف الهجائية ، والتزم هذا العدد بعينه في نسق كل قصيدة ، فجاء من ذلك بالشيء العجيب ، ولو كان ابن دريد من المصنّعين ولم يكن حيث هو من العربية وفنون الأدب لأخمله الصفي .

وقد مدح الحلي بقصائده تلك السلطان الأرتق المنصور نجم الدين أبا الفتح ولذلك تعرف بالأرتقيات ومطلع القصيدة الأولى منها :

أبت الوصالَ مخافة الرُقباء      وأتتكَ تحت مدارع الظلماء  
أصفتُكَ من بعد الصدود مودةً      وكذا الدواءُ يكون بعد الداء

وهي مشهورة في ديوانه ، ثم ختمت به الإجابة في هذا النوع على ما أظن ، إذ لم يتفق لغيره من ذلك إلا القليل ، كأبيات أبي جعفر الألبيري الأندلسي - وكان معاصراً للصفي - فيما التزم في أوله حرف الدال ، وقد أوردها صاحب نفح الطيب ( ص ٤٢ ج ٢ ) وكذلك جرى بعضهم على نمط ابن دريد في قصائد مسدسة في المديح النبوي ، وذكر المقرئ من ذلك قصيدتين في آخر كتابه ، وساق هناك قصيدة أخرى للشيخ أبي عبدالله بن عمران في المديح ، وهو يذكر في أول كل بيت حرفاً من حروف المعجم منطوقاً به على أن يكون جزءاً من عروضه ، ومطلعها :

ألف ، يا خير البرية هذي      مدّحي وما أنا في مقامي هاذي  
باءٌ بها أظهرتُ صدقَ محبتي      وبذلك الجاه الكريم ليأذي

ومن هذا النوع أخذ المتأخرون ما يسمونه التطريز ، وذلك أنهم إذا أزدادوا أن ينظموا في مدح أحمد مثلاً جعلوا أوائل الأبيات على حسب حروف هذا الاسم فيبتدئون بالألف ، ثم بالحاء ، ثم بالميم ، الخ .

وهو نوع كان يعرف في القرن الحادي عشر بالمشجر وأورد منه



ابن معصوم في السلافة بعض مقاطيع ، وربما جاءوا بالتشجير في  
المصراعين فتكون أوائل الشطور الأولى على حروف الاسم المشجربه ،  
وكذلك أوائل الشطور الثانية ؛ وليس في ذلك كله من البراعة إلا ما  
اصطلحوا عليه من أنه صناعة .

وللصفي أيضاً أبيات تقرأ طولاً وعرضاً فلا يتغير وضعها ، ولم أر غيرها  
لغيره إلا ما سيجيء في القصائد التي تقلب على وجوه كثيرة ؛ لأن ذلك  
يكون من قراءتها طولاً وعرضاً وطردها وعكسها ، والأبيات هي :

ليت شعري لك علم	من سقامي يا شفائي
لك علم من زفيري	ونحولي وضنائي
من سقامي ونحولي	داويني إذ أنت دائي
يا شفائي وضنائي	أنت دائي ودوائي



## ذَوَاتُ الْقَوَافِي

هذا نوع من النظم يعطيك أنواعاً من البحور والقوافي كلما قلبته على جهة من جهات الاستخراج نظم عليها . والأصل فيه النوع البديعي الذي سموه التشريع وسماه ابن أبي الإصبع في كتابه بالتوءم ، لأن شرطه عندهم أن يبني الشاعر بيته على وزن من أوزان القريض وقافيتين . فإذا أسقط من أجزاء البيت جزءاً أو جزأين صار من وزن آخر غير وزنه الأول ، وعلى هذا النوع بنى الحريري قصيدته في المقامة الثالثة والعشرين ، وهي من ثاني الكامل ، وأولها :

يا خاطب الدنيا الدنية إنها شَرَكَ الرُدَى وقرارة الأقدارِ  
دارٌ متى ما أضحكتُ في يومها أبكتُ غداً ، بعداً لها من دار  
وهي تنتقل بالإسقاط الى ثامن الكامل فتصير :

يا خاطب الدنيا الدنية إنها شرك الردى  
دارٌ متى ما أضحكتُ في يومها أبكتُ غدا

وقد تنبه الحريري الى استخراج هذا النوع من قول بعض العرب :  
وإذا الرياح مع العشي تناوحت هوج الرماح بكتبهن شمالا  
ألفيتنا نفري الغبيط لضيفنا قبل القتال ونقتل الأبطالا  
فإن هذا الشعر بعد الإسقاط يخرج منه :

وإذا الرياح مع العشي تناوحت هوج الرماح  
ألفيتنا نفري الغبيط لضيفنا قبل القتال

فالحريري هو أول من قصد له ، ثم وطىء عقبه فيه أصحابُ البديع  
 والمتكلفون لمثل ذلك ، وقد وجدوا الرجز أوسع البحور فيه ، فإنه يقع  
 مستعملاً تاماً ، ومجزوءاً ، ومشطوراً ، ومنهوكاً . فيمكن أن يعمل البيت  
 منه أربع قواف ، فإذا أسقطت ما بعد القافية الأولى بقي البيت منهوكاً ،  
 وإذا أسقطت ما بعد الثانية بقي مشطوراً ، ويبقى إذا أسقطت ما بعد الثالثة  
 مجزوءاً ، ثم هو تام إذا كان على حاله من غير إسقاط ، وعلى ذلك قول أبي عبد الله  
 محمد بن جابر الضرير الأندلسي « صاحب البديعية » :

يرنو بطرف فاترٍ مهما رنا      فهو المنى لا أنتهي عن حبه  
 يهفو بفصنٍ ناضرٍ حلوا الجنى      يشفي الضننى لا صبر لي عن قربه

وهي أربعة أبيات ، والأوجه الثلاثة التي تستخرج منها غير التام هي :

يرنو بطرف فاتر      مهما رنا فهو المنى      ( وهو المجزوء )  
 و      يرنو بطرف فاتر      مهما رنا      ( وهو المشطور )  
 و      يرنو بطرف فاتر      فهو المنى لا أنتهي عن حبه      ( وهو المنهوك )

قالوا : ولكن القوة في ذلك والمكنة في ملكة الأديب أن يأتي بالتشريع  
 في بيت واحد ، والإعجاز فيه أن يخرج من البيت بيتان كقول ابن حجة الحموي  
 في بديعيته مورياً بتسمية النوع :

طاب اللقا لذ تشريع الشعور لنا      على النقا فنعمنا في ظلهم  
 فإنه يستخرج منه : .

طاب اللقا      على النقا

وهو من منهوك الرجز ، ويكون الباقي من البيت :

لذ تشريع الشعور لنا      فنعمنا في ظلهم

وهو من المديد ، والبيت كله من البسيط ، ثم تنبه المتأخرون حين بالغوا  
 في الصناعات وفتقت لهم منها حيلة المنافسة الى أن يخيثوا بأبيات أو قصيدة  
 من هذا النوع الذي قلد فيه ابن حجة الشيخ عز الدين صاحب البديعية المشهورة ،  
 ويقصدوا في قوافيها المقصورة الى نوع من الترتيب ، وبذلك تخرج القطعة أو

القصيدة وهي تُقرأ طولاً وعرضاً وطرداً وعكساً، ثم تقرأ بالشطرة الواحدة من القوافي الثلاث على وجوه كثيرة لا تحصر إذ لا فائدة في حصرها ... وأقدم ما وقفنا عليه من هذا النوع قطعة للشاعر الملقب بابن معتوق يمدح بها، وهي مثبتة في ديوانه (ص ٥٦) وأولها :

فخر الورى حَيندري\* عمٌ نائلهُ فجر الهدى ذو المعالي الباهراتِ علي  
نجم السها فلكياتٌ مراتبه بادي السنن نير يسمو على زحل  
ليث الشرى قبس تهمي أنامله غيث الندى موردٌ أشهى من العسل  
بدر البها أفق تبدو كواكبه شمس الدثنا صبح ليل الحادث الجلل

وهكذا زواج في ترتيب القوافي كما ترى ، وليس يخفى أن هذا التفكيك في أجزاء القصيدة هو علة تركيب القصائد الكثيرة من القصيدة الواحدة ، حتى إن بعضهم عمل قصيدة واشتغل بإحصاء الوجوه التي تنظر بها فبلغت في عينه مليون وجه ، وذلك عالم من الأرقام في قفر من الكلام .

وهذا التجزيء في الشعر ليس حديثاً ، بل يرجع عهده الى عصر سلم الحامس ، فإنه أول من ابتدعه ، وذلك أنه رأى أن أقصر ما خصه القدماء من الرجز ما كان على جزءين ، كقول دريد بن الصمة :

يا ليتني فيها جَدَعٌ      أخبٌ فيها وأضعٌ

فعمل قصيدة على جزء واحد مدح بها موسى الهادي ، وسمى الجوهري هذا النوع من النظم بالقطع ( ص ١٢٣ ج ١ : العمدة ) ومن قصيدة سلم :

مرسى المطرُ	غيثٌ بكرُ
ثم انهمرُ	ألوى المرزُ
كم اعترسُ	ثم ايتسرُ
وكم قدرُ	ثم غفرُ

ومن ذوات القوافي في نوع من النظم سماه أهل البديع التخيير ، وقالوا هو أن يأتي الشاعر بيت يسوغ فيه أن يقفي بقوافٍ مختلفة فيتخير منها قافية يرجحها على سائرهما ويرسل بها البيت ، فيكون ذلك دليلاً على حسن

اختياره ، وهو تعليل لا معنى له ، لأن تمكن القافية شرط في الشعر ،  
وسواء بعد ذلك ساغ أن يقفى بقواف أخرى أو كان أمره مقصوراً على  
القافية الواحدة .

وإذا تفقدت الشعر في أي عصوره لم تعدم أن تجد البيت أو الأبيات بما  
يقلب على القوافي ، ولكن الحسن من ذلك قول ديك الجن ، وأكثر من يرويه  
يسنده الى أبي نواس ، وهو :

قولي لطيفك ينثني      عن مضجعي عند المنام  
فعمسى أنام فتنطفي      ناراً تأجج في العظام  
جسدٌ تقلبهُ الأكفّ      على فراشٍ من سقام  
أما أنا فكما علمت فهل لوصلك من دوام ؟

فالقوافي التي يمكن أن ينشد بها هذا الشعر هي :

عند المنام	الهجوع الهجود الوسن
في العظام	الضلوع الكبود البدن
من سقام	دموع وقود حزن
من دوام	رجوع وجود ثمن

ولست أشك في أن البيت الأخير مقحم وليس من نظم صاحب الأبيات ،  
وإنما ألحقوه بها توسعاً في الاحتمال ، وزيادة من البيان في المثال ؛ وقد وصلوا  
في هذا النوع الى جعل البيت على سبع قواف ، واطراد ذلك في قطعة  
واحدة ، وإنما يحسن هذا متى اتفق استخراجها في شعر لا ما قصد إليه ،  
فإن القصد هنا عمل التكلف ، وهو يخرج الشعر الى الصنعة فيسقط بها عن  
درجته قليلاً أو كثيراً كما مرّ بك في الصناعات .



## القوافي الحسيّة

هذا نوع عجيب ، تنوب فيه الحركة أو الإشارة عن اللفظ في موضع القافية موقعة على عروضها ، وهو نهاية في الظرف والملاحة ، لأن من المعاني ما قد تكون الحركة أو الإشارة فيه أبلغ من اللفظ دلالة وأبداع موقعا وأحسن إطراباً ، وإنما يكون لها ذلك اذا كان فيها معنى من معاني القلب ، فكأن القلب هو الذي ينطق ؛ ولذلك لا يعدو أن يصيب مواقع الهوى ويحرك في النفوس العجب والاستحسان ؛ وذلك كقول بعضهم :

ظفرتُ بمعشوق له الحسنُ حلّة      فقبّلتُه شفعاً وقلتُ له .. ..  
فقال أتَهواني ؟ فقلت له نعم      فقال ومن غيري ؟ فقلت له .. ..

البيتان من الطويل ، وقد جعل قافية البيت الأول صوت القبلة مكرراً مرتين كما يدل عليه قوله (شفعا) وقافية الثاني الصوت الدال على النفي مكرراً أيضاً ، وهو ينشأ عن القرع بطرف اللسان على أطراف الثنيتين المتقدمتين من أعلى الثغر ، وليس في البيتين من الحسن أكثر من هذه الحركة كما ترى ، ولما كانت مما لا سبيل الى تصوير حروفه بالخط كانت الى الطبيعة أقرب وكانت لذلك أملح .

وللعرب في بعض ذلك تعبير يؤدي معنى الإشارة اصطلاحاً ، كتعبيرهم عن صوت النفي في البيت الثاني بقولهم مَضّ ، قال في لسان العرب : هو أن يقول الإنسان بطرف لسانه شبه لا ، وأنشد :

سألته الوصل فقالت مَضّ      وحرّكتُ لي رأسها بالنغض

ومن هذه القوافي قول الآخر :

ولقد قلت للمليحة قولي      من بعيد لمن يحبك .. ..  
فأشارت بمعصم وبنات :      أيها العاشق المقيم .. ..

والبيتان من الخفيف ، وعَجَزُ كل منها ينقص سببين خفيفين ، فجعل تمام الأول حركة اليد التي يُشار بها بمعنى ( أقبل ) مكررة ، وهي توازن السببين في امتداد الزمن ، وجعل تمام الثاني الحركة التي يُشار بها بمعنى ( اذهب ) مكررة كذلك ، والقافيتان مما يُتناوَل بالبصر ومما لا سبيل الى تصويره بغير أداته الطبيعية ، وقد روى البيتين وزاد فيها ثالثاً الحسن ابن رشيق صاحب العمدة ، قال : وقد جاء أبو نواس بإشارات آخر لم تجر العادة بمثلها ، وذلك أن الأمين ابن زبيدة قال له مرة : هل تصنع شعراً لا قافية له ؟ قال : نعم ، وصنع من فوره ارتجالاً :

ولقد قلت للمليحة قولي      من بعيد لمن يحبك ... (إشارة قُبلة)  
فأشارت بمعصم ثم قالت      من بعيد خلاف قولي... (إشارة لا لا)  
فتنفست ساعة ثم إني      قلت للبغل عند ذلك... (إشارة امش)

والإشارات في هذه الأبيات إما أن تكون باليد أو بحركات الشفة على نحو ما سبق ، وعلى ذلك تكون الإشارة للبغل كما يفعل [المُكارُون] عندنا حين يستحثون الدابة فيطبِقون الفكين ويقرعون بطرف اللسان على الثنايا السفلى .

ولا بد لتمام الحسن في هذا النوع أن يكون البيت موقوفاً بمعناه على الحركة أو الإشارة في القافية ، وإلا انصرف عنه الذهن وجاءت الطبيعة فيه تابعة فكان ذلك مما يكسبه معنى سخيلاً ويحيله عن وجه الإبداع فيه ، إذ تكون الإشارة في مثل ذلك عيباً لا بياناً .

ولا تبلغ مثل هذه القوافي أن تكون اختراعاً في الصناعة ، لأنها لا تحسُن في كل حال ، وإنما يقضي بها سبب من الأسباب أيها كان ، وما لا يحسن أن

يجيء إلا بسبب يقبح اذا جاء من غير سبب ، على أنه شيء طبيعي مبذول  
يتناوله كل من بُعث عليه فلا معنى فيه لحقيقة الاختراع ، ولعلك اذا تتبعت  
مواقع ذلك في الشعر رأيت كثيراً منه يصلح أن تكون قوافيه حسية ،  
ولكن الصعوبة في أن تكون هذه القوافي الحسية موزونة حركاتها على  
الأوزان التي تقابلها من العروض ، وهذا هو وجه الصنعة الغريبة فيما تقدم .

وها هنا بديعة أخرى ، وهي ما يُروى من أن الملك الصالح نجم الدين  
أيوب ابن الملك الكامل كان إذا مُدِح لا ينظر الى وجه مادحه ، فتلطف  
ابن مطروح صاحب جمال الدين الشاعر المتوفى سنة ٦٤٩ وعمل قصيدة بنى  
قافيتها على الإشارة فكان كلما انتهى الى قافيته أشار بما يدل عليها فنظر إليه  
الملك ، ومن هذه القصيدة قوله :

تَعَسَّقْتُ ظلياً وجهه مُشرقٌ كذا إذا ما سَخِلْتَ الفصن من قدّه كذا  
له مقلة كحلاءُ نجلاءُ إن رنّت رمت اسمها في قلب عاشقهِ كذا  
ومنها :

أيا نسّات الروض بالله بلّغي سلامي الى من صرت من أجله كذا  
وقولي له ذاك الغريبُ أملني إليك سلاماً من تحيته كذا  
عساه إذا وافت تحية عبده يسائل عن حالي بأتمله كذا

وهذا النوع من الإشارة وارد بعضه في الحديث الشريف كقوله صلى الله  
عليه وسلم : « بُعِثْتُ والساعةُ كهذّين » وهو كذلك شائع في كثير من  
الكلام ؛ ومن أعجبه أنه لما اجتمع الناس عند معاوية بن أبي سفيان وقامت  
الخطباء لبيعة يزيد وأظهر قوم الكراهة ، قام رجل يقال له يزيد بن المقنع ،  
فاخترط من سيفه شبراً ثم قال : هذا أمير المؤمنين (وأشار بيده الى معاوية)  
فإن مات فهذا (وأشار بيده الى يزيد) فمن أبى فهذا (وأشار بيده الى سيفه)  
فقال معاوية : أنت سيد الخطباء !





## التاريخ الشعري

ويسمونه التاريخ الحرفي أيضاً ، لأن المرجع فيه الى حساب الأحرف الأيجدية ، ولا يعرف بالتميين أول من استعمله في الشعر ، وقد ذكر بعضهم أنه كان مستعملاً في الجاهلية الأولى عند شعرائها ، وهو وهم ، ولكن أقدم ما وقفت عليه من ذلك قول بعضهم في تأريخه لسنة ٨٢٢ :

تاريخه : خير بدا مع كمال العفة

ويريد بقوله ( مع كمال العفة ) حرف التاء الذي هو تمام لفظ العفة ، وحسابه في الجمل هاء ، وهذا النوع يسمونه المذيل ، وهو أن يكون جملة ناقصة فيكمل بحرف أو أكثر مع التنبيه على ذلك ، وهذا شبيه ببعض أنواع المعنى .

وأقدم من ذلك - ولكنه ليس على طريقة التأريخ ، بل على طريقة الإشارة والرمز - قول ابن الشيب من أهل القرن السادس في الإمام المستنجد بالله وهو الخليفة الثاني والثلاثون من خلفاء العباسيين :

أنت الإمام الذي يحكى سيرته من ناب بعد رسول الله أو خَلَفَا

أصبحت « لب » بني العباس كلهم إن عُدَّتْ بحروف الجُمْل الخَلَفَا

وجمل حروف ( لب ) ٣٢ ؛ ولصلاح الدين الصفدي من أدباء القرن الثامن في قلم ممدوحه بدر الدين :

لصفات بدر الدين فضل شائع تصبو له الأفكار والأسماع

انظر الى « القلم » الذي يحوي فقد صح الحساب بأنه « نَفَاع »

وذلك أن مُجَمَّل (القلم) ٢٠١ و (نفاع) كذلك ، ومنتهى التنطع قول بعضهم وهو من هذا القبيل :

من كان «آدم» مُجَمَّلًا في سِنِّه هجرته «حواء» السنين من الدمى

وهو يعني أن من كان عمره كجَمَل (آدم) أي ٤٥ سنة ، هجرته من كان عمرها كجَمَل (حواء) وهو ١٥ .

وقد ذكر القرماني في تاريخه عند الكلام على فتح القسطنطينية سنة ٨٥٧ وأن السلطان محمداً فاتحها حباه الله هذا الفتح لكونه أعلم الملوك وأعدلهم وأحسنهم سيرة وأخلصهم نية وطوية - قال : وضمن بعضهم هذا المعنى في تأريخ الفتح فقال :

رام أمر الفتح قوم أولون حازه بالنصر قوم آخرون

[وقعت] لفظة ( آخرون ) تاريخ فتح المدينة ، وقيل في تاريخها أيضاً (بلدة طيبة) اه .

وعندي أن هذا كان منشأ التاريخ في الشعر ، وأن البيت الذي سبق ذكر تاريخه لسنة ٨٢٢ مصنوع للمثال لا غير . ويرجح ذلك أننا لم نجد كتاباً ذكرت فيه التواريخ الشعرية القديمة في الوفيات وأمثالها إلا كتاب الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية ، وأقدم تاريخ ذكر في هذا الكتاب هو ما أرّخوا به وفاة الشيخ تاج الدين بن ابراهيم المتوفى سنة ٧٨٢ وقد ذكر صاحب الشقائق هذه العبارة : « وقال المؤرخ في تأريخ وفاته :

انتقل الشيخ وتاريخه « قدسك الله بسر رفيع »

وهو يذكر تراجم العلماء من سنة ٦٩٩ ؛ فلو كان التاريخ شائعاً قبل ذلك لكان فيهم من لا تسقط به قيمته عن أن يستحق تأريخاً شعرياً وقد مرت عليهم ٧٣ سنة وهي الفرق ما بين العهدين .

وقد أخذ العرب اصطلاح الدلالة بالأحرف على الأعداد قديماً عن السريان ،

فإنهم كانوا يعبرون عن الأعداد بالحروف ، كالعبرانيين واليونانيين ؛ والحروف عند السريانيين مرتبة ترتيب حروف ( أيجد ... ) غير أن العرب زادوا عليها كلمتي ( تخذ وضظغ ) وهي التي سموها الروادف ، وأعدادها من ٥٠٠ الى ١٠٠٠ ؛ لأن هذه الأحرف الستة لا توجد في لغة السريان ولا في لغة العبرانيين ؛ ولكن يوجد فيها ما يقابلها ، وهي ستة أحرف فرعية نوعوا بها الأحرف الأصلية التي هي : الباء والجيم والدادل والكاف والفاء والثاء ، فهذه الأحرف عندهم إما جاسية جافية وإما مخففة لينة ، وتعرف باصطلاح السريانيين بالمقساة والمركحة ، فإذا كانت جاسية تلفظ كما تلفظ في العربية وتعلم بنقطة فوقها عند السريانيين وفي وسطها عند العبرانيين ، وإذا كانت مخففة فإن الباء تلفظ كالفاء الفارسية والجيم كالغين العربية ، وتلفظ الدال ذالاً ، والكاف خاء ، والفاء باءً فارسية ، والثاء تاءً .

وزعموا أن أيجد هوز الخ أسماء لبعض ملوك مدين ، وقيل غير ذلك ، وهو خلاف لا فائدة في إبراده ، لأنه بما لا ثبت له من التاريخ ولا من أقوال المحققين ، غير أن بعض المتأخرين يرجح أن هذه الأحرف جمعت كذلك بقصد حصرها في ألفاظ يسهل استظهارها ولو لم تكن ذات معان ، كما حصرها بعض أنواع الحروف مثل أحرف القلقلة في قولهم ( قطبُ جدٍ ) ونحوها .

وهو اصطلاح فاش في أكثر الفنون ، كالنحو والفقهاء والعروض وغيرها .

والأنواع التي اصطُح عليها في هذا التاريخ هي :

المستوفى وهو ما لا تحتاج كلماته ضمنية غيرها ، كأكثر التواريخ المتداولة .

والمذيل ، وقد مرّ مثاله ؛ وعكسه أن يكون التاريخ زائداً فيئنه فيه على حرف إذا أسقط جملته من المجموع كان الباقي هو التاريخ ، كقول جمال الدين العصامي في تاريخ وصول قاضي مكة وكان اسمه حسناً ، وذلك سنة ١٠٧٤ وهو : « حسن قاضينا حسن بلا كلام ، فإذا أسقطت جمل « بلا كلام » من جمل « حسن قاضينا حسن » كان التاريخ ما بقي .

والتوّج وهو ما تحسب أوائل كلماته دون باقيها ، كقول بعضهم  
لسنة ١١٠٢ :

قد جاء عام جديد لكل خير يجوز  
أرّخ أوائل « قولي بكل خير تفوز »

والمثل وهو ما كان بالتمثيل ، كقولهم لتاريخ ٩٨٩ «إنه محمل بين علمين»  
لأن صورة هذه الأرقام تماثل صورة المحمل بين العلمين ؛ ومثله « علم بين  
معلمين » لسنة ٨٩٨ .

ومن عجيب هذا النوع قول بعضهم يؤرخ وفاة بعض العلماء سنة ٨٨٨  
وهو « انقلب محراب الديانة والدين والزهد » والمراد حروف الدال في  
هذه الكلمات ، والدال كما لا يخفى ترسم هكذا (د) فإذا انقلبت الدالات  
الثلاث ، صارت هكذا (٨٨٨) وهو عدد السنة المؤرخ بها ، وهذا النوع قلّ  
أن يتفق في المنظوم إلا بتكلف سمج .

ومن أنواع التاريخ المقابلة ، وهو أن يقابل حساب جمل الشيء المؤرخ  
اسماً أو نعتاً أو نحوهما بحملة مناسبة للحال مع التصريح بالمقابلة ،  
كما يقال في تاريخ مولود اسمه ضياء ( تاريخه مقابل لاسمه ) أي  
سنة ٨١٢ .

وبقيت أنواع أخرى قليلة لا طائل تحتها بل هي من التفنن المزدول ،  
وقد استعمل التاريخ في بديعية الشيخ عبد الغني النابلسي ؛ ثم جاء تلميذه  
الشيخ شاكر النحلوي ويقولون إنه ابتكر في التاريخ طريقة جديدة ، وهي  
جعل كل شطرة من القصيدة تاريخياً ، وأنه نظم في ذلك قصيدة في مدح  
أستاذه تواريخها لسنة ١١٣٦ هـ .

ولكن صاحب الشقائق النعمانية ذكر في ترجمة المولى الشهير بابن الشيخ  
الشبستري ( ص ٦٠ ج ٢ ) وقد اشتهر بهذه الكنية ولم يعرف اسمه ، انه  
نظم قصيدة فارسية في ستين بيتاً مصراع كل بيت تاريخ لسنة ٩٢٦ ، والقصيدة

تهنئة بجيوس السلطان سليمان بن السلطان سليم ، وكان المصراع الأخير تاريخياً  
لفتح قلعة رودس؛ وهذا الأديب نفسه صنّف أيضاً بالفارسية رسالة في المعنى  
وجعل أمثلة قواعده كلها على اسم السلطان سليم خان اه .

... فيكون النحلوي ناقلاً لا مخترعاً وإن كان أول من أدخل ذلك في  
النظم العربي .

ثم اخترع بعده الشيخ أحمد البدير الشاعر طريقة المعجم والمهمل ، فأرّخ  
وفاة الأمير منصور الشهابي سنة ١١٨٨ في بيت حروفه المهمة تاريخ وحروفه  
المعجمة كذلك .

وتفنن المتأخرون بعد ذلك فجمعوا في البيت الواحد تاريخين متفقين  
أو مختلفين من الهجري والميلادي ، وثلاثة وأربعة أيضاً ، ووضعوا طريقة  
يحتج بها في بيتين ثمانية وعشرون تاريخاً، وذلك أن تنصف السنة المؤرّخ بها،  
ولا بد أن تكون زوجاً ليكون لها نصف صحيح ، ويجعل كل شطر من  
الآبيات نصفين يكون مجموع جمل معجمه نصفاً ومجموع المهمل نصفاً آخر ،  
فيكون [ في ] كل شطر من البيتين تاريخ ، ويضم معجمه أو مهمله الى معجم  
أي شطر أو مهمله ، يخرج بقية العدد .

وقد زاد أذباء الترك في هذه الطريقة أن يكون كل شطر مهمله في  
الحساب على آحاد وعشرات ومئين ، وكذلك معجمه ، فيؤخذ أي عدد من  
هذه الأعداد ويضم له ما عدا مائته من أي شطر بعده ، فيكون المجموع  
تاريخياً ، وبهذه الطريقة تضمن الآبيات القليلة كثيراً من التواريخ ، وذلك  
لعمرى هو العناية الناصب والعلم الكاذب ، وما لا ينبغي أن يكون له طائل  
ولا طالب .

وما هنا غريبة في التاريخ ، وهي القصيدة التي نظمها الشيخ محمد قيادو  
التونسي ، وهي مؤرخة لسنة ١٢٧٦ هـ ، ويستخرج منها تواريخ كثيرة جداً  
لتلك السنة ، ويتولد منها قصيدة ثانية يستخرج منها نفس التاريخ، في عدد

كثير ، وعدة أبيات القصيدة ( الأم ) ستة وثلاثون بيتاً ، والمولدة منها ثمانية عشر ، فيخرج من كل بيتين من الأولى بيت من الثانية ، ومطلع الأولى :

خير حام مجدٍ مجير العبيد      حاط خير الجرى لعبد المجيد  
حاطه عن عثار جعد برجف      منتج جحد عرف ربوق العهود

ومن هذين يستخرج مطلع المولدة وهو :

خير حام مجير عبد المجيد      عن عثار برجف جحد عهود

فكل شطر برمته تاريخ ، ومهمل كل شطر مع مهمل غيره أو معجمه تاريخ ، وكذا معجم كل شطر مع معجم غيره أو مهمله تاريخ ، وقس على ذلك اعتبار القصيدة بعضها ببعض مما يكون خيراً منه للشاعر أن يشتغل في ( مصلحة الإحصاء ) ...

فإن هذا كما يقول الصاحب في قول المتنبي :

أحاد أم سداس في أحاد      لييلتنا المنوطة بالتنادي

إنه من عنوان قصائده التي تحير الأفهام وتفتوت الأوهام وتجمع من الحساب ما لا يدرك بالأرتباطيقي ...

وقد يظن أن المتأخرين هم الذين انفردوا بالتفنن في التاريخ الشعري على النحو الذي سلف ، وهم أهل لذلك في كثير ، ولكن هناك عجيبة أخرى ، وهي قصيدة لعبد القادر بن محمد الحسيني الطبري من أدباء الجيلين العاشر والحادي عشر ، وهي تسعة عشر بيتاً يستخرج منها سبعة أبيات تكون تواريخ لسنة ٩٩٨ بطريقة لم أر مثلها للمتأخرين على كثرة ما تكلفوا من ذلك ؛ أما القصيدة فهي مدح الحسن بن أبي نمي بن بركات. قال ناظمها - بعد أن أوردها في كتابه المسمى عيون المسائل من أعيان الرسائل ( ص ٣٨ )

المطبوع بمصر - : وطريقة استخراج تلك التواريخ بضم الأحرف التي هي أوائل الأبيات مرّة ، وبضم الأحرف التي هي أوائل بعض الأجزاء ( أي التفاعيل ) مرّة أخرى ، وقد شرحها صاحبها في كتابه فتلتمس هناك .

ثم نظم على هذه الطريقة شهاب الدين أحمد بن الفضل بن محمد المكي من أدباء القرن الحادي عشر ، ولكن قصيدته تستخرج منها تسعة تواريخ ، وقد ذكرها ابن معصوم في السلافة ( ص ٢٠٤ ) وذكر أبيات التواريخ التي تستخرج منها ، وقال هناك : إنه مني بعد نظمها لشدة الفكر بعملها وبقي مرتين بها أربعة أهلة ، وأن علماء عصره قد قرظوا عليها ؛ ثم ذكر منهم عبد القادر الطبري صاحب القصيدة الأولى ( وانظر السلافة أيضاً ص ١٨٧ ) .



## التخميس والتشطير وما إليهما

سلف لنا كلام في باب الأوزان العربية ومقدار وفائها بالحاجة الشعرية ومبلغ معوتها في ذلك ، وأن القوافي نقرات ونغمات ليس الغرض منها إلا استقامة اللحن واتفاقه مع اهتزازات الطرب ، وأن الشأن في ذلك أن لا يشذ بها اللحن عن قاعدة الذوق التي لا قيد لها إلا ما يشعر به الإنسان في خاصة نفسه ، فهي لذلك تابعة لا متبوعة ، ثم هي على ما يشاء الشاعر في تقلبها ، والشاعر قيم الصناعة ، فحظ القافية منه على مقدار حظ الغرض الشعري منها ، وقد بسطنا ذلك هناك وأمسكنا لهذا الموضع كلاماً نجريه الآن ، وذلك في أصل التخميس والتشطير وما إليهما مما صرفه المتأخرون عن وجهه في الإمتاع ، وأحالوه عن حظه من الفائدة ، فجاءوا بالمشطّر والمربّع والخمّس والمسدّس والمسبّع والمثمن ، ولم ينل حقيقة الشعر من كل ذلك إلا هذا المسخ من صورة الى صورة ، وهي جناية الصناعة وكم لها من جنائيات .

أصل ذلك في الشعر العربي النوع الذي سموه قديماً بالمسمط وقالوا فيه هو أن يبتدئ الشاعر بيت مصرّع - ذي قافيتين - ثم يأتي بأربعة أقسام على غير قافيته ، ثم يعيد قسيماً واحداً من جنس ما ابتدأ به ، وهكذا الى آخر القصيدة ، والقافية اللازمة في القصيدة التي تكرر في التسميط تسمى عمود القصيدة ، ويقال للقصيدة من ذلك النوع مسمطة وسمطية ، وهو نوع محدث لم يصح وروده عن أحد من العرب ، ولذلك يورد الرواة ما يسوقونه



منه غير معزوة، إلا ما نحلوا امرأ القيس من ذلك، ولعلمهم أرادوا به التمهيد والتوطئة للثقة - وذلك سبب من أسباب الوضع كما بسطنا في بحث الرواية والرواة - .

قال الجوهري : لامرئ القيس بن حجر قصيدتان سمطيتان ، وقد ذكر إحداها - وهي التي سنأتي ببعضها - ولم يذكر الأخرى ؛ وقال الصاغاني ليس هذا المسمط في شعر امرئ القيس بن حجر ، ولا في شعر من يقال له امرئ القيس سواء ، وأول هذا المسمط ( ١١٨ ج ١ : العمدة ) :

توهمت من هندي معالم أطلال      عفاهن طول الدهر في الزمن الخالي  
مربع من هندي خلت ومصائف      يصيح بمنفاها صدّي وعوازف  
وغيرها هوج الرياح العواصف      وكل مسيف ثم آخر رادف  
بأسحم من نوء الساكن هطال

وهكذا يأتي بأربعة أقسمة على أي قافية شاء ، ثم يكرر قسيماً على قافية اللام ؛ وكان التزام اللام في هذا المسمط استدراج للتصديق بأنه لامرئ القيس حقيقة ؛ إذ يذكر بقصيدته الشهيرة التي أولها :

\* ألا عم صباحاً أيها الطلل البالي \*

وبين النقس في الشعرين ما بين ستين سنة قبل الهجرة ومائة وتسعين بعدها ...

ولا يلتزم في التسميط هذا النوع الخمس ، بل قد يجاء به على ثلاثة أقسمة ، كهذا الذي يروونه لغير مسمى :

خيال هاج لي شجنا      فبت مكابداً حزناً  
عميد القلب مرتها      بذكر اللهو والطرب  
سبتني ظبية عطل      كأن رضاها عسل  
ينوء بخصرها كفل      ثقل روادف الحقب

وهي أربعة قطع أوردها في تاج العروس . وربما جاءوا في مطلع القصيدة بخمسة أبيات أو أربعة على قافية واحدة ، ثم يأتون بالأقسمة الأربعة بعد ذلك ويتبعونها بالقسم الذي فيه عمود القصيدة ، كبحو الذي ينسب لامرئ القيس ، ولا فائدة من التمثيل لذلك ؛ إذ هي قطع معدودة تتنفس قوافيها بشيء من الضعف ومرض الذوق ، ولم ينسحب على أذيالها إلا المتأخرون ؛ ولكنهم خصوا التخمين بما كان على خمسة أجزاء ، وسموا ما كان على أربعة مربعاً ، وما كان على ستة مسدساً ، وهكذا إلى الثمانية .

وقد نقل الزبيدي في تاجه عن أبي إسحاق أن كل ما اختلطت قوافيه فهو الخمس ، فالتأخرون إنما رتبوا الأسماء ، وكان ذلك لإكثارهم من هذه الأنواع ، حتى يكون كل نوع مميزاً باسمه ؛ ولكنهم هجموا من ذلك على شعبة مردولة ، وهي تناولهم أشعار الناس وتخصيصها بالتشطير والتخمين ؛ وما لذلك قصد الذين وضعوا هذه الأنواع ، ولا هو شيء في أصل الفطرة الشعرية ، ولكنها المنافسة في الصناعة جعلت النابغين منهم ينهجون هذا المنهج ، ليظهروا أن فيهم فضلاً وبقية من المتقدمين ، بما يزيدون في معانيهم التي ربما يكون صاحبها قد أماتها ولم يترك فيها مطعماً ، ويلثون ويشدون في ألفاظهم وتراكيبهم ، من أجل ذلك كانوا لا يقصدون إلا القصائد الشهيرة المجمع على بلاغتها ، والأبيات النادرة ، كما فعل الصفي الحلي وغيره .

ولكن الزمن طمس على هذا الأصل ، وصارت تلك الأنواع في الشعر الجيد أشبه بالزيادة في تراب الميت : لا يجدد موته ولكنه وسواس وعيث .

أما أصل التشطير فلم نقف على كلام فيه للمتقدمين ، ولا نظنهم تكلموا في ذلك ، إذ هو مقصور على تعلق الشاعر بكلام غيره ، وذلك من صنع المتأخرين ، أما المتقدمون فكانت لهم المعارضة ونحوها مما لا يضطلع به إلا قوي جريء ، وهو أدلّ على حقيقة المقارنة والتنظير بين الكلامين - ولكننا نظن أن أصله ما يسميه العرب بالتمليط والمالطة ، وذلك كالذي رواه أبو عمرو بن العلاء من أمر امرئ القيس ، وكان يُدِلُّ شعره ويتعنت به

على الشعراء ، فلا يزال ينازع من قيل له إنه يقول الشعر ، حتى نازع التوهم  
جد قتادة بن الحارث بن التوهم<sup>(١)</sup> . فقال له : إن كنت شاعراً فملط لي  
أنصافاً ما أقول فأجزها . فقال : نعم .

فقال امرؤ القيس : أَحَارِ تَرَى بَرِيقاً هَبَّ وَهَنًا

فقال التوهم : كَارِ مَجُوسَ تَسْتَعْرِ اسْتَعَارَا

ولم يرد التشطير في شيء من المأثور عن الأدباء الذين نبغوا في الصناعات ،  
كالصفي ومن في وزنه الى أواخر القرن [الثاني عشر] .

والمعجب أن أصحاب البديع يعرفون التشطير البديعي ، وهو أن يقسم  
الشاعر بيته شطرين ثم يصدع كل شطر منها ، كقول أبي تمام :

تدبير معتم ، بالله منتقم      لله مرتقب ، في الله مرتغب

ثم لا نجد أحداً من أصحاب الشروح والحواشي الى الغباني الذي فرغ من  
حاشيته سنة ١٢١١ يشير الى هذا النوع ، مع أنهم ابتدءوا يبسطون التأليف  
في أنواع البديع من القرن الثامن ، ومع رغبة المتأخرين في الخلوص الى  
المناسبات والإفاضة فيما يكتبون ، وهذا قطع في أن تسمية الطريقة المعروفة  
في النظم بالتشطير لم تعرف إلا في القرن الثالث عشر ، أما الطريقة نفسها  
فكانت معروفة في أواخر القرن العاشر وما بعده ، ولكنهم كانوا يسمونها  
« التصدير والتعجيز » وأورد ابن معصوم في السلافة أشياء من ذلك ، وذكر  
في ترجمة القاضي تاج الدين بن إبراهيم المالكي ( ص ١٣٣ ج ٢ ) أنه كتب  
تقريباً على تصدير وتعجيز الشيخ تقي الدين السنجاري لقصيدة المتنبي التي  
مطلعها :

\* أجا ب دمعي وما الداعي سوى ظلل \*

---

(١) في رواية العمدة لابن الرشيقي (ص ١٣٥ ج ١) أنه التوهم البشكري ، واسمه  
الحارث بن قتادة ، والرواية التي أوردناها لصاحب تاج العروس ، نقلها عن أبي عمرو ،  
ونقل صاحب العمدة عن أبي عبيدة عن أبي عمرو . والاختلاف بينها عجيب كما ترى !

ومن هذا التقريظ قوله: لعمرى لقد نسق ذلك التصدير، نسق التشطير،  
وسبك ذلك التعجيز، سبك الإبريز؛ فتراه إذا أخرج بيتاً عن معناه،  
تلاعب به فيما اخترعه من مبناه، وإذا طبق المعنى بالمعنى وأبقاه على أصله،  
أوصله إلى غاية الإعجاب بفصله اهـ .

فإما أن يكون المتأخرون أخذوا لفظة التشطير من النوع البديعي، أو  
يحتمل أن يكون بعضهم وقف على هذا التقريظ وتحرفت عليه كلمة التشطير  
بالتشطير، أو نهته الأولى إلى الثانية . والله أعلم .



## مَا يَقْرَأُ نَظْمًا وَنَثْرًا

ليس يخلو طبع أحد من أوزان القريض ، ولا ينفك متكلم من أن يعرض له ما قد يتزن بها في الكلمة الطويلة أو الفقرة القصيرة على غير اجتلاب ولا استكراه ؛ قال الجاحظ في نحو هذا ردًا على من زعم أن قوله تعالى : « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ » شعر لأنه في تقدير 'مُسْتَفْعِلُنْ مَفَاعِلُنْ- : إنك لو اعترضت أحاديث الناس وخطبهم ورسائلهم لوجدت فيها مثل مستفعلن مفاعِلن كثيرًا ، وليس أحد في الأرض يجعل ذلك المقدار شعراً ، ولو أن رجلاً من الباعة صاح : من يشتري باذنجان ! لقد كان تكلم بكلام في وزن مستفعلن مفعولان ، فكيف يكون هذا شعراً وصاحبه لم يقصد الى الشعر ؟ ومثل هذا المقدار من الوزن قد يتهاى في جميع الكلام ؛ وإذا جاء المقدار الذي يعلم أنه من نتاج الشعر والمعرفة بالأوزان والقصد إليها كان ذلك شعراً . وسمعت غلاماً لصديق لي وكان قد سقى بطنه يقول لغلمان مولاه :

« اذهبوا بي إلى الطبيب وقولوا قد اکتوى ! » .

وهذا الكلام يخرج وزنه فاعلاتن مفاعِلن مرتين ، وقد علمت أن هذا الكلام لم يخطر بباله قط أن يقول بيت شعر أبداً .

فإذا تممَّ الكاتب لمثل ذلك في بعض كلامه فأخرجه على الصناعتين ، كان قد حدا على ما تقدم وقصد غير مقصود ، وليس يعسر ذلك فيما يخرج منه البيت والبيتان ، أما ما يكتب على أن يكون قصيدة في رسالة ورسالة

في قصيدة ، فهو ما لم يتفق لأحد أن يجيده على حقيقته ولا يتفق ؛ لأن شرط هذا النوع أن لا يُحذف من الرسالة حرف واحد ، بل تُقرأ كما هي على الإرسال والتقييد .

وشرط آخر : أن لا تتبين فيها ما يظهر على القصيد من إيقاع الوزن ونغم القافية وما يكون من شأنه أن يخصصها بالشعر ، لأنه هنا مقصود من حيث تنويع الصناعة لا من حيث استقلالها فهو وجه آخر للكلام ، وأنت لو تناولت إحدى القصائد وجهت أن قلبها منشوراً على أن لا تحذف منها حرفاً ولا تقدّم ولا تؤخر ؛ وكانت هي في سردها ومعانيها موالية مطاوعة ؛ وهو مما يندر في الشعر ، لكنك مع ذلك مغلوباً لطبعك ، ولظهر في منطقتك الوزن والتقطيع ، فكيفما قلبت القصيدة جاءت شعراً خالصاً لا مظهر للنثر في جلته ، ولا موضع فيها لاحتمال أن تكون من الصناعتين ، ولهذا السبب كان ما ورد مما يقرأ منظوماً ومنشوراً على ما ستعرف الوجه فيه .

أقدم ما عُرف من هذا النوع ما أورده ابن خلكان في ترجمة الشاعر المصري مظفر - الملقب بموفق الدين المتوفى سنة ٥٤٤هـ - قال : أخبرني أحد أصحابه أن شخصاً قال له رأيت في بعض تأليف أبي العلاء المعري ما صورته « أصلحك الله وأبقاك ... »

وليس بعجيب أن تصح نسبة تلك الجملة الى المعري ، فإن له من هذه الغرائب أشياء ، ولم نعثر على غير جلته حتى تناول هذا النوع شيخ الإسلام إسماعيل المقرئ فكتب رسالة الى الملك الأفضل . قال عبد القادر بن محمد الحسيني الطبري من علماء القرن العاشر ومن استقبلوا القرن الحادي عشر أيضاً : اتفق لنا في بعض المجالس أن الوزير جمال الدين الحريري قرأها علينا ( أي رسالة المقرئ ) مستعظماً صنع الشيخ وصنيعه ، مادحاً معانيه وبديعه ، متحدياً الفقير وصاحبه الشيخ وجيه الدين عبد الرحمن بن عيسى بن مرشد بالإنشاء على منوالها والإتيان بمثالها ...

وقد عارض الشيخان رسالة المقرئ مترادفين في الإنشاء [ مترادفين ] في

العمل ، والتزما في معارضتها « السجع في النثر والكثرة في النظم ؛ ولندرة هذا النوع من الكلام رأينا إثبات الرسالتين على هيئتي النثر والنظم فيهما \* .

وقد ذكر الثعالبي في ترجمة بديع الزمان من اليتيمة أنه « يوشح القصيدة الفريدة من قوله بالرسالة الشريفة من إنشائه ؛ فيقرأ من النظم النثر ومن النثر النظم » وهو يذهب الى أن البديع كان شعره في سهولة نثره ، ونثره في جزالة شعره ومعانيه ؛ فلعل المقصري أو سواه ممن يكون اختراع هذا النوع قد تنبه له من هنا ؛ لأن ذلك ممكن التحقيق .

ولم نعثر على شيء من بعد [ هاتين الرسالتين ] إلى اليوم .



---

(\*) قلت : ليس نص هاتين الرسالتين فيما تحت يدي من ( الأصل ) . وكان التدبير أن أنقلها من حيث أشار المؤلف الى مصدرهما ( ص ٥٤ ، عيون المسائل من أعيان الرسائل ) كما فعلت في فصول سلفت ولكن لم يتنبأ لي الحصول على ذلك المصدر ، فرأيت الاكتفاء بهذه الإشارة هنا .

## نوع من حلّ المنظوم

حل المنظوم نوع من الإنشاء يلتزمون فيه المعنى الشعري لا يزيدون عليه شيئاً إلا ما هو من قبيله وفي سبيله ، وقد يحلون الشعر بألفاظه وبيعض ألفاظه ويغير ألفاظه ؛ ولكن الصفي ذكر من ذلك نوعاً غريباً لسنا نستطيع أن نزيد في شرحه وتاريخه شيئاً على هذا الذي سننقله عنه ، فهو بيان له ؛ وأما بعد الصفي فلم نجد الأدباء يذكرّون هذا النوع ولا يستعملونه .

قال : \* بما اقترحه عليّ الشيخ الإمام العالم القدوة المحقق الفاضل الحامل زين الدين فتيّ شيخ العينية الموصلي حين وقف على بعض مقامات أنشأتها كالتوءمية ... فقال أيده الله : إن من أصنع ما أنشأه الشيخ شمس الدين معد ابن نصر الجذري في مقاماته الزينية حل المنظوم الذي في المقامة الثانية ، وهو أنه عمد الى ثمانية أبيات من الحماسة فجمع حروفها وبسطها رسالته ثم أعادها وجمعها أبياتاً على الوزن والروي من غير زيادة حرف ولا نقصان حرف . فاعتذرت له بأن الوقت يضيق عن المقام الى حين إنشائها ؛ فلما رحلت من فنائه وحضرت بعض أندية الأدب جرى ذكر الإنشاء فشرحت لهم الحكاية وما اقترحه الشيخ العلامة الفاضل زين الدين المذكور رحمه الله تعالى ، فقالوا جميعاً هذه صنعة كبيرة ، وهي غاية في الإنشاء تحتاج الى معرفة علم السياقة ، لضبط الحروف والتصرف في إبدالها ، ونحن جميعاً نقترح عليك ذلك ، فإنه

---

\* قلت : نقلنا العبارة من هنا الى آخر الفصل ؛ من ديوان صفي الدين الحلي (ص ٤٨٤) ، إذ لم تكن فيما تحت يدينا من الأصل .



الغاية التي إن بلغتها لا يمجزك شيء من إنشاء المقامات ، حيث قد سمعنا لك أشياء من ذلك ؛ ولم أجد بدءاً من إجابة دعوتهم لارتفاع موانع الاعتذار ؛ فقلت: قد ملكتم زمام التخيّر فاختراروا من الشمر ما تأمرون نثره ؛ فقالوا : إن حد القصيدة سبعة أبيات ؛ ولذلك سومح بعدها في الإيطاء وعد ما دونها من الأخطاء ، ونحن مقتصرون على السبعة الأول من فاتحة السبع الطوّل ، فقلت اسطروها ليسهل اعتبارها إذ تسبرونها ، فسطروا هكذا :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل	بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها	لما نسجتها من جنوب وشمال
ترى بعمر الآرام في عرصاتها	وقيعانها كأنها حب فلفل
كأني غداة البين لما تحملوا	لدى سمرة الحي ناقف حنظل
وقوفاً بها صحي عليّ مطيهم	يقولون لا تهلك أسي وتحمل
وإن شفائي عبرة مهراقة	فهل عند رسم دارس من معول
كدأبك من أم الحويرث قبلها	وجارتها أم الرباب بمأسل

قال الشيخ : فقلت لهم : هذه الأبيات قد تبين تخييرها ولا يمكن تغييرها ، فاختراروا الرسالة في أي معنى وعلى أي المقاصد تبني ، فقال أحدهم : تكون في مخدوم له ، أثر بُعدي ومطل وعدي . والمعنى تعتب وأذكرني سالف ذنب ، وأوثر أن تخطب وده وتستنجز وعده ، فكتبت :

« الكرم مرتجى ؛ وإن كان بابه مرتجاً ؛ والندب يلتقى وإن كان بأسه يتقى ؛ والسحب تؤمل بوارقها وإن رهبت صواعقها . وللم سيدنا أعظم من العتب بسالف ذنب ، فمأحي شرف الله بلثم كقوفها أفواه العباد ، يغفر الحصية ، ويوفر العطية . والمملوك مقر عرف أنه رب حق ، بل مالك رق ؛ ومقتض من جوده العميم ، نجاز وعده الكرم ، بسالف كرمه المقيم ؛ لا يرح إحسانه شاملاً مدى السنين . إن الله يحب المحسنين . »

فما سطروها ونظروها ، وعدوا حروفها واعتبروها ، فرأوها وما

قبلها كفتي ميزان ، عرية من الزيادة والنقصان ، سألوا أن أجعل ربهما  
مأهولا ، وأعيدها سيرتها الأولى ، فأجبت الى ما طلبوا ، وأملت وكتبوا :

دوارسها عن ركبها المتحمل	قفا نبك من أطلال ليلي فنسأل
محاه هبوب الراسيات ومجهل	وننشد من أدراسها كل معلم
صحيح مقال كالجمان المفصل	ونأخذ عن أتراها من تراها
كدأبي من تبريح قلب مقلقل	معاني هوى أقوى بها دأب بينهم
تحف بشفع من رواكض جفل	عفت غير سبع من رواكد جثم
لملي سقاه حوّل نؤدى معطل	ورسم أوارى بجبل مديدها
بلفظ ولا تأوي لسائل منزل	فرفقا بها رفقا وإن هي لم تبج



## ما لا يستحيل بالانفكاس

هذه تسمية الحريري لهذا النوع ، ويسميه غيره المقلوب ، والمستوي ؛ وهو ما يُقرأ طرداً وعكساً على وجه واحد ، وقد ورد منه في القرآن الكريم « كلُّ في فللك » و « رَبِّكَ فَكَبَّر » ولكن الحريري تصنع له في المقامة السادسة عشرة حتى أوصله الى السمط السباعي ، فجاء به معقداً وأخرجه عن شرط الأدب الى شرط الصنعة ، وذلك قوله : « لذ بكل مؤمل إذا لم وملك بذل » .

قال ابن حجة المحوي - وقد أورد هذه الكلمات ونفت في عقدها - : « وذكروا أن العلامة القاضي فتح الدين بن الشهيد صاحب ديوان الإنشاء الشريف بالشام المحروس وصل في تركيب هذا النوع الى أكثر من هذه العدة ، وأن المولى محمد بن البارزي الجهني صاحب دواوين الإنشاء الشريف بالممالك المحروسة الإسلامية وقف على ما نثره القاضي فتح الدين المشار إليه في هذا النوع قبل تيمورلنك وذكر أنه في غاية العقادة ، وأبلغ ما جاء من هذا النوع في الشعر قول القاضي الأرجاني :

مودته تدوم لكل هول وهل كل مودته تدوم ؟

ومن المستملح قول العماد الكاتب وقد مر على القاضي الفاضل راكباً :  
« سرّ فلا كَبَا بكّ الفرس » فأجابه الفاضل على الفور وقد فطن لقصده :  
« دام علا العماد » وهي بديهة عجيبة إذا لم يكونا قد فكرا فيها قبل ذلك .  
وقد نظم الحريري في مقامته تلك أبياتاً خمسة يقول في أولها :

أسمى أرملا إذا عَرَا وارزَع إذا المرءُ أَسَا  
فغاية أهل هذه الصناعة بأنه « هرب إلى أبو القصير من العروض »  
ولذلك نظم الصفي أبياته التي أولها :

أنتّ ثناءً ناضراً لك إنه هنا كلُّ أرضٍ أن أنتّ ثناءً

وكانّ الشعر كله خلا إلا من بيت الأرجاني ، فهو في هذه الصناعة  
الشعر كله .

وطبيعة اللغة قابلة لهذا النوع ولكن بمقدار ، فإنك تجد في مفرداتها منه  
أشياء ، كلفظ : باب وسلس وتحت ، وأمثالها ؛ ثم تراه يتألف غير مقصود  
إليه بمقدار أيضاً ، كقولك : أرض خضرا ، وهزم حمزه ، ويلعب علي ،  
وحمار رامح ؛ وأمثال ذلك مما لا يكبر على العامة أن يميثوا به ، ولكن  
الفرق بينهم وبين الخاصة أنه في كلامهم صواب موجود غير مقصود ، وفي  
أكثر ما يتكلف له الخاصة صواب مقصود غير موجود !



## الملاحن

هي من اللحن الذي هو التعريض والإيماء ، تقول : لحننا له لحننا إذا قلت له قولاً يفهمه ويخفى على غيره، لأنك تميله بالتورية أو التعمية عن الواضح المفهوم . وملاحنة الرجلين مفاطنة أحدهما للآخر باستخراج فحوى قوله وما في نيته وضميره، وهو يشبه في اللغات الأوربية ما يسمونه بالكتابة الخفية أو الكتابة السرية ، وهو فنّ عندم قديم ، غير أن العرب لم يعرفوه إلا في القول والإشارة ، فكانوا يتكلمون في ذلك بما يؤخذ على الرمز كما سيجيء ، فضلاً عن أن في لغتهم ألفاظاً تحمل هذا النوع لدلالة اللفظ على معنيين، كأن تقول ما رأيته، أي ما ضربت رثته، وما كلمته أي ما جرحته، وهكذا؛ وقد ورد بعضها في القرآن ، كالضحك بمعنى الحيض ؛ وألف ابن دريد في هذه الألفاظ كتاباً سماه الملاحن ، قال فيه : هذا كتاب ألفناه ليفزع إليه المُجَسِّرُ المضطهد على اليمين المكره عليها، فيعارض بما رسمناه ويضمر خلاف ما يظهر ليسلم من عادية الظالم ويتخلص من جَنَفِ الغاشم .

وللفقهاء كلف بهذه الألفاظ ، إذ تفتح لهم أبواباً كثيرة مما يعرفونه بالحيل الشرعية ، ولهم فيها أَلغاز ومطارحات لا محل لبسطها هنا ، وأهل اللغة يسمونها : 'فتياً فتية العرب' ، أو طيبب العرب ، أو مساجع العرب ، وعليها بنى الحريري المقامة الثانية والثلاثين .

ومما ورد عن العرب من لحن القول ما رواه القالي في أماليه عن ابن الأعرابي قال : أسرت طيباً رجلاً شاباً من العرب ، فقدم أبوه وعمه ليفدياه ، فاشتطوا عليها في الفداء ، فأعطيا به عطية لم يرضوها ، فقال أبوه :

لا والذي جعل الفرقدين يسيان ويصبحان على جبلي طيء لا أزيدكم على ما أعطيتكم ! ثم انصرف . فقال الأب للعم : لقد ألقيتُ الى ابني كلمة لئن كان فيه خير لينجون ؛ فما لبث أن نجا واضطرد قطعةً من إبلهم فكأن أباه قال له : الزم الفرقدين على جبلي طيء فإنها طالعان عليها ، وما - أي هو وعمه - لا يغيبان عنه .

ويروون من مثل هذا أخباراً معدودة لا تدل على شيوعه فيهم ولا تواطؤهم عليه مما يقرب أن يكون به شبه علمٍ عندهم كما فعل المتأخرون في اشتقاق المعنى منه - على ما ستعرفه - .

وأما مثل الإشارة من ذلك فما حكاها المدائني من أن رجلاً مرَّ بجي الأحوص ، فلما دنا من القوم حيث يروونه نزل عن راحلته فأتى شجرة فعلق عليها وطباً من لبن ، ووضع في بعض أغصانها حنظلة ، ووضع صرة من تراب وصرّة من شوك ، ثم أتى راحلته فاستوى عليها وذهب .

فنظر الأحوص والقوم في أمره فعَيَّ به ، فقال : أرسلوا في قيس بن زهير<sup>(١)</sup> ، فبجاء ، فقال له الأحوص : ألم تخبرني أنه لا يرد عليك أمر إلا عرفتَ مأثاه ما لم تر نواصي الخيل ؟ قال : فما الخبر ؟ فأعلموه ، فقال : وضع الصبح لذي عينين ، « فصار مثلاً يضرب في وضوح الشيء » ثم قال : هذا رجل أسره جيشٌ قاصد لكم ، ثم أطلق بعد أن أخذت عليه العهود والمواثيق أن لا يُنذركم فعرض لكم بما فعل : أما الصرة من التراب فإنه يزعم أنه قد أتاكم عدد كثير ، وأما الحنظلة فإنه يخبر أن بني حنظلة غزتكم ، وأما الشوك فإنه يخبر أن لهم شوكة ، وأما اللبن فهو دليل على قرب القوم أو بعدهم إن كان حلواً أو حامضاً ؛ فاستعد الأحوص . وورد الجيش كما ذكر قيس !

---

(١) هو قيس بن زهير بن جذيمة العبسي ، صاحب الحروب بين عبس وذبيان بسبب الفرسين داحس والغبراء . كان فارساً شاعراً داهياً ، يضرب به المثل فيقال : أدهى من قيس .

هذا عند العرب في جاهليتها ، وأما بعد الإسلام فكان مثل هذا قليلاً ، كالذي روي من أن معاوية بن أبي سفيان مازح الأحنف بن قيس ، فما روي مازحان أوفر منها ، فقال له : يا أحنف ، ما الشيء الملقف في الجهاد ؟ فقال : السخينة يا أمير المؤمنين . أراد معاوية قول الشاعر :<sup>(١)</sup>

إذا ما مات ميتٌ من تميم      فسركَ أن يعيش فجىء بزاد  
بخبز ، أو بتمر ، أو بسمنٍ      أو الشيء الملقف في الجهاد  
تراه يطوف الآفاق حرصاً      ليأكل رأس لقمان بن عاد

( انظر ص ١٠٠ ج ١ : الكامل للمبرد ؛ في حب بني تميم للطعام) والملقف في الجهاد وطب اللين؛ وأراد الأحنف أن قرشياً كانت تُعَيَّرُ بأكل السخينة، وهي حساء من دقيق يُتَّخَذ عند غلاء السمر وعجف المال وكلب الزمان . وكان معاوية قرشياً والأحنف تميمياً .

ومثل هذا ما أورده الجاحظ في كتاب البيان ( ص ٢١٤ ج ١ ) : دخل رجل من محارب قيس على عبد الله بن زيد الهلالي وهو عامل على أرمينية وقد بات في موضع غدير قريب منه ضفادع ، فقال عبد الله للمحاربي : ما تركتنا أشياخ محارب ننام في هذه الليلة لشدة أصواتها ! قال المحاربي : أصلح الله الأمير ، إنها أضلَّتْ برقعاً لها فني في ابتغائه ! أراد الهلالي قول الأخطل :

تَنقُّ بلا شيءٍ شيوخُ محاربٍ      وما خلتها كانت تریشُ ولا تبري  
ضفادع في ظلماء ليل تجاوبت      فدل عليها صوتها حية البحرِ

(١) تروى هذه الأبيات ليزيد بن عمرو بن الصعق، وذكر الجاحظ أنها لأبي المهوش الأسدي، وفي شرح الكامل : ذكر ابن حبيب أنها لأبي المهوش الفقمسي ، وذكر دعبل أنها لأبي الهوش الأسدي . ولتصير قریش بالسخينة وقيم بحب الطعام وشدة الشره - لكل ذلك أسباب ليس هذا موضع إيرادها ( ص ١٤١ ج ٢ : الخزانة الكبرى ) .

وأراد المحاربي قول الشاعر :

لكلّ هلائيّ من اللّوم برقع ولابن هلال برقع وقبص !

[ ثم ] فشت صنعة المعمى فتلاحنوا بالإشارة والتصحيف وغيرها

- كما ذكر - .

ودخل أبو القاسم القطان على الوزير الزينبي يهنيه بالوزارة ، فوقف بين يديه ودعا له وأظهر الفرح ورقص ؛ فلما خرج قال الوزير لبعض أهل سره : قبّح الله هذا الشيخ ، إنه يشير برقصه الى قولهم : ارقص للقرد في دولته .

ولما فشت صنعة المعمى تلاحنوا ببعض أنواعها ، ومن ذلك ما ذكره المقري صاحب نفع الطيب في الملاحنة بالتصحيف ، من أن المعتمد مرّ مع وزيره ابن عمار ببعض أرجاء أشبيلية ، فلقيتها امرأة ذات حسن مفرط ، فكشفت وجهها وتكلت بغير حياء ، وكان ذلك بموضع الجباسين الذين يصنعون الجبس ، والجيارين الذين يصنعون الجير بأشبيلية ، فالتفت المعتمد الى موضع الجيارين وقال : يا ابن عمار ، الجيارين ! ففطن الى مراده وقال في الحال : يا مولاي ، والجباسين ! فتحيّر الحاضرون في ذلك ، فسألوا ابن عمار ، فقال له المعتمد لا تبغها منهم إلا غالية ! وذلك أن المعتمد صحّف « الحيا : زين » بقوله الجيارين ، إشارة الى أن تلك المرأة لو كان عندها حياء لازدانت ؛ فقال له : والجباسين ، يريد به على التصحيف والحنا : شين « أي هي وإن كانت جميلة لكن الحنا شاتها .

والغاية التي لا يلحق شأوها ما حكاها بعض أهل البديع في مبحث التصحيف عن بعض ملوك المغرب أنه طلب بنت أحد وزرائه فأبى ذلك ، فأحضره الملك في ديوانه فقال له : أندلسي ، يعني « أبدل شيء » فقال الوزير : أندلسي ! يعني « أبدل بيتي » ، فقال الملك : أندلسي ، يعني « أبدل شيء » أي أن البيت أحقر شيء . فقال الوزير : أندلسي ، يعني « أبدل بنتي » فقال الملك : أندلسي ، يعني « أبدل نيتي » أي أرجع عن نيتي لعزلك وظلمك !



ويقال إنها حكاية مخترعة . ذكر ذلك الصفي في ديوانه . ولكن اللحن الكتابي قليل في المروي عنهم ، وهو على غير قاعدة ولا تواطؤ بين المتلاحنين ، ولذلك لم يَعدُ أن يكون كالمفوظ به ، [ ومنه ] ما روي عن صاحب أن أديباً رفع إليه كتاباً يطلب عملاً وفي آخره : إن رأى مولانا فعل إن شاء الله !

فرد إليه الكتاب ، وتواتر الخبر بحصول التوقيع فيه ، ولكن الرجل أقبل عليه يراجع فلم ير فيه توقيعاً حتى عرضه على أبي العباس الضبي فتفقد أحرفه حتى ظفر بألف وقع بها صاحب عند قوله ( فعل إن شاء الله ) فكانت بعد التوقيع ( أفعل ... ) ونحو ذلك : إن الملاء يأترون بك ... وقد بسطنا جانباً من الكلام في هذا توطئة للبحث في الألفاظ والمعنى ، لأنها بسبيله ، ولأن الملاحن في هذه اللغة قليلة حتى إن ما لم نذكره منها لا يزيد على ما ذكرنا فيما نعلم ، وبعضه يكاد يظهر أنه مصنوع ، كهذا الخبر الذي يقولون فيه إن بعض الملوك عزم على قصد عدو له ، فقدم ربيثة يتجسس أحواله ، فلما صار إلى أرض العدو ، شعروا به فقبضوا عليه وأمره أن يكتب لصاحبه كتاباً يذكر له أنه وجد القوم ضعفاء ويطمعه فيهم ويزين له غزوم ، فكتب :

« أما بعد فقد أحطت علماً بالقوم ، وأصبحت مستريحاً من السعي في تعرف أحوالهم وإني قد استضعفتهم بالنسبة إليكم ، وقد كنت أعهد من أخلاق الملك المهلة في الأمور والنظر في العاقبة ، ولكن ليس هذا وقت النظر في العاقبة ، فقد تحققت أنكم الفئة الغالبة بإذن الله ، وقد رأيت من أحوال القوم ما يطيب به قلب الملك : نصحت فدع ريبك ودع مهلك والسلام . »

فلما انتهى الكتاب إلى الملك قرأه على رجاله فقويت قلوبهم وصححت عزائمهم على الخروج ، ثم إن الملك خلا بخاصته من الكبراء وأهل الرأي وقال : أريد أن تتأملوا هذا الكتاب ، فإني شعرت منه بأمر ، وإني غير سائر حتى أنظر في أمري . فقال بعضهم : ما الذي لحظ الملك في الكتاب ؟

قال : إن فلاناً من الرجال ذوي الحصافة والرأي ، وقد أنكرت ظاهر لفظه فتأملت فحواه فوجدت في باطنه خلاف ما يُوم الظاهر ، وذلك في قوله : « أصبحت مستريحاً من السعي » فيريد أنه محبوس ، وقوله : « استضعفتهم بالنسبة إليكم » يريد أنهم ضعفنا لكثرتهم ، وقوله « إنكم الفئة الغالبة بإذن الله » يشير الى قوله تعالى : « كَمِ مِنْ فِتَّةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتَّةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ » وقوله « رأيت من أحوال القوم ما يطيب به ( قلب ) الملك » فأني تأملت ما بعده فوجدت أنه يريد بالقلب : العكس ، لأن الجملة الآتية بما يوم ذلك ، فقلبت الجملة وهي قوله « نصحت فدع ريبك ودع مهلك » فإذا مقلوبها « كلهم عدو كبير . عدو فتحصن » ا هـ .



## الألغاز والأحاجي والمعيات وغيرها

### الألغاز

هي جمع لغز ، وأصله الحفرة الملتوية يحفرها اليربوع والضب والفأر ، لأن هذه الدواب تحفر جحرها مستقيماً الى أسفل ثم تحفر في جانب منه طريقاً وفي الجانب الآخر طريقاً ، وكذلك في الجانب الثالث والرابع ، فإذا طلب بعضها البدويُّ بعصاه من جانب نفق من الجانب الآخر . ثم استعملوه في الإتيان بالعبارة يدل ظاهرها على غير الموصوف بها ويدل باطنها عليه ، وهي من قبيل الملاحن ، وتشارك المعنى والأحاجي أيضاً من حيث التعمية في جميعها وإيرادها على ذلك الوجه المقصود؛ إلا أن بينها فروقاً في الاعتبار والاصطلاح عند المتأخرين - كما تعرف ذلك فيما نسوقه منها وما نذكره من تاريخها - .

أما الألغاز فقد قال فيها السيوطي : هي أنواع ؛ ألغاز قصدتها العرب ، وألغاز قصدتها أئمة اللغة ، وأبيات لم تقصد العرب الإلغاز بها وإنما قالتها فصادف أن تكون ألغازاً . وهي نوعان : فإنها تارة يقع الإلغاز بها من حيث معانيها ، وأكثر أبيات المعاني من هذا النوع ، وقد ألف ابن قتيبة في هذا النوع مجلداً حسناً ، وكذلك ألف غيره ؛ وإنما سموا هذا النوع أبيات المعاني لأنها تحتاج الى أن يُسأل عن معانيها ولا تُفهم من أول وهلة ؛ وتارة يقع الإلغاز بها من حيث اللفظ والتركيب والإعراب ...

ثم أورد أمثلة من ذلك ، كالذي أنشده ابن سلام في كتاب الأضداد لأبي دؤاد الإيادي :

رُبَّ كلب رأيت في وثاق      جعل الكلب للأمير جمالا  
رب ثور رأيت في جحر نخل      وقطاة تحمل الأثقالا  
والكلب : الحلقة التي تكون في السيف ، والثور : ذكر النمل ،  
والقطاة [ . . . . ]

وكالذي أنشده الخليل لأبي مقدم الخزاعي :

وعجوز أتت تبيع دجاجا      لم يفرخن قد رأيت عضالا  
ثم عاد الدجاج من عجب الدهر فراريج صبية أطفالا  
وقال : يعني دجاجة الغزل ، وهي الكبة أو ما يخرج عن المغزل ،  
ويعني بالفراريج : الأقبية .

وكقول بعضهم من أبيات المعاني يصف نار القيرى :

وشعشاء غبراء الفروع منيفة      بها توصف الحسناء أو هي أجل  
دعوتُ بها أبناء ليل كأنهم      وقد أبصروها مُعطشون قد أنهلوا<sup>(١)</sup>

أنشدهما أبو عثمان الأشناداني وقال : يصف نارا جعلها شعشاء لتفرق  
أعاليتها ، كأنها شعشاء الرأس ، وغبراء يعني غبرة الدخان ، وقوله : بها  
توصف الحسناء ، فإن العرب تصف الجارية فتقول : كأنها شعلة نار ! وقوله :  
دعوت بها أبناء ليل ، يعني أضيافاً دعاهم بضوئها فلما رأوها كأنهم من  
السرور بها مُعطشون قد أوردوا إبلهم .

وكذلك أورد [السيوطي] مما وقع به الإلغاز من حيث اللفظ والتركيب  
والإعراب كقول بعضهم :

(١) من أبلغ ما قيل في وصف هذه النار وهو قريب مما نحن فيه ، قول الفرزدق :

ومستمنح طاري المصير كأنما      يساوره من شدة الجوع أولق  
دعوت بجمراء الفروع كأنها      ذرا راية في جانب الجو تحفق  
وإني سفية النار للمبتغي القري      وإني حلیم الكلب للضيف يطرق  
وكان الجاحظ يكثر التعجب والاستحسان من قوله : سفية النار وحليم الكلب .

أقول لعبد الله لَمَّا سَقَاؤُنَا ونحن بِوادي عبد شمس وهام

ومعناه : أقول لعبد الله لما سَقَاؤُنَا وَهَى ، أي ضعف ، ونحن بهذا الوادي :  
شِمٌ ، أي شِم البرق عسى يعقبه المطر ، وقرينة هامم لعبد شمس أبعدت فهم  
المرء ، وكتبت ( وَهًا ) بالألف للإلغاز .

ثم قال : وأما إلغاز أئمة اللغة فالأصل فيه ما قال أبو الطيب في كتاب  
مراتب النحويين عن الخليل ، قال : رأيت أعرابياً يسأل أعرابياً عن  
البلصوص ما هو ؟ فقال طائر ، قال : فكيف تجمع ؟ قال : البلنصى ،  
قال الخليل : فلو ألغز رجلٌ فقال : ما البلصوص يتبع البلنصى كان لغزاً .

وأورد السيوطي من هذا النوع قصيدة ضمنها أبو منصور بن الربيع  
ألفاظاً من غريب اللغة وأحضرها أبا أسامة اللغوي حين نزل بمدينة واسط  
على جهة الامتحان لمعرفته ، فكتب المسئول جوابها لوقته مقتضباً ، وهو  
جواب مطول يدل على اتساع في الحفظ والرواية . وقد وقفت على قصيدة  
مثلها أوردها الصلاح الكتبي في فوات الوفيات لضياء الدين القوصي المتوفى  
سنة ٥٩٩ وقال إنه وسما بالؤلؤة المكنونة واليتيمة المصونة في الأسماء  
المنكرة ثم ذكر أن شهاب الدين القوصي سرد شرحها في معجمه عقب كل  
بيت ، وهي قصيدة منكرة بما تحوي من اللفظ المنكر .

وقد ورد عن العرب الإلغاز بطريقة السؤال والجواب على النحو الذي  
ذهب إليه المتأخرون ، مثل ما ذكره علي بن ظافر في كتابه بدائع البدائه ،  
وهو أن عبيد بن الأبرص لقي امرأ القيس فقال له : كيف معرفتك بالأوابد؟  
قال : ألقى ما أحببت ، فقال عبيد :

ما حَبَّةٌ مَبِيَّتَةٌ أَحِبْتُ بِمِيتَتِهَا دَرْدَاءُ مَا أَنْبَتَتْ سَنَا وَأَضْرَاسًا؟

فأجابه :

تلك الشميرة تسقى في سنا بلها فأخرجت بعد طول المكث أكداسا

الى آخر المحاوره في كتاب البدائع ، وصفحة ٥٨ من كتاب المعنى .

وقد ابتدأ ولع المتأخرين بهذه الألفاظ من القرن السابع - وكانت الحاجة بها قبل ذلك قليلة - وذهبوا فيها كل مذهب ، حتى إن أبا الحسن بن الجيب المتوفى سنة ٧٤٩ رئيس كتاب الأندلس وأستاذ لسان الدين بن الخطيب قد أفرد لها في ديوان شعره باباً جاء فيه بأشياء بدیعة ؛ ولعل هذا الباب من الشعر الذي سماه ابن أبي الأصبغ في كتابه « تحرير التحبير » عندما عد المناحي التي يقول فيها الشعراء ، بباب السؤال والجواب ؛ وبلغ من ولعهم بها أنها كانت ترد على دواوين الإنشاء من الأقطار ؛ وكانوا يجرون فيها على طريقة العرب ، ويزيدون على ذلك الإشارة الى الملتزم به بالتصحيح والقلب والحذف والتبديل وما أشبهها مما هو من صناعة المعنى ، وجمّلوها بالتورية فزادوها إبداعاً حتى صارت من زينة الشعر ، كقول بعضهم في القلم :

وذي خضوعٍ راكمٌ ساجدٌ      ودمعهُ من جفنه جاري  
مواظبٌ « الخيس » لأوقاتها      منقطعٌ في خدمة الباري

وقول القاضي صدر الدين بن الآدمي في كشتوان ( كستبان ) :

ما رفيقٌ وصاحبٌ لك تلقا      ه معينا على بلوغ المرام  
هو للعين واضحٌ وجليٌ      وتراه في غاية « الإبهام »

والأمثلة من أنواع الألفاظ كثيرة في كتب الأدب ، ولكن من أبعدها غاية وأبعدها آية لغز الشيخ زين بن المعجمي وقد كتبه نثراً ، وهو قوله :

سألتك أعزك الله عن سائل لا حظ له في الصدقة ... الخ ( صفحة ٤٨٥  
خزانة الأدب ) .

ومن الألفاظ نوع عجيب ، وهو أن تلغز في اسم ويأتي في اللغز بما يطابق صورة أحرفه في الرسم من الأشياء ، وهو نادر جداً في المأثور عنهم ؛ ومنه أن الوليد الوقشي وأبا مروان بن عبد الملك بن سراج القرطبي اجتمعا ، وكانا فريدي عصرهما ... الخ ( ص ١٢٠ : المعنى والألفاظ ) .

أما ألفاظ النحاة والفقهاء وأهل الفرائض ومن ينتحلون الحكم والفلسفة

فأكثرها مشهور ولا حاجة الى البحث فيها ، لأن الفن أغلب عليها ، ولسنا في ذلك ؛ غير أنا نذكر عجيبة منه لم يتفق مثلها فيما وقفنا عليه من ذلك عبقاً أو أثراً ، وتلك أن المولى شمس الدين الغفاري من علماء دولة السلطان بايزيد في القرن الثامن وقفوا له على رسالة ضمنها عشرين قطعة منظومة ، كل قطعة منها مسألة من فن مستقل ، وقد غير فيها أسماء تلك الفنون بطريق الإلغاز امتحاناً لفضلاء دهره ، ولم يقدروا على تعيين فنونها فضلاً عن حل مسائلها . قال صاحب الشقائق النعمانية : وشرح هذه الرسالة ابنه محمد شاه وعين أسماء الفنون وبين المناسبة فيما ذكره من الألغاز وحل مشكلات مسائلها . ووجه العجب في ذلك مسفر فانظروا فيه ...

### الأحاجي

هي جمع أحمجية ، وهي اسم من الحاجة ، ويقال لها أدعية من المداعة قال في الصحاح ويقال : حجياك ما كذا وكذا ؟ وهي لعبة وأغلوطة يتعاطاها الناس بينهم ، قال أبو عبيد : هو نحو قولهم : أخرج ما في يدي ولك كذا ؛ وتقول أيضاً : أنا حجياك في هذا الأمر ، أي من يحجيك . وقال في تاج العروس : واحتجى : أصاب ما حوجي به ، قال :

فناصيتي وراحلي ورحلي ونسعا ناقتي لمن احتجاها

فالأحاجي على ذلك تشبه الأغاليط التي يسميها عامة مصر « بالفوازير » وهي بهذا المعنى أعم من الألغاز ، وإن كان الأصل في كلها واحداً .

وهذه الأحاجي غريزية في الفطرة على ما يظهر لي ، فإن الطفل الذي هو دليل الطبيعة الأولى في الإنسان يسأل عن أشياء كثيرة بوصفها والإشارة إليها ، فإذا سُئل هو بمثل ذلك كانت عنده أحاجي ؛ وبما يؤدي ذلك ورود بعض الأحاجي في أسفار العهد [القديم] كسفر القضاة ، وشيء مما يماثلها في الخرافات القديمة أيضاً (الميثولوجيا) ويكون تقرير هذه المعاني وإخراجها مخرج الموضوعات النفسية مما عمله الحكماء ملحقاً بالنرد والشطرنج وأمثالها .

وأقدم ما وصل إلينا من أحاجي العرب نوع كان يستعمل في اختبار  
 البداهة وقوة العارضة ، فيلقي السائل الكلمة المفردة والمسئول يُتمّها في كل  
 مرة حتى يحتبس لسانه أو يكل بيانه ، كهذا الذي نقلوه عن هند بنت  
 الحُسن وهي قديمة في الجاهلية أدركت المتلمس أحد حكام العرب الذي يقال  
 إنه أول من وصل الوصيلة وسبب السائبة - وهي امرأة ساجعة متبذّلة  
 كانت تحاجي الرجال ، الى أن مرّ بها رجل فسألته المحاجاة ؛ فقال: كاد...  
 فقالت : كاد العروس يكون الأمير ، فقال : كاد ... قالت : كاد المتعل  
 يكون راكباً ، فقال : كاد ... قالت : كاد البخيل يكون كلباً ، وانصرف ،  
 فقالت له : أحاجيك ، فقال: قولي، قالت: عجبت ... قال: عجبت للسخة  
 لا يحف ثراها ولا ينبت مرعاها، فقالت: عجبت ... قال : عجبت للحجارة  
 لا يكبر صغيرها ولا يهرم كبيرها ... ثم أفحمها بكلمة بذيئة فنجلت  
 وتركت المحاجاة .

ولكن الحريري المتوفى سنة ٥١٦ وضع نوعاً من المعنى استعار له اسم  
 الأحجية ، وهو أول من اخترعه وسماه كذلك ، وقد نظم منه في المقامة  
 السادسة والثلاثين عشرين أحجية ، وقال : وضع الأحجية لامتحان الألمعية ،  
 واستخراج الحبيّة الحفية ، وشرطها أن تكون ذات بمائلة حقيقية وألفاظ  
 معنوية ولطيفة أدبية فتمى نافيت هذا النمط ضاهت السقط ولم تدخل السفط اه.

وذلك النوع كلام مركب يستخرج منه لفظ بسيط لو جرىء انقسم الى  
 ما يعادل ذلك المركب في أجزائه ويرادفها في المعنى، كقوله في أسكوب(\*):

يا من تبوأ ذروة      في الفضل فاقت كل ذروه  
 ما مثل قولك: أعط إبريد      قأ يلوح بغير عروه ؟

لأن ( أعط ) يرادفها ( أس ) من الأوس [ وهو الإعطاء ] والإبريق بغير  
 عروة يرادفه الكوب .

(١) قلت : الأسكوب : الإسكاف ، أو القين .



وقول أبي الوفاء العرضي في صهباء :

يا مفرداً فيما جمعُ      وكاملاً فيما ابتدعُ  
بين لنا أجنبيةً      حاصلها: اسكتُ رَجَعُ؟

وقد فلا المتأخرون مركبات اللغة التي يُستخرج منها مثل هذه الألفاظ وجمعوا من ذلك كلمات كثيرة ، كقولهم : اطلبُ طريقاً ، في « سلسيل » ؛ وتُرَابٌ مُطِيرٌ ، في « البراغيث » ، لأن البَرَى هو التراب ، وقد أخذ بعض المعاصرين هذه الكلمة وجعلها هكذا « ابن عجب أمطِرا » يريد : البراء ابن عجب ، وهو صحابي .

[واقنفار] الأحاجي ما عرفتَ من هذا النمط خروج بها عما ليس له حد الى ما يُحَدُّ ، وبذلك تصفوا بها في هذه [البواد] وركبوا من أمرها كما رأيت الثورَ بعد الجواد .

وقد ذكر عبد القادر البغدادي صاحب خزانة الأدب أن أجل التصانيف المؤلفة في الألفاز والأحاجي كتاب الإعجاز في الأحاجي والألفاز ، تأليف أبي المعالي سعد الوراق الخطيري ، قال: وهو كتاب تكلل عن وصفه الألسن ، جمع فيه ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين . اهـ .

### المعنى

قدّمنا أن هذا الفنّ هو الأصل من حيث الصنعة ، وأن الملاحن والألفاز والأحاجي هي منه ، بعضها أعان عليه ، وبعضه أعان عليها ؛ ونحن موردون هنا قولاً يشمل الجميع توفيةً للفائدة ، وإنما الاتساع مادة الإشباع .

نقل البغدادي في خزانة الأدب عن صاحب الإعجاز في الأحاجي والألفاز في ذكر أسماء هذا الفنّ وعَوَدِها الى معنى واحد ، أن هذا الفنّ وأشباهه يسمّى المعايية ، والمعويص ، واللفز ، والرمز ، والمهاجاة ، وأبيات المعاني ، والملاحن ، والرموس ، والتأويل ، والكنيائية ، والتعريض ، والإشارة ، والتوجيه ، والمعنى ، والممثل . والمعنى في الجميع واحد ، وإنما اختلفت

أسماءه بحسب اختلاف وحوه اعتباراته ؛ فإنك إذا اعتبرته من حيث هو مغطى عنك سميته 'معمى' ، مأخوذ من لفظ العمى ، وهو تغطية البصر عن إدراك المعقول ، وكل شيء تغطى عنك فهو عمى عليك ، وإذا اعتبرته من حيث إنه 'ستر عنك ورؤس سميته مرموساً ، مأخوذ من الرمس ، وهو القبر ، كأنه قبر ودُفن ليخفى مكانه على ملتسمه ؛ وقد صنّف بعض الناس في هذا كتاباً وسمّاه الرموس ، وأكثره ركيك عامي ؛ وإذا اعتبرته من حيث إن معناه يثول إليك سميته التأويل ... الخ ( ص ١١٦ ج ٣ : خزانة الأدب الكبرى ) .

وقد ذكر جمال الدين بن نباتة في سرح العميون ، المتوفى سنة ٧٦٨ أن المعنى سمي في عصره : المترجم ، وأن الخليل واضع العروض هو أول من استخرجه ونظر فيه ، قال : وذلك أن بعض اليونان كتب بلغتهم كتاباً الى الخليل فخلا به شهراً حتى فهمه ، فقبل له في ذلك فقال : علمت أنه لا بدّ وأن يفتح باسم الله تعالى ، فبنيت على ذلك وقست وجعلته أصلاً ففتحته ، ثم وضعت كتاب المعنى اه .

وهو خبر لا نراه محتملاً إلا أن يكون ذلك اليونانيّ مستعرباً وافتتح كتابه حقيقة باسم الله على الطريقة العربية ، فلا يبقى ثمث إلا أن تُؤاتي الفطنة ويُسعف الإلهام . ونظير ذلك ما فعله شامبليون في قراءة الخط الهيروغليفي الذي كان على حجر رشيد بعد أن اعتمد ترجمة اليوناني في المقابلة ، وكان ذلك مبدأً لما بعده الى اليوم .

واستمرّ فن المعنى بعد الخليل أمثلة متفرقة لا تُفرد بالتدوين ولا تتشعب في المعالجة ؛ حتى كان الجاحظ يقول : ليس المعنى بشيء ؛ قد كان كيسان مستملي أبي عبيدة يسمع خلاف ما يقال ، ويكتب خلاف ما يسمع ويقرأ خلاف ما يكتب ، وكان أعلم الناس باستخراج المعنى ؛ وكان النظام على قدرته على أصناف العلوم لا يقدر على استخراج أخف ما يكون من المعنى .

وفي كلمة الجاحظ تحامل بيّن على الخليل ، وما كان النظام وهو ما هو

ليتفرغ لشيء كالمعمى حتى يكون عجزه حطاً من الفن ؛ ولا شك أن النظام كان عن سائر الفنون التي لم يزاوها أعجز منه عن المعنى .

وتجد شيئاً من تلك الأمثلة المتفرقة في بتيمة الدهر للثعالبي ، وقد ذكر في ترجمة أبي أحمد بن أبي بكر الكاتب ، أن أبا طلحة قسورة بن محمد كان من أولع الناس بالتصحيفات ، فقال له أبو أحمد يوماً : إن أخرجت مصححاً سأسألك عنه وصلتك بمائة دينار ، قال : أرجو أن لا أقصر عن إخراجه ؛ فقال أبو أحمد « في قشور هينم جمد » فوقف حمار قسورة وتبلد طبعه ، فقال : إن رأى الشيخ أن يهليني يوماً فعل ؛ فقال : أمهلتك سنة ؛ فحال الحول ولم يقطع شعرة ؛ فقال له أبو أحمد : هو اسمك : قسورة بن محمد ، فازداد خجله وأسفه ...

وبهذا تتبين أن المعنى لم يكن قد بلغ شيئاً مما انتهى إليه عند المتأخرين ، وأن المعروفين به كانوا على قلتهم إنما يُعرفون بفرط الرغبة وشدة الولوع ، لا كما يُعرف المتميز بالفن على وجه الإحاطة به والاختصاص فيه .

وما زال ذلك أمره حتى وقع الى الأعاجم فدونوه واستنبطوا قواعده ، وأنزلوه في رتبة بين الفنون والعلوم ؛ وأول من فعل ذلك منهم شرف الدين علي اليزدي الفارسي صاحب تاريخ ظفر نامه في الفتوحات التيمورية ، وقد أطلقوا عليه لقب الواضع له ، وتوفي سنة ٨٣٠ - قال قطب الدين المكي : وما زال فضلاء المعجم يقتفون أثره ويوسعون دائرة الفن ويتعمقون فيه الى أن أُلّف فيه المولى نور الدين عبد الرحمن الجامي المتوفى سنة ٨٩٧ صاحب شرح الكافية عشر مسائل ؛ فدوّنت وشرحت ، وكثر فيها التصنيف الى أن نبغ في عصره المولى مير حسين النيسابوري المتوفى سنة ٩١٢ فأتى فيه بالسحر الحلال وفاتى في تعمقه ودقة نظره سائر الأقران والأمثال ؛ كتب فيه رسالة تكاد تبلغ حد الإعجاز ... وارتفع شأن مير حسين بسبب علم المعنى مع تعمقه في سائر العقليات ، فصار ملوك خراسان وأعيانهم يرسلون أولادهم إليه ليقروا رسالته عليه ... وظهر بعدهما فائقون في المعنى في كل قطر بحيث لو جمعت تراجمهم لزادت على مجلد كبير .

وقطب الدين الموما إليه هو أوّل من ترجم طريقة المعنى عن الفارسية الى العربية في رسالة سماها كنز الأسماء في كشف المعنى ؛ وتلاه تلميذه عبد المعين بن أحمد الشهير بابن البكاء البلخي ، فألّف رسالة سماها الطراز الأسمى على كنز الأسماء .

وحد المعنى أنه قول يستخرج منه كلمة فأكثر بطريق الرمز والإيماء بحيث يقبله الذوق السليم ، ويشترط فيه أن يكون له في نفسه معنى وراء المعنى المقصود بالتعمية ؛ وقال القطب في الفرق بينه وبين اللغز : إن الكلام إذا دلّ على اسم شيء من الأشياء بذكر صفات له تميزه عما عداه كان ذلك لغزاً ، وإذا دل على اسم خاص بملاحظة كونه لفظاً بدلالة مرموزه سمي ذلك معنى ؛ فالكلام الدال على بعض الأسماء يكون معنى من حيث إن مدلوله اسم من الأسماء بملاحظة الرمز على حروفه ، ولغزاً من حيث إن مدلوله ذات من الذوات بملاحظة أوصافها ؛ فعلى هذا يكون قول القائل في كمن :

يا أيها العطار أعرب لنا عن اسم شيء قل في سؤمكا  
تنظره بالعين في يقظة كما ترى بالقلب في : نومكا

يصلح أن يكون لغزاً بملاحظة دلالاته على صفات الكمن ، ويصلح أن يكون في اصطلاحهم معنى باعتبار دلالاته على اسمه بطريق الرمز اه .

ولاستخراج المعنى أعمال مدونة لا تتعلق بالجهة التاريخية منه ولا بالجهة العلمية ، ولكنها تتعلق بالجهة العملية ، وإذا أخذنا في بسطها احتجنا أن نأتي بتأليف جديد في هذا الفن ؛ وهو ما لا يتسع له الغرض إلا إذا أحفينا في الطلب ، ولسنا نستطيع أن نحمل القلم على هذه السنة في سائر الفنون من علم الأدب .

### البنود والمستزاد

هي جمع « بند » فارسية معربة ، وقد ذكر في التاج أنها تطلق على الألفاظ والمعانيات ، على أن المراد بها هنا هذا النوع من السجع الذي بُنيت

جمه على التوقيع وقسمت الى أجزاء قصيرة من العروض تنتظم أوزاناً مختلفة فتكسبها شهاً من الشعر وهي ليست منه .

وتلك صناعة في النثر لا يُعرف مخترعها ، ولكن الكلام كله لا يخلو من بعض حمل تتفق مع هذا النوع اتفاقاً قريباً أو بعيداً ، ولا سيما بعض أسجاع العرب ، وأنت تعرف ذلك إذا تتبعت واستقصيت .

ولا جرم أن كلمة البند المطلقة على هذه الصناعة تدل على واحد من أمرين : إما أنها ملحقة في أصلها بالألغاز والمعيات ، وإما أنها من صنعة أحد أدباء العجم ، سواء احتذاها على مثال أو ابتدأها ؛ وهذا أرجح الرأيين ؛ لأنه لم يعرف من هذه الطريقة شيء قبل البنود الخمسة التي رصفها الشاعر المعروف بابن معتوق المتوفى سنة ١٠٨٧ وهي ملحقة بديوانه ، وقد جعل الأول في وصف الآيات السماوية ، والثاني في وصف الآيات الأرضية ، والثالث يتخلص فيه الى ذكر نعمة إرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام ؛ ثم ينتهي في الرابع والخامس الى مدح شخص مسمى ، وهذه المعاني كما ترى من أغراض الشعر ؛ فهي دليل على حقيقة الصنعة . ومن البند الأول قوله :

أيا الراقد في الظلمة ، نبه طرف الفكرة ، من رقدة الغفلة ، وانظر أثر القدرة ، واجلّ غلّس الحيرة ، في فجر سنّى الخبرة ، وارنّ الى الفلك الأطلس والعرش ، وما فيه من النقش ، وهذا الأفق الأدكن ، في ذا الصنع المتقن ، والسبع السماوات ؛ ففي ذلك آيات ، هدى تكشف عن صحة إثبات إله ، كشفت قدرته عن غرر الصبح ، وأرخت طرر النجج على نحر ضياه ، ففدا يفسل من مبسمه الأشنب ، في مضمضمتي نور سناه ، لَعَس الغيب ، واستبدلت الظلمة من عنبرها الأسود بالأشهب ، واعتاضت من مفرقها الحالك بالأشيب .

ومما يعجب له أن ابن معتوق ختم جميع بنوده الخمسة بالراء المفتوحة ، ولم يلتزم فيها غير ذلك مما يطرد في الجميع ، فكان ختام الأول «سراً وجهاراً» والثاني «مساءً ونهاراً» والثالث «بهاراً ونضاراً» والرابع «عداراً»

والخامس « مزاراً » وقد خفي علينا وجه الحكمة في ذلك ، إلا أن يكون من مقتضيات التوقيع ، فتكون تلك تلك القوافي قرارات للنغم .

ولم يضرب على قالب ابن معتوق إلا القليل ، كالأديب المسمى ابن خلفه البغدادي ، وهو من أدباء القرن الثاني عشر ، فقد عثر له بعضهم على بند من مثل ذلك أوله :

أيها اللائم في الحب ، دع اللوم عن الصب ، فلو كنت ترى الحواجب  
الزج ، فوق الأعين الدُّعج ... الى أن يقول في ختامه : لو ترانا كل بيدي  
لدى صاحبه العتب ، ويسدي فرط شوق كامن أضمره القلب سحيراً ، والتقى  
قمصناً ثوب عفاف قط ما دنس بالإثم سوى اللثم ، لأصبحت من الغيرة في  
حيرة ، وأعلنت بحب الشادن الأهيف سرّاً وجهاراً ...

قلت : وهذا عجيب أيضاً ، فإن لم يكن ابن خلفه من ضعفاء المقلّدين الذين يسقطون بكلمة ويطيرون بكلمة ، فإن الرأى المفتوحة أو أي قافية مطلقة ، تكون شرطاً في ختام هذه البنود ، وهو غريب .

ولا بد هنا أن نذكر نوعاً قريباً من البنود إلا أنه مستقل باسمه وصفاته ، وهو النوع المعروف بالمستزاد ، وأظن أن مأخذ البند منه ؛ إلا أن الذي أخذه أطلق الوزن وهو في المستزاد مقيد .

ولم يقع إلينا سبب هذه التسمية ولا أصلها ، غير أني وقفت في الشقائق النعمانية في ترجمة المولى حضربيك بن جلال الدين ، وكان يلقب بحراب العلم ، وهو من علماء السلطان محمد الفاتح ، على منظومة منه ، وهي :

يا من ملك الإنس بلطف الملكات ، في حسن صفات ... الخ ( ص ١٥٤ هامش الجزء الأول من ابن خلكان ) .

وكذلك أورد لأحمد باشا ابن المولى ولي الدين الحسيني المتوفى سنة ٩٠٢ قطعة أخرى في معارضة هذه ، وليس من عادة صاحب الشقائق أن يورد لمن يترجمهم شيئاً من مثل هذه المختارات ؛ فحرصه على إيراد القطعة الأولى ومعارضتها ، يدل على أن النوع غريبٌ عندهم .

## المعجم والمهمل

تقدم في مبحث الخط معنى الإعجام واشتقاقه وتاريخه ، والمراد بالمعجم والمهمل فيما سنأتي عليه الآن ، هذا النوع من النثر والنظم الذي يلتزمون فيه إهمال بعض الأحرف وإعجام الأخرى ؛ وأول من وضعه وبرّز فيه الحريري صاحب المقامات ، ولم يتكلفه أحد قبله فيما نعلم ، وإن كان كثيراً ما يتفق في منظوم الكلام ومنثوره ، لكن على غير اطراد ولغير قصد ، فالاطراد والقصد إذن هما معنى الاختراع فيه ؛ وليس يخلو الكلام بته من أحرف مهملة وأخرى معجمة ، لأن بالقسمين جماع مادته وقوام تركيبه .

والذي يدل على أن الحريري هو أول [ من ] قصد الى هذا النمط ، ما وطأ له به في المقامة السادسة ، إذ يقول عن لسان أبي زيد بعد أن تنقص القدماء لأنهم لم يُؤثّر عنهم إلا لتقادم الموالد ، لا لتقادم الصادر على الوارد : « وإني لأعرف الآن من إذا أنشأ وَثَى ، وإذا عبّر حَبْر ، وإن أسهب أذهب ، وإذا أوجز أعجز ، وإن بدّه شده ، ومق « اخترع خرع » .

ثم ذكر أن إنشاء رسالة حروف إحدى كلمتها يعتمها النقط ، وحروف الأخرى غير معجمة « عُضْلَةُ العُقْد ، وَمَحَكُّ المُنْتَقِد ، وأول هذه الرسالة : « الكَرَمُ ثَبَتَ اللهُ جَيْشَ سُعودِكَ يَزِين ، واللُّؤْمُ غَضَّ الدَهْرُ جَفَنَ حَسُودِكَ يَشِين » .

ثم عاد الى ذلك في المقامة السادسة والعشرين ، فساق رسالة سماها الرقطاء ، لأن أحد حروفها مهمل والآخر معجم ، وأولها : « أخلاق سِيدِنَا تُحَبِّ ، وَبِعَقْوَتِهِ يُلَبِّ » ، إلا أنه اعتبر المدّ في (لا) حركة ، كما اعتبر التاء المربوطة في الرسالة الأولى وما بعدها هاء .

وكذلك ذكر في المقامتين الثامنة والعشرين والتاسعة والعشرين خطبتين عربيتين عن الإعجام ؛ ثم عاود الكرة في المقامة السادسة والأربعين ، فجاء بأبيات مهملة الأحرف سماها العواطل ، وأبيات معجمة سماها العرائس ، وأبيات كلمة منها مهملة وأخرى معجمة وسماها الأخياف .

فهذه المصطلحات التي أطلقها أسماء ، وتقليه هذا النوع على الأوجه المختلفة ، والتوطئة التي استخرجناها من المقامة السادسة - كلها أدلة على أن الرجل واضع هذه الطريقة ؛ لأنك لا تصيب هذه العناية في مقاماته لغير هذا النوع مما عرف لمن قبله وإن كان له فيه زيادة ، كالنوع الذي لا يستحيل بالانعكاس .

وقد زاد الصفي الحلي في تقسيم نوع المعجم والمهمل فأتى بأبيات صدورها معجمة وأعجازها مهملة ، ولم يأت به الحريري في تقسيمه ؛ ووضع بعض المتأخرين نوعاً جديداً سماه عاطل العاطل ، واستخرج ذلك من أن بعض الحروف تكون مهملة ولكن أسماءها في المنطق ليست كذلك ، كالعين والميم ؛ وبعضها تكون مهملة الاسم والمسمى ، وهي ثمانية أحرف : الحاء ، والدال ، والراء ، والصاد ، والطاء ، واللام ، والواو ، والهاء ؛ فنظم منها أبياتاً كأذئاب الضباب . وإنما مدار هذه الصناعة على أن تكون في نسق الكلام لا في نسق العقدة ، ولولا ذلك لجاء الناس منها بالطم والرم ، أما أن يخرج إلى التعقيد ويؤخذ بها مأخذ الرثقى والطلاسم ، فلذلك اسم آخر ؛ والمخر إذا فسدت صار اسماً حلاً .

ومما أذكره بالإعجاب والاستحسان أن بعض علماء القرن الماضي ، وهو العلامة الشيخ عبد الغني الرافعي صادف من بعض الرؤساء فتوراً ، ثم انقلب إغفالاً فإمهالاً ، فعاتبه برسالة مهملة الأحرف ضمنها نظماً ونثراً ، ووقع عليها بهذا التوقيع « داع محروم » .

فكان إهمال أحرفها عتاباً فوق العتاب ، وحظاً من البلاغة لا يُعد في سحر الألسنة ولكن في سحر الأبواب .

وقد وصل بعضهم بنوع المهمل إلى أن جعلوه كتباً فمنهم من فسر به قصيدة في التصوف ، ومنهم من فسر به القرآن الكريم ؛ وما أقبح الفكاهة أن تكون جداً ، والفاكهة في بعض الطعام أن تكون كل الطعام ، وكذلك فعلوا ، ومثلهم في هذه المضيفة كثير .



## المتائم

هذا نوع من الجناس اخترعه الحريري وذكر منه أبياتاً في المقامة السادسة والأربعين سماها الأبيات المتائم ، لأنها مبنية على الألفاظ المزدوجة ، فكأنها جمع متمم ، وهي من النساء التي من عاداتها أن تلد توأمين ، وهي خمسة أبيات ، أولها :

زَيْنَتْ زَيْنَبُ بِقَدِّ يُقَدُّ وتلاه وَيَلَاهُ نَهْدُ نَهْدُ  
جُنْدُهَا جِيدُهَا وَظَرْفُهَا وَظَرْفُ نَاعِيسُ نَاعِيسُ بِحَدِّ يَحْدُ

وأخص صفات هذا النوع أنك إذا أصبته عاطلاً من النقط 'مغفلاً من الضبط' عُمي عليك وجه قراءته فلا تتبين من ذلك شيئاً ؛ وهو نفس الجناس الذي يسميه أهل البديع بالمصحف ويقولون في حده : إنه ما تماثل ركناه خطأ واختلفا لفظاً كقوله تعالى « والذي هو يُطعمُنِي وَيَسْقِينِ . وإذا مرضتُ فهو يَشْفِينِ » إلا أن هذا النوع قد أضيف على التصحيف فيه التحريف باختلاف الحركة ، فهو مصحف 'محرف' ؛ ولم يمثلوا له بغير قول الحريري .

و كنت وقفت على كلمات من هذا النوع لبعض الكتاب ولا أدري إذا كان متقدماً على الحريري أو هو متأخر عنه ، فلا بد أن يكون أحدهما أخذ عن الآخر ، وهذه عبارة ذلك الكاتب « غرّك عزّك فصار قصار ذلك ذلك فاختش فاحش فِعْلُكَ فِعْلُكَ بهذا تَهْدَا ، ولكن ما لا شك فيه أن الحريري أول من نظم في هذا النوع ثم وطئوا عقبه فيه ، وقد ذكر في كتاب الكنز المدفون المنسوب للسيوطي بعض أبيات ركيكة على تلك الطريقة أفسدها التحريف ولم تنسب هناك لأحد ، ومنها :

دَلَّهَا دَلَّهَا فَضَنْتُ قَضِيبُ وَاغْتَدَّتْ وَاغْتَدَّتْ بَعْتَبِ تَعِيبُ

ولم يدلل هذه الطريقة كالصفي الحلي ، فإنه جاء منها بأربعمائة فقرة نثراً وثمانين نظماً في عشرة أبيات ، وضَمَّنَ ذلك جميعه رسالته التي سماها التوئية « وذكرت في ديوانه التوئية خطأ » وقد أنشأها سنة ٧٠٠ ، وقال في سبب

ذلك: إنه أنشأها حين جرى - بحضرة المولى السلطان الملك المنصور نجم الدين أبي الفتح بن أرتق - ذكر أبيات الحريري وعجز المتأخرين عن هذه الصناعة نظماً ونثراً ، قال : وكنت أوثر من قبل أن أعرفه طرفاً من صورة واقعتنا بالعراق التي أوجبت انتزاحي ، وأعرض بطلب خدمة ببلده مدة مقامي عندهم في « إنشاء بعض الرسائل المعجزة » فعندها أنشأت هذه الرسالة في تلك الصناعة وضمنتها ذكر ذلك كله ولقب السلطان لزواله الشبهة عنها... اهـ

وأول هذه الرسالة :

قَبْلَ قَبْلَ يَرَاكَ ثَرَاكَ      عبد عند رَخَاكَ رَجَاكَ

ولا ينظر في هذا النوع إلا إلى محض الصنعة ، فهو بعيد من التصفح والانتقاد فيما سوى ذلك ؛ وما أرى الكاتب يحمل منه إلا على مثل مشتبك الأسنة في ساحة الأوراق ، وهو إذا ظفر بعد ذلك كان الفتح الذي أقل ما يقال فيه إنه استغلاق .

وما دمنا في ذكر الصفي ومخترعاته ، فإن لهذا الأديب كتاباً سماه الدر النفيس في أجناس التجنيس ، اخترع فيه نوعاً مشكلاً ، وذلك أن يجعل أركان التجنيس ثلاثة في صدر البيت وثلاثة في عجزه ، وهو نوع لم يأت به غيره ، لأنه ألفاظ معدودة ، وقد نظم في ذلك أبياتاً مطلعها ( ص ٣٩٩ : ديوان الحلي ) :

سَلْ سَلْسَلَ الرِّيقِ : لِمَ لَمْ يَرَوْا حَرّاً ظَمّاً  
بَلْ بَلْبَلِ الْقَلْبَ لَمَّا زَادَهُ أَلَمّاً



## صِنَاعَاتٌ مُخْتَلِفَةٌ

لسنا نزعم أننا بما أتينا على بيانه من هذه الصناعات قد استوفينا هذا البحث وتركناه في حكم المفروغ منه ، ولكننا إنما جئنا بأشياء استخرجناها من زوايا النسيان ، ونفضنا عنها غبار القِدم ، وأحصيناها من صحف التاريخ إحصاءَ الحسنات والسيئات ؛ وزوايا النسيان مظلمة ، وغبارُ القِدم متجحّر ، وصحفُ التاريخ لا تُعدّ ؛ وما عسى أن يسمّى هذا العناية الناصب إلا بحثاً ؛ بل ما عسى أن يكون البحث غير ذلك ؛ فإذا كانت الأيام قد طوت بعض الصناعات في صدور أصحابها ، أو ذهبت النكبات بآثارهم ، أو قطع الإهمال عرق التاريخ في بعض هذه الآثار حتى أصبح لا يعرف أصله ، ولا كيف نشأ وتقلب - فليس ذلك مما يلحق المؤرخ تبعه التقصير فيه ؛ إذ هو إنما يستنطق الآثار ، ويتعلق بالأخبار ؛ فأما أن ينقب السماء ويدخل منها إلى الماضي ويبحث فيه عن الغيب ويحدس [ويتكهن] ، فذلك شيء غير التاريخ .

ومن أجل هذا رأيت قلبي أصبح يطلب الوقوف بعد أن وصل إلى الصحيفة التي لا يجري فيها إلا قلم الغيب . وسنشير فيما يلي إلى ما بقي من الصناعات التي انقطع دونها التاريخ وكانت دليلاً على غيرها مما انقطع عنا بتاريخه ، إن كان ثمتَ من هذا شيءٌ أو أشياء .

### المشجر

هو نوع من النظم يُجمل في تفرعه على أمثال الشجرة - وسمّي 'مشجراً' لاشتجار بعض كلماته ببعض ، أي تداخلها ، وكل ما تداخل بعض أجزائه

في بعض فقد تشاجر - وذلك أن يُنظم البيت الذي هو جذع القصيدة ، ثم يُفَرَّع على كل كلمة منه تنمة له من نفس القافية التي نُظِمَ بها ، وهكذا من جهتيه اليمنى واليسرى ، حتى يخرج منه مثلُ الشجرة ، وإنما يشترط فيه أن تكون القطع المكلمة كلها من بحر البيت الذي هو جذع القصيدة ، وأن تكون القوافي على رويِّ قافيته أيضاً ؛ وهو متأخر عن القرن الحادي عشر ، إذ مر بك في مبحث التشطير أن أدباء ذلك القرن كانوا يسمونه بالمشجر هذا النوع المعروف اليوم بالمطرز ، ولا تحضرنا في ذلك أمثلة جيدة نرضاها للتمثيل .

ولعل أخذ هذه التسمية مما يسمونه بشجرة النسب ؛ إذ هما متشابهان في الوضع متفقان على الجملة في الترتيب ، وهذه الكلمة ( شجرة النسب ) كانت مستعملة في القرن الرابع وما بعده ، بدليل وجود بعض كتب في الأنساب 'مسمّاةً بهذا الاسم ( راجع فهرست المكتبة الخديوية ) .

غير أن لهذا النوع من الصناعة أصلاً قديماً ؛ إذ عثر بعض أدباء البغداديين في كتاب نيل السعود في ترجمة الوزير داود ، وهو مجموع خطي لم يذكر فيه اسم جامعته كتب سنة ١٢٣٢ ويحتوي بعض قصائد في مدح هذا الوزير ، ثم منتخبات أخرى لشعراء مختلفين ، ومنها بيت شعر منسوب لبديع الزمان الهمداني ، وهو من نوع المشجر بعينه ، إلا أنه يتفرّع من جهة واحدة لا من جهتين كما اصطلاح عليه المتأخرون ... ( ص ٣٨٦ ج ٧ : المجلد الثاني من المقتبس ) .

### المقطع والموصل

ومعنى الأول أن تكون كلمات المنظومة كلها منفصلة الأحرف رسماً ، وهو بخلاف الثاني ، فإن جميع أحرفه ينبغي أن تكون متصلة بعضها [ببعض] في كل كلمة ؛ ولم نر من ذلك شيئاً لغير الصفي الحلي ، فربما كان أول من خصصه بالنظم وربما كان متابعاً ، وعلى أيها فذلك من عبث الصناعة ؛ ومثال الموصل قول الصفي :

إذا زار داريَ زَوْرٌ ودودٌ أودّ وأورده ورد ودي

وهي ثلاثة أبيات تدور في جملتها على هذه الأحرف لأن الحروف التي  
 ترسم منفصلة معدودة ؛ ومثال الثاني قوله :  
 سَلُّ مُتَلْفِي عَطْفًا عَسَى يَتَّعَطَفُ فَلَقَدَ قَسَا قَلْبًا فَمَا يَتَلَطَّفُ  
 وجميعها سبعة أبيات ، وكل ذلك في ديوانه .

### المصحفات

هذا نوع يلحق بالصناعات ، لأن المدار فيه على القصد والتعمل ، فتجيء  
 بالألفاظ توهم المدح ، فإذا صحفت خرجت ذمًا وقدحًا ، كما تقول : هو  
 كاتب أمين فإذا صحفته قلتَ هو كاذب أفين ، مثلاً ؛ فذلك كالهجو في  
 معرض المدح الذي يعرفه البديعيون ، وهو من مستخرجات ابن أبي الإصبع ،  
 ولكن ذلك في الألفاظ بما يدل ظاهرها وباطنها باعتبار مواقعها في  
 الكلام لا غير .

وقد ذكر صاحب الشقائق ( ص ٣٢٨ ) في ترجمة المولى شمس الدين  
 المتوفى في حدود التسعمائة ، وهو من أفراد علماء الموسيقى ، أنه كان ينظم  
 القصائد العربية والفارسية والتركية ويمدح بها الأكبر ويرسلها إليهم ، وكل  
 قصيدة إذا صحفت من أولها الى آخرها يحصل منها هجو .

وقد ينظمون الأبيات إذا قرئت صدورها وأعجازها كانت مدحاً ، فإذا  
 أفردت الصدور خرجت منها أبيات في الذم ؛ [ وأبياتاً ] أخرى إذا قرئت  
 معكوسة الألفاظ كانت هجاءً وهي في طردها مديح .

ولم نعتز من نوع المصحفات على شيء من النظم ، بل لم نهتد الى أنه من  
 الصناعات إلا بكلمة صاحب الشقائق التي أوردناها ، وهو رجل كان لا يحفل  
 بحياة التاريخ فأماته في كتابه ؛ لأنه قلما ترجم إلا الأسماء والصفات الجامدة ،  
 فكان كتابه بعد عصره إنما يترجم الموتى للموتى ، فإنه لم يذكر في ترجمة  
 شمس الدين - على أنه من أفراد الموسيقى ومن عجائب المصنعين - إلا أسطراً ،  
 وكذلك شأنه في غيره ، وأين من ذلك حقيقة التاريخ ؟



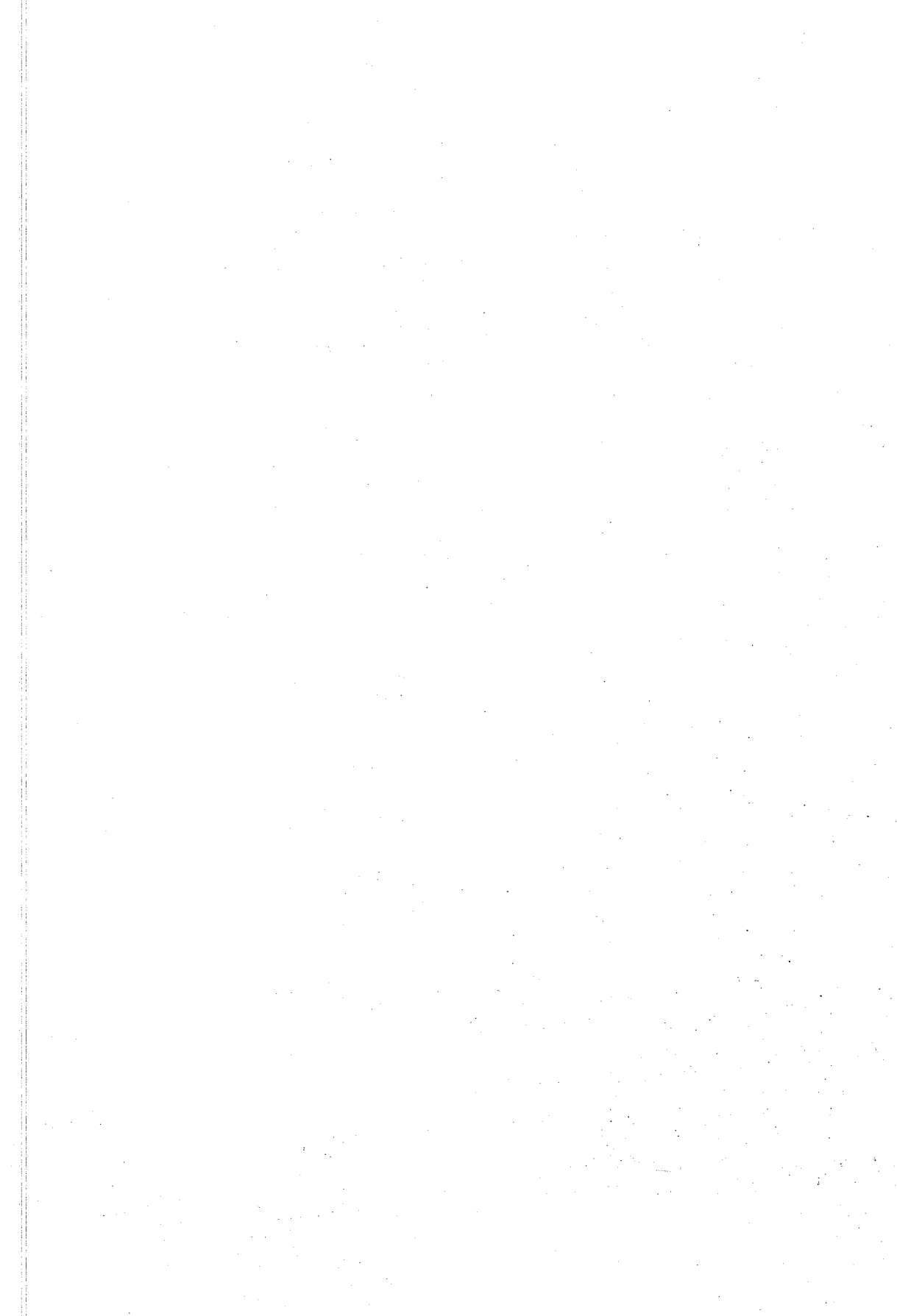


## تذليل

إلى هنا انتهيت من ترتيب ما وجدتُ بخط المؤلف رحمه الله من كتاب « تاريخ آداب العرب » وكان التدبير أن يكون بعد هذا الفصل فصول وأبواب ، ولكنني لم أعتز بين ما خلفت من أوراقه على غير ما قدمت ؛ فلعله وقف من تأليفه عند هذا الحد ، أو لعلّ ورقاتٍ منه قد أبلأها القيد وبعثرها الإهمال ؛ وقد انتهى تحقيقي إلى أن المؤلف - رحمه الله - قد نفّض يده من هذا البحث قبل وفاته بأكثر من ربع قرن، ثم لم يرجع إليه ولم ينظر فيه بعد ذلك .

وكان الفراغ منه في مساء السبت ١٨ ربيع الآخر سنة ١٣٥٩ - ٢٥ من مايو سنة ١٩٤٠ بعد انتقال مؤلفه إلى جوار ربه بثلاث سنين وخمسة عشر يوماً . رحمه الله وأجزل ثوابه .

محمد سعيد العريان





## الفهرس

صفحة

٥	صفحة من الكتاب بخط المؤلف
٧	مقدمة الطبعة الأولى
١٥	الباب الخامس : تاريخ الشعر العربي ومذاهبه
١٧	الأقوال في أولية الشعر العربي تحقيق هذه الأولية .
٢٢	نشأة الشعر الباعث على اختراع الشعر . أول من قصّد القصائد . الرجز والقصيد .
٣٠	الشعر في القبائل بيوتات الشعر والمترقون فيه جاهلية وإسلاماً .
٣٤	سبأ الشعراء
٣٧	حالة الإنشاد
٣٩	ألقاب الشعراء
٤٢	المقلثون والمكثرون
٤٦	الارتجال والبديهة والروية
٥١	النبوغ وألقابه في الشعراء

٥٤	الاختراع والاتباع الاتباع وأنواعه .
٥٨	شياطين الشعراء
٦٢	طبقات الشعراء
٦٤	الشاعرات
٧٤	تنوع الشعر العربي وفنونه
٨٠	الهجاء
	الهجاء في القبائل . الهجاء في الشعراء . مشاهير الهجائيين .
٩٤	المديح
	شعر الكدية أو الشعر الساساني .
١٠٢	الفخر والحماسة
١٠٦	الثناء
١١١	الغزل والنسيب
١١٩	الشعر الوصفي
١٢٦	الشعر الحكيم
	الشعر الإلهي
١٣٤	الشعر الأخلاقي والمبادئ الاجتماعية
١٣٨	الشعر الهزلي
١٤٤	الشعر القصصي
١٥٢	الشعر العلمي
١٥٧	الفنون المحدثّة من الشعر
١٥٨	الموشح
	اختراعه . سبب اختراعه . الموشح الملحون . بعض أنواع الموشح . نوابغ الوشّاحين . كتب التوشيح .

- ١٦٧ الدوبيت  
١٦٩ الشعر العامي والمواليا  
١٧٢ الزجل  
فنون أخرى . الأصمعيات والبدوي . كان وكان والقوما .  
الحماق . العامي والغريب .

١٨١ الباب السادس: في حقيقة القصائد المعلقة ودرس شعرائها

- ١٨٣ السبع الطوال  
١٩٠ امرؤ القيس  
طويلة امرئ القيس . شاعرية امرئ القيس وأسباب شهرته .  
شعر امرئ القيس . استعاراته . تشبيهاته . تنمة الانتقاد .  
المنازعة بين امرئ القيس وعلقمة . قصيدة امرئ القيس .  
قصيدة علقمة بن عبدة .

- ٢٢٥ طرفة بن العبد  
مذاهبه في الشعر  
٢٣٦ زهير بن أبي سلمى  
مختاراتها وسببها . شعره .  
٢٤٦ خشونة الشعر الجاهلي

٢٥١ الباب السابع: أدب الأندلس

- ٢٥٣ الأدب الأندلسي  
الأدب وتأثيره بالتاريخ السيامي . القسم الأول : الأندلس  
من العراق . عربية الأندلس . أولية الأدب والعلوم .  
٢٦٣ الأدب في القرن الثالث

٢٦٧

الحضارة الأندلسية

أدباء ملوك الأندلس . مبلغ عنايتهم بالعلم والأدب .

٢٧٩

القرن الخامس وملوك الطوائف

عصر الوزراء .

٢٨٥

القرن السادس وما بعده

الأدب ودولة الموحدين . نكبة الفيلسوف ابن رشد . بعد

القرن السادس .

٢٩٦

الشعر الأندلسي والتلحين

٢٩٨

الشعراء الفلاسفة

٣٠٢

أدبيات الأندلس

٣٠٤

علوم الأندلسيين

العلوم الفلسفية . مقاومة الفلسفة العربية الطبيعية في أوروبا

وانتشارها . آخرة الفلسفة العربية .

٣١٣

العلوم الأدبية

كتاب سيبويه عندهم . علماء العربية والأدب . المائة السادسة .

المائة السابعة . نكت الأندلسيين . المائة الثامنة . كلمة

في تراجم هذا البحث .

٣٢٦

مصرع العربية في الأندلس

اليهود بالأندلس وترجمة كتب الفلسفة . ترجمة الفلسفة العربية

في أوروبا .

٣٣٣

تنصّر العربية

ديوان التفتيش . آخرة العربية .

الباب العاشر : التأليف وتاريخه عند العرب

٣٣٩

ونوادير الكتب العربية

٣٤١

كتب الشعر

كتب المختارات . الحماسة . مختارات أخرى .

الباب الحادي عشر : الصناعات اللفظية

٣٥١

التي أولع بها المتأخرون

٣٥٣

الصناعات

٣٥٨

لزوم ما لا يلزم

الشيئية والسينية

٣٦٢

القوافي المشتركة

٣٦٥

القصائد المعرّاة

٣٦٧

محبوك الطرفين

٣٧٠

ذوات القوافي

٣٧٤

القوافي الحسية

٣٧٧

التاريخ الشعري

٣٨٤

التخميس والتشطير وما إليهما

٣٨٩

ما يقرأ نظماً وشعراً

٣٩٢

نوع من حل المنظوم

٣٩٥

ما لا يستحيل بالانعكاس

٣٩٧

الملاحن

صفحة

٤٠٣

الألغاز والأحاجي والمعميات وغيرها  
الألغاز . الأحاجي . المعمي . البنود والمستزاد .  
المعجم والمهمل . المتائم .

٤١٩

صناعات مختلفة  
المشجر . المقطع والموصل . المصحفات .

٤٢٢

تذييل